

الحسيناء
عبد القادر بن الدائم

الامام
أبو حامد الغزالي

سيرة النيان للشيخ



ملحق

أحياء العلماء الذين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
المتوفى في ٥٠٥ هـ

يشتمل هذا الملحق على :-

١ - تعريف الأحياء بفضائل الإحياء :

للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس

٢ - الإجملاء عن إشكالات الإحياء :

للإمام الغزالي : ردّه اعتراضات أو ردها بعض المعاصرين له

على بعض مواضع من كتابه « أحياء علوم الدين » .

٣ - عوارف المعارف :

للمعارف بالله تعالى : الإمام السهروردي.

المكتبة التجارية الكبرى

كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي وفق لنشر المحاسن وطبها في أحسن كتاب ، وجعل ذلك قوة لآعين الأحياء وذخيرة ليوم المآب . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيأ بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوى الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ما أشرفت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت همه روحانية مصنفه الولي الموهوب ، إلى إسعاف ملازى ، طالعته وعييه بالمطلوب .

وبعد : فإن الكتاب العظيم الشأن المسمى بإحياء علوم الدين - المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين المشايخ العارفين ، للنسوب إلى الإمام التزالي رضى الله عنه عالم العلماء وارت الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتجهدين ، مقتدى الأئمة ، مبين الحل والحكمة ، زين الملة والدين ، الذي باهى به سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء ورضى عن التزالي وعن سائر العلماء المجتهدين ، لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدر ، ليس له نظير في باب ولم ينسج على منواله ، ولا سمحت فرقة بمثاله ، مشتملا على الشريعة والطريقة والحقيقة كاشفا عن الغوامض الخفية مبينا للأسرار الدقيقة : وأيت أن أضع رسالة تكون كالنوعان والدلالة على صباغة من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه وربته على مقدمة ، ومقصد ، وغاية . فالقصد : في عنوان الكتاب . والقصد : في فضائله وبيض المدايح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطن بسببه فيه . والغاية : في ترجمة المصنف رضى الله عنه وسبب وجوه إلى هذه الطريقة .

المقدمة : في عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة ، والظاهرة قسبان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق ، والباطنة أيضاً قسبان : ما يجب تركية القلب عنه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات الحمودة . وقد بنى الإمام التزالي رحمه الله كتابه « إحياء علوم الدين » على هذه الأربعة الأقسام فقال في خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع . ربع العبادات ، وربع المعاديات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب العلم : كتاب قواعد العقائد . كتاب أسرار الطهارة . كتاب أسرار الصلاة . كتاب أسرار الزكاة . كتاب أسرار الصيام ، كتاب أسرار الحج . كتاب تلاوة القرآن . كتاب الأذكار والدعوات . كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع المعاديات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل . كتاب آداب النكاح . كتاب آداب الكسب . كتاب الحلال والحرام . كتاب آداب الصحة . كتاب العزلة . كتاب آداب السفر . كتاب آداب السماع والوجد . كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كتاب أخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب . كتاب رياضة النفس . كتاب آفة الشهوات : البطن والفرج . كتاب آفة اللسان . كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم

المال والنخل ، كتاب ذم الجاه والرياء ، كتاب الكبر والعجب ، كتاب الغرور .
وأما ربيع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة . كتاب الصبر والشكر . كتاب الخوف والرجاء .
كتاب الفقر والزمرد . كتاب التوحيد والتوكل . كتاب المحبة والشوق والرضا . كتاب النية والصدق والإخلاص .
كتاب المراقبة والمحاسبة . كتاب التفكير . كتاب ذكر الموت .
ثم قال رحمه الله : فأما ربيع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم
المعامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أحمل في الفقهيات .
وأما ربيع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي
ما لا يستغنى المتدين عنها .

وأما ربيع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتركه النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر
في كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يترب ، ثم العلامات التي
بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .
وأما ربيع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال اللطيفين والصديقين التي يتقرب بها
العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، ثم ثمراتها التي منها تستفاد ، وعلامتها
التي بها تعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصد : في فضل الكتاب المشار إليه

وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لا تخص ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها الاستقصى ، جمع الناس مناقب فقصر وأما قصرها ،
وغاب عنهم أكثر ما أبصروا ، وعز من أفرادها فيا علت بتأليف ، وهي جذيرة التصنيف ، غاص مؤلفه ورضى الله
عنه في بحر الحقائق ، واستخرج جواهر اللعالي ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساتين العلوم فاجتني ثمارها بعد
أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء اللعالي فلم يصطف من كواكبها إلا السيار ، وجلبت عليه مرائس أسرار معاني
فلم ترق في عينه منن إلا بادية التنصرة ، جمع رضى الله عنه فأوعى ، وسعى في إحياء علوم الدين فشكر الله له ذلك
المسمى ، فقه دره من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لثقات الفضائل محرر فريد ، لقد أبدع في أروع كتابه من الفوائد
الشوارد ، وقد أغرب فيا أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيا أقاد فيه وأمل ، بيد أنه في العلوم صاحب
القدح المعلي ، إذ كان رضى الله عنه من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيات لا يأتي الزمان بمثله • إن الزمان بمثله لشحيح

وماعصيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشات الفضائل ، وأخذ برقاب الحماد ، واستولى على
غايات المناقب ، ففسرته في قوارة العلم والعمل والعلا والفهم والذكاء ، أصلاها تاب وفرعها في السأ ، مع كونه رضى
الله عنه ذا الصدر الرحيب والفرجة الناقية والدرابة الصائبة ، والنفس السامية والهمة العالية . ذكر الشيخ عبد الله
ابن أسعد اليافعي رحمه الله عليه أن الفقيه العلامة قطب الدين إسماعيل بن محمد الحضري ثم البني سئل عن تصنيف
الغزالي فقال من جملة جوابه : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد الانبياء ومحمد بن إدريس الشافعي سيد الأئمة
ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي سيد المصنفين . وذكر اليافعي أيضا أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حزم
الفقيه المشهور المغربي كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين وكان مطلقا مسموع الكلمة ، فأمر بجمع
ما نظره به من نسخ الإحياء وم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبي

صلى الله عليه وسلم فيه ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلما أقبل ابن حزم قال الغزالي : هذا خصي يارسل الله فإن كان الأمر كما زعمت أتيت إلى الله ، وإن كان شيئاً حصل لي من يرتكك وأتباع سنتك فغفلت حتى من خصي ، ثم تناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء ، فنصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ورقة ورقة من أوله إلى آخره ثم قال : والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصديق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده . ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق إنه شيء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه علي بن حزم عن القميص وأن يضرب ويؤبد حداً لمفترى ، فجرد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضي الله عنه وقال : يارسول الله لعله ظن فيه خلاف سنتك فأخطأ في ظنه ، فرضى الإمام الغزالي وقبيل شفاعته الصديق ، ثم استيقظ ابن حزم ومأثر السياط في ظهره ، وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط وهو يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكربمة على ظهره فغوى وشفي بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ففتح الله عليه فيه ونال المعرفة بالله وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله تعالى .

قال اليافعي : روي ذلك بالأسانيد الصحيحة فأخبرني بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن الشيخ الكبير القطب شهاب الدين أحمد بن الملق الشاذلي عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله ياقوت الشاذلي عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبي العباس المرسي عن شيخه الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبي الحسن الشاذلي قدس الله أرواحهم وكان معاصراً لابن حزم قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : ولقد مات الشيخ أبو الحسن ابن حزم رحمه الله يوم مات وأثر السياط ظاهر على ظهره . وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله وكان أدرك الإمام الغزالي واجتمع به قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الأسفراييني يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحدي زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاذلي بمكة المشرقة يقول : دخلت المسجد الحرام يوماً فطرأ على حال وأخذني عن نفسي ، فلم أفكر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي ، فوقفت على جني الأيمن تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة ، وكنت أطرده عن نفسي النوم ، فأخذتني سنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في أكل صورة وأحسن زى من القميص والعباءة ، ورأيت الأئمة الشافعي ومالك وأبا حنيفة وأحمد رحمهم الله يمرضون عليه مذاهم واحداً بعد واحد ، وهو صلى الله عليه وسلم يقرمهم عليها ، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بطرده وإهانته ، فتقدمت أنا وقلت : يارسول الله ، هذا الكتاب - أعني إحياء علوم الدين - ممتدني ومعتقد أهل السنة والجماعة ، فلو أذنت لي حتى أقرأ عليك فأذن لي فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد :

بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة ، حتى انتهت إلى قول الغزالي : وأنه نسأل بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس ؛ فرأيت البشاشة في وجهه صلى الله عليه وسلم . ثم التفت وقال : أين الغزالي ؟ وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : ها أنا ذا يارسول الله ، وتقدم وسلم ، فرد عليه السلام ، عليه الصلاة والسلام ، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلاً ويتركبها ، وما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشد سروراً بقرأة أحد عليه مثل ما كان يقرأ في عليه الإحياء ، ثم انتهت الدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان تقر بصلى الله عليه وسلم لمذاهب أئمة السنة ، واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقريرها لعمرة من الله عظيمة ؟ ومنه جسيمه ، نسأل الله تعالى أن يبيننا على سنته ويوفقنا على ملته ، آمين .

(فسل) أتني على الإحياء عالم من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارف الأنام : بل جمع أقطاب وأفراد ، فقال

فيه الحافظ الإمام الفقيه أبو الفضل العراقي في ترجمته : إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزح إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتأخر في اللغة بحيث يتملذد الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه على الظاهر والباطن ، وصرح بمناها في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من اللفظ أوسطه ، ومقتديا بقول علي كرم الله وجهه : خير هذه الأمة القضا الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم النخال ، إلى آخر ما ذكره مما الأول بنافى هذا الخطل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر بحاسن الإحياء ليظهر للمحب والمبغض رشده وعييه . وقال عبدالغافر الفارسي في كتاب الإحياء : إنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها . وقال فيه التروى : كاد الأحياء أن يكون قرآنا . وقال الشيخ أبو محمد الكازروني : لو بحيث جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء . وقال بعض علماء المالكية : الناس في فضل علوم الغزالي أي والإحياء جماعها ، كما سيأتي أنه البحر المحيط . وكان السيد الجليل كبير الشأن تاج العارفين وقطب الأولياء الشيخ عبد الله البیدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه تقلا روى عنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه وأجاردته وأتدبره فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفاهيم غزيرة غير التي قبلها . ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحداني على كتاب الإحياء بمائتي عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه ، وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه . ومن كلامه رضي الله عنه : عليكم يا إخواني متابعة الكتاب والسنة ، أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية ، خصوصا : كتاب ذكر المرات ، وكتاب الفقر والزهدي ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس . ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولا وآخرها وظاهراً وباطناً ، وفكراً واعتباراً واعتقاداً ، وشرح الكتاب والسنة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه : وبعد فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين ، وبقية المجتهدين ، حجة الإسلام الغزالي ، في كتابه العظيم الشان الملقب : أعجوبة الزمان ، إحياء علوم الدين ، الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة : ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين فهو موضع نظر الله وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله ومحبة رسول الله ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الدنيا والآخرة وصار عالمًا بالملك والملكوت . ومن كلامه الوجين العزيز : لو بيت الله الوثق لما أوصوا الأحياء إلا بمائتي الإحياء . ومن كلامه : اعلوا أن مطالعة الإحياء تمض القلب النافل في لحظة كخضرة سواد الحبر بوقوع الزاج في المصص والماء ، وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن . ومن كلامه : أجمع العلماء المارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ومحبة كتبه ؛ فإن كتب الإمام الغزالي لباب الكتاب والسنة ، ولباب المقول والمنقول ، والله وكيل على ما أقول . ومن كلامه : أنا أشهد سرا وعلاية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين . ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق أهل الظاهر والباطن ، فعليه بمطالعة كتب الغزالي خصوصا إحياء علوم الدين ، فهو البحر المحيط . ومن كلامه : اشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالي فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالي وخصوصا البحر المحيط إحياء أعجوبة الزمان ، ومن كلامه : لطف معاني معنوى القرآن ، ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الانقياد ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية مثل العارفين والملازمة ، بل جميع سرحا قاتق الكائنات والمعقولات وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورين لا شيء ما أرفع وأنفع وأجيب وأبقى وأقرب إلى رضا الرب كتابية الغزالي ومحبة كتبه ، وكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المقول والمنقول ، وأنفع يوم يفتخ إسرائيل في الصور ، وفي يوم تقرأ التافور ، والله وكيل على ما أقول ، وما الحياة الدنيا لإمتهاع التروى . ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين فيه جميع الأسرار ،

وكتاب بداية الهداية فيه التقوى ، وكتاب الأربعين الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب مناج المابدين فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة في الفقه فيه النور . ومن كلامه : السركلة في اتباع الكتاب والسنة : وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة في كتاب إحياء علوم الدين المسمى أعجوبة الزمان . ومن كلامه : يخرج من طالع إحياء علوم الدين أو كتبه أو سمعه . وكلامه رضى الله عنه في تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالي وكتبه ، والحث على العمل بها خصوصا إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدي والدي الشيخ العارف بالله تعالى شيخ ابن عبد الله العبدروس رضى الله عنه يقول : إن أمهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله في الغزالي وسميته (الجوهر اللتالي ، من كلام الشيخ عبد الله في الغزالي) فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقني الله لذلك ، تحقيقا لرغائه ورجاء أن يتاولي دعاء الشيخ عبد الله رضى الله عنه ، فإنه قال غفر الله لمن يكتب كلامي في الغزالي ، وتاهيك ببشارة في هذه العبارة التي برزت من ولي عارف وقطب مكاشف لا يحجاز في مقال ولا ينطق إلا عن حال ، وفي هذا من الشرف للغزالي وكتبه ما لا يحتاج معه إلى مزيد (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فإن العظيم لا يظلم في عينه إلا عظيم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وإذا تصدى العبدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ووصف ، والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء في زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتى إن بعض العوام حصلها ما رأى من تربيته فيه والزم أخاه الشيخ عليا قراءته فقرأه عليه مدة حياته نحسا وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضياقة عامة للقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ عليا الأرم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته ، نغمته عليه أيضا نحسا وعشرين مرة ، وكان ولده سيدي الشيخ أبو بكر العبدروس صاحب عدن التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لا أترك تحصيل الإحياء أبدا ما عشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ . وكذلك كان سيدي الشيخ الرالد شيخ ابن عبد الله ابن شيخ ابن الشيخ عبد الله العبدروس رضى الله عنه مددنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع ، وأمر بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل في ختمه ضياقة عامة ، فلزامته ميراث عبدروس وتوفيق قدوس فن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا وحاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبي بكر ابن الشيخ عبد الرحمن السقا . لو قلب أوراق الإحياء كافر لاسلم ، ففیه سر خفی یجذب القلوب شبه المناطیس . قلت : وهو صحيح ، فإنني مع خسيس قصدي وقساوة قلبي أجد عند مطالعته له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا مالا مزيد عليه ، ثم يفر برجوعي إلى ما أفاضه وغالطه أهل الكتابات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرفاق ، وما ذاك إلا لشيء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه وحسن قصده . والمراد بالكافر هنا فنيا يظهر : الجاهل بعبوب النفس المحجوب عن إدراك الحقائق ، أي فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره وي نور قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه ، وكأن الله تعالى جعل لعباده الذين لاخوف عليهم ولاهم يجرنون رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يميز منهم ويؤخذ عنهم مركزا زائدا على غيره ، لأن السفتهم كريمة وأنوار قلوبهم عظيمة ، ومهمهم عالية وإشاراتهم سنية ، حتى يكون القرآن أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث هجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللواعظ منهم تأثير في القلوب ظاهر ، ولعلمهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل وبهد ذلك يلتفت به كثير لحسن نيته ووجود بركته وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم ينتفع به مثله لأنه دونه في منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمرا ظاهرا معهودا ، وشيئا مجربا موجودا ، فانظر إلى نفع الناس بكتاب الخلاف في مذهب مالك رحمه الله تعالى ، والتبني به مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، والجلل العربية والإرشاد في علم الكلام وانتشارها ؛ مع أن مباحث من العلم في فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء في هذه الفنون في مثل أبحر هذه الكتب أضعاف ما فيها من تحقيق تحرير الدبارة وتفتيق المعاني وتلخيص الحدود ، وبعد هذا فالنفع بهذه أكثر وهي أظهر وأشهر ،

لأن العلم يزيد التقوى وقوة سر الإيمان لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ، كابن ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله :
ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يضيئه الله في القلب . قلت : وما أنشده الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه
لنفسه فيه قوله :

أخى الله والزم سلوك الطرائق • وصارع إلى المولى محمد وسابق
أي طالباً شرح الكتاب وسنة • وقاوت قلب القلب بحر الرقائق
وليضاح منهج للحقيقة مشرق • وشرب حيا صفو راح الحقائق
وإجلاله أذكار المعاني ضوا حكا • يباهج حسن جاذب للخلائق
عليك بإحياء العالوم ولها • وأمرها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لدى الب منزل • وكم من مليحات سبب لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف قبله • ولا بعده مثل له في الطرائق
فكم من بديع اللفظ يحمل مرالس • وكم من شجوس في حياه شواق
معانيه أضحت كاليدور سواطع • على دز لفظ المعاني مطابق
وكم من عريقات زهت في قلبها • محبة عن غير كفه مسابق
وكم من لطيف مع بديع ونحفة • حللونها كالشهد تحلو لائق
بساكن عرفان وروض لطائف • وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صباراً ثمانى جنانها • وروح ويندوين تلك الحقائق
ويطغى من فاك جتاها فراكها • بساحل بحر الجواهر ذائق
خضم طمى قد علا فوق من علا • يشاخ محمد مشرق الحقائق
فإن لم بهذا القول قومن لجرين • وأقبل على تلك المعاني وطاق
وواجه طريقاً في بديع جمالها • وطف في حاما مفقدا كل سابق
ترى في بدور الحى آثار قد بدت • بمالى جمال مدمش لب عاشق
فكم أنهت صبا وكم قسمت حوى • وكم قد سمعت في غربها والمشارق
فيضى براح الحب سكران مغرما • أعم عن الدلال غير موافق
ويسمى بتأديها طريقاً يباهج • منعم عيش في الروع الفوائد
صلاة على سر الوجود شفيتمنا • محمد اختصار خير الخلائق
وأصحابه أهل الحكام والسلا • وعترته وراث علم الحقائق

(فصل) وأما ما ذكر عليه فيه من مواضع ومشكلة الظاهر - وفي التحقيق لا إشكال - أو أخبار وآثار تسلم
في سندها ؛ فأما من جهة تلك المواضع فمن أجاب عنها المصنف في كتابه المسمى (بالاجوبة) وأسوق لك نبذة من ذلك
هنا . قال رحمه الله : سألت - يسرك الله لمراتب العلم تصد مراقبها وقرب لك مقامات الأولياء تحمل معاليها - عن بعض
ما وقع في الإمام الملقب بالإحياء ، عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ولم يفر بشئ من المخطوط الملكية قدحه
وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطعام وأمثال الانعام وأنباع العوام وسفهاء الإحلام وعاراهل
الإسلام ، حتى طنوا عليه ونهوا عن قراءه ومنتحليه ومطالعتة ، وأفتوا بالهوى مجردا عن بصيرة بإطراحه ومناذمة
ولسبوا عليه إلى ضلال وإضلال ، ووموا قراءته بزيف عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال : (سنكتب شهادتهم
ويسألون ... وسيعلم الذين ظلموا أى مقلب ينقلبون) ثم ذكر آيات أخرى في المنع ، ثم وصف الدهر وأهله وذهاب
العلم وفنسه ثم ذكر عذر المعترضين بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الفهم ، بل أنصح بذلك في الآخر

حيث قال : حجبوا عن الحقيقة بأربعة : الجهل والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار الدعوى . ثم بين ما ورثوه عن الأربعة المذكورة . قال : فالجهل أدركهم السنف إلى آخر ما ذكره . وأما ما اعترض به من قصصه أخبارا وآثارا موضوعه أضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار - والإكثار يتحاشى منه المتنوع لئلا يقع في الموضوع .

وحاصل ما أجيب به عن الغزالي - ومن المحبين الحافظ العراقي - أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخريج ، وغير الأكثر وهو في غاية القلة وراه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرأ منه بنحو صيغة « روى » وأما الاعتراض عليه أن فيها ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط ، لما تقرر أنه يعمل به في الفضائل ، وكتابه في الرقائق فهو من قولها ، ولأنه أسوة بأئمة الأئمة الحافظ في اشتغال كتبهم على الضعيف بكثرة لئلا يلهيهم على ضعفه تارة والمسكوت عنه أخرى ، وهذه كتب النفق للمتقدمين - وهي كتب الأحكام والفضائل - يوردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها ، حتى جاء الثوري رحمه الله في المتأخرين وتبعه على ضعف الحديث وخلافه ، كما أشار إلى ذلك كله العراقي قال عبد الغافر الفارسي سبط القشيري : ظهرت تصانيف الغزالي وفشت ولم يبدف أيامه منافضة لما كان فيولا لما تراه ... إلى آخر ما ذكره . وما يدل على جلالة كتب الغزالي ما نقل ابن السمعاني من رؤيا بعضهم فيها يرى النائم : كأن الشمس طلعت من مغربها مع تغيير ثقات المبرين يبدعه تحدث ، لحدث في جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه ، ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب أسرسلطانه على بن يوسف بإحراقها لتوهمه اشتغالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك ، فظهر بسبب أمره في ملكه مناكير ووبب عليه الجند ، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد في عكس وتؤكد ، بعد أن كان عادلا .

خاتمة في الإشارة إلى ترجمة المصنف رضى الله عنه

وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضى الله عنهم

أما ترجمته رضى الله عنه فهو الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي العلوي النيسابوري العقبة الصوفي الشافعي الأشعري ، الذي انتشر فضله في الآفاق وفان ، ورزق الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودها ، والصيب الأكبر في جزالة العبارة وسهولتها وحسن الإشارة وكشف المضغلات والتبهر في أصناف العلوم فروعها وأصولها . ووسوخ القدم في منقولها وممقولها ، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها ، مع ما خصه الله به من الكرامة وحسن السيرة والاستقامة والزهد ، والعزوف عن زهرة الدنيا والإعراض عن الجهات القانية وأطراح الحشمة والتكلف . قال الحافظ الملاية ابن عساكر والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد البيهقي والفتية جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي رحمهم الله تعالى ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه ، ثم قدم نيسابور ولزم دروس إمام الحرمين ، ووجد واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة وصار أفضل أهل زمانه وأوحد أقرانه ، وجلس للإفتاء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه ووصف ، وكان الإمام يتبع به ويعتد بكماله منه ، ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلا عظيما لعلو درجته وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطال حال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول ، فظهر اسمه وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها وأجيب الكل لتدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته في بغداد على الأمرام والوزراء والأكابرو أهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى فترك بغداد وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة مشتغلا بأسباب التقوى ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها مثل « إحياء علوم الدين » وغيره ، التي من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قيل إن تصانيفه وزعت على أيام

عمره فأصاب كل يوم كراس ، ثم صار إلى القدس مقبلاً على جمادة النفس وتبديل الأخلاق وتحسين الشرائع حتى مر على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طرس لازماً بيته مقبلاً على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعاهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة يرشد الصائين ويهدى الضالين دون أن يرجع إلى ما اغلغ فيه من الجاه والميلامة ، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف ، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس وخمسة مائة - خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في أخراه كما خصه بها في دنياه - قيل : وكانت مدة القطبية للغزالي ثلاثة أيام على ما حكى في كرامات الشيخ سيد العمودي نفع الله به . وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى بإسناده الثابت إلى الشيخ الكبير القطب الرباني شهاب الدين أحمد الصياد الجنيني الزبيدي وكان معاصراً للغزالي نفع الله بهما قال : بينا أنا ذات يوم قاعد إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة وإذا عصابة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ومركوب نفيس ، فوقفوا على قبر من القبور وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع وأركبوه وصعدوا به من السماء إلى سما إلى أن تجاوزت السموات السبع وخرق يدها ستين حجاباً ولأعلم أين بلغ انتهائه ، فسألت عنه فقيل لي : هذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى ، ورأى في اليوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : أفي أمتك حبر كهذا قالا : لا ، وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه يقول لأصحابه من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالي . وقال جماعة من العلماء رضى الله عنهم منهم الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم في أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة : أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضى الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضى الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقاني رضى الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضى الله عنه . روى ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه في الإمامين الأولين أعني عمر بن عبد العزيز والشافعي ، ومناقبه رضى الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه متع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة في الفقه ، وإحياء علوم الدين ، وهو من أنفس الكتب وأجلها ، وله في أصول الفقه : المستعنى ، والمنقول ، والمتنحل في علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومجمل النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد ، والمضنون به على غير أهله ، ومشكاة الأنوار ، والمختل من الضلال ، وحقيقة القولين ، وكتاب « ياقوت التأويل في تفسير التنزيل » ، وأربعين مجلداً ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدررة المأخرة في كشف علوم الآخرة ، وكتاب الإنيس في الوحدة ، وكتاب القرية إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار ، وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرآن ، والأربعين في أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسطاس المستقيم ، وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقية ، وكتاب الدريمة إلى مكارم الشريعة ، وكتاب المبادئ والنهايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تليس إبليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل في القياس والتعليل ، وكتاب المقاصد ، وكتاب إجماع النوام عن علم الكلام ، وكتاب الانتصار ، وكتاب الرسالة الدنية وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجليل في الرد على من غير الإنجيل ، وكتاب المستظهرى ، وكتاب الآمال ، وكتاب في علم أعداد الوقف وحدوده ، وكتاب مفصل الخلاف ، وجزء في الرد على المنكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأفلحيشي المحدث الصوفي صاحب كتاب النجم والكواكب :

أيا حامد أفت المخلص بالمجد . وأنت الذي علنتنا سنن الرشاد

وضعت لنا الإحياء محي نفوسنا . وتقذنا من طاعة التنازع المردي

فربع عبادته وعادته التي • بماقها كالفرد نظم في المقد
والثاني في للهالكات وإنه • لنج من الهلك بالبرج والبد
ورابعها في المنجات وإنه • ليسرح بالأرواح في جنة الخلد
ومنها ابتهاج الجوارح ظاهر • ومنها صلاح القلوب من المحفد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله في كتابه المتقد من الضلال ماصوره :
أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكى
لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرت عليه من الارتفاع
من حضيض التقليد إلى رفيع الاستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام وما احتوته من طرق أهل التعليم القاصرين
لنور الحق على تعليم الإمام ، وما أزدريته ثالثا من طريق أهل التفلسف ، وما ارتفضيته آخرًا من طرق أهل التصوف ،
وما تمسكت لي في تضاعيف تفتيشي عن آثاره من طريق أهل الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببداهة مع كثرة الطلبة ، وما دناي
إلى معادته بنسايور بعد طول المدة ، فابتدرت لإجابتك إلى طلبتك بعد الوقوف على صدق رغبته ، فقلت مستعينا
بالله آمال ومتوكلا عليه ، ومستوفقا منه ومجتثا إليه :

اعلموا - أحسن الله إرشادكم ، ولأن إلى قبول الحق انقيادكم - أن اختلاف الحق في الأديان والملل ، ثم اختلاف
الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وبين الطرق : بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الآفان ، وكل
فريق يزعم أنه الناجي (كل حزب بما لديهم فرحون) ولم أزل في عنفوان شباني - مذرهماقت البلوغ قبل بلوغ العشرين
للى أن أناف السن على الحسين - أقسمت لجة البحر العميق وأخوض غمرته حوض الجصور ، لاخوض الجلبان الخذور ،
وأوغل في كل مظلة ، وأهمج على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأنفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأنكشف أسرار
مذاهب كل طائفة ، لأميز بين كل حق ومبطل ومستن ومبدع ، لأعادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ،
ولاظهاريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولافلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته ، ولاتمسك إلا وأجهد في
الاطلاع على غاية كلامه وعبادته ، ولاصرفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولامتبدا إلا وأريد ما يرجع
إليه حاصل عبادته ، ولازندقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التمشط
إلى دوك حقائق الأمور ذاتي وديدي من أول امرى وريمان عمرى ، غريزة من الله وفطرة وضعا الله في جيلتي ،
لا باختياري وحيلي ، حتى انحلت عن رابطة التقليد ، وانكسرت عن العقائد المروية على قرب عهدى بالصبا ، إذ رأيت
صبيان النصارى لا يكون لهم نشء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا يكون لهم نشء إلا على التهود ، وصبيان الإسلام
لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة
فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، فتمحرك باطنى إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد المعارضة بتقليد الوالدين
والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليديات ، وأوانظها لتقنيات ، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات ، فقلت في نفسى
أولا : إنما مطلوبى العلم بمحائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي أن العلم البتقن هو
الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبق معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع المقل لتقدير ذلك ،
بل الأمان من الخطأ يبنى أن يكون مقارنا للنص مقارنة لتوحى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبًا والعصا
نعبانا لم يورث ذلك شكًا وإمكانًا ، فلن إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد لو قال لي قائل : الواحد أكثر من
العشرة ، بدليل أنى أغلب هذه العصا لعبانا وقلها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك في معرفتى لكذبه ، ولم يحصل معى منه
إلا التسبب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا يقيته
من هذا النوع من اليقين فهو علم لا يقين به ، وكل علم لا أمان معه ليس بيلم يقينى ، ثم قننت عن علوى فوجدت نفسى
عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحبسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس

المستيقنات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولاً لتبين أن يقين المحسوسات وأمان من الغلط في الضروريات من جنس أمان الذي كان من قبل في التقاليد أو من جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، وهو أمان عقلي لا يجوز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بجد ليبلغ أنامل في المحسوسات والضروريات ، أنظر لم يكن أشكك نفسي فيها ١ فأتيت بعد طول التشكك في إلى أنه لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ، وأخذ يفسح الشك فيها ، ثم أتت بدأت بمل الكلام لحصلته وعقلته وطاعته كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أودت أن أصنفه ، فصادفته علما وافيًا بمقصوده غير وافي بمقصودي ، ولم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بصد على مقام الاختيار أصم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل المزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لورغبة في طلب الآخرة إلا حل عليها جند الشهوة جملة فيغيرها عشية فصارت شجوات الدنيا تجاذبني بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخييل ، وإن لم تستمد الآن للآخرة فتي تستمد ، وإن لم تقطع الآن هذه الملتصقات فتي تقطعها ؟ فعند ذلك تلذت الرغبة وينجزم الأمر على الحرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سرية الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل المرض ، والشأن العظيم الخالي عن التكدس والتفتيش والأمر السالم الخالي عن منازعة الخصوم ربما انفكت إليه نفسك ولا تبتسر لك العودة ، فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شجوات الدنيا والدواعي قريبا من ستة أشهر : أولها وجب من منة ستمائة وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الانضطرار ، إذ قل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا طليعا لقلوب المختلفة إلى فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها أثبتة ، حتى أودعت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم ومرى الطعام والشراب ، وكان لا تنساق لي شربة ولا تنهطم لي لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه إلا بالعلاج لأن يروح السر عن أهم المهم ، ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله التجأ المضطر الذي لا حيلة له فأجاني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسبل على قلبي الإعراض عن المال والجاه والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام ، حذرنا من أن يطعم الخليفة جملة الأصحاب على غرضي في المقام بالشام ، فتلطفت بطاقتي الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعادها أبدا ، واستهزأ في أئمة العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببا دينيا ، إذ شئوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس في الاستباطات ، فظن من يريد عن العراق أن ذلك كان لاستثمار من جهة الولاة ، وأمان قرب منهم فكان يشاهد لجأهم في التعلق في الإنكار على وإعراض عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر سماوي ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم ، ففارقت بغداد وفارقت ما كان معي من مالى ولم أدر من ذلك إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخا بأن مال العراق مرصود للصالح لكونه وقفا على المسلمين ، ولم أر في العالم ما يأخذ العالم بعياه أصح منه ، ثم دخلت الشام وأقمت فيه ربيعا من سنتين لا تشلني إلا العزلة والخلة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتركية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب إذ ذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت اعتكف مدة بمسجد دمشق أعمد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي ، ثم تحرك بدعوة فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، وثم صرت إلى الحجاز ، ثم جذبتني المهم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، وبودته بمدان كنت أبدأ الخلق عن أن أرجع إليه ، واثرت العزلة حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد وتقوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصقل لي الحال إلا في أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لا أقطع طمعي عنها فيدفعني عنها العوائق

وأعود إليها ، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي ينبغي أن نذكره ليقنع به أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليتبرروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالمجلة ماذا يقول النازل في طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها يجرى التحريم في الصلاة استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى ، وهو أقرواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . انتهى .

قال المراقى : فلما نفذت كلته وبمد حيتته وعلت منزلته وشدت إليه الرجال وأذهعت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا واشتافت إلى الآخرة ، فاطرحها وسعى في طلب الباقية ، وكذلك النفوس الزكية ، كما قال عمر بن عبد العزيز . إن لي نفساً ترواق : لما نالت الدنيا تآقت إلى الآخرة . قال بعض العلماء : رأيت الغزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة ويده عكاز وركوة ، فقلت له : يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا ؟ فنظر إلى شرراً وقال : لما برغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل :

تركت هوى ليل وسعدى بنزل • وعدت إلى مصحوب أول منزل
وناديت الأشواق مهلاً فهذه • منازل من تهوى ووبك قانل

(انتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه)

كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما خصص وعظم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم .

سألت - يترك الله لمراتب العلم تصعد مراتبها ، وقرب لك مقامات الولاية تحمل معانيها - عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشئ من الحفظ الملكية قدسه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطعام وأمثال الأنعام ، وأجامع العوام وسفهاة الأحلام وذمار أهل الإسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعة ، وأفتوا بمهرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومناذته ، ونسبوا عليه إلى ضلال وإضلال ، ونبدوا قراءه ومتنحليه بزيغ في الشريعة واختلال في عقائد انصرافهم ومآبهم ، وعليه في العرض الأكبر لإفهامهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويستلون ، وسيعلم الذين ظلوا أي منقلب يقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وإذ لم يمتدوا به فيقولون هذا إفكك قديم ، ولوروده إلى الرسول وإلى أولى الأوسر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولكن الظالمون في شقاق بعيد ، ولا عجب فقد نوى أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق ، متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، مترئين بصفتا منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، متعاطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أروعة ثناء أو مغالبة لظفراء ، قد ذهبت المواصلات بينهم بالبر ، وتآلفوا جميعاً على المنكر ، وعمدت التصانيع بينهم في الأمر ، وتضافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ؛ إن نصحتهم الدماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزرأوا عليهم ؛ أولئك الجهال في علمهم ، الفقراء في طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لا يفقهون ولا ينتجح تأويلهم ، ولذلك لا تظهر عليهم مواريت الصدق ، ولا تنقطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تخفق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الحشية ، لأنهم ينالوا أحوال النقاء ، ومراتب التجباء وخصوصية البدلاء ، وكرامة الأوتاد وفوائد الأقطاب ، وفي هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق وعلوا على أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا من بضائعهم ، حججوا عن الحقيقة بأربع : بالجهل ، والإصرار ، وعجمة الدنيا ، وإظهار الدعوى . فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، وعجمة الدنيا أورثتهم طول النفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء (والله من ورائهم محيط) (وهو على كل شئ شهيد) فلا يفرئك - أعاذنا - وإياك من أحوالهم - شأنهم - ولا يذله لك عن الاشتغال بصلاح نفسك ترمدهم وطغيانهم ، ولا يغيروا بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم ، فكان قد جمع الخلائق في صعيد (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) وتلا : ﴿ لقد كنت غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ فيأله من موقف قد أذهل ذوى العقول عن القتال والقتيل ، ومتابعة الأباطيل ؛ فأعرض عن الجاهلين ، ولا تطلع كل أفكك أئيم ﴾ وإن كان كبير عليك

إعراضهم فإن استطعت أن تنقذ الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكون من الجاهلين ﴿ولو شاء ربك لجلل الناس أمموا واحدة﴾ ﴿فأصبر حتى يحك الله وهو خير الخاكين﴾ ﴿كل شيء مالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ ولقد أجنبتك - بحول الله وقوته وبهد استخارته - عما سألت عنه وخاصة ما زعمت فيه من تخصيص الكلام بالمثل الذي ذكر فيه الأقسام ، إذ قد اتفق أن يكون أشهر ما في الكتاب وأكثر تصرفا على السنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار المثل المذكور في المجالس تحية للداخل وخديت للجالس ، فساعدت أميتك ، ولولا المجلة والاشتغال لأضفتنا إلى أملائنا هذا بيانا غيره مما عدوه مشكلا ، وصار لعقولهم الضعيفة غيلا ومضلا ، ونحن نستمع بالله من الشيطان ، ولست نعلم به من جرأة فضاء الزمان وتعرض إليه في المزيد من الإحسان ، إنه الجواد اللطيف .

ذكر مراسم الاستمالة في المثل

ذكرت - رزقك الله ذكره وجملك تعقل نبيه وأمره - كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولقطة التوحيد تاتي التقسيم في المشهود كما ياتي التكرير والتعديد وإن صح انقسامه على وجه لا يدفع ، فهل تصح القسمة فيما يوجد أو فيما يقدر ، ورغبة من مزيد البيان في تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها إن كان يقع بينهم التفاضل ، وما دونه تمييزها بالجواز في القشور واللبوب ؟ ولم كان الأول لا ينفع والآخر الذي هو الرابع لا يحمل إفتاؤه ؟ وما معنى قول أهل هذا الشأن : إفتاء سر الربوبية كفر ؟ أين أصل ما قالوه في الشرع ؟ إذ الإيمان والكفر والهداية والضلال والتقريب والتجديد والصدقية وسائر مقامات الولايات ودركات المخالفة لإعماهي مأخذ شرعية وأحكام نبوية ، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء بالمجادات ؟ ومخاطبة الجمادات بالعقلاء ؟ وبماذا تسمع تلك المخاطبة ؟ أبحاسه الأذان أم بسمع القلب ؟ وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهي ؟ وما حد عالم الملك وعالم الجبروت وحد عالم الملكوت ؟ وما معنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ وما الفرق بين الصورة الظاهرة التي يكون مقتضاها من هذا مجلا ؟ وما معنى الطريق في ﴿إنك بالوادي المقدس طوى﴾ ولله يفتدأد وأصفهان أو تيسابور أو طبرستان في غير الروايات التي سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، وما معنى فاستمع بسرفيل لما يوحى ؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره ؟ وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي ؟ أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ، ومن له باللسان إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله وإن كان على سبيل التخصيص ، والنبوة ليست محجورة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع في النداء إذا سمع هل أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ وما معنى الأثر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونبيه على أن يتخطى رقاب الصديقين ؟ وما الذي أوصله إلى مقامهم وهو في المرتبة الثالثة وهي توحيد القربين ؟ وما معنى الانصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ؟ ولماذا ين وجهته في الانصراف وكيف صفة انصرافه ؟ وما الذي يمنه من البقاء في الموضع الذي وصل إليه وهو أرفع من الذي خلقه ؟ وأين هذا من قول أبي سليمان الداراني المذكور في غير الإحياء : لو وصلوا مارجعوا ، ما وصل من رجع ؟ وما معنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكل صنعا ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يتناقض الجود وعجزاً يتناقض القدرة الإلهية ؟ وما حكم هذه العلوم المكتوبة هل طلبها فرض أو مندوب إليه أو غير ذلك ؟ ولم كسيت المشكل من الألفاظ والقز من العبارات ؟ وإن جاز ذلك للصارح فبما أن يتخبر به ويمتنع ، فإنا بال من ليس شارحا ؟ انتهى جملة مراسم الاستمالة في المثل .

فأنا لله تعالى أن يعل علينا ما هو الحق عنده في ذلك ، وأن يجرى على استنقا ما يستضاء به في ظلمات المسالك ، وأن يعم بنفحه أهل الميادى والمبارك ، ثم لا بد أن أهد مقدمة ، وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية .

أما المقدمة فالقصر بها تبيين عبارات انفراد بها أبواب الطريق قمض معانيها على أهل القصور فذلك كما ينمض منها

ونذكر المقصد بها عديم ، قرب واقف على ما يكون من كلامنا مختصاً بهذا الفن في هذا وغيره فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ .

وأما القاعدة فنذكر فيها الاسم الذي يكون سلوكنا في هذه العلوم عليه ، والسمت الذي تنوى بمقصدها إليه ؛ ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الناظر المتفهم .

وأما الروية ، فمقصود فيها تعريف ماعلى من نظر في كلام الناس وأخذ نفسه بالاطلاع على أغراضهم فيما تقومون تصانيفهم ، وكيف يكون نظره فيها وإطلاعه عليها واقتباسه منها ، فذلك أوكد عليه أن يتعلم من ظهورها فشرحوها عنها وغلفت في وجوههم الأبواب وأسدل دونهم الحجاب ، ولو أقرها من أبوابها بالترتيب وولوجوا على الرضا بالحبيب لكشف لهم كثير من حجب الغيوب ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

للمقدمة

اعلم أن الألفاظ المستعملة منها ما يستعمله الجماهير والعموم ، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع ؛ والصنائع على ضربين : علمية ، وعملية ، فالعملية كاللحن والحرف ولاهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفهمونها بالآلهم ، ويتماطون أصول صناعتهم . والعملية هي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة بما تحرر من الموازين ، ولاهل كل علم ألفاظ اختصوا بها لا يشاركون فيها غيرهم إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما في صورة اللفظ دون المعنى ، أو في المعنى وصورة اللفظ جميعاً ، وهذا يعرفه من بحث عن مجارى الألفاظ عند الجمهور وأرباب الصنائع ، وإنما سميّا من العلوم صنائع فيها التصنع بالترتيب في التقسيم واختيار لفظ دون غيره وحده بطرفين : مبداً ، وغاية ؛ ومالم يكن كذلك فلا نسميه صناعة كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم لم يكونوا فيما عديم من العلم على طريق من بعدهم ، ولا كانت العلوم عديم بالرسم الذي هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها لأنسبها عديم صناعة ، ونسبها بذلك عند ضبطها بما اشترى من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسيحين بالسادة ، والمقلتين بالصوفية والمتشبهين بالفقراء ، والمعروفين بالرقّة ، والمزى إليهم العلم والعمل ؛ ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها فيما يتذاكرون أويذكرونه ، ونحن إن شاء الله نذكر ما يمتنع منها ، إذ قد يقع منا عندنا ذكر شيئاً من علومهم ونشير إلى غرض من أغراضهم ؛ فلم نر أن يكون ذلك بغير ماعرف من ألفاظهم وعباراتهم ، ولا حرج في ذلك عقلاً وشرعاً ، ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير .

فن ذلك السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح ، والطولع ، والذهاب ، والنفس ، والسر ، والوصل ، والفصل ، والأدب ، والراحة ، والتجلى ، والتغلى ، والتجلى ، والعة ، والازواج ، والمساعدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلويح ، والنيرة ، والحرية ، والقطيفة ، والفتوح ، والوسم ، والرسم ، والبسط ، والفيض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والفرقة ، وعين التعلل والروايد ، والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة ، والغربة ، والمكر ، والاصطلام ، والرغبة ، والرهبة ، والوجد ، والوجود ، والتواجد .

فنذكر شرح هذه على أوجز ما يمكن بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم في علومهم أكثر مما ذكرنا ؛ فلما قصدنا أن نريك منها أتمودها ودستوراً تتعلم به إذا طرأ عليك مالم تذكره لك معنا ، إذ لها مبحث وإلهام سبيل ، فتعلم به ذلك على وجهه .

فأما السفر والطريق ؛ فالمراد بها سفر القلب بآلة الفكر في طريق المقولات ، وعلى ذلك ابتنى لفظ السالك والمسافر في لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التي بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مما شاركه فيه البهائم والأنعام . وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة قواعد الشرع وخرق حجب الأمر والنهي ، وتعلق

الغرض فيها والمراد بها ومنها ، فإذا خلفوا نواجيها وقطعوا عما طابها ، أشرفوا على مغاوير أوسع ، وبرزت لهم مهامها
أعرض وأطول : من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية : النفس والبدن والدنيا ؛ فإذا تغلبوا من أوطارها أشرفوا
على غيرها أعظم منها في الانسحاب ، وأعرض بغير حساب : من ذلك سر القدر وكيف خفي بحكم في الخلاق وقادهم
بلطف في خفي ، وشدة في لئيم ، وقوة في ضعف ، وباختيار في جبر ، إلى ما هو في مجاريه لا يبرح الخلقون عنه
طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والأشرف على الملكوت الأعظم رؤية عجائب ومشاهد غرائب :
مثل العلم الإلهي ، واللوح المحفوظ ، واليمين الكائنة وملائكة الله يطوفون حول العرش وبالبيت المعمور وهم
يسبحونه ويقديسونه ، وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخلي عنها إلى معرفة الخالق للكل والمالك
لجميع والقادر على كل شيء ، فتغشاهم الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة فيعملون الصفات
ويشاهدون الموصوف ، ويحبون حيث غاب أهل الدعوى ، ويصرون ما عني عنه أدلو الأبصار الضعيفة بحجب
الهوى .

والحال : منزلة العبد في الحين فيصفو له في الوقت حاله ووقته . وتقل :
هو ما يتحول فيه العبد ويتغير بما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال . وقال بعضهم : الحال
لا يزول ، فإذا زال لم يكن حالاً .
والتمام : هو الذي يقوم به العبد في الأوقات من أنواع الممارسات وصنوف المجاهدات ، فتقوى العبد بشيء منها
على التمام والكمال فهو مقامه حتى ينقل منه إلى غيره .
والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية ، فإذا كمل العبد في معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات
والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم .

مفادك من قلبي هو القلب كله * فليس لشيء فيه غيرك موضع
والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مفرغ بالدعوى ، إلا أن يكون صاحبه محفوظاً .
والطرائع : أنواع التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ونورها فيطمس سلطان نورها الألوان ، كما أن
نور الشمس يحو أنوار الكواكب
والذهاب : هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة تحجبها .
والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطنى شرها
والسر : ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق . وسر السر : ما لا يحس به السر ، والسر ثلاثة : سر العلم ، وسر الحال ،
وسر الحقيقة ، وسر العلم حقيقة المألين بالله عز وجل ، وسر الحال معرفة مراد الله في الحال من الله ، وسر الحقيقة
ما وقعت به الإشارة .

والرسل : إدراك القائل . والفصل : فوت ما تزجوه من عبورك .
والآداب ثلاثة : أدب الشريعة وهو يتعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة ، والثاني أدب الخدمة وهو التضرع
الملاحظات والتجرد عن الملاحظات ، والثالث أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة .

والرياضة اثنان : رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس ، ورياضة الطلب وهو صحة المراد .
والتحل : التنبه بأحوال المصادفين بالأحوال وإظهار الأعمال . والتخل : اختيار الخطوة والإعراض عن كل ما يشغل
عن الحق . والتجمل : هو ما يكشف قلوب من أنوار الغيوب .

والمة تنبه عن الحق . والأزجاج انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للألس والوحدة .
والمشاهدة ثلاثة : مشاهدة بالحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، ومشاهدة بالحق وهي رؤية الحق في الأشياء ،
ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب .

والمكاشفة أنهم من المشاهدة وهي ثلاث : مكاشفة بالعلم وهي تحقيق الإصابة بالفهم ، ومكاشفة بالحال وهي تحقيق رؤية زيادة الحال ، ومكاشفة بالتوحيد وهي تحقيق صحة الإشارة .

والوابع : ما يلح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة إلى حالة أتم منها ، والارتقاء من درجة إلى ما هو أعلى منها .

والتلويح : تلويح العبد في أحواله . وقالت طائفة : علامة الحقيقة رفع التلويح بظهور الاستقامة . وقال آخرون : علامة الحقيقة التلويح لأنه يظهر فيه قدرة القادر فيكسب منه العبد النيرة .

والنيرة : غيرة في الحق ، وغيره على الحق ، وغيره من الحق ؛ فالنيرة في الحق برؤية الفواضل والمنهاى ، وغيره على الحق هي كتمان السرائر ، والنيرة من الحق ضنه على أولياته .

والحرية : إقامة حقوق العبودية فتسكن لله عبداً وعند غيره حراً .

واللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم ولا تسمعها العبارة .

والفتح ثلاثه : فتوح العبادة في الظاهر وذلك سبب اخلاص القصد ، وفتح الخلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطائه ، وفتحو المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والرسم والرسم : معنيان يجران في الأدب بما جرى في الأزل .

والهبط عبارة عن حال الرجاء . والتقبض : عبارة عن حال الخوف .

والفناء : فناء المعاصي ، ويكون فناء رؤية العبد لقلعه بقيام الله تعالى على ذلك . والبقاء : بقاء الطاعات ويكون بقاء رؤية العبد بقيام الله سبحانه على كل شيء .

والجمع : التسمية في أصل الحق . ومن آخرين : منناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق . والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد الباري سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، فإذا جمع بينهما فقد وحد .

وعين التحمل : إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء .

والوابع : زيادات الإيمان بالغييب واليقين .

والإرادات ثلاثة : إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى وذلك موضع التمني ، وإرادة الحظ منه وذلك موضع الطمع ، وإرادة الله سبحانه وتعالى وذلك موضع الإخلاص ، والمريد : هو الذي صح له الابتلاء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم . والمراد : هو المعارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال والمقامات والهمة ثلاثة : همة منية وهي تحريك القلب للتي ، وهمة إرادة وهي أول صدق المريد ، وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل ، فإن المراد إد الخطب جد ، والآخرة مقبلة والدينا مدبرة ، والأجل قريب

والسفر بعيد . والزاد طفيف والخطر عظيم . والطريق سد . وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد . وسلوك طريق الآخرة مع كثرة التوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد ، فائدة الطريق هم العلماء الذين هم ورة الأنبياء . وقد شغل منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون . وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان . وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغولاً فصار يرى المرفوف منكراً والمنكر معروفاً . حتى ظل علم الدين مندسراً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً . ولقد خيلوا إلى الخلق أن لاعلم إلا فتوى حكومة تستعين بالقضاة

على فصل الخصام عند تناوش الطعام . أو جدل يتدرب به طالب الميامنة إلى التلبه والإلغام . أو جمع من خرف يتوسل به الراطل إلى استدراج العوام . إذ لم يروا سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام ؛ فأما علم طريق الآخرة : هو ما درج عليه السلف الصالح وهي جمع المهتم بصفاء الإلهام .

والغربة ثلاثة : غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد . وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال .

وغربة عن الحق من حقيقة الشمس عن للمرة . والاصطلاح : نمت وله برد على القلوب بقوة سلطان فيسكنها
والسكر ثلاثة : مكر عموم وهو الظاهر في بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو في سائر الأحوال ، ومكر خفي
في إظهار الآيات والكرامات .

والرغبة ثلاثة : رغبة النفس في الثواب ، ورغبة القلب في الحقيقة ، ورغبة السر في الحق .
والرهبة : رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق .
والوجد : مصادقة القلب بصفاء ذكر كان قد فقدته .

والوجود : تمام وجد الراجدين ، وهو أتم الوجد عندهم . وسئل بعضهم عن الوجد والوجود فقال : الوجد
ما يطلبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود ما تجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين ، والوجود مع التمكن
والتواجد : استدعاء الوجد والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد .

القاعدة

وأما القاعدة التي يبنى عليها هذا الفن بأسره فذلك اجتذاب أرواح الماعن ، والإشارة إلى البعد في القرب قصد
الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى قصداً ذاتياً ، لأعلى ماسلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق
بالقوة والنظر إلى الملوكوت من كوة ، ومعرفة العلوم في الانصراف ، ومصاحبة القدر بالمساعدة والمعرف ومحاكاة
الوجودات الخمس : الذاتي والحسي والخيالي والعقلي والسمعي حسب فهم من الشرع وثبت معناه في المحفوظ من الوحي ،
وقلنا أدرك شيء من المعجز والعلم لا ينال براحة الجسم ، (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ذاك أمر الله أنزله
إليك) (ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) .

والوصية

أيها الطالب للعلوم والظاهر في التصانيف والمستشرف على كلام الناس وكتب الحكمة : ليكن نظرك فيما تنظر فيه
بإبه وبه وفي الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به وكذلك إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره من فهم أو علم
أو حفظ أو إمام متبع أو حجة ميز أو ماشاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار عليك لغيره ونكصت
على عقيلك وخسرت في الدارين صفتك ، وعاد كل هول عليك (فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك
بعبادة ربه أحداً) وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيره ولا حظت بالحقيقة سواء ، ورؤية غيره دونه
تعمى القلب وتهتك السر وتوجب الب . وإذا نظرت في كلام أحد من الناس عن قد شبر بلم فلا تنظره بازدياد كن
يستغنى عنه في الظاهر وله إليه كثير حاجة في الباطن ، ولا تنقب فيه حيث وقف به كلامه ؛ فالعاني أوسع من العبارات ،
والصدور أفسح من الكتب للأولفات ، وكثير علم بما لم يعبر عنه ، واطمع بنظر قلبك في كلامه إلى غاية ما يحتمل
فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصد ولا تقطع له بصحة ولا تتحكم عليه بفساد ، وليكن تحسين النظر أغلب عليك
فيه حتى يروا الإشكال منك بما يتيقن من معانيه . وإذا رأيت له حسنة وسيئة فأنشر الحسنه واطلب المعاذير السيئة ،
ولا تكن كالذبابه تنزل على أقدر ما تجده ، ولا تجعل على أحد بالنقطة ولا تبادر بالتجسس فيما عاد عليك ذلك وأنت
لا تنسر ، فكل عالم عروة وله في بعض ما يأتي به احتجاج . وناهيك ما جرى بين ولي الله تعالى الحظز وكليمه موسى
على نبينا وعليهما السلام . وإذا عرضك من كلام عالم إشكال يؤذن في الظاهر بمحال أو اختلال ، فخذ مظهر لك
عليه ودع ما احتاسم عليك فهمه وكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهذه وصيتي لك فاحفظها وتذكرى إياك فلا
تذمل عنه .

اسمع وصيتي إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد يردى بك الخلف
وأريدك زيادة تقتضي التعريف بأحسان العلماء لكن تعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك في ذلك أكبر منفعة ول

في وصفهم أبلغ غرض . قال علماؤنا : العلماء ثلاثة : حجة ، وحجاج ، وعجرج ؛ فالحجة : عالم بالله ويأمره وآياته مهتبا بالخشية لله سبحانه ، والورع في الدين والزهد في الدنيا والإيثار لله عز وجل المستقيم . والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة وإطفاء نار البدعة قد أصرس للمتكلمين وألهم للتخريصين ، برهانه ساطع ، وبيانه قاطع ، وحفظه ما يتنازع شواهد بينة ونجومه نيرة ، قد حى صراط الله المستقيم : والحجوج : عالم بالله ويأمره وآياته ، ولكنه قد خد الخشية لله برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد والرغبة والحرص ؛ ويبدعه من بركات عليه حجة العلل والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لميلد الدنيا ، غادم لخدمتها ، مفتون بدمعته ، مغتر بدمعته ، ومخدول بدمعته . شأنه الاحتفال والتمتع ، والازدراء للأولياء ، والاستخفاف بالجهال من عباد الله ، ونظره بقاء ما يرموه وصلة سلطانه ، وطاعة القاضي والوزير والحاجب له قد أمك نفسه حين لم يتفجع بعمله والاتباع له ومن يكون بعده قدوة به مراده من الدنيا مثله ، في مثل هذا ضرب الله المثل حين قال (وائل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فأنسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فله كثر الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) فويل لمن يحب مثل هذا في دينه ، وويل لمن تبيته في دينه ، وهذا هو الذي أكل بدنيته غير منصف لله سبحانه في نفسه ولا ناصح له في عبادته ، تراه إن أعطى من الدنيا رضى بالمدة لمن أعطاه ، وإن منع ورش بالهم لمن منعه ، وقد نسي من قسم الأرزاق وقدر الأقدار وأجرى الأسباب وفرغ من الخلق كلهم ، فعزذبه الله من الحور وبعد الكور ، ومن الصلاة بعد الهدى . وإعما ذلك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الفرض الذي نحن فيه بقصدى أن يعلم من ذهب من الناس ومن يبق ، ومن أبصر الحقائق ومن عمى ، ومن امتدى على الصراط المستقيم ومن غوى فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبا وإن كان بقي منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة

غاب الذين إذا ما جدوا صدقوا وظنهم كيقين إن هو حسبوا

وذلك لما سبق في القضاء من ظهور الفساد وعدم أهل الصلاح والشاد ، ولم وعدم الصف الثالث على غربته وأعر شيء على وجه الأرض ؛ وفي الثالب ما يقع عليه في الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما الموجود اليوم أهل سفاقة ودعوى وسفاقة واجترأ وعجب بغير فضيلة ورياء ؛ يسمون أن يصدوا بما لم يفعلوا ، وهم أكثر من عمر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد وأرسان العوام ؛ وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ؛ وأخذوا لعواد السوء وضمهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الإرادة والدين :

مثل البهائم جهال بمناقهم لهم تصاور لم يعرف لمن حجا

كل يروم على مقدار حيلته زوائر الأسد والباحة اللها

فاحذرهم قائلهم الله أنى يؤفكون ؛ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم التافلون ؛

أولو الاتفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا صدقوا

ولناخذ في جواب ما سألت عنه على نحو ما رغبت فيه ، وأستوهب الله نفوذ البصيرة وحسن السريرة وغفران الجبرية ؛ وهو ربى ورب كل شيء وإليه المصير

ابتداء الأجوبة عن مراسم الاستع

جرى الرسم في الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تقريبا لموافقة الفرض في التثليل به وذكرت أن المعترض وسوس أو بالخواطر محس بأن لفظ التوحيد ينافي التقسيم إذ لا يتصور بأن يتعلق بوصف الواحد الذي ليس برائد عليه فذلك لا ينقسم لا بالجنس ولا بالفصل ولا بغير ذلك . ولما أن يتعلق بوصف المتكلمين الذين ترجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ؛ فذلك أيضا لا ينقسم من حيث اتساعهم إليه بالقل ؛ وذلك لضيق المجال فيه ؛ ولما

لا يتصور فيه مذاهب، وإنما التوحيد مسلک حق بين مسلكين باطلين : أحدهما الشرك ، والثاني الإلbas ، وكلا الطرفين كفر ؛ والوسط إيمان محض ، وهو أحد من السيف وأضيق من خط الظل ، ولهذا قال أكثر المتكلمين بنائال إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبين والمرسلين وسائر عوالم المرسلين ؛ وإنما تختلف طرق إيمانهم التي هي عليهم . ومذهبهم في ذلك معروف ، ونحن لا نلزم في هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدال ومقابلة الأقوال بالأقوال ، بل بقصد إزالة غير الإشكال ورد ما طعن به أهل الضلال والاضلال .

واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أسماء يتوجه ههنا بشيء قدح به المعترض أو بحسب المخاطر ، وإنما المستعمل ههنا من أسمائه ما تتميز به بعض الأشخاص بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيداً على جهة تنفرد بها لا يشاركها فيها غيرها ، فن وجد التوحيد بلسانه يسمى لاجله موحداً ما دام يظن أن قلبه موافق لسانه ، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ما شرع في الحكم ، ومن وجد قلبه على طريق الركون إليه وللبيل إلى اعتقاده والسكران نحوه بلا علم بصحة فيه ولا برهان يربط به سمى أيضاً موحداً ، على معنى أنه يعتقد التوحيد كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعي شافعيًا والحنبلي حنبلياً ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده وسعى من أجله بشكوكه المارعة له فيسمى موحداً لأنه عارف به ، يقال جدلي ونحوي وفقهية ، ومعناه يعرف الجدول وفقهه والنحو ، وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جملة حتى لا يجد فيه فضلاً لغيره إلا على طريق التسمية له ، ويكون شهود التوحيد لكل ماعداه سابقاً لجميع الذكر والفكر مصاحباً من غير أن يترتب ذهنه ولا نسيان له لأجل اشتغاله بغيره كالعادة في سائر العلوم ؛ فهذا يسمى موحداً ويكون القصد بالاسم من ذلك المبالغة فيه . فأما الصنف الأول وهم أرباب النطق المنفرد فلا يضيرون في التوحيد بسهم ولا يفوزون منه بنصيب ولا يكون لهم شيء من أحكام الله في الحياة ، إلا مادام الظن بهم أن قلب أحدهم موافق لسانه ، كما نفرد القول عليه بعد هذا إن شأناه عز وجل .

وأما الصنف الثاني وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو الوارث أو المبلغ يخبر عن توحيد الله عز وجل أو يأمر به ويلزم البشر قول لا إله إلا الله الذي عنه ، فقبلوا ذلك واعتقدوه على الجملة من غير تفصيل ولا دليل ، ففسبوا إلى التوحيد وكأوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذي هو منهم ، وبمنزلة من كثر سواد قوم فهو منهم .

وأما الصنف الثالث والرابع فهم أرباب البصائر السليمة الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوا فراوا على كل منها خطاً منطبقاً فيها ليس بعربي ولا سرياني ولا عبراني ولا غير ذلك من أجناس المخلوقات ، فبادر إلى قراءته من لم يستمع عليه ونقله منهم من استمع عليه ، فإذا هو الخط الالهي المكتوب على صفحة كل مخلوق المنطبق فيه من مركب ومفرد وصفة وموصوف وحى وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن ومظلل ومزير ، وهو الذي يسمى تارة بعلامة وتارة بسمة وتارة بأثر القدرة وتارة بآية ، كما قال الشاعر ، ولا أدري عن سماع أو رؤية قلب ؛

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فلو قرءوا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه وشرحه أبدية مالكة والتصريف له بالقدرة على حكم الإرادة بمسابق في ثابت العلم من غير مزيد ولا قصير ؛ فتركوا الكتابة والمكتوب وتركوا إلى معرفة الكاتب الذي أحدث الأشياء وكونها ولا يخرج عن ملكة شيء منها ، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولا انتقلت إلى الحرية عن رق استبداده ، فوجدوه كما وصف نفسه (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) فخلصت لهم التفرقة والجمع وعظمت نفس كل واحد منهم توحيد حالتها بإذنه وإجماده عن غيره ، وعظمت أنها عقلت توحيد فسيحان من يسرها فذلك وقع عليها بما ليس في وسعها أن تدرك إلا به وهو اللطيف الخبير ، لكن الصنف الثالث لم يقصر كل منهم أن

يعرف نفسه موجوداً لديه فيها لا يزال وهم المقرون ، والصنف الرابع لم يقصر كل واحد منهم أن عرف به موجوداً لنفسه فيها لم يزال وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير .

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم فلأن المقلاء بأسرهم لا يتخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأسماء المذكورة عنده ، فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان في زمن الدعوة أو على قرب يمكن وصول عليها إليه أو في فترة يتوجه عليه فيها التكليف ، وهذا صنف مبدع عن مقام هذا الكلام . وأما من يوجد عنده فلا يتخلو أن يكون مقلداً في عقده أو عالمياً به ، والمقلدون هم العوام وهم أهل المرتبة الثانية في الكتاب . فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يتخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التي أعدت لصفه دون النبوة ، أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ ، فالذي لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون وهم أهل المرتبة الثالثة ، والذين بلغوا الغاية التي أعدت لهم وهم الصديقون وهم أهل المرتبة الرابعة ، وهذا التقسيم ظاهر الصحة ، إذ هو دائر بين النبي والإمامات ، ومحصور بين المبادئ والغايات ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم ، إذ ليس هم من أهله إلا بالنسب كاذب ودعوى غير صافية ، ثم لا بد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث ومزيد شرح وبسط بيان تعرف منه بإذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والإمكان بما يجري به الواحد الحق على القلب والسنان .

بيان مقام أهل النطق المجرد وتبيين فرقهم

فأقول : أبواب النطق المجرد أربعة أصناف : أحدهم نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم لم يعتقدوا معنى ما نطقوا به لم يعلموه لا يتصورون معناه ولا فاسده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطئه ولا صوابه ، إذ لم يحسوا عليه ولا أرادوا فهمه إما بعد متمم وقلة كثراتهم ، وإما لنفورهم من التصب وخوفهم أن يكفوا البحث عما نطقوا به أو يبدوا لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما بعد ذلك ، فإن التزموا ما نطقوا به وأجابوا أبنائهم المعالجة وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئاً من ذلك وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منفضة وملاذم مكذبة من خوف عقاب ترك ما علموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب أو يمرض عليه ولكنه يمنه عنه خافة أن يتعلم منه عل ما يفيده عنه بعض ملاذه من الأطعمة والأشربة والأنسكة أو كثير منها ، فيحتاج إلى أن يتركها أو يتركها على رقبته وخوف أن يصيبه صورة ما يعلم ضرورة منها فيدع قراءة الطب رأساً . سئل هذا الصنف عن معنى ما نطقوا به وهل اعتقدوه فيقولون لا نعلم فيه ما يعتقد ، وما دأبنا النطق إلا بمساعدة الجماهير وانخراطاً باظهار القول في الجمل الغفير ولا نعرف هل ما قلناه بالحقيقة من قبل العرف والتكثير ولا شك أن هذا الصنف الذي أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بسأله الملكين أحدهم في القبر ، إذ يقولون : من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولان له لا تدري ولا تلتيم ، وسماء النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب . والصنف الثاني نطقوا بالحق الذين من قبلهم ولكنهم أضاعوا إلى قولهم ما لا يحصل منه الإيمان ولا يلتزم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ما قالت السبائية طائفة من الشيعة القدماء - إن علياً هو الإله وبلغ أمرهم علياً ورضي الله عنه ، وكانوا في زمنه ، فخرق منهم جماعة ، وأمثال من نطقوا بالفهادين كثير ثم أصحاب لفظة مثل هذا التكبير ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثاً عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك ، ستفرق أمي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة . والصنف الثالث : نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ولكنهم آثروا التكذيب واعتقدوا الرد ، واسبغوا خلاف ما ظهر منهم من الإقرار ، وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد اعتزوا بعدم كلمة الكفر ؛ فهؤلاء للتأفق الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله : (وإذا لقوا الذين قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون - الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) . الصنف الرابع قوم لم يعرفوا التوحيد وما نفعوا أو عليه ، ولا عرفوا أهله ، ولا سلكوا بين أظهرهم ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحدهم خاطبوا بالأمر للقتضى للنطق بالشهادتين والإقرار بهما ، فقالوا : لا نعلم

مقتضى هذا اللفظ ولا تعقل معنى المأمور به من النطق ، وأسرأ أن يظهرها الرضا ويفهموا بلامهله ، فستكون إياهم ما قبل لم ونطقوا بالشهادتين ظاهرا وهم على الجهل بما يستقدنون فيها ، فأخترتم أحدهم من حينه من قبل أن يأتي منه استفهام أو تصور يمكن أن تكون له معه معتقد فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل ، والحكم عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار تحمك على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف في الحكم عند الله عز وجل قوم رزقوا بفهم وغيب الداهن وفرط البلاء أن يدعوا إلى هذا النطق فيجبروا بمساعدة ومحاذاة ثم يدعون إلى تفهم المعنى بكل وجه فلا يتأق منهم قول لما يمرض عليهم تفهمه كأنما تخاطب بهيمة ، ومثل هذا أيضا في الوجود كثير ولا أحكم على أحد مثله بتلود في النار ، ولا يبد أن هذا الصنف بأسره أعنى المخترم قبل تحصيل العقدة مع هذا الوليد البعيد بعض ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته حين يقول تعالى : فرغتم شفاعتي الملائكة والتهيين وبقيت شفاعتي وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ويدخلون الجنة ويكون في أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى وحكم الصنف الأول والثاني والثالث أجمين أن لا يجب لهم حرمة ولا يكون لهم عصمة ولا ينسبون إلى إيمان ولا إسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة المالكين ، فإن عثر عليهم في الدنيا قتلوا فيها بسيرف الموحدين ، وإن لم يعثر عليهم فهم صائر إلى جنهم خالدون فطلع وجوههم النار وهم فيها خالون .

(فصل) ولما كان اللفظ المنفي عن التوحيد إذا انفرد عن العقد وتجرد عنه لم يقع به في حكم الشرع منفعة ولا لصاحبه بسببه نجاة إلا لمدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، واليد أن تسلط على ماله إذا لم يعلم خفى حاله حسن فيه أن يبدى بشر الجزر الأعلى فهو لا يتمتع ولا يرفع في البيوت ولا يحضر في المجالس أى يجالس الطعام ، ولا تشبهه النفوس إلا مادام منظرا على ملطعمه صرنا على له ، فإذا أزيل عنه بكسر أو علم أنه منطو على فراغ أو سوس أو طعمه فاسد لا يصلح لشيء ولم يبق فيه غرض لأحد وهذا لاختفاء في محضته ، والغرض بالتثليل تقريب ما غرض إلى نفس الطالب وتسهيل ما اعتاص على المتعلم والسماع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل بعمى كل وجه ، فكان يكون هو ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه .

(فصل) فإن قلت فما الذى صد هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر والبحث حتى تملوا ، أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا من عذاب الله وهم في الظاهر قادرين على ذلك ؟ وما المانع الخفى الذى منهم وأبدعهم عنه وهم يعملون أن ما عليهم كبير مؤنة ولا عظيم نفقة ؟ قائل أن هذا السؤال يفتتح بابا عظيما وههنا قاعدة كبيرة يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد . ولكن لابد إذا وقع : الاصماع ووعته قلوب الطالبين واشتاتق إلى سماع الجواب عنه أن نورد في ذلك قدر ما يقع به من الكفاية وتجنح به النفوس بحول الله وقوته . نعم ماسبق في العلم القديم لا تجرى بخلافه المقادير . من ذلك أنهم بإرادة الله عز وجل جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلامية والشم الذائمية والطباع السبعية وعليتها عليهم . والملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب . كذلك قال عليه الصلاة والسلام . والقلوب بيوت تولى الله بناءها ويده وأعداها لأن تكون خزائن علمه ومشارك مكنوناته ومهبط ملائكته ومعاشي أنزاره ومهاب نفحاته ومجال مكاشفاته ومجاري رحمته وهماها لتحصيل المعرفة به ففى كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله . إذهى الوسائل بين الله تعالى وبين خلقه وهم الوفود منه بالخيرات والمرصرون إليه وعنه بالباقيات الصالحات . ولولا تلك الأخلاق المذمومة اتقى حلت فيهم وهى التى ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله عز وجل حلها فيها وهى لا تخلو من خير تنزل به ويكون معها لحينا حلت حل الخير في ذلك القلب بحلولها ولما هى لها الجنتا وجدت قلبا غاليا ولو حينما من الدهر وزمنا نزلت عليه ودخلته وبقيت ما عدها من الخير عنده . فإن لم يظهر على الملائكة ما زججها عنه من تلك الأخلاق المذمومة بواسطة الشياطين الذين هم في مقابلة الملائكة لبقت عنده وسكنت فيه ولم تخرج عنه وعمرته بقدر سعة البيت والفساح من الخير . فإن كان البيت كثير الاتساع

أكثر في من متاعها واستمات بنيرها حتى يمتلئ البيت من متاعها وجهازها وهو الإيمان بالله والصلاح وضروب للمعارف النافعة عند الله عز وجل ، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ليسرق من ذلك الخير الذي هو متاع الملك ويثبت فيه خلفا مذموما لا يوجد إلا في النكبات وهو متاع الشيطان فأنله الله وطرده عن ذلك الخلق ، فإن جاء الشيطان مدد من الهوى من قبل النفس ولم يجد الملك نصرة وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهرم الملك وأخلى البيت ونهب المتاع وغرب البيت بعد عمارته وأظلم بعد نوره وضاق بعد انشراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر ، وأطاع وعصى ؛ وضل واهتدى .

فإن قلت : فيلزم أوصاف هذه الأخلاق المذمومة التي صدرت هؤلاء الأوصاف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم بكشف معاني التوحيد ومنهم من الحلول فيها حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات السالكين معها ، فأعلم أن الأخلاق التي لا يجتمع معها الملائكة في قلب واحد كثيرة والتي في قلوب هؤلاء منها معظمها وهي الطمع في غير خطير والحرص على فان حقير . وأما الصفات الأولى فإنهم رجعوا وغافوا أن يدوم محبة ما يشغلهم عن ذاتهم وينقص عليهم ما رغبوا فيه من راحتهم وتكدر لبيهم مثال شهواتهم فأبقوا أصرم على ما هم عليه . وأما الصفات الثانية والثالثة فصدف أيضا خوف وجزع وحرص على ما القوم من تبجيل أحدهم أن يروى مؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ومواساة إيلافهم أن تقطع واستغفالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلزموه وفرار آمن شرطه وما يصحبه من الأعمال والوظائف إذ يمتثلوه والكذب ما ذم لصورته وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الخسائس والجرح من الصبر على ما يهدد من الفضائل حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب .

فإن قلت : فكيف آمن من كفر وأطاع من عصى واهتدى من ضل إذا كانت الشياطين لا تفرق قلب الكافر والماضي والصال بما يتبين من الأخلاق المذمومة التي هي كلاب ناجمة وذئاب عادية وسباع ضارية ؟ وأوصاف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة وهي لا تدخل موصفا يحمل فيه شيء مما ذكرنا وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فليس هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هذا المفهوم ، فأعلم أن هذا يستدعي أوصافا من علم القلوب ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام المعلوم والقول والمعنى في جواب ما سألت عنه : أن للشيطان غفلات والأخلاق المذمومة عدمات كما أن الملائكة لها من القلوب غيبات ولتواتر الخير عليها فترات فإذا وجد الملك كما أعلت قلبا غاليا ولوزنا فر دخل فيه وأراه ما عنده من الخير فإن صادف منه قبولا ولما عرض عليه من الخير قشورا وزروا أورد عليه ما يميل ويستغرق له وإن صادف منه صحرا وسمع منه جعجوع الشياطين استغاثة بالأخلاق السكلانية استعانة وحل عنه وتركه ولهذا قيل : ما خلأ لب عن لمة ملك أو نزع شيطان .

فإن قلت : فأى بيت فهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب ، وأى كلب أدخل بيت القلب كلبا لخلق أوديت اللين ولب الجيران ، فأعلم أن الحديث خارج على سبب ، ومعناه وجهته : أن المقصود بالإخبار هو بيت القلب ، ولب الجيران معلوم ولا يبتك في ذلك ، ولكن يستقر أنه ما قلناه ويستنبط من مفهوم ما نبتك عليه ويتخطى منه إلى ما أشرنا لك نحوه ، ولا تنكر في ذلك إذا دل عليه العلم وجملة الاستيفاء ، ولم تنجم القلوب المستغاث ، ولم تصادمه شيئا من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحدا ولا تنزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقبل فكثير ما أورد شرح مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديده عن سببه إلى ما في معناه ومشابه له من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : رب مبلغ أوعى من سامع وسامل فقه إلى من هو أفقه منه .

فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ، وعلم السبب الذي جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يعدي عن سببه ويترق منه إلى مثل ما ترق من الحديث الآخر ؟ فهذا كما قيل : الحديث شجون وأبنتنا هذا الباب ما يقرب منه ويبعد علينا التخصص عنه ، نعم يترق منه إلى قريب من ذلك وشبهه ، ويكون

هذا الحديث منها عليه ، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت ألفة وعبدت من دون الله عز وجل ، وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على صيب فعل من رضى بذلك ، ونقص إدراك من دان به حين قال خبر ابن إبراهيم عليه السلام حيث قال (أتبدون ما تحتون « والله خلقكم وما تعملون ») فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد من دون الله سبحانه ، أو ما حكي به ما هو على مثاله ، ويترق من ذلك المعنى إلى أن القلب الذي هو بيت بناء الله ليكون مهبطاً للملائكة وعلا للذكرى ومعركة عبادته وحده دون غيره ؛ فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو المصوى لم يقر به الملائكة أيضا . فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عموما وما ذكرته لتعليل ينفى أن لا يقتضى إلا منافرة ماعبد أو ما نحت على مثاله ؟ قلنا : تشابهت الصور المنحوتة كهايات المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله وهو مضارعة ذى الأرواح ، وما نحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح ؛ فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة .

• فإن قيل : فأوجه الترخيص فيما رقم في ثوب ؟ فذلك لأنها ليست مقصودة في نفسها ؛ وإنما المقصود الثوب الذى رقت فيه .

• فإن قيل : فال بال الثياب رخص في عما كانتا بالتصوير وذات أنواط في العرب مشهورة معلومة ؟ فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت بغيره في أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما في السنة فأخر ثيابها وحل لساتيا لأجل اجتماعها عند ما وراحتا في ذلك اليوم ؛ ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ، ولو كان ذلك ما سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحمل لهم ذات أنواط حتى أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى كالملائكة والشمس والقمر وبيض الثجوم والسيح عليه السلام وعلى رضى الله عنه ، ولم يبدوا ما نحت على شكل النبات ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح فإبدع عن دركها من حرمه الله تعالى إياها ، فله الحمد وهو أمله .

بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرى

وأما أهل الاعتقاد المجرى عن تخصيصه بالعلم وتوثيقه بالأدلة وشده بالبراهين ، فقد انقسموا في الوجود إلى ثلاثة أصناف :

أحدهم صنف اعتقدوا مضمون ما أقروا به وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب أسروه في أنفسهم ، ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا ، وذلك لفرط بدهم وغلظ طبائعهم واعتصايب طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين ، وتحققنا وجود أمثالهم كثيرا على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم والسلف الصالحين رضى الله عنهم ، ثم لم يلبثنا أنه اعترض أحد إسلامهم ولا أوجب عليهم الخروج منه والمروءة عنه . ولا كل فوامع قصور فهمهم وبدهم عن فهم ذلك بطل الدلالة وقراءة ترك البراهين وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ما هم عليه ، وهؤلاء عندى معذورون بدهم مقبولون بما توافقوا عليه من إقرارهم وعقدهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه (لا يكلف الله نفسا إلا دسما) لا يخرجون عن مقتضى هذا آيات بحال ، وسنبدى لك بطريقان الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم وسلامة توحيدهم إن شاء الله عز وجل .

والصنف الثانى : اعتقدوا الحق مع مظاهر منهم من التطق واعتقدت مع ذلك أنواعا من الخائيل قام في غيبتها أنها أدلة وطائفة براهين وليست كذلك ، وقد وقع في هذا كثير من يشار إليه فضلا عن دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يرضع عليهم تلك الخائيل بالفتح ويطلها عليهم بالمعاوضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ولا أضغوا لما يأتى به ويترفعوا إلى أن يجابروه لما يجعلهم عليه من سوء الفهم أو دماء الاعتقاد وعندهم أن جميع تلك الخائيل في باب الاستدلال أرسخ من شواخ الجبال ، فهم من يعتقده دليله مذهب شيخه الرفيع القدر المطلع على العلم ، ومنهم من

يكون دليله خيرا له ، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أو حديث صحيح ، ولعمري إنهم ينبغي إذا صادفوا السنة باعتقادهم ولم يقموا في شيء من الضلال أن يفرقوا على ما هم عليه ولا يتركوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم ثلثا يكون إذا تقيع الحال معهم ربما لقنوا شبهة أو ترسخ في نفوسهم بدعة يمسرأغلغلاها ويقعوا في تكدير مسلم وتضيئه ، بل هناك أسباب كثيرة .

واعلم أن اعتقاد الخلاق وعلمها من أغذية النفوس ؛ فمن رغب في أكلتها لم يفتح بلونها ، وإذا حصل لذلك قوى به ، ومن فتح بأيسرها ولم تطلع منه إلى ما هو أعل من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطيف ، وإنما يهلك من لا باقة له ولا يجمدها ، أو يجمدها ولكنها تكون مشابة عن جاء بعترة بدعة وموم كفر ، فلا تذل عما يشار لك إليه ، وإنما المرغوب تنبيهك وإله المستعان ، وقلا بين الصنف الثاني والأول كل التفاوت ، من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلا ، غير أنهم أوثق وابطأ من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكروا وخلعوا رباط عقدهم ، وهؤلاء الأغلب لاسيل إلى انحلال عقودهم إذ لا يرون أنفسهم أنهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفين ، فلهذا كانوا أحسن حالا .

والصنف الثالث : أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم ، وقدموا النظر أيضا ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ومعهم من الذكاء والفطنة واليقظ ما لو نظروا للملأوا ، ولو استولوا للتحقق ، ولو طأوا للأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الزا حقا وما لو إلى الدعة ، واستبدوا بطريق العلم ، واستغفلوا الأعمال الموصلة إليه ، وقدموا بالقعود في حضيض الجهل ، فهؤلاء فيهم إشكال عند كثير من الناس في البداية ، ويرد في حالم النظر وهل يسمون عصاة أو غير ذلك يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين في السوام على الإطلاق من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفغان ، فمنهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكنهم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم ، ولعلك تقول : إن مذهبي المشهور أن الجهل لا يطلع من الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة حكم عليه بالسكون ، وكذلك الحياة والموت ، والعلم والجهل ، وسأمر ما له من الصفات . قلنا : فكل من صح ذلك في الصفات التي هي أعراض فقد لا يصح في الأوصاف التي هي أحكام الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والبدعة والسنة ، ربما كانت ليست من قبيل الأعراض . وإنما ذكرت لك هذا في معرض الشك في شعوب مانور على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم وعجزهم عن العبادة ووجوب العبادة في الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ؛ لأن أولئك سلبوا الإيمان عن لم يصدر اعتقاده من دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضاعوا المعرفة المشروطة في صحة الإيمان ، وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة فغفلوا عن الجمهور هذا الاحتمال ، وزادوا على أنفسهم أنهم أمروا بقول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا : إنما تجرت العامة عن سرد الدليل وتكلم العبادة عنه ، وأنه لا تجب عليهم لأهم إذا نهوا وعرض عليهم ما قرب من الألفاظ واعتادوا من المخططات دلائل الحوادث ووجه الاعتقاد إلى المحدث بدل الاعتقاد وعقدوا من هذه المعارف كثيرا وجدوا أنفسهم عارفين بذلك . واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية هكذا يقول إنما افترق الناس إلى النسبية وهتسروا على العبادة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نهوا عليها وتلطفت بهم في تفهيمها بالزوال إلى ما أتقوه من العبارات وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نهوا عليه وسارعوا إلى الفحش ، ومثال هذا كمن لى شيئا كان معه أولنا لما أصبح أوركه ففسيه وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد ذلك فذكر ، فإنه يقال بل لأنه كان عارفا بما غاب عنه ، ولو لعارفاته به ما وجد عدم الإنكار وسرعة الألفة عنه ، وطائفة من المتكلمين أيضا أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة للشرط عند أولئك ، وأي الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ليس من غرضنا في هذا الموضوع ، وإنما غرضنا تبديد ما أشاعه في الإحياء أمل الغلول والأغلال فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أهدينا من وجه ذلك في مراق الزاب ما ينبغي فيها بلذنب الله عز وجل .

فصل في بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى هو من تمة ماجرى ، فلتعلم أن مامتهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال : لا يستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضرورى ، فأصنى الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب ، ولكنه على طريق التفاوت كسابق ، الحالة الثانية : أن لا يعتقدوا إلا بعض الأركان بما فيه خلاف إذا نفر ولم تنصف إليه في اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أن موجود حتى لا غير ، وأمثال هذه التقديرات ، ويخو عن اعتقاد باقى الصفات خلوا كاملا لا يخطر بباله ولا يعتقد فيها حق ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ، ولكن التقدير الذى يعتقد من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره . والحالة الثالثة أن يعتقد الوجود كما قلنا والوحدانية والحياة ، ويكون فيها يعتقد باقى الصفات على ما لا يوافق الحق ما هو عليه بما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذى يدل عليه العلم ويستنبط من ظواهر الشرع أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نعمة ومسلك خلاص ووصف إيمان أو إسلام ، وسواء في ذلك الصنف الأول والثاني من أهل الاعتقاد ، ويبقى الصنف الثالث على احتمالات النظر كما نهنك عليه ، وأما أهل الحالة الثانية وهى الاقتصار على الوجود المفرد أو الوجود ووصف آخر معه مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التى للكمال والجلال وإركانها فالتقدم من السلف لم تشتهر عنهم في صورة المسألة ما يخرج صاحب هذا المقد عن حكم الإيمان والإسلام ، ولما آخرون مختلفون فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عز وجل ، وأظهر الإقرار بنبية صلى الله عليه وسلم من الإسلام ، ولا يبعد أن يكون كثير من أسلم من الأجلال والرحمان وضعفاء النساء ، والاتباع على هذا لا يريد عليه لوسنوا واستكسافوا عن الله عز وجل ، هل له إرادة أوقاه أو كلام أو ما شاكل ذلك ؟ وهل له صفات منوية ليست هى هو ولاهى غيره ؟ ربما وجدوا مجمعون هذا ولا يعقلون وجه ما يحاطون به ، وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووجدانية منته من الإقرار بالنبية من حكم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم قد رفع القتال والقتل وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام لمن قال لا إله إلا الله واعتقد عليها ، وهذه الكليات لا تقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة في الظاهر وعلى البديهة من غير نظر ، ثم سمعنا عن قائلما في صدر الإسلام أنه لم يعلم بعد ما لإقرار انضر الوضوء والصلاة وهيئات الأعمال البدنية والسكف عن أذى المسلم ، ولم يلقنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولأهل الله تعالى عالم يعلم أو عالم بنفسه وهو باقى ببقاء أو باقى بنفسه وأشياء هذه للمعارف ، ولا يدفع ظهور هذا للإماند أو جاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب في الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحقق منه وأبى أن يذعن لتعلم ما زاد على ماعنده لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه والحكم عليه بالخلود في النار عسر جدا أو خطر عظيم مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، ولملك يقول قد قال في مواطن أخرى إلا بحقها ثم تقول اعتقاد باقى الصفات التى بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكلامه من حقها ، نعم هى من حقها عند من بلغه أمرها وسمع بها أن يعتقد ها ، وأما من خلا من اعتقادها ولم يقوله أن يقامها ولم يسمع بها فيه سرى هذا النظر وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ وفى مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل يقول في الآخرة : أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وذكر من المثال إلى القدرة والخرقة من الإيمان ، إلى أن خرج منها من لم يعمل حسنة قط فما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين ، لأن التقدير وقع في الإيمان لائق الأعمال .

فلن قلت : فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحها معرفة ولم يقصد ما دليل فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها ؟ قلنا : قد أرى لك وجه الاعتراض على هذا المذهب ونهنك على تبد أمه عن وجه الحق فيه وأنهم أرباب تصف ، ولو استقصى مع كثير منهم القول في ذلك لبداله أنه تسبب إلى ما يظهره من قصوره عن معرفة شرطها في إيمان غيره ، ولآخر من خسه الركون إلى ما رأته أول من رأيه وأحق بالصواب ولعل

عن مذهبه ، ثم بعد ذلك تراءى حين أخبروا عن ساب الإيمان عنهم لم يبق الاسم الكفر عليهم ثم يبرحوا على الاستنابة إن كانت من مذهبه ، ثم يحكي فيه بالقتل والاسترقاق ؛ فإذا تأملت هذا لم تحف عليك عيب مقالته وقصص ما مالوا إليه ، فترجع إلى ما نحن بسبيله ونستعين بالقرع وجمل . وأما أرباب الحالة الثالثة - وهى اعتقاد البدة في الصفات أو بعضها - فإن حكمتنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا وإسلامهم حققتنا أمرهؤلاء ، فيما اعتقدوه ، إذ لم يقموا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إصالح العذر ، لأن هؤلاء قد حصل لهم في العقد ما هو شرط الجلاص والنجاة من الهلاك المآلهم وأصيبوا فيما وراء ذلك ، فإن أمكن رد دم في الدنيا وزجرهم عنه إن أظهروا المنع عن الإفلاخ والرجوع بالعقوبة المولية دون قتل كان ذلك ، وإن قالوا بالموت لم تقصرهم في اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قلوبهم ، واقفاهم بالناسجى والمالكا من خلقه ، والمطيع والماءى من عباده ، هكذا يذنب أن يكون مذهب من نظر في خلق الله تعالى بين الرأفة والرحمة ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده فيما غاب عنه عمله وعدم فيه سبيل اليقين وفهم معنى قوله عز وجل ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾

فإن قلت : وإن أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في القدرية د لهم بجوس هذه الأمة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « ستفرق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » ، وقال عن قوم د يخرجون على حين فرقة من الناس يقولون بقول خير البرية ، أو من قول خير البرية يعرفون من الدين كما يبرق السهم من الرمية ، والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه مما ترجب في الظاهر تكفيرهم بالإطلاق ، فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء فقد أتى عليهم دينهم وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم ، وكل فريق منهم في مقابلة من خالفه فليقع التحاكم عند العالم الأكبر المؤيد بالمعصية سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم ، فهو عليه الصلاة والسلام حين قال د بجوس هذه الأمة ، وأضافهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل بجوس على الإطلاق وحين أخبر عن الفرق أنهم في النار فما أخبر أنهم خالدون فيها ، وحين قال د يعرفون من الدين كما يبرق السهم من الرمية ، فقد قال متصلا بهذا القول وتبارى في الفرق ، ومما موضع هذا التبارى من المثل الذي ضربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى وتذكر شيئا وتذلل عن غيره ؟ عليك بالعدل تكن من أمهه ، واستعمل التنظن تشاهد المعجائب المعجبة وتفهيم قول الله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾

(فصل) ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفا وتفردة عن المعرفة قريبا من رأه أتى عليه شبه التشتر الثاني من الجوز ، لأن ذلك التشتر يؤكل مع ما هو عليه صوتا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما المحتاج وبلاغا للجائع ، وبالجملة فهو لمن لا شيء معه غير من فقدته وكذلك اعتقاد التوحيد . وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضعيفا ، فهو في الدنيا والآخرة وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر ، ومنى ركب أحد هذا فقد وقع في أعظم الحرج والمنكر .

بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد للغزيين

والكلام في هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود (أحدهما) أن يتكلم في الأسباب التي توصل إليه والمسالكا التي يبرح عليها نحوه والأحوال التي يتخذها بمصولة كما فدره العز بن العليمي ، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم (والحد الثاني) أن يكون الكلام في عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يتصور السالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه وانكشافه له بالمشاهدة (والحد الثالث) في ثمرات ذلك التوحيد وما ياتى أمه به ويطمعون عليه بسببه ويكرمون به من أجله ويتحققون من فوائد المزيد من جهته ، أما الحد الأول فالكلام عليه والبيان له والكشف لمدائقه ونذله للصغير والكبير ما هو به مشدد في أمره فتزعد بالنار على كتمه فيه بعت الأنبياء ومن أجله أرسل

الرسول وبيانه الناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمته وحده الصحف والكتب وليقع التنقذ في القلوب بتحقيقه وتصدقه أيدت لرسول بالمعجزات والاولياء والانبياء بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .
 وعليه أخذ الله للثاني على الذين أوتوا الكتاب ليبينه للناس ولا يكتموه ، وفيه أنزل الله (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) وإياه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وجب ذلك محصور في اثنتين : العلم بالعبادة ، والعمل بالنسبة ؛ وهما ملبيان على آيتين : الحرص الشديد والنية الخالصة . والسر في تحصيلهما الثمان : نفاقة الباطن ، وسلامة الجوارح ؛ ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة . وأما الحد الثاني فالكلام فيه أكثر ما يكون على طريقة ضرب الأمثال ، تشبيها بالرمز تارة وبالتصریح أخرى ؛ ولكن على الجملة بما يناسب علوم الطواهر ولكن يشرف بذلك اللبيب الخاذق على بعض المراد وبفهم منه كثيرا من المقصود وينكشف له جل ما يشار إليه ، إذا كان سالما من شرك التعصب بعيداً من هوة الحموى نظيفاً من دنس التقليد . (وأما الحد الثالث) فلا سبيل إلى ذكر شيء منه إلا مع أهله بعد علمهم به على سبيل التذكير لإعلاء التعليم وإنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ما وصفناه لأن الحد الأول فيه بعض التصحيع للخلق واستغناهم من غرة الجمل والتكريب بهم من مهادى العطب وقودهم إلى معرفة هذا المقام وما وراه مما هو أعلى منه مما لم فيه الملك الأكبر وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان وأقيم عليه واضح البرهان وهو يومئذ الطريق وأول سبيل السعادة ، فمن عجز عن ذلك كان على غيره أعجز ، ومن سلكه على استقامة فالغالب عليه الوصول إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ومن وصل شاهد ومن شاهد علم ، وذلك غاية المطلوب ونهاية المرغوب والمجرب ، ومن قد حرم الوصول وما بعده (فضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) ومن غاب لم تنفع الأخبار ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأيضاً فإن الأخبار بما وراء الحد الأول والثاني على وجهه لو كشف للخلق كافة وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف المتعاطب كان فيه زيادة محنة وسبب فيه إهلاك أكثرهم ، من ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لزيادة العلم وكثرة غرضه ودقة معناه وعلوه من منازل الرفعة وبعده بالجملة والتفصيل من جميع ما عهد في عالم الملك والشهادة وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل ما نشأ عنه ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروبيات ونظريات ، فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحيل عليه مثل كما قال عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وحكى عن ابن عباس رحمه الله أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء ، وأراد من لم ينكشف له شيء من علمها وحقائقها في الدنيا ، وإيضاً فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد وينطرق إليه من أهل الغفلة وذوى أقصود جحد وتبديد ؛ فلهاذا أمروا بالكتم إشفافاً على من حجب من العلم ؛ ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم لا تمدنوا الناس بما لم تصله قلوبهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ، وقال صلى الله عليه وسلم ما أحدث أحدكم قولاً ما يجد عليه لم تصله قلوبهم إلا كان عليهم فتنة ، وعلى هذا يخرج قول المشايخ : وإفشاء سر الربوبية كفر ، وزناؤه وإياكم قلوباً وأعيان الخيرات وكل على صالح ؛ وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر على كتب الرأية والدراية وملت من الطروس وكثرت به في المحافل البورس ، وهو غير محبوب عن طالب ولا ممنوع عن راغب ، قد أمر الجاهل به أن يشهده والعلماء أن يبدلوه ويملوه ، فلانعید فيه ههنا قولاً . ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تعد إلى حدودات الشرع ، فلتن الثمان إلى الكلام بالذي يليق بهذا الحال والمقام فنقول : أرباب المقام الثالث في التوحيد وهم الملقبون على ثلاثة أصناف ، على الجملة فكلهم نظروا إلى المخالقات فأروا علامات الحدوث فيها لائحة ، وعانوا حالات الانقمار إلى الله تعالى عليهم واضحة وجمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة واضحة ، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم وشاهدوه بنبيب أرواحهم ، ولا حظوا بجلاله وجلاله بخفي أسرارهم ، ومعهم ذلك في درجات التقرب على قدر حفظ كل واحد منهم في

اليقين وصفاء القلب ، وهؤلاء الأحناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته ، واتسامهم في تلك المعرفة كاتساع حفاظ تلاوة القرآن مثلا ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر أو كثيرا منه دون كاله ، ومن حافظ لجسمه لكنه متلهثم فيه متوقف على الانهماك في تلاوة غير متوقفة في شيء منه وكلهم ينسب إليه ويعد في المشهد والغيب من أهله ، وكذلك أهل هذه المراتبة أيضا منهم متصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات أو كثير منها وما كان فيها بقرأ من الصفحات ما يغني عليه ، ومن قارئ لجسمها متفهم لما لكن ينزع تسبيلها من فكرة ومداومة عبادة ، ومن ماهر في قراءتها مستخرج لرموزها نافذ البصيرة في رؤية حقيقتها مفتوح السمع تاطفه الأشياء في فراغه وشغله وبحسب ذلك اختلفت أحوالهم في الحروف والرجاء والتقبض والبسط والفناء ، ولا مزيد على هذا المثال فهو أصلح لدنوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال وعلت لم سمى أهل هذه المراتبة مقربين فذلك لعدم عن غلطات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ولا أقرب من العارف العالم ، والقرب والبعد ههنا عبارتان عن حالتين على سبيل التحيز في لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعملين لها في هذا الفن ، أحد المالكين عرء البصيرة والطمس القلب والمخولوع معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بهذا : مأخوذا من البعد عن عمل الراحة والمزلة الواجب وموضع المارة والألن والانتطاع في مهامه القفر وأمكنة الخوف ومظان الانفراد والوحشة . والمخافة الثانية : عبارة عن افتقاد الباطن واشتغال القلب وانفساح الصدر بنور اليقين والمعرفة والعقل ، وعجالة البيت بمشاهدة ما غاب عنه أهل النفقة والهو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل ! لملك تقول : أرى بعض أنه الكلام شغل عن حقوق هذا المقام كأن لم يضروا فيه بسهم ، ولم يفر قدحهم منه بحط ولا سهم وأرام عند الجمهور في الظاهر وعند أنفسهم أهم أهل الدلالة على الله تعالى وقادة الحق إلى مرآشدهم ومجاهدون أرباب النحل المردية والمثل الصالحة المهلكة ، وقسب في الإحياء أهم مع العوام في الاعتقاد سواء ، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم .

فاعلم أن ما رأيت في الإحياء صحيح ولكن بقي في كشفه أمر لا يخفى على المستبحرين ، ولا ينبغي عن الشاذين إذا كانوا منصفين : وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط لم يفارقوا عقود العوام ، وإنما فارقوهم بالجدل عن الانحرام ، والجدل علم لفظي وأكثره احتيال وهوى وهو عمل النفس وتخليق الفهم وليس بشجرة المشاهدة والكشف ، ولأجل هذا كان فيه السمين والذئب ، وشاع في حال النضال إيراد التقطعي وما هو حكمه من غلبة الظن وإبداء الصحيح وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه إنما هو علم التوحيد وفهم الأحوال ومعرفة باليقين التام والعلم المضارع للضرورة بأن لا إله إلا الله ، إذ لا فاعل غيره ولا حاكم في الدارين سواء ومشاهدة القنوب لما حجب من القنوب ، ومن أين للازل طي المنازل ، وما لعلم الكلام مثل هذا المقام ، بل هو من خدام الشرع وحراس متبعية من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ويقطع به ، ولكن ليس عن مطالع الأنوار ومدارك الاحتياط ، والدار في أوقات الضرورات والاختيار وبين ما يراودك حاجته إن دعت ، وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذي خلافة بما ينص على ذوي اليقين العيش ويشمل الذهن ويكسر النفس ، وما أهله الذين حفظ ضمير ووقع عليه فيما معنى من الزمان إليهم لا تقول في أكثرهم أنهم لا يحسنون غيره . ولا يتحصنون بالتوحيد بمقام سواء بما هو أعلى منه ، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ما ذكرنا ، فهم نصراء لكمهم لم يدعوا من العلم في الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأوكد ، ولما كان نجم في وقتهم من البدع وظهور من الأهواء وشاع من تشبث كلمة أهل الحق ربحر العوام مع كل ناعق ، فرأوا الرد عليهم والمنازعة لهم والسعي في اجتراح الكلمة على السنة بعد افتراقها ، وإهلاك ذوي الكيد في احتياليهم وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفن ، وأول بهم من الكلام بعلوم الإشارات وكشف أحوال أرباب المقامات ووصف فقه الأرواح والفوس وتفهم كل ناطق وجامد فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص وهم مكثيون الماتوة ، والبامة أحق بالحفظ وعقادهم أولى بالحراسة ، واستفاد من يخاف عليه الملاك أول من مؤانسة وحيد والتصديق على ذي بلة من العيش ، فكيف

إن كان عن غناه ، وأيضاً فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزيغ فتصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ من أهل الفساد والنفادى على التلى وسبيل الفساد ، فكما لا يقال : السيف أبلغ حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك لا يقال : علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لا يقال في الصدر الأول فقهاء الأمصار ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم في الغالب إلا علوم آخر كالغته والحديث والتفسير ، لأن الخلق أحوج إلى علم محافظ عنهم وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم ، فلو أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات واقطع علم الشرع ، ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين بغير طريق علم الكلام والجدال ، يتحلون بالمقامات المذكورة وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهاً ما أخذ عنهم الخاص والعام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضى الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم لما خافوا من دوس الإسلام وأن يضعف ويقل أهله ويرجع البلاد والعامه إلى الكفر كما كانوا أول مرة ، فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم والمبعوث لدعوة الحق عليه الصلاة والسلام رأوا أن الجهاد والباطل في غير العدو والفرق في سبيل الله وضرب وجه الكفرة بالسيف وإدخال الناس في دين الله أولى بهم من سائر الأعمال وأحق من تدريس العلوم كلها ظاهراً وباطناً ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل وهم في حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم أؤكد من النظر إلى الخصوص ، لأننا لخصرهم بأنفسهم ضياء ولم يحلم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتغلاً بهم وإذا بدلم عذرنا عن حيلناهم وسائقنا بهم إلى مراشدهم وصلحهم كان هلاك إليهم أسرع ، ثم لا يكون من بعد ذلك إن فسد حال العموم للخصوص قدر ، ولا يظهر لهم نور ولا يقدرون على شيء كامل من البر ، فلا خاصة للإيماء ، ولقد كانت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم بحال الجماهير أكثر ، والخوف عليهم من الزيغ والضلال والملاك أشد ، واللفظ بهم في تخفيف الرغائب والأخذ بالرفق أبلغ ، وكان أهل القوة وذوى البصائر في الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يجب أن يعمل بالعمل من الطاعة فما يمنه منه ، أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته حين علم من أكثرهم الضعف ولم يكره لهم ، وفيه زيادة الأجر وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ولكن خاف عليهم أن يقتضوا في تضييع الفرض فيسكون عليهم ككل من الوزر ألا ترى كيف نبى الخلق عن قيام الليل كله ، وكان عثمان رضى الله عنه يقوم فلم ينه ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه وقال لعائشة رضى الله عنها : لو لا حدثان عهد قومك بالكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم . وقال للأَنْصار أما ترضون أن يذهب الناس بالمشاة والبير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالك ، ومع ذلك فالذى حفظ عنه صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من بعده وفقهاء الأمصار وأعيان المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم كثيرة لا تحصى ، وإنما القليل من حله اليوم عنهم ونفعه مثلهم فاقصد تجد ، وقصد لاقتباس المعارف تعلم ، وطالع كتب الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توفى (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب)

بيان المرتبة الرابعة وهو توحيد الصديقين

وأما أهل المرتبة الرابعة فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ، شهِرُوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا في المارين غيره ولا اطَّلَعُوا في الوجود على سواه ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فيها خصوصاً من المعرفة في جبراهم ، فكان جبراً إلى بكر الصديق رضى الله عنه ، لا إله إلا الله ، وكان جبراً على عمر رضى الله عنه ، الله أكبر ، وكان جبراً على عثمان رضى الله عنه ، سبحان الله ، وكان جبراً على رضى الله عنه ، الحمد لله ، فاستقرى السابقون من ذلك أن أبكر لم يشهد في المارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلذا كان الصديق ، وسمى به كما علمت ، وكان يقول : لا إله إلا الله ، وكان عمر يرى مادون الله صحتها مع الله في جنب عظمته فيقول : الله أكبر ، وكان عثمان لا يرى في التنزيه إلا الله تعالى إذ الشكل قائم به غير مبرى من التقصان والقائم بغيره معلول فكان يقول : سبحان الله ،

وعلى لا يرى لعمدة في الدفع والرفع والمطاء ولتقع في الكروه والمحروب إلا من الله سبحانه فكان يقول « الحمد لله ، وأهل هذه الرتبة على الجملة في حال خصوصهم فيها صنفان : مريدون ، ومراذون ، فالمريدون في الغالب لابد لهم من أن يحلوا في المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون ، وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ويتمكنون فيها : ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأتواد والبدلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة يكون التقباء والتجباء والشهداء والصالحون و آفة أهل .

• فإن قلت : أليس الوجود مشتركاً بين الحوادث والقديم والمألوه والإله ، ثم معلوم أن الإله واحد والحوادث كثيرة ؟ فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئاً واحداً ؟ ذلك على طريق قلبه لا عيان فتعود الحوادث قديمة ثم تتحدث بالواحد فترجع هي هو ، وفي هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل ما ينفى عن إطالة القول فيه . وإن كان على طريق التخيل للول لها حقيقة له ، فكيف يحتاج به ؟ أو كيف يعد حالاً لولي أو فضيلة لبشر ؟ الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تغلب إلى القدم ولم تتحد بالفاعل ، ولا أعترى الولي تخيل فتخيل ما لا حقيقة له وإنما هو ولي بجنتي وصديق مرضي ، خصه الله تعالى بمعرفته على سبيل اليقين والكشف التام ، وكشف لقلبه ما لو رآه بصره عياناً ما ازداد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحدنا من خلقه لما أطم مسيتك وما أعظم المراء فيك حين فتشت الخلق بمبارك و كلمتهم بمكيا لك وفضلت نفسك على الجميع ، إذ لا سبب لإنتارك إن صح إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحد مالم ترزق ، أو يخص من المعرفة مالم يخص ، فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه لا يخرج منه ، وما أطلع عليه لا يشيب عنه ، وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا في حال نومه وشغله ، وهذا موجود فيمن كثر اهتمامه بشيء ولبت في قلبه حاله : أنه إذا نام أو اشتغل لم يفقهه في شغله ونومه كما لا يفقهه في يقظته وفرغه ، ولهذا وآفة أعلم إذا رأى الولي المتمكن في رتبة الصديقين غلوا كان حياً أو مجاداً صغيراً أو كبيراً لم يره من حيث هو هو ، إنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ثم أدام القهر عليه في الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشبوهة آثارها في المحلقات ليست لغزير الموصوف الذي هو الله عز وجل بل له ، الهت الولي عن غيره وصار لم ير سواه ، ومعنى ذلك أنه لا يمتيز بالذكر في سر القلب وغير المعرفة ، ولا بالإدراك في ظاهر الحس دون ما كان موجوداً به وصار عنه فانياً ، فبعد هذا علم من أمحيه أن لا يحتاج إليها مع هذا الموضوع ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحول والقوة وهو العلي العظيم .

(فصل) وأما معنى إفشاء سر الربوبية كفر ، فيخرج على وجهين ، أحدهما : أن يكون المراد به كفرا دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيماً لما أتى به المفسر وتعظيماً لما ارتكب ، ويعترض هذا بأن يقال : لا يصح أن يسمى هذا كفراً لأنه ضد الكفر ؟ إذ الكفر الذي سمى على معناه سائر ، وهذا المفسر لمر ناسر ، وأين النشر والإظهار من التنظية ؟ والإعلان من السكم ؟ والدفاع هذا حين بأن يقال : ليس الكفر الشرعي تابع للاشتقاق ، وإنما هو حكم مخالف للامر وارتكاب النهي ، فن رد إحسان حسن أوجد لعمدة متفضل ، فيقال عليه كفر لجهتين : أحدهما من جهة الاشتقاق ويكون إذ ذاك اسماً ينفى عن وصف ، والثانية من جهة الشرع ويكون إذ ذاك حكماً يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد بشكر المنعم ، فافهم ولا تنهض مع الألفاظ ولا يفرطك العبارات ولا تحجبك التسميات ، وتطفن لتداعبها واحترس من استدراجها ، فإذا من أظهر ما أمر بكنهه كان كن كمن مأمراً بنشره ، وفي غافلة الأمر فيها حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع قوله صلى الله عليه وسلم « لا يتحدثوا الناس بما لم تعلمه عقولهم » وفي ارتكاب النهي عصيان ، ويسمى في باب القياس على المذكور كفراً البدن ، وقسمه أخرى : وذلك أن العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء ، فرأس الإنسان تشابه سماء العالم من حيث إن كل ما عايناهو سما ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم من حيث إن الكواكب أجسام مشقة تستمد من نور الشمس فتضي بها

والخماس أجسام لطيفة مشقة تستمد من الروح فيضيه مسلك للدركات ، وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضياء العالم ونور نباته وحركته ضواريه وحيوانه وحياته فيها تظهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل في الظاهر نمو أجزائه بناته ونبات شمره وحلول حياته وجمعت الشمس وسط العالم وهي تقطع بالنهار وتقيت بالليل ، وجمعت الروح وسط جسم الإنسان وهي تغيب باليوم وتقطع بالليظة ، ونفس الإنسان تشابه القمر من حيث إن القمر يستمد من الشمس ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس والروح خالف النفس ، والقمر آية محوّة والنفس مثلها ، وعو القمر في أن لا يكون ضياؤه منه وعو النفس في أن ليس عقلها منها ، ويعتري الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، وتعتري النفس والروح وسائر الخواص غيب وذهول ، وفي العالم نبات ومياه ورياح وجبال وحيوان ، وفي الإنسان نبات وهو الشعر ، ومياه وهو العرق والدموع والريق والدم ، وفيه جبال وهي العظام ، وحيوان وهي هوائ الجسم ، ولخصت المشابهة على كل حال ، ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ومنها ما هي لنا غير معروفة ولا معلومة كان في استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيها ذكرناه ما يحصل به لدى العقول تشبيه وتمثيل .

هـ فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجمعت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا قلنا تساعد عليه ، إذ قد كثر الخلاف في ذلك : فأعلم أنه إنما على الإنسان أن يبنى كلامه على ما يعلم لا على ما يجهل ، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان هـ فإن قلت : فقد سبق في الإحياء أنهما شيء واحد وقلت في هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح فالذي سبق في الإحياء ورأيت في هذه الإجابة وهو شيء واحد لا يتناقض مع ما قلناه الآن ، وذلك أن لها معنى يسمى بالروح تارة وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ثم لا يبعد أن يكون لها معنى آخر يفرد باسم النفس فقط ولا يسمى روح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الكلام في أحد وجهي الإضافة التي في ضمير صورته والوجه الآخر : وهو أن من حل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به ؛ فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر سميع بصير عالم مرشد متكلم فاعل وخالق آدم عليه السلام حيا قادرا عالما سميعا بصيرا مرشدا متكلمًا فاعلا ، وكانت لآدم عليه السلام صورة محسوسة مكونة مخلوقة مقدرة بالعقل وهي لله تعالى مضافة باللفظ ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا في الأسماء التي هي عبارة تناظر فقط ، ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا ، وإنما مرادنا تبين ما بين الصورتين بأبعد وجوه الإيمان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا في الأسماء المفوظ بها لا غير ، وفرارا أن تثبت صورة لله تعالى ويطلق عليها حالة الوجود ؛ فافهم هذا فإنه من أدق ما يقرع صدرك ويلج قلبك ويظهر لعقلك ؛ ولهذا قيل لك : فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى في الوجود تكن مشبها مطلقا ومعناه نفي أنك من المشبهين لا من المزهين وحسكت على نفسك بالتشبيه معتقدا ولا تنكر ، كما قيل : كن يهوديا صرفا ولا فلا تلنسب بالتوراة : أي تتألبس بدينهم وتريد أن لا تنسب إليهم : أي اقرأ التوراة ولا تامل بها . وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة منزها مجلا ومقدسا خلاصا : أي ليس تعتقد من الإضافة في الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء . ن المعاني ، فتلك المعاني المسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال . وقد حفظ عن السبلي رحمة الله عليه في معنى ما ذكرنا من هذا الوجه قول بليغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث فقال : خلقه الله على الأسماء والصفات لأعلى المراتب هـ فإن قلت : فكذلك قال ابن تيمية في كتابه المعروف بتناقض الحديث حين قال : هو صورة لا كالصور ، فلم أخذ عليه في ذلك ؟ وأقيمت عليه الشناعة به ؟ واطرح قوله ولم يرعه أكثر العلماء وأهل التحقيق ؟ فأعلم أن الذي ارتكبه ابن تيمية عفا عنه نحن أشد إعراضا عنه وأبلغ في الإنكار عليه وأبعد الناس عن تسويغ قوله ، وليس هو الذي المننا نحن به وأفسدناك بحول الله وقوته إياه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذمعت عن تقبل مرادنا . ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن تيمية ، ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة في التسميات ، وهو أيتها حالة الذات ؛ فإن من لبس الجزم فيصور تفرق ، والذي يطلب على الظن في ابن تيمية أنه لم يفرع سمع هذه المقال التي أشرنا إليها وأخرجنا إلى حيز الوجود بتأييد الله تعالى بالمبارة

عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف ، وعلاؤه المشق فتوقف بين ظاهر الحديث الذي هو موجب عند ذوي القصور تشبيها وبين التأويل الذي ينبغي فيه ، فأثبت للشيء الرغوب عنه ، وأراد نفي ما عاين من الوقوع فيه ، فلم يأت اجتراح ما رام ولا نظام ما اقترف ، فها هو صورة لا كالصور ، ولكل ساقطة لافطة ، فتبادر الناس إلى الأخذ عنه (فصل) ومعنى قاطع الطريق (فأنك بالواد للقدس طوى) أى دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فأنك على هداية ورشد . والوادى القدس عبارة عن مقام الحكيم موسى عليه السلام مع الله تعالى فى الوادى ، وإنما تقدس الوادى بما أنزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ، واقم ذكر الوادى مقام ما حصل فيه لحذف المضاعف وأقام المضاعف إليه مقامه ؛ وإلا فالتقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول ، إذ المواضع لا تأمير لما وإتمامه ظروف .

(فصل) ومعنى (فاستمع) أى سر قلبك لما يرحى ، فملكك تجد على النار هدى ، وملكك من سرادات المر تنادى بما نودى به موسى (إنا أنار بك) أى فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد وحوادث الصدق وثمار المعارف وارتياح سلوك الطريق وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب كما يقول أذن الرأس ووسع الأذان ، وما يرحى ، أى ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك . أو إلقاء في روع ، أو مكاشفة بحقيقة ، أو ضرب مثل ، مع العلم بتأويله . ومعنى « لملك » حرف ترويج ، ومعنى لم تدرك آفة تقطعك عن سماع الوحي من إعجاب بحال أو إضافة دعوى إلى النفس أو وقوع بما وصلت إليه واستبداد به عن غيره . وسرادات المجد : هى حجب الملكوت ، وما ودى به مرسى : هو علم التوحيد التى وسعت العبارة اللطيفة عنه بقوله حين قال له (يا موسى إني أنا الله لا إله إلا أنا) والمنادى باسمه أزلا وأبدا هو اسم موسى لما سمى السالك الموجود في كلام الله تعالى في أول الأزل قبل أن يخلق مرسى ، لا إلى أول . وكلام الله تعالى صفة لا يتغير كما يتغير هو إذ ليست صفاته المعنوية لغيره ، وهو الذى لا يحوّل ولا يزول ، وقد زل قوم عظم اقتراحهم وهو أنهم حلوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة ، وعباد باله من أين يتمثل هذا القول ما حلوه من المذهب ؟ أليسوا وهم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب لإنسان آخر قلده ولاية كبيرة وفوض إليه عملا عظيما وحياه جباة خطيرا ، وهو ينادى باسمه أو بأمره بما يمثل من أمره . ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير المولى لم يشارك المولى الخلق عليه والمفوض إليه في شيء مما ولى وأعطى ، ولم يجب له بشيء أو مشاهدته أكثر من حظوة القرية وشرف الحضور ومزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية والمفوض إليه الأمر . ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل في طريقه ذلك بحيث يصل بالمكاشفة والمساعدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل العلوم ؛ فلا يمتنع أن يسمع ما يوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحي على الدوام وموضع الملازمة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحي مقصودا بذلك بجلوه في هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة فقط . بل هو قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعى آخر ترقى إلى ذلك المقام اضماقا لما جاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبي مرسل ، فقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون في أطرافه ، لأن هذا المقام الذى هو المرتبة ليست من غايات مقامات الولاية بل هو الولاية الثالثة مبادئها أقرب منه إلى غايتها ، فإن لم يفهم درجات المقام وخصائص النبوة وأحوال الولايات كيف يتعبرن الكلام فيها والطنن على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه ، محاسب بقلته وبقية ، مكتوب عليه خطراته ، محفوظ عليه لحظاته ، مختصا منه يقظاته وغفلاته ، فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .

• فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ونداء كلامه ، والله تعالى يقول (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من الرسل . إنما هو على سبيل المبالغة في التفضيل ، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره ممن ليس بولي ولا رسول . وإذا بان السبب وقصد باذر الشك العارض في مسالك الحقائق • فنقول : ليس في الآية ما يرد ما قلنا ولا يكسره ، لأن ما أوجبتنا أنه كله وقصدنا لآلئواعام

بالخطاب عدداً . وإنما قلنا : يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه ، ليس من يسمع كلام الإنسان مثلاً مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كلمه ؟ وقد حكى أن طائفة من بني إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذي خاطب به موسى حين كله ، ثم إذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة في نبوته ورسالته ، على أن يقول نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى يمكن الاختلاف فيه ، فيكون النبي المرسل يسمع كلام الله تعالى الثاني القديم بلا حجاب في السمع ولا واسطة بينه وبين القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة مما يلقي في روعه وما ينادي في سميه أو سره وأشبه ذلك ، ذكر أن قوم موسى عليه السلام حين سمعوا كلام الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتاً كالنبوء - وهو القرآن - فإذا صح ذلك فبقيان المقامات مختلف ورود الخطاب فوضى يسمع كلام الله بالحقيقة الذي هو صفة له بلا كيف ولا صورة نظم الحروف ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضاً سمعوا صوتاً غلوفاً وجمل لم علامة ودلالة على جهة التكليم ، وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضروري ، وسمى ذلك الذي سمعوه كلامه ؛ إذ كان دلالة عليه ، كما تسمى التلاوة وهي الحروف المتلو بها القرآن : كلام الله تعالى ؛ إذ هي دلالة عليه .

• فإن قلت : لما يلقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذي يستفيد معرفة وحدانيته وفق أمره ونهيه وفهم مراده وحكمه يلحقه العلم الضروري فيما يرى بأنه الشيء المرسل إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دونه ولو كان هو ضامن آخر عنه ومقامه مقامه ؟ فأعلم أن الذي أوجب غورك ودوام زالك واعتراضك على العلوم بالجهل وعلى الخلق بالخيال أنك بعيد عن غور المطالب ، بعيد عن شرك المعاطب ، بعيد عن الصوت عتيد عصب السحاب ، إن الذي استحق به الناظر السالك الراسل المرتبة الثالثة سمع نداء الله تعالى معنى ومقام وسال وخاصة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر وبينهما ما بين من استحق المواجهة بالمخاطب والنفس به ، وبين من لا يستحق أكثر من سماعه من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما ما يوجب نفورا وتباين ما بينهما . فإذ فهمت الآن وإلا فقد عني لا ندر بجمال .

• فإن قيل : ألم يقل الله تعالى (فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) وسمع الله تعالى بصجاب أو غير حجاب وعلم ما في الملكوت ومشاهدة الملائكة وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب ؟ فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟ قلنا في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق والمشاهدة الصورية ، وهو أن يكون منه : إلا من ارتضى من رسول ومن أتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة ، أو عمل بما جاء به النبي ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اتفروا فإسامة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه وقال : إن يكن منكم محدثون فمروا ، أو كما قال : المؤمن ينظر بنور الله ، وفي القرآن العزيز (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك) فعمل ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به ، وأراد أنه قد قدر عليه ولم يكن نبياً ولا رسولا . وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذي القرنين من إخباره عن العلوم النبوية وصحته فيه حين قال (فإذا جاء وعد ربى جملة ذلك ، وكان وعد ربى حقاً) وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذي القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور في الآية وإن رام أحد المدافعة بالاحتياط لما أخبر به ذو القرنين ، وما ظهر على يدى الذي كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر القتب بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى الخضوع وما أنبأ الله سبحانه وأظهر عليه من العلوم النبوية وهو بعد أن يكون نبياً فليس برسول على الواقع من الجميع ، والله تعالى يقول (إلا من ارتضى من رسول) فدل على أن في الآية حذف مضاف منه ما تقدم وانظر إلى ما ظهر من كلام سعد رضى الله عنه أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبرك بما في البطن وهي من غيب الله وشواهد الشرع كثيرة جداً يجرى المتأول ويظهر الماندر . وهذا القول بتخصيصه العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما نقل الكافة ، ويحتمل أن يكون المراد في الآية بالرسول المذكور فيها : ملك الوحي الذي بواسطته تنجلي

العلوم وتكشفُ النيوب ، ففى لم يرسل الله ملكا لإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة ، أو إلقاء معنى فى روع أو ضرب مثل فى قبضة أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية : فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده فى قبضة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضا . ويكون قائمة الإخبار بهذا فى الآيات الامتنان على من رزقه فى الله تعالى علم شيء من مكنوناته ، وإعلامه أنه لا تصل إليها نفسه ولا مخلوق سواء إلا بالله تعالى حين أرسل إليه الملك بذلك وبهتة الله ، حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويشفق أنه لا يرد عليه شيء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا بإرادته ومشئته ويحتمل وجه آخر : وهو أن يكون معناه والله أعلم : فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى يريد من سائر خلقه وأصناف عباده ، ويكون معنى « من رسول » أى عن يد رسول من للملائكة .

(فصل) ومعنى : ولا يتخطى رقاب الصديقين « إن قلت : ما الذى أوصله إلى مقامهم أو جاوز به ذلك - وهو فى المرتبة الثالثة حال المقربين ما وصل حيث ظننت - فكيف يجاوزه ، وإنما خاصية من هو فى رتبة الصديقين عدم السؤال لكثرة التحقق بالأحوال ، وخاصية من هو فى رتبة القرب كثرة السؤال طمعا فى بلوغ الآمال ، ومثامها فيما أشير إليه مثال لإنسانين دخلا فى بستان : أحدهما يعرف جميع أنواع نبات البستان ويتحقق أنواع تلك الثمار ويروى له أسماءها ومناقصها : فهو لا يسأل عن شيء مما يراه ولا يحتاج إلى أن يخبر به ، والثانى لا يعرف ما رأى شيئا أو يعرف بعضها ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقى ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ما هو أعلى منه ، وكان غير مراد لذلك إما فى ذلك الوقت أو الأبد ، وتلك العلوم متى كانت لا تتال بالکسب وإنما تتال بالمشق ، فقليل له : لا يتخطى رقاب الصديقين بالسؤال ، فذلك مما لا يخفى به وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم ، فارجع إلى الصديق الأكبر فأقده به فى حاله وسيره فمساك تركز مقامه . فإن لم يكن فتبقى على حالة القرب وهى تلو الصديقية ، فهذا معناه .

(فصل) ومعنى انصراف الملك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرقيق الأعلى : إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه مالا يقبض به من الأحوال ليحكم ما يقبض عليه من الأعمال كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم الذى سأله أن يبله غراب العلم : اذهب فأحكم ما هناك ، وبذلك أعلمك غراب العلم . وأما صفة انصرافه فإن نبض بالبحث ورجع بالتمكر ، وفوائد المزيد ووجهه أن من لم يستطع المقام فى ذلك الموضع بعد وصوله إليه ، فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ومسكه عالم الملك ولم يفارقه بعد الموت وطول التيب عنه لا يمكن فى العادة ، ولو أمكن لمالك الجسم وتفرقت الأحوال ، والله تعالى أراد عمارة الدنيا وقد سبق فى علمه (ولأن تجدد لذة التقدير بلا) ومعنى قول أبي سليمان النازاني : ولو وصلوا مارجعوا ، ما رجع إلى حالة الانتعاش من وصل إلى حالة الإخلاص . والذى طمع الناظر فى الحصول فيه سؤاله وتعمده إلى حال القرب منه ، إذ لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله .

(فصل) ومعنى بأن ليس فى الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكل صنعا ، ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلا ينقص الكرم الإلهى ، وإن لم يكن قادرا عليه كان ذلك عجرا ينقص القدرة الإلهية ، فكيف يقضى عليه بالبحر فيما لم يخلقه اختيارا وكان ذلك العلم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ، ويقال : ادخار لإخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ما قيل فيأذكرنا . وما الفرق بينهما ؟ وذلك لأن تأخيرها بالعالم قبل خلقه عن أن يفرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل ، فإذا فعل فليس فى الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة التى عرفناها أنها حكمة ، ولم نعرفنا بذلك إلا لنعلم بجارى أفعاله ومصادر أموره ، وأن نتحقق أن كل ما اقتضاه ويقضيه من خلقه يبله وإرادته وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ونهاية الإتيان وبلغ جودة الصنع ، ليحسد كمال ما خلق دليلًا على ما طعمنا به رطابا على كماله فى صفات جلاله الموجهة لإجلاله ، فلو كان ما خلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ما قدر على خلقه ، ولولم يخلق لكان يظهر نقصان المدعى على هذا الوجود حتى خلقه

كما ينظر على ما خلقه على غير ذلك، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ما صنع من التصان قطعاً، وما يحمل عليه من القدرة على أكل منه مثلاً، إذ خلق للخلق عقولاً وجعل لهم فهمهم ما أكن وكشف لهم ما حجب وأجن، فيكون من حيث عرفهم بكأله لم على قصه، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصهم بعجزه، فتعالى القرب العالمين الملك الحق المبين. وأيضاً فلا يمرض هنا ويترد به إلا من لا يعرف عقوباته ولم يصرف الكلام الصحيح في مشابه ذلك أسلاف العلم، أو كان لسخا له معنى تقيس عليه غيره، وأما انكشافه بغير من رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق الخير، إذ أقشاه لغير أهله وأهداه لمن لا يستحقه، كما روى عن عيسى على نبينا وعليه السلام: لا تملقوا الدر في أعناق الخنازير. وإنما أراد قطع العلم عن غير أهله. وقد جاء: لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلمهم، ولا تضموها عند غير أهلها فتظلموها. وأما العلم الذي يوجب كشفه بطلان الأحكام، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقوب ضعيفة، بطلت الأحكام في حقها لمن يتطلع عليه في ذلك السر من معرفة مآل الأشياء وعواقب الخلق وكشف أسرار العبادات وما يظن من مقدور، فمن عرف نفسه مثلاً أنه من أهل الجنة لم يصل ولم يصم ولم يشرب نفسه في خير، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار كل أنما له فلا يحتاج إلى قلب زائد ولا تصفيه مكابدة، فلو عرف كل واحد ما عليه وما له بطلت الأحكام الجارية عليه. وإن كان كشفها من غير أسرار الضعيف إلى ما يسع من ذلك فيستغل ويترحم حاله وينحل قيده، وبهذا فلا يحمل كلام بل إلى الأعلى ما يقدر لا على ما يوجد، ولذلك جمعه مقرونا بحرف دوله المال على امتناع الشيء لا امتناع غيره، كما يقال: لو كان للإنسان جناحان لطار، ولو كان للسان درج لصعد عليها، ولو كان للبشر ملكا لفقد الشهوات، فعلى هذا يخرج كلام سهل في ظاهر العلم

(فصل) وأما خطاب المعتلة للآجادات فغير مستحكر؛ فقد بما نذب الناس الديار وسألوا الأطلال واستخبروا الأتال. وقد جاء في أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: أسكن أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان. وقال بعضهم: أسأل الأرض فتبكر عن شق أنهارها ولجر بحارها وفق أهواها ورق أحرارها وأرسي جبالها، إن لم تجلبك أجاتك اعتباراً، وإنما الذي يتوقف على الأذمان ويشتر في قوله السامعون وتجب منه القول: هو كيفية كلام الآجادات والحيوانات الصامتات: ففي هذا وقع الإنكار واضطرب النظر، وكذب في تصحيح وجوده وذو السمع من الاعتبار، ولكن لتعلم أن تلقى الكلام للمعتلة من لم يقل عنه في المشهود يكون على جهات: من ذلك سماع الكلام الذاتي كما تلقى من أهل النطق إذا صدروا إلى نظم اللفظ، وذلك أكثر ما يكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم في بعض الأوقات، كتحزين الجمع للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان حجر يسلم عليه في طريقه قبل مبينه. ومنها تلقى الكلام في حس السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس، ويعتري هذا سائر الحواس، كمثل ما يسع النائم في منامه من مثال شخص من غير مثال، والمثال الملقى للنائم ليس له وجود في سنده. وأما ما يجده غير النائم في اليقظة فتها خاصة وعامة، فقد ورد أن الحجر في زمن عيسى ينادي المسلم: يا مسلم، خلني يهودي فاقته. وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ولفظاً ويذهب عنه معنى الحجرية أو يترك بالحجر من يتكلم عنه من يستر عن الأبصار في العادة من الملائكة والجن أو يكون كلام مخلقه الله عز وجل في أذن السامع ليفيده العلم باختفاء اليهودي حتى يقتله، وكما يقال في العرض الأكبر يوم القيامة إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص وفي الخلائق مثل اسم النامى به كثير. وقد قالت العلماء: إنه لا يسمع النداء في ذلك الجمع إلا من نودي فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق للنادي في حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه في اسمه ولا يكون نداء من خارج، والأشياء كثيرة في الشرع، وفيما سمعت غنية ومقتنع. ومنها تلقى الكلام في العقل وهو المستفاد بالمرقة، المسموع بالقلب، المفهوم بالتقدير على اللفظ، المسمى بلسان الحال كما قال قيس:

وأجهشت للتوبذ حين رأيته وكبر للرحمن حين رأيته فقلت له أين الذين عهدتهم
حواليك في عيش وخفف زمان فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبق على الحدائق

وفي أمثال العرام : قال الحافظ الويد : لم تشقى ؟ فقال الويد الحافظ : سل من يدق فلو كانت العبارة تتأق منها ما عبرت إلا بما قد استير لها . وعلى هذا المعنى حل كثير من المبللقوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين قالتا : (أتينا طائعين) وفي قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم : كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام عليه عباءتان قطوانيتان يلي وتجيبة الجبال ، واه يقول : ليك يونس ، فقوله وكأني ، يدل على أنه تخيل حالة سبقت له في الحال وجود ذاتي ، لأن يونس بن متى عليه السلام قد مات وتلك الحالة منه سلفت وفي هذا الحديث إخبار عن الوجود الخيالي في البصر ، والوجود الخيالي في السمع ، ومنها تلقى الكلام بالشبه : وهو أن يسمع السامع كلاما أوصوتا من شخص حاضر فيلق عليه شبه غيره مما غاب عنه ، كقوله عليه السلام في صوت أبي موسى الأشعري إذ سمعه يترنم بالقرآن ولقد أعطى من مرام من مرام آل داود ، ومزامير آل داود قد عدمت وذمبت . وإعناشبه صوتهما وكأ إذناسمع المرديد صوت مزامير أو عود لجأة على غير قصد يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها بما لجأ صوته من ذلك ، فهذه مرام أبواب الوجود فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها لم يعترك غلط في بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عن فطر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاعود وقد رأه أسود وجهه بالجبر فقال له : ما نال وجهك وقد كان أبيض أشقر موتقا والآن قد ظهر فيه السواد ، فلم سودت وجهك ؟ فقال : سل الجبر ، فإنه كان مجموعا في المحرقة التي هي مستقره ووطئه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجوهي ظلماء وعدوانا ، فقال : صدقت . ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات أعمال الفكر وحدد النظر وحل الكلام إلى أجزاء التي ينظم منها جملة ما يلتفت ؟ فسأل عن معنى الناظر ، ومعنى المشكاة ، ومعنى نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ؟ وبأى لسان غاطب الكاغد ، وكيف غاطبة الكاغد وهو ليس من أهل النطق ؟ وفيما صدق الناظر الكاغد ؟ ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ؟ فيبدوا لك ههنا من الناظر هو ناظر القلب فيما أوردته عليه الحس ، والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاجة التي أحرقت بسراج النار ، إلى خبر المعرفة الملقب بسر القلب شيئا بها ، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى أشعلها بنوره ، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن واشتغال السر بطولح نيران كواكب المعارف الناهية بأذن الله تعالى بظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف ، والكاغد والجبر كتابة عن أنفسهما لأعن غيرهما ، وجعلهما مبدأ طريقتيه وأول سلوكه إذ هما في عالم الملك والشهادة الذي هو محل جولة الناظر في حال نظره .

وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب ، فلأجل أنه كان أميا لا يقرأ الكتاب الصناعات ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الإلهي الذي هو أبين وأدلى على الفهم منه . وأما غاطبة الناظر الكاغد وهو : جاد فسبق الكلام على مثله ، ومراجعة الكاغد له فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا ، فيبقى الكلام في الحس بما ينشئ من المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء في الروح فيودع الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريدا فيتلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة والعقل ، وبصدق الناظر الكاغد في غدره وإحسانه على الجبر لم يكن مجرد قوله ، بل بشهادة أولى الرضا والعدل وهو البحث والتجربة لم تكن وشهادة النفس ، وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها مثل عن أجزاء عالم الملك . وأما ما سمعته في حديثنا الجبروت ذلك من القدرة المحدث إلى العقل والعلم الموجودين في الإنسان المستقرة في القوة الوهمية المدركة جميع ما لا يستدعي وجوده جسميا ، ولكن قد يعرض له أنه في جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب وعطف أمها فتنبع العطف وتفر من العداوة . وأما ما سمعته في حد عالم الملكوت وذلك من العلم الإلهي إلى ما وراء ذلك مما هو داخل فيه ومعدودته ، فسر القلب الذي يأخذ به عن الملائكة ويسمع به ما بعد مكانه ورق معناه وعرب عن القلوب من جهة الفكر بصوره ، فأما أي شيء حقائق هذه المذكورات وما كتبه كل واحد منها على نحو معرفتك لأجزاء عالم الملك والشهادة ، فذلك علم لا ينتفع

بسماعه مع عدم التشاهدة ، والله قد عرفك بأسمائها ؛ فإن كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة لعلك أنك لاتنجز بتسميات ليس لها سميات إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات . ومن كفر فلأنه غنى حميد (فصل) والفرق بين العلم المحسوس في عالم الملك وبين العلم الإلهي في عالم الملكوت : أن العلم قد اعتدته مجسما بطلي الحركة بالفعل ، سريع الانتقال بالهلاك خلفا عن مثله في الظاهر ، يجمولا تحت قهر سلطان الآدى الضعيف الجمال في أكثر أوقاته ، متصرف بين أحوال متنافية كالعلم والجهل والمد والظلم والشك والصدق والإناف ؛ فالعلم الإلهي عبارة عن خلق الله في عالم الملكوت ، يختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية السائدة في عالم الملك ، يرى من أوصاف ماسمي به القلم المحسوس كليا مصرفا بتبدير الخالق بحكم إرادته على ماسبق به عليه في أزلى الأزلى ، وإغماضي بهذا الاسم لأجل شبه بعمل ماسمي به ، غير أنه لا يكتب لإحاطاق الحق ، والفرق بين بين الآدى وبين الله عز وجل أن بين الآدى كآلة مركبة من عصب استعصى بقاؤها ، وعضل تعضل أدواؤها ، وعظام يعظم بلاؤها ولحم تمت وجده غير موصولة ، ككلها في الضعف والافتعال ملقبة باليد وهي عاجزة على كل حال ، وبين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل عبارة عن قدرته ، وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرته وليس بمجارحة ولا جسم ، وعند آخرين . أنها عبارة عن خلق الله في واسطة بين القلم الإلهي النافس العلوم المحدثه وغيرها ، وبين قدرته التي هي صفة له صرف بها البين الكتابة بالقلم المذكور بالخط الإلهي المثبت على صفحات المخلوقات التي ليس يبري ولا يعمى ، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم ، وتستسجم على القارئ إن كانوا عبيد شواتهم ، ولم يشارك بين الآدى إلا في بعض الأنساء لأجل الحب اللطيف الذي بينهما بالفعل ، وتقريبا إلى كل ناقص الفهم ، عساه يمثل ما أنزل على رسل الله تعالى من الذكر .

(فصل) وحدها الملك ؛ ما ظهر الحواس ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وصحة التمييز . وحدها الملكوت ما أوجده سبحانه بالأزلى بلا تدريج وييق على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه . وحدها عالم الجبروت هو ما بين العالمين مما يقبض أن يكون في الظاهر من عالم الملك فحين بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت .

(فصل) ومعنى أن الله خلق آدم على صورته : فذلك على ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وللعباد فيه وجهان ؛ فهم من يرى الحديث سببا ؛ وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهاه وقال : إن الله تعالى خلق آدم على صورته ، وتأولوا عود الضمير على المضروب ، وعلى هذا لا يكون الحديث مدخل في هذا الموضع لم يردده مورد آخر في غير هذا الموضع ، ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور في السبب الحادث وإثباته في غير موطن ذلك السبب المقول بما يبرع ويحسن ، فليبق المسبب على حاله ، ولينظر في وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ، وبحسن الاحتجاج وفي هذا الموضع ، والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذي في صورته ، عائدا إلى الله سبحانه ، ويكون معنى الحديث : أن الله خلق آدم على صورة هي إلى الله سبحانه ، وهذا البعد المضروب على صورة آدم ؛ فلذا أعاد البعد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة وعلى أى جهة يحمل في الاعتقاد المعنى على الله سبحانه ، ففيها وجهان : أحدهما أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والثافة واليمين على أحد الأوجه ، والوجه الآخر : أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فنحلها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملة ، وآدم مخلوق على مضاعفة صورة العالم الأكبر ، لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزاءه بالعالم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بجملة ، وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة العالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة فالجملة بلا شك متشابهتان ، فالذى نظرت في تحليل صورة العالم الأكبر فقسمة على أنحاء من القسمة وقسم آدم عليه السلام كذلك ، فوجد كل تحوير منهما شيئين فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين : أحد القسمين ظاهر محسوس كعالم الملك ، والثاني : باطن معقول كعالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس كالعظم واللبم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى

باطن كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشياء ذلك ، وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعلم إلى عالم الملك وهو الظاهر الحواس ، وإلى عالم الملكوت وهو الباطن في العقول ، وإلى عالم الجبروت وهو المتوسط الذي أخذ يظفر من كل عالم منهما ، والإنسان كذلك انقسم إلى ما شبه هذه القسمة : فالشبه لعالم الملك : الأجزاء المحسوسة وقد علمتها ، والمماثلة لعالم الملكوت فكل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشياء ذلك ، والشبه لعالم الجبروت فكل الإدراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة بأجزائه . والوجه الثاني : أن يكون مناه كفر السامع لا للخبير ، بخلاف الوجه الأول ، ويكون هذا مطابقاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تمدنوا الناس بالمثل تصبه عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ، فن حدث أحداً بما لم يصله عقله ربما سارع إلى التكذيب وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرته الله تعالى وبما أوجدتها فقد كفر ولو لم يقصد الكفر ؛ فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ما قصدت الكفر ولا لقننه بأنفسها وهي كفر بلا ريب ؛ وهذا وجه واضح قريب ، ولا تلتفت إلى ما مال إليه بعض من لا يعرف وجه التأويل ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراغبين في العلم حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذي هو تقييد الإيمان والإسلام بتعلق غيره وتلقيقه ، وهذا لا يخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء الذين يكفرون بالمعاصي ، وأهل السن لا يرضون بذلك . وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر وعبد الله بالقول الذي ينزهه والعمل الذي يقصده به المنتهلو لوجه الذي يستزيد به إيماناً ومعرفة له سبحانه ، ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفوائد المزيد وفيه ما شرف من المنع ويريه أعلام الرضا ، ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه ، والإيمان لا يخرج عنه إلا بنبذ طراحه وتركه واعتقاد ما لا يتم الإيمان معه ولا يحصل بمقارنته ، وليس في إفشاء سر الولي ما يحصل بتناقض الإيمان ، اللهم إلا أن يريد إفشائه وقوع الكفر من السامع له فهذا عات متسرد وليس بولي ، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله فهو لا محالة كافر . وصل هذا يخرج قوله تعالى ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى ما يجحد له من العداوة والبغضاء ، قيل له أخطأت وأثبت من غير تكفير ، وأنه إنما فعل ذلك وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بالإجماع .

(سؤال) فإن قيل . فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى ونسب إليه : للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات ، والنبوات سر لو انكشف لبطل العلم ، والعلم سر لو انكشف لبطلت الأحكام . وجاء في الإحياء على أثر هذا القول ، وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة في حق الضملاء فما قالوا ليس بحق ، فإن الصحيح لا يتناقض والكامل من لا يطنق نور معرفته ونور ورعه ، وهذا وإن لم يكن من الاشئلة المرسومة فهو متملق منها بما فرغ من الكلام فيها آنفاً وناظر إليه ، إذ ما أدى إفشائه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم وكفر ، فالجواب : أن الذي قاله رحمه الله وإن كان مستعجلاً في الظاهر فهو قريب المسلك ، باد للتأمل الذي يعرف مصادر أغراضهم ومسالك أفرأهم الإلهية . ومن وصل إلى اليقين الذي لولاه لم يكن نبياً لا يتخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس التي هي غائبة عنها بأن كانت القلوب ضعيفة طراً عليها من الدخس والاضطلام والخيرة والتيه ما يبر العقول ويفقد الحس ويقطع عن الدنيا وما فيها وذلك لضعفه . ومن انتهى إلى هذه الحالة فينقل النبوة في حقه أن يعرفها أو يعقل ما جاء من قبلها ، إذ قد شغلها عما هو أعظم لديها ، وربما كان سبب موته لمجرد من حمل ما يطرأ عليه ، كما حكى أن شاباً من سالكى طريق الآخرة عرض عليه أبو يزيد ولم يره من قبل ، فلما رآه انكشف له ذلك وكان في مقام الضملاء من المريدن فلم يعقل حله فأت به ، وإنما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه ، فينقل النبوة في حق الخبر حين نبى أن لا يفشى فأشهى وأمر أن لا يتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية من طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فلها قيل في ذلك : بطلت النبوة في حقه . فإن قيل : فلم لا تكفروه على هذا الوجه إذا بطلت النبوة في حقه بإخباره ؛ قلنا : ما بطلت في حقه جميعاً ، وإنما بطل في حقه منها ما خالف الأمر الثابت من قبلها ، وبعد هذا من الكلام على تمليط حق الإفشاء وقد سبق

الكلام عليه في معنى : إفساء سر الربوبية كفر . وأما سر النبوة الذي أوجب العلم لمن رزقها أو رزق معرفتها على الجملة ، إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا النبي ، فإن انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم في حقه بارتفاع المحنة له بالامر المتوجه عليه بطلبه والبحث عنه والتفكير فيه ، فيكون كالنبي إذا سئل عن شيء ووقته واقعة لم يمتنع إلى النظر فيها ولا إلى البحث عنها ، بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بإخبار ملك أو ضرب مثل يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ أو لقاء في روع فيعود بغيره ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ، ولا عرف خواصها ولا تنزهه في عجايبها ولا لاحظ الملكوت بصر قلبه ، ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره وله ، ولا فهم أن الجنة أهل النعيم وأن النار أقصى العذاب الآليم وأن النظر إليه منتهى الكرامات ، وأن رضاء وسخطه غاية الدرجات والمزكات ، وأن منحه المعارف والعلوم أسنى الهبات ، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من البدم الذي هو في بعض ، إلى الوجود الذي هو إنبات صحيح وقدره منازل وجهه الميقات ، فنحن وميت ، ومتحرك وساكن ، وعالم وجاهل وشقي وسعيد ، وقريب وبعيد ، وصغير وكبير ، وجليل وحقير ، وغني وفقير ، ومأمور وأمير ، ومؤمن وكافر ، وجاهد وشاكر ، وذكر وأنثى ، وأرض وسماء ، ودنيا وآخرة ، وغير ذلك بما لا يحصى ، والسكل قائم به موجود بقدرته ، وباق بملئه ومنته إلى أجله ، ومصرف بمشيئته ، وذلك على بالغ حكمته ، فما أكل جهل من لا يجده إلا قدما ، ولا من يصرفه إلا استبداده ولا ملكة إلا ملكة ، فيعود المحدث قديما والمريوب ربا والمملوك مائلا ، فيمودا خلق من خلق الله كهر ، تعالى الله عن جهل الجاهلين وتخيل الممتوهين وزيف الزالنين .

(فصل) وأما حكم هذه العلوم المكتوبة في الطلب وسلوك هذه المقامات ورفع هذه الدرجات واستفهام هذه المخاطبات ، أمي من قبيل الواجبات والندوبات أو المباحات ، فأعلم أن المسئول عنه في طريقتين ، أحدهما : ما هو في حكم المبادئ والثاني في حكم الغايات ، فأما الذي هو في حكم المبادئ فطلبه فرض على كل أحد بقدر بذل المجهود وإفراغ الوسع وجميع ما يقدر عليه من العبادة ، وذلك ما تضمنته أصول علم المماملة ، مثل إخلاص التوحيد والصدق في العمل وعدم الإجماع بالخوف والرجاء والتزين بالصبر والشكر ، لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهي واجبة . قال الله تعالى ﴿ فاقفوا الله ما استطعتم ﴾ وقد سبق التنبيه عليه .

أما الذي هو حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرخاء بالإيثار والتوكل بالتجريد وحقيقة علم معاني التوحيد وسر معاني التقرير وأوصاف أهل آيات اليقين ، فهو درجات ومقامات ومنازل ومراتب ومنح يخص الله تعالى بها من شاء من عباده من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعلم ، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتفاع إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال ارجع لا تتخطر قاب الصديقين ، لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته وولايته ، وهي مراتب الصدق في العلم وبركاته الإخلاص في العمل ، فمن لم يرت من علمه وعمله المفترض عليه فطلبه والعمل به شتان من هذه المعاني ، فليس في شيء من الحقيقة وإن كان حقا ، غير أن حاله معلول . إما مفتون بديناء أو محجوب بهواء ، وذلك على كل شيء قدير .

(فصل) وأما الذي هو ذكر هذه العلوم بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز دون التصريحات ، وبالمشابهة من الألفاظ دون المحكمات ، وإن كان قد سبق هذا من الشارح فيها أنه لا يمتحن به من كلف ويتلو من بعيد ولكن للعلم رجالا مخصوصون ، فما بال من لم يجعل شارعا ولم يسم لتغير أن يسلك ذلك .

والجواب عن أن العالم هو وارث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله ويحل فيه كحلته ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ﴿ إن هو إلا وحي يوحى عليه شديدا لقوى ذميرة فاستوى ﴾ وحكم الوارث فيها ورث حكم الوروث فيها ورث عنه لما عرف فيه الحكم من فعل الموروث عنه امتثله وأما ما يصل إليه في شيء كان له اجتاده فإن أخطأ كان له أجر وإن أصاب كان له أجران ثم إن الوارث رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصرح بعلوم المعاملات وأشار بما وراءها بما لا يفهمه إلا أرباب التخصص كما قال الله عز وجل ﴿ وما يعلمها إلا المألون ﴾ فلم

يكن الوارث بعد عن حكم الموروث ، كما حكى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إني رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامين أحدهما هو الذي بثته فيكم ، وأما الثاني فلوثثته لحزبكم السكين على هذا البلغوم وأشار إلى حلقة ، وبعد كل شيء : ففي القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة ، وفي اتباعه الفوز بمحبة الله ويداؤه مع الجماعة ، وفوق كل ذي علم عليم . وقد أفدناك من طرائف ما عندنا وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا ؛ وإلى الله يرد العلم بمادق وجل وكثر وقيل وعظم وصغروظهر واستتر ، وإنما ينطق الإنسان بما أنطقه الله تعالى وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ؛ فاستنزل ما عند ربك وعالمك من خير ، واستجلب ما تؤوله منه من هداية وبر بقرأة السبع المثاني والقرآن العظيم التي أمرت بقرأتها في كل صلاة وكذا عليك أن تميدها في كل ركعة ، وأخبرك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن ليس في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلاً وفي هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثرت بها ضمنت من الفوائد وخصت به من النعائم والموائد ، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال ، فافهم وانقب واعقل ما خلقت له ، واعرف ما أعد لك ، والله تعالى سبحانه حبيب من أراد ، وهادي من جهل في سبيله ، وكاف من توكل عليه ، وهو الغني الكريم .

انتهى الجواب عما سألت عنه وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ، ونسأل الله تعالى الماعدة بين حيلات قلوب البشر ، وأن يصرف عنا حجب الكدورات والآهواء ومراتب النين ، فيده مجاري المقدورات وهو إليه من ظهر وغير وإليه يرجع من آمن وكفر ، ويجازي الخلاق بنعيم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر وكافي الضرر ، وهل آله السادات الغرر ، وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين .

تم كتاب الإملاء في مشكلات الإحياء

كتاب عوارف المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العظيم شأنه اتقوى سلطانه ، الظاهر إحسانه الباهر حجبته ورهانه ، المحتجب بالجلال والمنفرد بالكمال ، والمتردى بالعظمة في الآباد والأزال ، لا يصوره وهم وخيال ، ولا يحصره حد ومثال ، ذى العز الدائم المرمدى ، والملك القائم الديموى ، والقدرة المتمتع إدراك كنهها ، والسطوة المستوعر طريق استيفاء وصفها ، لطقت الكائنات بأنه الصانع المبدع ، ولاح من صفات ذرات الوجود بأنه الخالق المخترع ، وسم عقل الإنسان بالمعجز والتقصان ، وأزوم فصيحاته الألسن وصف الحصر فى حلبة البيان ، وأحرقت سباحات وجهه الكريم أجندته طائر النهم ، وسدت تمزاج جلالا مسالك ألوم ، وأطرق طامع البصيرة تعظيما وإجلالا ، ولم يجد من فرط الهمية فى قضاء الجبروت جمالا ، فعاد البصر كليلًا والعقل عيلا ، ولم ينتج إلى كنهه الكبرياء سيلا ، فنبجان من عزته معرفته لولا ترفيفه ، وتعذر على العقول تحديده وتكليفه ؛ ثم ليس قلوب الصفوة من عباده ملابس المرقان ، وخصمهم من بين عباده بخصائص الإحسان ، فصارت ضيائهم من مواهب الألسن مملوءة ، وسموا قلوبهم بنور القدس بجلوة ؛ فتبأت لقبول الأمداد القدسية ، واستمدت لورود الأنوار العلوية ، وانخذلت من الأنفاس المطرية بالأذكار جلاسا ، وأقامت على الظاهر والباطن من التقوى حراسا ، وأشعلت فى ظلم البشرية من اليقين نبراسا ، واستحقرت فوائده الدنيا ولذاتها ، وأنكرت مصاد الهوى وتبعاتها ، وامتنعت غرارب الرغبت والرهوت ، واستفرشت بملوحتها بساط الملوك وتوامتت إلى الممالأ أعانها ، وطمعت إلى اللامع العلوى أحاقها ، وانخذلت من الملالأ على مسامرا وعجورا ، ومن النور الأهر الأفضى مزاورا ومجاررا ، أجساد أرضية بقلوب سماوية ، وأشباح فرشية بأرواح عرشية ، نفوسهم فى منازل الخدمة سيارة ، وأرواحهم فى فضاء القرب طيارة ، مناهمهم فى البيوت مشهورة ، وأعلامهم فى أقطار الأرض منشورة ، يقولون بالجاهل بهم : فقدوا ، وما فقدوا ، ولكن سمعت أحوالهم فلم يدركوا ، وعلمنا مقامهم فلم نملكوا ، كائنين بالجنان بائين بقلوبهم عن أوطان الحدائق ، ولأرواحهم حول العرش قطواف ، ولقلوبهم من خزائن البراسف ، يتشممون بالخدمة فى الدياجر ، ويتلذذون من مهيبة الطلب بظلمة الهواجر ، تسوا بالصلوات عن الشهوات . وتموضوا بحلاوة التلاوة عن اللذات ، وبلوح من صفحات وجوههم بشر الوجدان ، وينم على مكتون سرائهم فنارة العرفان ، لا يزال فى كل عصر منهم علماء بالحق وداعون للخلق ، منحوا بحسن المتابعة رتبة الدعوة وجعلوا للتقنين قدوة ، فلا يزال تظهر فى الخلق آفازم ، وترمز فى الآفاق أنوارهم ، من اقتدى بهم امتدى ، ومن أنكرهم ضل واعتدى ، ففاحد على ما ميا للفساد من بركة خواص حضرته من أهل الوداد ، والصلاة على نبيه ورسوله محمد وآله وأصحابه الأكرمين الأجداد .

ثم إن إشارتى لهدى هؤلاء التوم ومعنى لم ، علما بشرف عالم وصحة طريقهم المبينة على الكتاب والسنة المتحقق بهما من الله الكريم الفضل والمنة ، حذاني أن أذهب عن هذه العصابة ، بهذه العصابة ، وأؤلف أبوابا فى الحقائق

والآداب معربة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه، مشعة بشهادة صريح العلم لهم فيها اعتقده، حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم، وتستر بزيمهم المنتسرون وفسدت أعمالهم، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول سلفهم سوء ظن، وكاد لا يسلم من وقعة فيهم وطن، ظن أنه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم، وتخصيص قائم إلى مطلق اسم. وما حضرنى فيه من التوبة: أن أكثر سواد القوم بالاعتناء إلى طريقهم والإشارة إلى أحوالهم؛ وقد ورده من كثر سواد قوم فهو منهم، وأرجو من الله الكريم صحة التوبة وتخليصها من شوائب النفس، وكل ما فتح الله تعالى على فيه منح من الله الكريم وعوارف، وأجل المنح عوارف المعارف.

والكتاب يشتمل على نيف وستين باباً والله المعين (الباب الأول) في منشأ علوم الصوفية (الباب الثاني) في تفضيل الصوفية بحسن الاستماع. (الباب الثالث) في بيان فضيلة علم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها (الباب الرابع) في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم فيها (الباب الخامس) في ذكر رعاية التصوف (الباب السادس) في ذكر تسميتهم بهذا الاسم. (الباب السابع) في ذكر المتصوف والمتشبه (الباب الثامن) في ذكر الملامق وشرح حاله (الباب التاسع) في ذكر من اتقى إلى الصوفية وليس منهم (الباب العاشر) في شرح رتبة المشيخة (الباب الحادي عشر) في شرح حال الخادم وعن ينسب به (الباب الثاني عشر) في شرح خرقه المشايخ (الباب الثالث عشر) في فضيلة سكان الربط (الباب الرابع عشر) في مشاهة أهل الربط بأهل الصفة (الباب الخامس عشر) في خصائص أهل الربط فيما يتعاهدونه بينهم (الباب السادس عشر) في اختلاف أحوال المشايخ بالسفر والمقام (الباب السابع عشر) فيما يحتاج المسافر إليه من الفرائض والتوافل والفضائل (الباب الثامن عشر) في القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه (الباب التاسع عشر) في حال الصوفي المتسبب (الباب العشرون) في حال من يأكل من الفتوح (الباب الحادي والعشرون) في شرح حال المتعبد من الصوفية والمتأمل (الباب الثاني والعشرون) في القول والسماح قولاً وإثارة (الباب الثالث والعشرون) في القول في السماع ودا إنكاراً (الباب الرابع والعشرون) في القول في السماع ترفها واستثناء (الباب الخامس والعشرون) في السماع تأدياً واعتناء (الباب السادس والعشرون) في خاصية الأربعية التي يتعاهدونها الصوفية (الباب السابع والعشرون) في ذكر فتوح الأربعية (الباب الثامن والعشرون) في كيفية الدخول في الأربعية (الباب التاسع والعشرون) في ذكر أخلاق الصوفية وشرح الخلق (الباب الثلاثون) في ذكر تفاصيل الأخلاق (الباب الحادي والثلاثون) في الأدب ومكانه من التصوف (الباب الثاني والثلاثون) في آداب الحضرة لأهل القرب (الباب الثالث والثلاثون) في آداب الطهارة ومقدماتها (الباب الرابع والثلاثون) في آداب الوضوء وأسراره (الباب الخامس والثلاثون) في آداب أهل الخصوص والصوفية فيه (الباب السادس والثلاثون) في فضيلة الصلاة وكبر شأنها (الباب السابع والثلاثون) في وصف صلاة أهل القرب (الباب الثامن والثلاثون) في ذكر آداب الصلاة وأسرارها (الباب التاسع والثلاثون) في فضل الصوم وحسن أثره (الباب الأربعون) في أحوال الصوفية في الصوم والإفطار (الباب الحادي والأربعون) في آداب الصوم ومهامه. (الباب الثاني والأربعون) في ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة. (الباب الثالث والأربعون) في آداب الأكل. (الباب الرابع والأربعون) في ذكر أدابهم في اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه. (الباب الخامس والأربعون) في ذكر فضل قيام الليل. (الباب السادس والأربعون) في الأسباب المينة على قيام الليل. (الباب السابع والأربعون) في آداب الانقياد من النوم والعمل بالليل. (الباب الثامن والأربعون) في تقسيم قيام الليل. (الباب التاسع والأربعون) في استقبال النهار والأدب فيه (الباب الحسون) في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات (الباب الحادي والحسون) في آداب المريد مع الشيخ (الباب الثاني والحسون) فيما يعتمد عليه الشيخ مع الأصحاب والتلامذة. (الباب الثالث والحسون) في حقيقة الصحة وما فيها من الخير والشر. (الباب الرابع والحسون) في أداء حقوق الضحية والأخوة في الله تعالى. (الباب الخامس والحسون) في آداب

الصعبة والأخوة (الباب السادس والخمسون) في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك . (الباب السابع والخمسون) في معرفة الحواطر وتفصيلها وعميدها . (الباب الثامن والخمسون) في شرح الحال والمقام والفرق بينهما (الباب التاسع والخمسون) في الإشارة إلى المقامات على الاختصار والإيجاز . (الباب العاشر) في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب . (الباب الحادي والستون) في ذكر الأحوال وشرحها (الباب الثاني والستون) في شرح كلمات من اصطلاح الصوفية مشوية إلى الأحوال (الباب الثالث والستون) في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها

فهذه الآبراب تحررت بمرن الله تعالى مشتملة على بعض علوم الصوفية وأحوالهم ، ومقاماتهم وآدابهم ، وأخلاقيهم ، وغرائب مواجيدهم ، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم ، وديق إشاراتهم ولطيف اصطلاحاتهم ، فعلومهم كلها إنباء عن وجدان ، واعتزاه إلى عرفان ، وذوق تحقق يصدق الحال . ولم يبق استيفاء كنه صريح المقال ؛ لأنها مواهب ربانية ، ومناجح خفية ، استلهاها فساد السرائر ، وغلوص الغيابر ، فاستصعبت بكنهها على الإشارة ، وطمعت على العبارة ، وتهاذلتها الأرواح بدلالة التلصص ، والألنلاف ، وكرعت حقائقها من بحر الأنطاف ، وقد اندرس كثير من ديق علومهم كما انطمس كثير من حقائق رسومهم . وقد قال الجنيده رحمه الله : علنا هذا قد طوى بساطه منذ كذا سنة ، ونحن نتكلم في حواشيه . هذا هذا القول منه في وقته مع قرب العهد ببلاده السلف وصالحى التأهين ، فكيف بنا مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين ، والمعارفين بحقائق علوم الدين ، وأنه المأمور أن يتجامل جهد القل بمغنن القول ، والحد له رب العالمين

الباب الأول : في ذكر منشأ علوم الصرفية

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردي إمامه من لفظه في شوال سنة ستين وخمسمائة . وقال : أنبأنا الشريف نور الهدى أبو طالب الحسين بن عبد الولي . قال : أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد الرزوي الجالورة بمكة حرسها الله تعالى . قالت : أخبرنا أبو الميثم محمد بن هكي الكشميني . قال أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف القريري . قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري . قال حدثنا أبو كريب . قال : حدثنا أبو أسامة عن ريد ، عن أبي ردة ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثل مثل ما يمشي الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : يا بقرى ، إني رأيت الجيش يمشي ، وإني أنا الذئب الريان ، فالتجأوا إليه ، فأطاعه طائفة من قومه فأخذوا قاططوا على مهملهم ففعلوا ، وكذب طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ؛ فذلك مثل من أطاعني فأطع ما جئت به ، ومثل من عصاني فكذب بما جئت به من الحق » .

معنى احتاجهم : استأصلمهم ، ومن ذلك الجماعة التي نفس الخلق ، وقال صلى الله عليه وسلم : « مثل ما يمشي الله به من الهدى والعلم كمثل الثيب الكثير أصاب أرحنا ، فكانت طائفتان قبل الماء فألبست السكلا » والعشب الكثير . وكانت منها طائفة أطاعت أمسكت الماء فضع الله تعالى بها الناس ، فشرّبوا وسقوا وزرعوا . وكانت منها طائفة أخرى قيما لا يمسك الماء ولا يلبس كلا ، فذلك مثل من ضل في دين الله ونفسه يمشي الله به فلعن وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقل هدى الله الذي أرسله به . »

قال الشيخ: أحد الله تعالى قبول ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصنى القلوب بأزكى النفوس، فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية في ملامت الفاحش والشفيع؛ فمن القلوب بعضها ثابة الأرض الطيبة التي أبنت الكلال والشعب الكبير، وهذا مثل من اتنع بالمسلم في نفسه واعتدى، ونفعه عليه وهذا إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن القلوب مأهولة بالأغلاط - أى الغدران: جمع أحادة، وهو المصنع والفنير الذى يجمع فيه الماء - نفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخة تركت قلوبهم صفى، فأختصت ببرد القائمة فصاروا أحاذات. قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كأحاذات؛ لأن قلوبهم كانت راعية فصارت أوعية العلوم مما رزقت من صفاء القلوب.

أخبرنا الشيخ الإمام رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسحاق القزوينى إجازة ، قال أنبأنا أبو سعيد محمد الحلي وقال أنبأنا القاضي أبو سعيد محمد الفخر رضى ، قال أنبأنا أبو إسحق أحمد بن محمد الشامي ، قال أنبأنا ابن فضال ، قال حدثنا ابن حبان ، قال حدثنا إسحق بن محمد ، قال حدثنا أبي ، قال حدثنا إبراهيم بن عيسى ، قال حدثنا علي بن علي ، قال حدثنا أبو حمزة الثمالي ، قال حدثني عبد الله بن الحسن ، قال : حين نزلت هذه الآية ﴿ ورتبها أذن واعي ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل : سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي . قال علي : فأنسيت شيئا بعد ، وما كان لي أن أنسى قال أبو بكر الواسطي : أذن عن الله تعالى أسرار

وقال أيضا : واعي في معادني ليس فيها غير ما شئته شيء ، فهي الخالة حماسوا . فما اضطراب الطالب لا يضرب من الجهل ؛ فقلوب الصوفية واعي ؛ لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى ، فبالقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ؛ فلما عمدوا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد : تفتحت مسام بواطنهم ، ومممت أذان قلوبهم ، وأحاطوا على ذلك زهدهم في الدنيا ، فعلماء التفسير وأئمة الحديث وفقهاء الإسلام أحاطوا علما بالكتاب والسنة واستبطوا منهما الأحكام ، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص ، وحي الله بهم الدين ، وعرف علماء التفسير وجه التفسير وعلم التأويل ، ومذاهب العربية في اللغة وغرائب النحو والتصريف وأصول القصص ، واختلاف وجوه القراءة وصنفوا في ذلك الكتب ، فأنعم بطريقتهم علوم القرآن على الأمة ، وأئمة الحديث مبدوا بين الصحاح والحسان ، وتفردوا بمعرفة الرواة وأسائ الرجال ، وحكموا بالجرح والتعديل ليقين الصحيح من السقيم ويتميز المعرج من المستقيم ، فيحفظ بطريقتهم طرق الرواية والسند حفظا للسنة وانتدب الفقهاء لاستبطاء الأحكام والتفريع في المسائل ، ومعرفة التعليل ورد الفروع إلى الأصول بالعلل والجوامع ، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص وتفردوا من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه وعلم الخلاف ، وتفردوا من علم الخلاف علم المجلد ، وأخرج علم أصول الفقه إلى شيء من علم أصول الدين ، وكان من علمهم علم الفرائض ، ولامرهم علم الحساب والجبر والمقابلة ، إلى غير ذلك ، فتعمدت الشريعة وتأيدت ، واستقام الدين الخفيف وتفردوا ، وتأصل الهدى النبوي المصطفى فأثبتت أراضى قلوب العلماء السكلا والعشب بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم . قال الله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : الماء العلم ، والأودية القلوب . قال أبو بكر الواسطي رضى الله عنه : خلق الله تعالى درة صافية فلاحظها بعين الجلال ، فذابت حياء منه فسالت ، فقال ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها وقال ابن عطاء ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ هذا مثل خبر به الله تعالى اللبد ، وذلك إذا سال السيل في الأودية لا يبقى في الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها كذلك إذا سال النور الذي قسمه الله تعالى للبد في نفسه لا يبقى فيه غفلة ولا ظلمة ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ يعني قسمة النور . فسالت أودية بقدرها ، يعني في القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها في الأزل ﴿ فأما الزبد فيذهب جفا ﴾ تصغير القلوب منورة لا يبقى فيها جفوة (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) تذهب البواطن وتبقى الحقائق . وقال بعضهم ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أنواع الكرامات ، فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه ، فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث والفقه بقدرها ، وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين في الدنيا المتمسكين بمحققات التقوى بقدرها ، فمن كان في باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه وطلب المناصب والرغبة سال وادى قلبه بقدره ، فأخذ من العلم طرفا صالحا ولم يحظ بمحقق العلوم ومن زهد في الدنيا اتسع وادى قلبه فسالت فيه مياه العلوم واجتمعت وصارت أخانات .

قيل الحسن البصري : هكذا قال الفقهاء ، فقال : وهل رأيت قريبا قط ، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، فالصوفية أخذوا حظا من علم الدراسة فأقدم علم الدراسة العمل بالملم ، فلما عملوا بما علوا أقدم العمل على الرواية ؛ فهم مع سائر العلماء في علومهم ومجربوا عنهم بلوم زائدة هي علوم الرواية ؛ وعلم الرواية هو الفقه في الدين . قال الله تعالى ﴿ فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ فصار الإنذار مستفادا من

الفقه . والإنذار : إحياء المنذر بقاء العلم ؛ والإحياء بالعلم رتبة الفقيه في الدين ؛ فصار الفقه في الدين من أكمل المراتب وأعلاهما ، وهو العالم الزاهد في الدنيا المتق الذي يبلغ رتبة الإنذار بعلمه ؛ ففرد العلم والهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ، وورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى فارتوى بذلك ظاهره وأباطنا ، فظهر من ارتواء ظاهره الدين ، والدين : هو الاتقياد والخضوع ، مشتق من اللون ؛ فكل شيء اتضع فهو دون ؛ فالدين : أن يضع الإنسان نفسه لربه . قال الله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فبالفرق في الدين يستولى الذبول على الجوارح وتذهب عنها أنصارة العلم ؛ والتضارة في الظاهر بتزيين الجوارح بالاتقياد في النفس والمال ، مستفاد من ارتواء القلب ، والقلب في ارتوائه بالعلم بمثابة البحر فصار قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والهدى بحرا موجا . ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس ، فظهر على نفسه الشريعة أنصارة العلم وربه ، فتبدلت نفوس النفس وأخلاقها . ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت ريانة ناضرة ، فلما استتم أنصارة واحتل ريانا بث الله تعالى إلى الخلق ؛ فأقبل على الأمة بقلب موج بقاء العلوم ، واستقبل جدول الفهوم ، وجرى من بحره في كل جدول قسط ونصيب ، وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو الفقه في الدين . روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما عبد الله عز وجل بشيء أفضل من فقهه في الدين ، ولقبيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد . ولكل شيء عماد ، وعماد هذا الدين الفقه » .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب إسماعيل ، قال حدثنا أبو طالب الزيني ، قال أخبرتنا تركة كريمة بنت أحمد بن محمد المزوية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم ، قال أخبرنا الفريري ، قال أخبرنا البخاري ، قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ، قال : سمعت معاوية خطيباً يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من رد الله به خيراً يفقه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي » قال الشيخ : وإذا وصل العلم إلى القلب انفتح بصر القلب فأبصر الحق والباطل وبيّن له الرشد من الغي ، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأعرابي (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . قال الأعرابي : حبسني حسبي ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقه الرجل . . . وروى عبد الله بن عباس : أفضل العبادة الفقه في الدين . والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب فقال (لهم قلوب لا يفقهون بها) فلما فقهوا علوا ولما علوا علوا ، ولما علوا عرفوا ، ولما عرفوا اجتدوا ، فكل من كان الله كانت نفسه أسرع إجابة وأكثر اقتياد المعالم الدين ، وأوفر حظا من نور اليقين ، فألم جملة موهوبة من الله للقلوب ، والمعرفة تميز تلك الجملة ، والهدى وجدان القلوب ذلك ، فالتبى صلى الله عليه وسلم لما قال « مثل ما يمشي الله به من الهدى والعلم » أخبر أنه وجد القلب النبوي العلم وكان هاديا مهديا ، وعليه صلوات الله عليه منها ورواه معجزة فيه من آدم أبي البشر صلى الله عليه وسلم حيث علم الأسماء كلها ، والأسماء سمى الأشياء ؛ ففكره الله تعالى بالعلم . وقال تعالى (علم الإنسان ما لم يعلم) فأقدم لما ركب فيه من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والمعرفة والرأفة واللطف والحب والبض والفرج والنعيم والرضا والنضب والكياسة ، ثم اقتضاه استكمال كل ذلك وجعل قلبه بصيرة واهتمامه إلى الله تعالى بالنور الذي وهب له ، فالتبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة ، وقيل : لما غاب الله السموات والأرض بقوله (انما طوبا أو كرهما قلنا آتينا طائفتين) فلق من الأرض وأجاب موضع الكعبة ، ومن السماء ما عذابها . وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرة الأرض بمكة ، فقال بعض العلماء : هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض ذرة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن موضع الكعبة دحيث الأرض ، فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأصل في التكوين ، والكائنات تبع له . . . وإلى هذا إشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » وفي رواية « بين الروح والجسد » وقيل لذلك سمى أميا ، لأن مسكه أم القرى وذرت أم الخليفة ورتبه الشخص مدته ، فكان يقتضي أن يكون مدته بمكة حيث كانت تربته منها ، ولكن قيل : إن الله لما

تموج رمى الزبد إلى التواحي ، فوقعت جوهرة التي صلى الله عليه وسلم إلى ما يجاذى تربته بالمدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكيا مدنيا حينئذ إلى مكة وتربته بالمدينة ، والإشارة فيما ذكرناه من ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو ما قاله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى وَرَدَّ فِي الْحَدِيثِ ، إن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر ، استخرج الذر من مسام شعر آدم ، فخرج الذر كروح العرق ، وقيل : كان المسح من بعض الملاصكة فأضاق الفعل إلى السبب . وقيل معنى القول بأنه مسح أى أحصى الأرض بالمساحة ، وكان ذلك يظن نعمان واد يحجب عرفة بين مكة والطائف ، فلما غابط الذر أجابوا بيلي كعب المهدي في رق أبيض وأشهد عليه الملاصكة وأقم الحجر الأسود ؛ فكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الجنية من الأرض ، والعلم والهدى فيه معجوان ، فبعت العلم والهدى موروثا له وموهبا . وقيل : لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبت ، حتى بعث الله عزرائيل فقبض قبضة من الأرض ، وكان إبليس قد وطئ الأرض بقدميه فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض بين موضع أقدامه ، غلقت النفس بماس قدم إبليس فصار ماوى الثرى وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس ، فمن تلك القربة أصل الأنبياء والأولياء ، وكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل يسما قدم إبليس ، فلم يصبه حظ الجهل ، بل صار مذروح الجهل مرفأ حظه من العلم ، فبعت الله تعالى بالهدى والعلم ، وانتقل من قلبه إلى القلوب ، ومن نفسه إلى النفوس ، فوقعت المناسية في أصل طهارة الطينة ، ووقع التأليف بالمعارف الأول ؟ فكل من كان أقرب مناسبة بلبسة طهارة الطينة كان أوفر حظا من قبول ما جاء به ، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت بواطنهم أخاذات ، فملأوا وعلموا ، كالأخاذ الذي يسقيته ويرزقه منه ، وجعوا بين قاعدة علم الدراسة وعلم الرواية بإحكام أساس التقوى ، ولما زكت النفوس انجلى مرآيا قلوبهم بماسقلها من التقوى ، فاجلج فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها ، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها ، وظهرت الآخرة بحسبها فطلبوها ، فلما زهدوا في الدنيا انصببت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصبابا ، وانضاف إلى علم الدراسة علم الرواية . واعلم أن كل حال شريف نزهه إلى الصوفية في هذا الكتاب هو حال المقرب ، والصوفى هو المقرب ، وليس في القرآن اسم الصوفى ، واسم الصوفى ترك وضعه للمقرب على ما سطر شرح ذلك في باب . ولا يعرف في طرف بلاد الإسلام شرقا وغربا هذا الاسم لأهل القرب ، وإنما يعرف للمترجمين ، وكمن الرجال القريين في بلاد المغرب وبلاد تركستان وماوراءالنهر ولايمون صوفية ، لأنهم لا يميزون بزي الصوفية ، ولا مشاحة في الألفاظ فيعلم أنا نفي بالصوفية المقربين ، فشاع الصوفية الذين أسمأهم في الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا في طريق القريين وعلومهم علم أحوال المقربين ، ومن تطلع إلى مقام القريين من جملة الأبرار فهو متصوف بالمحقق بحالهم ، فإذا تحقق بحالهم صار صوفيا ، ومن عداهم ممن تميز بزي ولبس إليهم فهو متشبه (وفوق كل ذى علم علم) .

الباب الثاني : في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إجملاء ، قال أخبرنا أبو منصور المقرئ : قال أخبرنا الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب : قال أخبرنا أبو عمرو الهاشمي قال أخبرنا أبو علي الفولقي قال أخبرنا أبو داود السجستاني ، قال حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن شعبة ، قال حدثني عمر بن سليمان من ولد عمر ابن الخطاب ، عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، فضر الله امرأه سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه وليس بفقيه ، أساس كل خير حسن الاستماع ، قال الله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لسمعهم) يقول بعضهم : علاما لخير في السماع أن يسمع السيد بنشأه أو صافه أو توهه ، ويسمعه بحق من حق . وقال بعضهم : لو علمهم أهلا للسمع لفتح آذانهم للاستماع ، فمن تملكه أو ساس وغلب على باطنه

حديث النفس لا يقدر على حسن الاستماع ؛ فالصوفية وأهل القرب لما علوا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده وخطاباته إليهم وأكل آية من كلامه تعالى بحرا من أبحر العلم بما تتضمن من ظواهر العلم وباطنه وجليته وخفيه ، وبأبواب من أبواب الجنة باعتبار ما تنبأه أو تدعو إليه من العمل .

ورأوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم - الذي لا ينطق به عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى - من عند الله تعالى يتبين الاستماع إليه ؛ فكان من أهم ما عاينهم الاستعداد للاستماع ، ورأوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت واستزال بركة الرغبت والرهوت ورأوا أن الوسواس أدخنة ناترة من نار النفس الأمارة بالسوء ، وقتام يترام من نفث الشيطان ، وأن الحظوظ الماجلة والأقسام الدنيوية التي هي مناط الهوى ومثار الردى بمثابة الحطب الذي ترداد النار به تأجيجا ويرداد القلب به تخرجا ، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها ، فلما انقطعت عن نار النفس أحطابها ، وقرت نيرانها وقل دخانها ، شهدت بواطنهم وقلوبهم مصادر العلوم ، ففهموا مواردها بصفاء الفهم ، فلما شهدوا سمعوا . قال الله تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) قال الشبل رحمة الله : موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا ينفل عنه طرفة عين ، قال يحيى بن معاذ الرازي : القلب قلبان ، قلب قد احتشى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدبر صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا ، وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدبر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة فانظر كم بين بركة تلك الأقسام الثابتة وشؤم هذه الأشغال الثابتة التي أقدمت على الطاعة ؟ قال بعضهم : لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض . قال الحسين بن منصور : لمن كان له قلب لا ينظر فيه إلا شهود الرب ، وأشد :

ألقى إليك قلوبا طالما هطلت صواب الوحي فيها أبحر الحكم

وقال ابن عطاء : قلب لاحظ الحق بين التعظيم ، فذاب له واقطع إليه عما سواه . قال الواسطي : أى لذكرى لقوم خصوصين لاسائر الناس ، لمن كان له قلب : أى في الأزل وهم الذين قال الله تعالى فيهم (أو من كان ميتا فأحييناه) وقال أيضا : الشاهدة تدل ، والحجة تفهم ، لأن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له وخضع ، وهذا الذي قاله الواسطي صحيح في حق أقوام ، وهذه الآية تحكم بخلاف هذه الأقوام آخرين وهم أرباب التمكن يجمع لهم بين الشاهدة والفهم لوضع الفهم غل المهادمة والمكاملة ، وهو سمع القلب ، ووضع الشاهدة بصرة القلب ، والسمع حكمة وفائدة ، والبصر حكمة وفائدة ، فمن هو في سكر الحال يفتب سمعه في بصره ، ومن هو في حال الصبر والتمكن لا يفتب سمعه في بصره لتلك ناصية الحال ويفهم بالوعاء الوجودى المستعمل لهم للمقال ، لأن الفهم مورخ والإلهام ، والسماع والإلهام يستدعيان وعاء وجوديا وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ثانيا للتمكن في مقام الصبر وهو غير الوجود الذى يتلاشى عند لمعان نور الشاهدة من جوار على بحر الفناء إلى مقام البقاء .

وقال ابن سمنون (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) يعرف آداب الخدمة وآداب القلب ، وهى ثلاثة أشياء ، فالتاب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة ، فن وقف على شبوته وجد تلك الأدب ، ومن افتقر إلى ما لم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد علق الأدب ، والثالث : امتلاء القلب ، فأنى بدأ بالفضل عند الوفاء تفضلا فقد وجد كل الأدب .

قال محمد بن على الباقر : موت القلب من شهورات النفس ، فكما رفض شهورات نال من الحياة بقسطها ، فالسماح للأحياء لا للأموات . قال الله تعالى (إنك لاتسمع الموتى) .

قال سهل بن عباد القلب رقيق تؤثر فيه الخطرات المذمومة ، وأثر القليل عليه كثير . قال الله تعالى (ومن يعيش عن ذكر الرحمن تفتيش له شيطانافوه لقرين) فالقلب عمال لا يفتر ، والنفس قظانة لا ترقد ، فإن كان العبد مستمعا إلى الله تعالى وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس ، فكل شيء مسد باب الاستماع فن حركة النفس ، وفي حركتها يعطرق الشيطان . وقد ورد : لولا أن الشياطين يغمون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات .

وقال الحسين : بصائر المبصرين، ومعارف السارفين، ونور العلماء البائنين، وطرق السابقين التاجيين، والأزول والأبد
وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع .

وقال ابن عطاء : هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده ولا ينب عنه خطرة ولا فتنة ، فيسمع به بل يسمع منه،
ويشهد به بل يشهده ، فإذا لاحظ القلب الحق بعين الجلال فزع وأرتعد ، وإذا طالعه بين الجمال هدأ واستقر .
وقال بعضهم : لمن كان له قلب بصير يقوى على التجربة مع الله تعالى والتفرغ بالله حتى يخرج من الدنيا والحق والنفس ،
فلا يشتغل بغيره ولا يركن إلى سواه ، قلب الصوفى مجرد عن الأكوان ألقى سمعه وشهد بصره ، فسمع المسعوات
وأبصر المبصرات وشاهد المشهودات ، لتخلصه إلى الله تعالى واجتماعه بين يدى الله والأشياء كلها عند الله وهو عنده،
فسمع وشاهد فأبصر وسمع وجملا ولم يسمع ويشاهد تفاصيلها ، لأن الجمل تدرك لسة عين الشهود ، والتفاصيل لا تدرك
لصديق وعاء الوجود ، والله تعالى هو العالم بالجل والتفاصيل .

وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في الاستيعاب وقال : إن الباذر خرج بيذره فلا منه كفه فوقع منه شيء ، على
ظهر الطريق ، فلم يلبث أن أعطاه الطير فاختطفه ، ووقع منه شيء على الصفوان - وهو الحجر الأملس - عليه تراب
يسير وتدنى قليل فثبت ، حتى إذا وصلت عروقه ، إلى الصفاء تجدد مسافعا تمتد فيه ، فيبسط ووقع منه شيء في أرض
طيبة فيها شوك ثابت فثبت ، فلما ارتفع خفته الشوك فأفسده واختلط به ، ووقع منه شيء على أرض طيبة ليست على
ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فثبت ونما وصلاح ، فثل الباذر مثل الحكيم ، ومثل البذر كثر صواب
الكلام ، ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه فأيستعطفه أن يختطفه
من قلبه فيفسده ، ومثل الذى وقع على الصفوان مثل الرجل يسمع الكلام فيستحسنه ثم ينفض الكلمة إلى قلب ليس
فيه عزم على العمل فينسخ من قلبه ، ومثل الذى وقع في أرض طيبة فيها شوك مثل الرجل يسمع الكلام وهو يرى أن
يعمل به فإذا اعترضت له الشهوات قيده عن النهوض بالعمل فيترك ما نوى عمله لغلبة الشهوة كالزور يمتنق بالشوك .
ومثل الذى وقع في أرض طيبة مثل المستمع الذى يرى عمله فيفهمه ، يعمل به ويحبها بهواه ، وهذا الذى جانب
المهوى وانهج سبيل الهدى هو الصوفى ، لأن اللهوى حلاوة ، والنفس إذا تشربت حلاوة المهوى فهى تتركز إليه
وتستلذه ، واستلذاذا المهوى هو الذى يمتنق الثبوت كالشوك ، وقلب الصوفى نازله حلاوة الحب الصافي ، والحب الصافي
تعلق الروح بالحضرة الإلهية . ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستبج القلب والنفس ،
وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة المهوى لأن حلاوة المهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها
من قرار لكونها لا ترتقى عن حد النفس ، وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء لأنها متصلة
في الروح فرعها عند الله تعالى وعروها ضاربة في أرض النفس ، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله
صلى الله عليه وسلم يتشربها بالروح والقلب والنفس وينفذها بكتيبته ويقول :

أشمتك لسيا لست أعرفه . أظن ليما جرت فيك أردانا

فتمته الكلمة وتشمله وتصير كل شجرة منه سمما وكل دقة منه بصرا ، فيسمع الكل بالكل ، وبصر الكل
بالكل ويقول :

إن تأملتم فكلى عيون . أو تذكرتم فكلى قلوب

قال الله تعالى (فيشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو
الآيات) .

قال بعضهم : القلب والعقل مائة جزء : تسعة وتسعون في النبي صلى الله عليه وسلم ، وجزء في سائر المؤمنين ، والجزء
الذى في سائر المؤمنين أحد وعشرون سها ، فهم يتساوى المؤمنون كلهم فيه وهو : شهادة لا إله إلا الله وأن
محمداً رسول الله ، وعشرون جزءا يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم . قيل في هذه الآية إظهار فضيلة رسول الله
(٧ - ملحق كتاب الإحياء)

صلى الله عليه وسلم، أى : الأحسن ما يأتي به ، لأنه لما وقعت له حجة التمكن ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون ظهرت عليه الأنوار في الأحوال كلها ، وكان معه أحسن الخطاب ، وله سبق في جميع المقامات ، ألا تراه صلى الله عليه وسلم يقول : نحن الآخرون السابقون ، يعنى الآخرون وجودا السابقون في الخطاب الأول في الفضل في محل القدس . وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لَهُ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) قال الجنيد : تنسموا روح مادعاهم إليه ، فأسرعوا إلى عمو الملائق للشقة ، ومجدوا بالنفوس على معانقة الخلد ، وتجرعوا مرارة المكابدة ، وصدقوا الله في للماعة ، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه ، وهانت عليهم المصائب ، وعرفوا قدر ما يطلبون ، ويحتسوا معهم عن التفتت إلى مذكور سوى وليهم ، لحيا حياة الأبد بالحى الذى لم يزل ولا يزال .

وقال الراسطى رحمه الله تعالى : حياتنا قصفتها عن كل معلول لفظا وفعلما .

وقال بعضهم : استجيبوا لله إسرائيلكم ، وللرسول بطواهركم ، لحياة النفوس بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة القلوب بمشاهدة العيوب ، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير .

وقال ابن عطاء : في هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه (أولها) إجابة التوحيد . (والثاني) إجابة التحقيق . (والثالث) إجابة التسليم . (والرابع) إجابة التقريب ، فالاستجابة على قدر السماع ، والسماع من حيث الفهم ، والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام ، والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالمتكلم ، ووجود الفهم لا تنحصر ، لأن وجوده الكلام لا تنحصر . قال الله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي) فقه تعالى في كل كلمة من القرآن كتاباته التى ينفد البحر دون نفادها ، فكل الكلام كلمة نظراً إلى ذات التوحيد ، وكل كلمة كلمات نظراً لسمعة العلم الأول .

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال : أنبأ الرئيس أبو علي بن نهان قال : أخبرنا الحسن بن شاذان قال : أخبرنا دعليج بن أحمد قال أخبرنا أبو الحسن بن عبد العزيز البغوى قال أخبرنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام قال حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن بن فضال عن أبي عبد الله عليه وسلم قال : ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع ، قال فقلت يا أبا سعيد ، ما المطلع ، قال : يطلع قوم يعملون به . قال أبو عبيد : أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله بن مسعود ، قال أبو عبيد : حدثني حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم ، أولها قوم سيعملون بها ، فالمطلع : المصدد يصعد عليه من معرفة عليه ، فيكون المطلع : الفهم يفتح الله تعالى عن كل قلب بما يبرز من الثور . واختلف الناس في معنى الظهر والبطن . قال قوم : الظهر لفظ القرآن ، والبطن تأويله . وقيل الظهر : صورة القصة مما أخبر الله تعالى عن غضبه على قوم وعقابه لإيham ، فظاهر ذلك إخبار عنهم وباطنه عظة وتذية لمن يقرأ ويسمع من الأمة . وقيل ظاهره : تنزيه الذى يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به . وقيل ظهره : تلاوته كما نزل قال تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) وبطنه التدبر والتفكير فيه ، قال الله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولو الألباب) وقيل قوله : لكل حرف حد ، أى فى التلاوة لا يجاوز المصحف الذى هو الإمام ، وفى التفسير لا يجاوز المسموع المنقول ، وفرق بين التفسير والتأويل ؛ فال تفسير على زول الآية وشأنها وقصتها والأسباب التى زلت فيها ، وهذا عظمور على الناس كافة القول فيه إلا بالسماع والآثر ؛ وأما التأويل : فصرف الآية إلى معنى تحتمل إذا كان المحتمل الذى يراه موافق الكتاب والسنة ؛ فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ما ذكرناه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب التقرب من الله تعالى . قال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة ، فأعجب قول عبد الله بن مسعود . ما من آية إلا ولها قوم سيعملون بها ، وهذا الكلام معرض لكل طالب صاحب همة أن يصنى موارد الكلام ويهضم دقيق معانيه وغامض أسرارده من قلبه ، فليصطفى بكال الزهد فى الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية ، وله بكل مرة فى التلاوة مطلع جديد وفهم عتيق ، وله بكل

فهم عمل جديد ، ففهمهم يدعو إلى العمل ، وعلمهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب ، فمن الفهم علم ، ومن العلم عمل ، والعلم والعمل يتأويان فيه ، وهذا العمل إنما هو عمل القلوب ، وعمل القلوب غير عمل القالب ، وأعمال القلوب الطمעה وصادقتها مشاكلة للملوم ، لأنها نيات وطويات وتلفعات وروحية وتأديبات قلبية ومسامرات سرية ، وكلها أتوا بعمل من هذه الأعمال رفيع لم علم من العلم ، وطلوعا على مطلع من فهم الآية جديد ، ويتنازع سرى أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر في الآية ، ولكن المطلع أن يطالع عند كل آية على شهود المتكلم بها ، لأنها مستودع وصف من أوصافه وامت من لغوه ، فتستجدله التعليلات بتلاوة الآيات وسماعها ، ويصير له مرآة منبهة عن عظم الجلال .

ولقد نقل عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : لقد فجلى الله تعالى لمباديه في كلامه ولكن لا يصرون ، فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه ، فالحد : حد الكلام ، والمطلع : الترقى عن الكلام إلى شهود المتكلم . وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه خرمه شياعه وهو في الصلاة ، فسئل عن ذلك فقال : ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها ، فالصوفي لمالاح لنور ناعية التوحيد ، وأتى سمعه عند سماع الوعد والوعد ، وتلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى صار بين يدي الله حاضراً شهيذاً ، يرى لسانه أو لسان غيره في التلاوة ، كشجرة موسى عليه السلام حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بإني أنا الله ؛ فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله ، صار سمعه بصره وبصره سمعه وعلمه عمله وعمله علمه ، وعاد آخره أوله وأوله آخره . ومعنى ذلك : أن الله تعالى خاطب الذكر بقوله (ألسنت بر بكم) فسمعت النداء على غاية الصفاء ، ثم أنزل الذرات تتقلب في الأصحاب وتنتقل إلى الأرحام . قال الله تعالى (الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين) يعني تقلب ذرتك في أصحاب أهل السجود من آباءك والآباء ، فما زالت تنتقل في الذرات حتى برزت بين أجسادها ، فاحتجبت بالحكمة عن القدرة ، وبهلم الشهادة عن عالم الغيب وتراكم ظلتها بالقلب في الأطوار ؛ فإذا أراد الله تعالى بالمبد حسن الاجتماع بأن يصيره صوفياً صافياً لا يزال يرقبه في ربم التزكية والتطهية حتى يخلص من مضيق عالم الحكمة إلى قضاء القدرة ، ويزل عن بصيرته النافذة بحجب الحكمة فيصير سماعه (ألسنت بر بكم) كشفاً وعياناً ، وتوحيداً وعرفاته كياناً وبرهانا ، وتدرج له ظلم الأطوار في لواعج الأنوار قال بعضهم : أنا أذكر خطاب (ألسنت بر بكم) إشارة منه إلى هذا الحال ، فإذا تحقق الصوفي بهذا الوصف صار وقته زهداً وشهوده مؤبداً وسماحه متوالياً متجدداً ، يسمع كلام الله تعالى وكلام رسوله حتى السماع .

قال سفیان بن عیینة . أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

وقال بعضهم : تعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الكلام .

وقيل : من حسن الاستماع إعمال المتكلم حتى يقضي حديثه ، وقلة التلفت إلى الجوانب ، والإقبال بالوجه ، والنظر إلى المتكلم ، والرعى . قال الله تعالى لنبيه عليه السلام (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) وقال (لا تحرك به لسانك لتعجل به) هذا تعلم من الله تعالى لرسوله عليه السلام حسن الاستماع . قيل : معناه لا تعجل على الصحابة حتى تدبر معانيه حتى تكون أنت أول من يخلص بفرائه وعجايبه . وقيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل وأوحى إليه لا يقرأ من قراءة القرآن مخافة الانفلت والضياع ، فبأن الله تعالى عن ذلك ، أى لا تعجل بقراءته قبل أن يفرغ جبرائيل من إلقائه إليك ، وقد تكون مطالعة العلوم وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى السماع ، ويحتاج المطالع للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال التي فيها نجاة من عذاب الآخرة : أن يكون في ذلك كله متادياً بأداب حسن الاستماع بالزهد والتقوى حتى يأخذ من كل ماسمه أحسنه ، فيكون أخذاً بالمطالعة من كل شيء أحسنه . ومن الأدب في المطالعة : أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والعلم ، يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وقلة صبره على الذكر والتلاوة والعمل ، فتسروح بالمطالعة كما تسروح بمجالسة الناس ومكالمتهم ؛ فليفتقد المتفطن نفسه في ذلك ، ولا يستحل مطالعة الكتب إلى حد يأخذ

ذلك من وقته وراعى الإفراط فيه ، فلذا أراد مطالعة كتاب أوشىء من العلم لا يبادر إليه إلا بعد التثبت والإجابة والرجوع إلى الله تعالى وطلب التأيد من رحة الله تعالى فيه ، فإنه قد يرقى بالمطالعة ما يكون من مزيحاله ، ولو قدم الاستخارة لذلك كان حسنا ، فإن الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهيم موهبة من آفته زيادة على ما يقين من صورة العلم فللم صورة ظاهرة وسر باطن وهو الفهم وافته تعالى فيه على شرف الفهم بقوله ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ أشار إلى الفهم بمجود اختصاص ودين عن الحكم والعلم . وقال الله تعالى ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ فلذا كان المسمع هو الله تعالى ، يسمع تارة بواسطة اللسان وتارة بما يرقى بمطالعه الكتب من التبيان ، فصار ما يفتح الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى ما يرقى من المسموع بركة حسن الاستماع ، لتفقد البهذاله في ذلك ويستمع له وأدبه ، فإنه باب كبير من أبواب الخير ، وعمل صالح من أعمال المشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين المنتهين للاستثمار أبواب الرحمة والمزيد من كل شيء ينفع سلوك الأخيرة .

الباب الثالث : في بيان فضيلة علوم الصوفية ، والإشارة إلى أنموذج منها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو التيجيب السهروردي رحمه الله ، قال أنبأنا أبو عبد الرحمن الصفوي ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندي ، قال : أخبرنا أبو أحمد عبد الله بن عبد الرحمن الداربي ، قال حدثنا نعم بن حماد ، قال حدثنا بقية عن الأحوص بن حكيم عن أبيه قال سألت رجلاً من بني علي السلام عن الشر فقال ، لأنزلوني عن الشر وسألوني عن الخير يقولنا ثلاثاً ، ثم قال : إن شر الشر شرار العلماء ، وإن خير الخير خير العلماء ، أدلاء الأمة ، وعمد الدين ، وسرج ظلمات الجمالات الجلية ، ونقباء ديوان الإسلام ، ومبادئ حكم الكتاب والسنة ، وأمناء الله تعالى خلقه ، وأطباء العباد ، وجهابذة المذاهب الخفية ، وحملة عظيم الأمانة ، فهم أحق الخلق بمقائق التقوى ، وأحوج العباد إلى الرمدى الدنيا ، لأنهم يحتاجون إليها لتفسيهم وفهمهم ، ففسادهم فساد ، وصلاحهم صلاح متعدد .

قال سفيان بن عيينة : أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم . وأعلم الناس من عمل بما يعلم . وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى ، وهذا قول صحيح يحكم بأن العلم إذا لم يعمل بعلمه فليس بعلم ، فلا يترك تشدقه واستطاعته وحذاقته وقوته في المناظرة والمجادلة ، فإنه جاهل وليس بعلم ، إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم ، فإن العلم في سبيل الإسلام لا يضيع أهله ويرجى عود العالم ببركة العلم ، والعلم فريضة وفضيلة ، فالفريضة : ما لا بد للإنسان من معرفته لتقوم به واجبات حق الدين . والفضيلة : ما زاد على قدر حاجته مما يكسبه فضيلة في النفس موافقة الكتاب والسنة ، وكل علم لا يوافق الكتاب والسنة وما هو مستفاد منها أو معين على فهمها أو مستند إليها كما كنا ما كان ، فهو رذيلة وليس بفضيلة ، يرداد الإنسان به هواناً ورذيلة في الدنيا والآخرة ، فالعلم الذي هو فريضة لا يسمع الإنسان جهله على ما حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العنبر قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم المستطيل قال أخبرنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيري قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصفهاني قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي قال حدثنا جعفر بن عامر العسكري قال حدثنا الحسن بن عطية قال حدثنا أبو عاصم عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالعين » ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم . واختلف العلماء في العلم الذي هو فريضة . قال بعضهم : هو طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال ، لأن الإخلاص مأموره به . كان العمل مأموره به . قال الله (وما أسروا إلا ليعبدوا الله مخلصين) فالإخلاص مأموره به ، وخدع النفس وغرورها ودسايسها وشهواتها الخفية تغرب بمباني الإخلاص المأموره به ، فصار علم ذلك فرضاً حيث كان الإخلاص فرضاً ، وما لا يصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضاً . وقال بعضهم : معرفة الخواطر وتنصليها فريضة ، لأن الخواطر هي أصل الفشل ومبدؤه ومشوؤه وبذلك يعلم الفرق بين إله الملك وإله الشيطان ، فلا يصح الفشل إلا بصحتها ، فصار

علم ذلك فرضاً حتى يُصح الفعل من العبد لله . وقال بعضهم : هو طلب علم الوقت . وقال سهل بن عبد الله : هو طلب علم الحال يعني حكم حاله الذي بينه وبين الله تعالى في دنياه وآخرته . وقيل : هو طلب علم الباطن وهو ما يورث به العبد يقيناً ، وهذا العلم هو الذي يكتسب بالصحة وبالعلة الصالحين من العلماء الموقنين والهادين للمقربين الذين جعلهم الله تعالى من جنوده يسوق الطالبين إليهم ويقوِّمهم بطريقهم ويرشدتهم بهم ، فهم وراث علم النبي عليه السلام ومنهم من يتعلم علم اليقين . وقال بعضهم : هو علم البيع والشراء والتسكاح والطلاق ، إذا أراد الدخول في شيء من ذلك يجب عليه طلب علمه . وقال بعضهم : هو أن يكون العبد يريد عملاً يجهل ما لله عليه في ذلك ، فلا يجوز أن يعمل برأيه ، إذ هو جاهل فيها له وعليه في ذلك ، فبإجماع طالما يسأله عنه ليجيبه على بصيرة ولا يعمل برأيه ، وهذا علم يجب طلبه حيث جهل . وقال بعضهم : طلب علم التوحيد فرض ، فمن قائل يقول : إن طريقه النظر والاستدلال ، ومن قائل يقول : إن طريقه النقل . وقال بعضهم : إذا كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والاعتقاد في الإسلام ولا يحبك في صدره شيء فهو سالم ، فإن جاك في صدره شيء أو توسوس بئس يقدح في العقيدة أو ابتلى بشبهة لا تؤمن غائلتها أن تجره إلى بدعة أو ضلالة ، فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه ويراجع أهل العلم ومن يفهم طريق الصواب . وقال الشيخ أبو طالب المسكي رحمه الله : هو علم الفرائض الخمس التي بنى عليها الإسلام ، لأنها افترضت على المسلمين . وإذا كان علمها فرضاً صار علم العمل بها فرضاً ، وذكر أن علم التوحيد داخل في ذلك ، لأن أولها الشهادتان والإخلاص داخل في ذلك ، لأن ذلك من ضرورة الإسلام ، وعلم الإخلاص داخل في صحة الإسلام ، وحيث أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فريضة على كل مسلم يقتضي أن لا يسع مسلماً جهله ، وكل ما تقدم من الأقاويل أكثر ما يسع المسلم جهله ؛ لأنه قد لا يعلم علم الخواطر وعلم الحال وعلم الحلال بجميع وجوهه وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى ، وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء ، ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لمعجز عنها أكثر الخلق إلا ما شاء الله ، ومبيل في هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبي طالب أكثر ، وإلى قول من قال : يجب عليه علم البيع والشراء والتسكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه . وهذا لعمري فرض على المسلم علمه وهذا الذي قاله الشيخ أبو طالب عندي في ذلك حد جامع لطلب العلم المفترض والله أعلم .

فأقول : العلم الذي طلبه فريضة على كل مسلم علم الأمر والنهي ، والمأمور : ما يثاب على فعله وما يعاقب على تركه ، والمنهي : ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه ، والمأمورات والمنهيات منها ما هو مستمر لازم للعبد بحكم الإسلام ، ومنها ما يتوجه الأمر فيه والنهي عنه عند وجود الحادثة ، فمما لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الإسلام علمه به واجب من ضرورة الإسلام ، وما يتخذ بالحوادث ويتوجه الأمر والنهي فيه فعله عند تجدد فرض لا يسع مسلماً على الإطلاق أن جهله ، وهذا الجهد أهم من الوجهة التي سبقت والله أعلم . ثم إن الحاجات من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين في الدنيا شمرها عن ساق الخلد في طلب العلم المفترض حتى عرفوه وأقاموا الأمر والنهي وخرجوا من عبدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى . فلما استقاموا في ذلك متتابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ فتح الله عليهم أبواب العلوم التي سبق ذكرها . قال بعضهم : من يطبق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيد من المشاهدات القوية والأخبار البينة والآثار الصادقة بالتثبوت برهان عظيم كما قال تعالى ﴿ ولولا أن يثبتناك ﴾ ثم حفظ في وقت المشاهدة ومشاهدة الخطاب وهو المزين بتمام التقرب والمخاطبة على بساط الأنس محمد صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك خوطب بقوله ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ ولولا هذه المخاطبة ما أطلق الاستقامة التي أمر بها . قيل لاني فخص : أي الأعمال أفضل ؟ قال : الاستقامة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول « استمعوا ولن تمضوا » وقال جعفر الصادق في قوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أي افتقر إلى الله بصحة العزم . ورأى بعض الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، قال « قلت يا رسول الله وى عنك أنك قلت شيئتي سورة هود وأخواتها فقال : نعم ، قال فقلت له : ما الذي شيلك منها فقص الانبياء وهلاك الأمم فقال : لا ، ولكن قوله

(فاستقم كما أمرت) ، فكان أن التفت إلى الله عليه وسلم بعد مقدمات المشاهدات فخطب بهذا الخطاب وطول بمحاثق الاستقامة فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون منجهاً لله تعالى من ذلك بقسط ونصيب ثم ألمهم طلب التهوض بواجب حق الاستقامة وراوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور .

قال أبو علي الجوزجاني : كن طالب الاستقامة لاطالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة ورويك يطلب منك الاستقامة ، وهنا الذي ذكره أصل كبير في الباب وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السالك والطالب . وذلك أن المجتهد والمتعبد سمعوا بسير الصالحين للمتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبدأ نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك ، ولعل أحدهم يبق منكسر القلب متهماً لنفسه في صحة عمله حيث لم يكشف بشيء من ذلك ، ولو علموا سر ذلك لمان عليهم الأمر فيه فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد فتش على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك باباً ، والحكمة فيه أن يردوا بما يرى من خوارق العادات وأثار التندرة يقينا فيقوى عزه على الزهد في الدنيا ، والخروج من دواعي الهوى ؛ وقد يكون بعض عبادة يكشف بصرف اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومن كوشف بصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين ، فلو كوشف هذا المرزوق صرف اليقين بشيء من ذلك ما ازداد يقيناً فلا تقتضى الحكمة كشف التندرة بخوارق العادات لهذا الموضع لاستغنائه ، وتقتضى الحكمة كشف ذلك للآخر لموضع حاجته فكان هذا الثاني يكون أتم استمداداً وأهلية من الأول حيث رزق حاصل ذلك وهو صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدرة فإن فيه آفة وهو العجب فأغنى عن رؤية شيء من ذلك . فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة . ثم إذا وقع في طريقه شيء من ذلك حاز وحسن ، وإن لم يقع فلا يسأل ولا ينقص بذلك ، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة فليعلم هذا لأنه أصل كبير الطالبين . فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقربون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة رزقوا سائر العلوم التي أشار إليها المتقدمون كما ذكرنا وزعموا أنها فرض . فمن ذلك علم الحال وعلم القيام وعلم الخواطر . وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها في باب إن شاء الله تعالى . وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم النفس ومعرفة ذاتها وعلم أخلاقها ، وعلم النفس ومعرفة ذاتها وعلم علوم القوم . وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس ، وعلم معرفة أقسام الدنيا ووجود دقائق الهوى وخفايا شهود النفس وشرها وشرها ، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة . قولاً وفعلًا ولباساً وخُلماً وأكلًا ونوماً . ومعرفة حقائق التوبة ، وعلم خفي الذنوب ومعرفة سيئات هي حسنات الأبرار ومطالبة النفس بترك ما لا يبنى ، ومطالبة الباطن بمحصر خواطر المحصية ثم بمحصر خواطر الفضول ؛ ثم علم المراقبة ، وعلم ما يقدر في المراقبة ، وعلم المحاسبة والرياسة ، وعلم حقائق التوكل وذنوب المتوكل في توكله وما يقدر في التوكل وما لا يقدر ، والفرق بين التوكل الواجب بحكم الإيمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان ، وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا ، وعلم الزهد وتحديد به بما يلزم من ضرورته ، وما لا يقدر في حقيقته ومعرفة الزهد في الزهد ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد في الزهد ، وعلم الإنابة والالتجاء ومعرفة أوقات النداء ومعرفة وقت السكرت عن الدعاء ، وعلم المحبة والفرق بين المحبة العامة المفسرة بامتثال الأمر والمحبة الخاصة ؛ وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة كما أنكروا الرضا وقالوا : ليس إلا الصبر . وانقسام المحبة الخاصة إلى محبة الذات وإلى محبة الصفات والفرق بين محبة القلب ومحبة الروح ومحبة العقل ومحبة النفس ، والفرق بين مقام المحب والمحبوب ، والمريد والمراد ، ثم علوم المشاهدات كعلم الحلية والألنس والقبض والبسط ، والفرق بين القبض والحلم والبدط والانشط ، وعلم الفناء والبقاء وتفاوت أحوال الفناء والاستتار والتجلى والجمع والفرق والروائع والطوائع والوادي والصحو والسكر إلى غير ذلك . لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها في مجلدات ، ولكن العمر قصير ، والوقت عزيز ، ولولا سهم الغفلة لعاقى الوقت عن هذا التقدير أيضاً ، وهذا المختصر المؤلف يحتوي من علوم القوم على طرف صالح نرجو من الله الكريم أن ينفع به ويعمله

حجة لنا لا حجة علينا .. وهذه كلها علوم من ورثاتها علوم عمل ؛ فتمتصاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون ، وحرم ذلك علماء الدنيا الزاغون وهي علوم ذوقية لا يكاد النظر يصل إليها بذوق ووجدان ، كالملم بكيفية حلالة السكر لا يحصل بالوصف فن ذاته عرفة . ويذكر عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يتعد تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلاص بمقتضى التقوى ؛ ووبما كان محبة الدنيا عونا على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس بلجبت النفوس على محبة الجاه والرفعة حتى إذا استشعرت حصول ذلك بمحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف وسهر الليل والصبر على العبرة والأسفار وتعدر الملاذ والشهوات . وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تتكشف إلا بمجانبة الهوى ، ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى قال الله تعالى ﴿ تراثفوا الله ويعلمكم الله ﴾ جعل العلم ميراث التقوى وغير علوم هؤلاء القوم متميز من غير ذلك بلا شك ، فلم فضل علماء الآخرة حيث لم يكشف الثقاب إلا لأولى الألباب ، وأولو الألباب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا .

قال بعض الفقهاء : إذا أوصى رجل بماله لأقل الناس يصرف الزهاد لأنهم أقل الخلق . قال سهل بن عبدالله السبتي : للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا . حدثنا الشيخ الصالح أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال : أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال : حدثنا محمد بن أحمد بن محمد قال حدثنا العباس بن أحمد الشاشي قال حدثنا أبو عقيل الوصافي قال أخبرنا عبدالله الخواص وكان من أصحاب حاتم قال دخلت مع أبي عبد الرحمن حاتم الأصم الرضى ومعه ثلثا عشرة ورجلا يريدون الحج وعليهم الصوف والزمرات ليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا الرى على رجل من التجار متسلك بحب المتكشفين فاصافنا تلك الليلة ، فلما كان من الند قال لحاتم يا أبا عبد الرحمن ألك حاجة ؟ فإني أريد أن أعود ففينا لنا هو عليل فقال حاتم إن كان لك فيه عليل فميادة الفقيه لما فضل والنظر إلى الفقيه عبادة فأنا أيضا أجيء بمعلم .. وكان الليل محمد بن مقاتل قاضي الرى - فقال سر بنا يا أبا عبد الرحمن لجأوا إلى الباب ، فإذا باب مشرف حسن فبق حاتم متفكرا يقول باب عالم على هذا الحال ؟ ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار قوراء وإذا برة ومنعة وستور وجمع ، فبق حاتم متفكرا ، ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه فإذا بفرش وطيحة وإذا هو واقف عليها وعند رأسه غلام ويدهمة به فقد الرأى يسأله وحاتم قائم ؛ فأومأ إليه ابن مقاتل أن أقعد فقال : لا أقعد ، فقال له ابن مقاتل . لعل لك حاجة ؟ قال : نعم ، قال وما هي ؟ قال مسألة أسألك عنها قال : سئلي قال : فقم فاستور جالساً حتى أسألكها ، فأمر غلبانه فأستدوه ، فقال له حاتم عليك هذا من أين جئت به ؟ قال الثقات حدثوني به ، قال عن ؟ قال عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ورسول الله من أين جاء به ؟ قال عن جبرائيل ؟ قال حاتم ففينا أداء جبرائيل عن الله وأداء رسول الله إلى أصحابه وأداء أصحابه إلى الثقات وأداء الثقات إليك هل سمعت في العلم من في داره أمير أو منتهى أكثر كانت له المنزلة عندنا أكثر ؟ قال لا ، قال فكيف سمعت ؟ قال من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب للمساكين وقدم لآخرته ، كان له عند الله المنزلة أكثر ، قال حاتم فأنت بمن اقتديت بالنبي وأصحابه والصالحين أم بفرعون ونمرود وأول من نبى بالخص والآخر ؟ يا علماء السوء مثلكم براء الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها فيقول العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شراً منه ، وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضاً . فبلغ أهل الرى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له يا أبا عبد الرحمن ، بقر عين عالم أكبر شأناً من هذا . وأشاروا به إلى الطنافسى - قال فسار إليه متعمدا فدخل عليه فقال رحلك الله أأرجل أجمي أحب أن تملين أول مبتدئ ديني ومفتاح صلاحك كيف أتوضأ للصلاة ؟ قال نعم وكرامة يا معلم مات إنافيه ماء ؛ فإني إنافيه فيه ماء فقد الطنافسى قمتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ، ثم قال هكذا قمتوضأ . فقد فتوحاً حاتم ثلاثاً ثلاثاً حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعا فقال له الطنافسى يا هذا أسرفت ، فقال له حاتم فيأذا ؟ قال غسلت ذرايعك أربعا ، قال حاتم يسبحان الله أنا في كف ماء أسرفت وأنت في هذا الجمع كله لم تسرف ، فلم الطنافسى أنه أراد بذلك ولم يد منه

التمس ، فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوما ، وكتب نهار الرى وقروين ماجرى بينه وبين ابن مقاتل والحاضى ؛ فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل لكن اعجمى ليس بكلمة أحد إلا وقطعته ، قال : متى ثلاث خصال بهن أظهر على خصمى ، قالوا : أى شيء هى ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، واحفظ نفسى أن لا أجهل عليه ، فبلغ ذلك أحد بن جنبل فجاء إليه وقال : سبحان الله ما فعله ؟ فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ما السلامه من الدنيا ؟ قال حاتم : يا أبا عبد الله ، لا تسلم من الدنيا حتى يكون مملك أربع خصال . قال : أى شيء هى يا أبا عبد الرحمن ؟ قال تنفر للنوم جهلهم ، وتنجع جهلك عنهم ، وبذل لم شيكك ، وتكون من شيتهم آيسا ؛ فإذا كان هذا سلت ، ثم سار إلى المدينة .

قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ذكر بكلمة وإنما ، فينتفى العلم عن لا يخشى الله ، كما إذا قال إنما يدخل الدار بنداى ، ينتفى دخول غير البنداى الدار ؛ فلاح لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى أنصبه المعارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى . قال أبو يزيد رحمه الله لأصحابه : بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول لاله إلا الله ما قدرت عليه . قيل : ولم ذلك ؟ قال : ذكرت كلمة قلنا فى صباى ، جالمتى وحشة تلك الكلمة فنتعت عن ذلك ، وأجبت من يذكر الله تعالى وهو متصف بشيء من صفاته ؛ فبصفاء التقوى وكأل الإهادة يصير العبد راسخا فى العلم ، قال الواسطى . الراسخون فى العلم هم الذين رشحوا بأرواحهم فى غيب الغيب فى سر السر فعرفهم ما عرفهم ، وعاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فأنكشف لهم من مدخور الخزان ما تحت كل حرف من الكلام من الفهم ومجائب الخطاب ففقهوا بالحكم . وقال بعضهم : الراسخ من أطلع على عمل المراد من الخطاب . وقال الخراز : هم الذين كلوا فى جميع العلوم وعرفوها ، واطلموا على همم الخلائق كلهم أجمعين ، وهذا القول من أبي سعيد لا يبنى به أن الراسخ فى العلم يبنى أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان من الراسخين فى العلم ووقف فى معنى قوله تعالى (وفاكهة وأبا) وقال : ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا إلا تكلف . ونقل أن هذا الوقوف فى معنى الأب كان من أبي بكر رضى الله تعالى عنه ، وإنما عنى بذلك أبو سعيد ما يضر أول كلامه بآخره ، وهو قوله : اطلموا على همم الخلائق كلهم ؛ لأن المتقى حق التقوى والزاهد حق الإهادة فى الدنيا صفا باطنه وانجلى مرآة قلبه ووقعت له محاذاة بشيء من ألوح المحفوظ ، فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم وأصولها ، فيعلم منتهى أقدم العلماء فى علومهم ، وقائدة كل علم ، والعلوم الجزئية متجزئة فى النفوس بالتعليم والممارسة فلا يمتيه عليه السكلى أن يرجع فى الجزئ أهله الذين هم أوعيته ، فنفس هؤلاء امتلأت من الجزئ واشتغلت به ، وانقطعت بالجزئ عن السكلى ؛ ونفوس العلماء الزاهدين يمد الأخذ مما لا بد لهم منه فى أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله وانقطعوا إليه وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه ، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنوار أنبيات بها قلوبهم لإدراك العلوم ، فأرواحهم ارتقت عن حد إدراك العلوم بعكوفها على العالم الأزل ، وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء العلم ، وقلوبهم بنسبة وجهها الذى على النفوس صارت أوعية وجودية تناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية ، فتألفت العلوم وتألفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها بالوح المحفوظ ، والمعنى بالانفصال انتقاشها فى ألواح لا غير ، وانفصال القلوب عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس ؛ فصارين المتفصيلين نسبة اشتراك موجب لتألف ، خلصت العلوم لذلك وصار الربانى راسخا فى العلم .

أوحى الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة (يابنى إسرائيل) لا تقولوا العلم فى السماء من ينزل به ، ولا فى نفوس الأرض من يصعد به ، ولا من وراء البحار من يعبر فى يابى به . العلم يحصل فى قلوبهم تأديبين يدي بأداب الروسانيين وتقتلوا إلى بأخلاق الصديقين ، أظهر العلم من قلوبكم حتى ينطقكم أو ينمركم . فالتأديب بأداب الروسانيين حصر النفوس عن تفاضى جيلاتها ، وقها بصريح العلم فى كل قول وفعل ، ولا يصح ذلك إلا لمن علم وقرب وتعلم إلى الحضور بين يدي الله تعالى ، فيحفظ بالحلق الحق .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب عبد القاهر السمرودي (إجازة) ، قال : أخبرنا أبو منصور بن خيرون (إجازة) ، قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري (إجازة) قال أخبرنا أبو عمر عبد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن الروزي قال أخبرنا عبد الله بن المبارك قال أخبرنا الأوزاعي عن حسان بن عطية ، بلغني أن شداد بن أوس روى الله عنه قول من لا فقال : اتقوا بالسفرة نيت بها ، فإنكم منه ذلك ، فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها ثم أزمها غير هذه فلا تحفظوها على مثل هذا يكون التأديب بأداب الروحانيين .

مكتوب في الإنجيل : لا تطلبوا علم عالم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم . وقد ورد في خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان ربما يفسدكم بالعلم . قلنا : يا رسول الله ، كيف يسوقنا بالعلم ؟ قال : يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم ، فلا يزال العبد في العلم قافلا والعمل مسوقا حتى يموت وما عمل . وقال ابن مسعود روى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم بالحشية . وقال الحسن : إن الله تعالى لا يعبأ بذي علم ورواية ، إنما يعبأ بذي فهم ودراية ، فعلوم الرواية مستخرجة من علم الدراسة ، ومثال علوم الدراسة كالإيمان الخالص السالغ للشاربين . ومثال علوم الرواية كالزبد المستخرج منه ، فلم يكن لبن لم يكن زبد ، ولكن الزبد هو الدنية المطلوبة من اللبن ، والمالمة في اللبن جسم قام به روح الدنية ، والمالمة بها القوام . قال الله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه) أي كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإسلام ، فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول ، وللإسلام علوم وهي علوم مبادئ الإسلام ، والإسلام بعد الإيمان فنظر إلى مجرد التصديق . ولكن الإيمان فروع يبدل التحقق بالإسلام ، وهي مراتب كعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، فقد تقال للتوحيد والمعرفة والمشاهدة . وللإيمان في كل فرع من فروع من فروعه علوم ، فعلوم الإسلام علوم اللسان ، وعلوم الإيمان علوم القلوب ، ثم علوم القلوب لها وصف خاص ، ووصف عام ، فالوصف العام علم اليقين وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة ، وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة وهي السكينة التي أنزلت في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص ولا يشملها بوصفه العام ، فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومرتبه من الإيمان ، وإلى وصفه العام اليقين يادة على الإيمان ، والمشاهدة وصف خاص في اليقين ، وهو عين اليقين ، وفي عين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين ، لحق اليقين إذن فوق المشاهدة ، وحق اليقين موطنه ومستقره في الآخرة ، وفي الدنيا منه لمح يسير لأمه ، وهو من أعز ما يوجد من أقسام العلم بالله ، لأنه وجدان ، فصارع الصوفية ورهاده العلماء لسيته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال كنسبة ما ذكرناه من علم الرواية والدراسة ، عليهم بمثابة اللبن لآله اليقين والإيمان الذي هو الأساس ، وعلم الصوفية بالله تعالى من أنصبة المشاهدة ، وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن ، فضيلة الإيمان فضيلة العلم ، ورزاة الأعمال على قدر الحظ من العلم . وقد ورد في الخبر : فضل العالم على العابد كفضلي على أمي ، والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق ، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين ، وقد يكون العبد عالما بالله تعالى ذا يقين كامل وليس عنده علم من فروع الكفائيات ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بمقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أوفى بعلوم الفقه والاحكام من بعضهم . روى أن عبداً بن عمر كان إذا سئل عن شيء يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وكان عبداً ابن عباس يقول : سلوا جابر بن عبد الله لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسمهم . وكان أنس بن مالك يقول : سلوا مولانا الحسن ، فإنه قد حفظ ونسيتنا ، فكانوا يردون الناس إليهم في علم الفقه والاحكام ، ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين ، صادفتهم طراوة الوحي المنزل وغمرهم غيرة العلم المجمل والمفصل ، فتلقى منهم طائفة مجتة ومفصلة ، وطائفة مفصلة دون مجتة ، والمجمل أصل العلم ، ومفصلة المكتسب بظاهرة القلوب وقوة الفرادة وكال الاستعداد ، وهو خاص بالخواص .

قال الله تعالى ثلثيه صلى الله عليه وسلم ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ وقال تعالى ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ فلهذه السبيل سابلة ، ولهذه الدعوات قلوب قابلة ، فمنها من توسل مستعمية جامدة باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها ، فلينا تبار الإنذار والموعظة والحذار ، ومنها نفوس زكية من تربة طيبة موافقة للقلب قريبة منها ، فن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالموعظة ، ومن كان قلبه ظاهراً على نفسه دعاه بالحكمة ، فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار ، وهي الدعوة بذكر الجنة والنار ، والدعوة بالحكمة أجاب بها المقرونون وهي الدعوة بتلويح منع القرب وصفو المعرفة وإشارة التوحيد ، فلما وجدوا التلويحات الحقايقية والترميزات الربانية ، أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم فصاروا متابعين الأقوال لإجابتهم نفسها ، ومتابعين الأعمال لإجابتهم قلباً ؛ والتحقق بالأحوال لإجابتهم روحاً فلجابه الصوفية بالكل وإجابة غيرهم بالبعض . قال عمر رضى الله عنه : رحم الله تعالى صهيالاً لم يتف الله لم يعض . يعنى لو كتب له كتاب الأمان من التار حله صرف المعرفة بمعظم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية . أداء لما عرف من حق العظمة . فإجابة الصوفية إلى الدعوة لإجابة المحب للمحبوب على اللذات وذماب العسر ، وإجابة غيرهم على المكابدة والمجاهدة ، وهذا لإجابة يظهر مع الساعات أثرها في القيام بمحقق الاستقامة والعبودية . قال الله تعالى ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره اليسرى﴾ قال بعضهم أعطى للناورين ولمرهم شيئاً واتقى للفر والسبيات وصدق بالحسنى أنام على طلب الرنى ، والآية قيل زلت في أبي بكر الصديق رضى الله عنه . ويلح في الآية وجه آخر ﴿عطى﴾ بالمواظبة على الأعمال ﴿واتقى﴾ الرساوس والمواجس ، ﴿وصدق بالحسنى﴾ لازم الباطن بتصفية موارد الشهود عن مزاحمة لوث الوجود ﴿فسنيسره اليسرى﴾ نفتح عليه باب السهولة في العمل والعيش والانس ؛ ﴿وأما من بخل بالأعمال﴾ واستغنى ﴿امتثالاً بالأحوال﴾ وكذب بالحسنى لم يكن في المكورت بنفوذ بصيرته بالجوال ﴿فسنيسره اليسرى﴾ لشد عليه باب اليسر في الأعمال . قال بعضهم : إذا أراد الله بعبده سوء أسد عليه باب العمل وفتح عليه باب الكسل ، فلما أجاب نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهراً وباطناً ، كان حظهم من العلم أوفر ونصيبيهم من المعرفة أكمل ، فكانت أعمالهم أركى وأفضل .

جامر جل إلى معاذ قال : أخبرني عن رجلين أحدهما يجتهد في العبادة كثير العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يمتوره الشك . قال معاذ ليحطن شكك عمله ، قال : فأخبرني عن رجل قابل العمل إلا أنه قوى اليقين وهو في ذلك كثير الذنوب ، فسكت معاذ ، فقال الرجل : والله لئن أحبط شكك الأول أعمال بره ، ليحطن يقين هذا ذنوبه كلها . قال : فأخذ معاذ بيده وقال : ما رأيت الذي هو أفقه من هذا .

. وفي وصية لقمان لابنه : ياني ، لا يستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه ، فكان اليقين أفضل العلم لأنه أدعى إلى العمل ، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية . وكال الحظ من اليقين والعلم بالله للصوفية والعلماء الزاهدين ، فبان بذلك فضلهم وفضل عليهم .

ثم إلى أمور مسألة يستبين بها المعتبر فضل العالم الزاهد المعارف بصفات نفسه على غيره : عالم دخل مجلساً وقد موز لنفسه مجلساً يجلس فيه كما في نفسه من اعتقاده في نفسه لمحله وعمله ، فدخل داخل من أبناء جنسه وقد فورة ، فأنصر العالم وأظلت عليه الدنيا ولو أمكنه لبطش بالداخل ، فهذا عارض عرض له مرض اعتراه ، وهو لا يفطن أن هذه علة فامضة ومرضى يحتاج إلى المداواة ، ولا يتفكر في منقأ هذا المرض ، ولو علم أن هذه نفس ثارت وظهرت بمجهلها ، وجعلها لوجود كبرها ، وكبرها برؤية نفسها خيراً من غيرها ، فعمل الإنسان أنه أكبر من غيره كبر ، وإظهاره ذلك إلى الفعل تكبر ، فحيث العصر صار فعلاً به تكبر . فالزاهد لا يعز نفسه بشيء دون المسلمين ، ولا يرى نفسه في مقام تمييز يميزها بمجلس ، فالصوفي العالم بخصوص يميز . ولو قدر له أن يبتلى بمثل هذه الواقعة ويصغر من تقدم غيره عليه وترفعه يرى النفس وظهورها ، ويرى أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصطام إلى النفس وانصاها صار ذلك ذنب حاله ،

قال الله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿ وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْرَانًا لِيُسرَّ مُتَقَابِلِينَ ﴾ قال أبو حفص: كيف يبق النمل في قلوب المتلفين بالله وانفتحت على عبته، واجتمعت على مودته وألست بذكره، إن ذلك قلوب صافية من هواجس الشغوص وظلمات الطباع، بل كلكت نور التوفيق فصارت إخواناً، فالخلق حجابهم من القيام بإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قولوا وفعلوا حالاً صفات نفوسهم، فإذا تبدلت نعمت النفس ارتفع الحجاب وصححت المتابعة ووقعت الموافقة في كل شيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجبت المحبة من الله تعالى عند ذلك. قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ جعل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم آية عبة المعبود به، وجعل جزاء المعبود على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه، فأوفر الناس حظاً من متابعة الرسول أوفرهم حظاً من محبة الله تعالى، والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة، لأنهم اتبعوا الله فقاموا

بإمرهم ووقفوا عما بينهم . قال الله تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ، ثم اتبعوه في أعمالهم من الجهد والاجتهاد في العبادة والتجهد والتواقل من الصوم والصلاة وغير ذلك ، ورزقوا ببركة المتابعة في الأقوال والأفعال التخلق بأخلاقه : من الحياء والحلم والصنع والنعو والرأفة والشفقة والمداواة والنصيحة والتواضع ، ورزقوا قسطا من أحواله من الخشية والسكينة والهيبة والتنظيم والرضا والصبر والزهد والتوكل ، فاستوفوا جميع أقسام المتابعات وأحيا سنته بأقصى الغايات . قيل لعبد الواحد بن زيد : من الصوفية عندك ؟ قال القاتنون بقولهم على فهم السنة ، والمالكون عليها بقولهم ، والمتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية . وهذا وصف تام وصفهم به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الاقتدار إلى مولاه حتى يقول : لا تسكني إلى نفسى طرفة عين ، أكلاني كلمة الوليد ، ومن أشرف ما ظفربه الصوفي من متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف : وهو دوام الاقتدار ودوام الانتباه ، ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الاقتدار إلا بعد كشف باطنه بصفاة المعرفة ، وأشرق صدره بنور اليقين ، وخلص قلبه إلى بساط التقرب ، وخلاسه بهلذا في المسامرة ، فقيت نفسه بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة ، ومع ذلك كله يراها مأوى كل شر ، وهي ثغابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالما ، وهي وشيكة الرجوع سرية الانفلات والانقلاب ؛ فله تعالى بكمال إطفاء عرفها إلى الصوفي وكشفها له على شيء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهو دائم الاستغانة إلى مولاه من شرها ، وكأنها جعلت سوطا للبعد تسوقه لمعرفة بشرها مع المحطات ، إلى جناب الانتباه وصدق الاقتدار والدعاء ، فلا يتخلو الصوفي عن مطالعتها أدنى ساعة ، كما لا يتخلو عن به أدنى ساعة ، ويربط معرفة الله تعالى فيها ورد من عرف نفسه فقد عرف ربه ، كربط معرفة الليل بمعرفة النهار ومن الذي يقوم بإحياء هذه السنة من سن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الصوفي العالم بأه الزاهد في الدنيا المستمسك من التقوى بأرقى المرى ؛ ومن الذي يهتدى إلى قاعدة هذه الحال غير الصوفي ، فدوام افتقاره إلى ربه تملك به جذاب الحق ولياذ به ، وفي هذا البياض استخراق الروح واستيقاع القلب إلى محل الدعاء ، وفي انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والكون فيه : نبو النفس عن مستقرها من الأنعام العاجلة وزولها إليها في مدارج العلم محفوفة بحراسة الله تعالى ورعايته ، والنفس المدبرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة من الغل والغش والحقد والحسد وسائر المذمومات ، فهذا حال الصوفي . ويجمع جل حال الصوفية شيثان : هما وصف الصوفية ، إليهما الإشارة بقوله تعالى ﴿ الله يمتحنهم إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ فقوم من الصوفية خصوصا بالاجتهاد بالصرف ، وقوم منهم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة ، بالاجتهاد المحض غير ممل بكسب العبد ، وهذا حال المحجوب المراد بإيادته الحق بنتجه ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوفه اجتجاده ، وفي هذا أخذ بطائفة من الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم وبادرهم سطوع نور اليقين فأغار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال ، فأقبلوا على الأعمال بالاذانة والعيش فيها قرأ أعينهم ، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد ، كما سهل على سمرة فرعون لنادة النزول بهم من صفو العرقان : تحمل وعيد فرعون فقالوا (لن نتركك على ما جأنا من البينات) قال جعفر الصادق رضي الله عنه وجد وجدوا وأرباب العناية القديمة بهم فالتجأوا إلى السجود شكرا قالوا (آمنا برب العالمين) .

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة ، قال أخبرنا عبد الرحمن السلي ، قال : سمعت منصورا يقول : سمعت أبا موسى الرافعي يقول : سمعت أبا سعيد الخزاز يقول : أهل الخالصة الذين هم المرادون اجتهاد مولاهم وأكل لهم النعمة وهيا لهم الكرامة ، فأسقط عنهم حركات الطلب ، فصارت حركاتهم في العمل والخدمة على الألفة والذكر وتنتميتناجاته والافتراق به ، وهذا الإسناد إلى أبي عبد الرحمن السلي قال : سمعت علي بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن المحمدي يقول . سمعت فاطمة المعرفة بحجورية تلميذة أبي سعيد تقول : سمعت الخزاز يقول : المراد : محمول في حاله ممان على حركاته وسعيه في الخدمة ، مكفي مصون عن الشواهد والنواظر ، وهذا الذي قاله الشيخ أبو سعيد هو الذي أشبهه حقيقته على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالإكثار من النوافل ، وقد

وأما جعمان المشايخ فلقنوا فلفهم فظنوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق ، ولم يعلموا أن الذين تركوا التوافل وراقصوا على القرائض كانت بدايتهم للمريدين ؛ فلما وصلوا إلى روح الحال وأدركهم الكشف بعد الاجتهاد امتلأوا بالحال فظنوا نوافل الأعمال ؛ فأما المرادون فتبقي عليهم الأعمال والتوافل وفيها قرعة أعينهم ، وهذا أتم وأكمل من الأول ؛ فهذا الذي أوحىناه أحد طريق الصوفية ، فأما الطريق الآخر طريق المريدين وهم الذين شرطوا لهم الإجابة ، فقال الله تعالى (ويهدي إليه من ينيب) فظولوا بالاجتهاد أولا قبل الكشف .

قال تعالى (والذين جاءوا فينا لنهديهم سبيلنا) يدرهمهم الله تعالى في مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدايجر وظلم الهواجر ، وتمازج فيهم نيران الطلب ، وتتحجب دونهم لواعج الأرب ، يتقلبون في رمضان الإرادة ، وينخلعون عن كل مألوف وعادة ، وهي الإجابة التي شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم وجعل الهداية مقرونة بها ، وهذه الهداية أنفا هداية خاصة لانها هداية إليه ، غير الهداية العامة التي هي الهدى إلى أسرته ونبيه بمقتضى المعرفة الأولى ، وهذا حال السالك المحب المريد ، فكانت الإجابة غير الهداية العامة فأثمرت هداية خاصة ، واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات ، فخلصوا من مضيق المسر إلى فضاء اليسر ، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال فسبق اجتهادهم كشوفهم ، والمرادون سبق كشوفهم اجتهادهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو القمح محمد بن عبد الباقي قال أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني ، قال حدثنا محمد بن الحسين بن موسى قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول : سمعت أبا محمد الجريري يقول : سمعت الجنيد رحمه الله عليه يقول : ما أخذنا التصوف عن القليل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وقال محمد بن خفيف : الإرادة سمر القلب لطلب المراد وحقيقة الإرادة استدامة الجد وترك الراحة .

وقال أبو عثمان : المريد الذي مات قلبه عن كل شيء دون الله تعالى ، فيريد الله وحده ويريد قرب به ويشاق إليه ، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شوقه إلى ربه . وقال أيضاً : عقبة قاب المريدين أن يجيبوا عن حقيقة المعلومات والمقامات إلى أضدادها ؛ فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية ودرجتاهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقيق بالتصوف ؛ (أحدهما) مجذوب أتقى على جذبه ما ورد إلى الاجتهاد بعد الكشف ، (والثاني) بمجتهد متعبد ماخلص إلى الكشف بعد الاجتهاد . وللصوفية في طريقتيهما باب مزيدهم وصحة طريقتهم بحسن المتابعة . ومن ظن أن يبلغ غرضاً أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو مخذول مغرور .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب الدهروردي قال أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت نصر بن أبي نصر يقول : سمعت قسبا غلام الزقاق يقول : سمعت أباسعيد السكري يقول : سمعت أباسعيد الخزاز يقول : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل ، وكان يقول الجنيد رحمه الله . علمنا هذا مشبهه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا لطق بالحسكة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا لطق بالبدعة .

حتى أن أبا يزيد البسطامي رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه : قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية . وكان الرجل في ناحيته مقصوداً ومشهوراً بالزهد والعبادة . ففضينا إليه ؛ فلما خرج من بيته يقصد المسجد رمى بزاغة نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : انصرفوا فانصرف ولم يسلم عليه وقال : هذا رجل ليس بأمرن على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون أمرنا على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصالحين . وسئل خادم الشيلي رحمه الله : ماذا رأيت منه عند موته ؟ فقال : لما أمسك لسانه وعرق جبهته أشار إلى أن وضعتي الصلاة ، فوضأته فليسيت فخليل لحيتي ، فقبض على يدي وأدخل أصابعي في لحيتي فخلها .

وقال سهل بن عبد الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل ؛ هذا حال الصوفية وطريقتهم ، وكل من

يدعى حالا على غير هذا الوجه فدع مقنون كتاب .

الباب الخامس : في ماهية التصوف

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل في كتابه قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الشيرازي بإجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، قال أخبرنا إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجا ، قال حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادي ، قال حدثنا عثمان بن سعيد قال حدثنا عمر بن أسد عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر ، ثم جلساء الله تعالى يوم القيامة ، قال فقر كان في ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه .

قال روم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التسكك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التبرع والاختيار .

وقال الجنيد - وقد سئل عن التصوف فقال - أن تكون مع الله بلا علاقة .

وقال معروف الكرخي : التصوف الاخذ بالحقائق واليأس عما في أيدي الخلاق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

وسئل الشبل عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستغنى بشيء دون الحق .

وقال أبو الحسين النوري : نمت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليمتدح من النفي حذر أن يدخل عليه النفي فيفسد فقره ، كما أن النفي يمتدح من الفقر حذر أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه .

وبالإسناد الذي سبق إلى أبي عبد الرحمن قال : سمعت أبا عبد الرحمن الرازي يقول : سمعت مظفرا القرميستي يقول : الفقير الذي لا يكون له إل الله حاجة . قال : وسمعت يقول : سألت أبا بكر المصري عن الفقير فقال : الذي لا يملك ولا يملك . قوله ه لا يكون له حاجة ، معناه أنه مشغول بوظائف عبوديته تام الثقة بربه ، عالم بحسن كلالته به لا يوجهه إلى رفع الحاجة لعله يعلم الله بحاله ، فيرى السؤال في البين زيادة ، وأقوال المشايخ تنوع معانيها ؛ لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال في أوقات دون أوقات ، ومحتاج في تفضيل بعضها عن البعض إلى الضوابط ، فقد تذكر أشياء في معنى التصوف ذكر مثلها في معنى الفقر وتذكر أشياء في معنى الفقر ذكر مثلها في معنى التصوف ، وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل ؛ فقد تشبه الإشارات في الفقر بمعاني الزهد تارة ومعاني التصوف تارة ، ولا يبين للسرد بعضا من البعض ؛ فنقول : التصوف غير الفقير ، والزهد غير الفقر ، والتصوف غير الزهد ؛ والتصوف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد مع مزيج أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهدا وفقيرا .

قال أبو حفص : التصوف كله آداب ، لكل وقت آداب ، ولكل حالة آداب ، ولكل مقام آداب ، فمن لم آداب الآوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول . وقال أيضا : حسن آداب الظاهر حسان آداب الباطن ؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ه لو خضع قلبه لحشمت جوارحه .

أخبرنا الشيخ رضي الدين أحمد بن إسماعيل بإجازة قال أخبرنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم ، قال أخبرني والذي أخبر القاسم الشيرازي ، قال سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفي يقول : سمعت عبد الله بن علي يقول : سئل أبو محمد الجبري عن التصوف فقال . الدخول في كل خلق سني ، والخروج عن كل خلق ذني ؛ فإذا عرف هذا المعنى في التصوف من حصوله لأخلاق وبديها واعتبر حقيقته ، يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر . وقيل : نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف ، وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر ، يقولون : قال الله تعالى (للفقراء الذين

أحصرنا في سبيل الله هذا وصف الصوفية ، والله تعالى سبحانه فقراء ، وسأوضح معنى يفرق الحال به بين التصوف والفقر ، نقول : الفقير في فقره متمسك به متحقق بفضل يورثه على التقي ، متطلع إلى ما يتحقق من الوضوء عند الله حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وهو بحسب ما قام ، فكلمنا لاحظ العوض الباقي أمسك عن الحاصل الثاني وعائق الفقر والثقة وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض وهذا عين الاعتلال في طريق الصوفية ، لأنه تطلع إلى الأعراض وترك لأجلها . والصوفي يترك الأشياء للأعراض الموعودة بل للأحوال الموجودة فإنه ابن وقته . وأيضا ترك الفقير الحظ العاجل واعتناقه الفقر اختيارا منه وإرادة ، والاختيار والإرادة علة في حال الصوفي ، لأن الصوفي صار قائما في الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة في صورة فقر ولا في صورة غنى ، وإنما يرى الفضيلة فيما يورثه الحق فيه ويدخله عليه ويعلم الإذن من الله تعالى في الدخول في الشيء ، وقد يدخل في صورة سمة مبانة للفقر بإذن من الله تعالى ، ويرى الفضيلة حيث تدفق السمة المكان الإذن من الله فيه ، ولا يفسح في السمة والدخول فيها للصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن ، وفي هذا منزلة للأقدام وباب دعوى اللدعين ، ومان حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه ركب الحال (ليهلك من هلك عن بينة ويصيا من حي عن بينة) فإذا انضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف ، وعلم أن الفقر أساس التصوف وبه قوامه على معنى أن الوصول إلى رب التصوف طريقه الفقر لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر . قال الجنيد رحمه الله عليه : التصوف هو أن يبتك الحق عنك ويحسبك به ، وهذا المعنى هو الذي ذكرناه من كونه قائما في الأشياء بالله لا بنفسه ، والفقير والزاهد مكونان في الأشياء بنفسهما واقفان مع إرادتهما مجتهدان مبلغ عليهما ، والصوفي منهم لنفسه مستقل لعله ، غير راكن إلى معلومه ، قائم بمراد ربه لا بمراد نفسه .

قال ذي النون المصري رحمه الله عليه : الصوفي من لا يتبعه طلب ولا يرجع سلب . وقال أيضا : الصوفية آثر والله تعالى على كل شيء . فآثرهم الله على كل شيء ، فكان من لشارهم أن آثروا الله على علم نفوسهم ، وإرادة الله على إرادة نفوسهم .

قيل لبعضهم : من أصحب من الطوائف ؟ قال : الصوفية ، فإن القبيح عندهم وجهان المأذير ، وليس الكبير من العمل عندهم ونفع ، يرفعونك به فتصحبك نفسك ، وهذا علم لا يوجد عند الفقير والزاهد ، لأن الزاهد يستعظم الترك ويستقبح الأخذ ومكثا الفقير ، وذلك لضيق وعائهم ووقوفهم على حد علمهم .

وقال بعضهم : الصوفي من إذا استقبله حالان حسنان أو خلقان حسنان يكون مع الأحسن ، والفقير والزاهد لا يميزان كل التمييز بين الخلقين الحسنين ، بل يختارون من الأخلاق أيضا ما هو أدعى إلى الترك والخروج عن شواغل الدنيا ، حاكبان في ذلك ببلههما ، والصوفي هو المستبين الأحسن من هداية الله بصدق اتجاهه وحسن إجابته وحظ قربه ولطيف ولوجه وخروجه إلى الله تعالى ، لعله بربه وحظه من محادثته ومكالمته .

قال ربيع : التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

وقال عمرو بن عثمان المكي : التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولا بما هو أولى في الوقت .

قال به منهم : التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى : وقيل : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع . وقيل : التصوف ترك التكلف وبذل الروح .

قال سهل بن عبد الله : الصوفي من صفا من الكدر ، وامتأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر .

وسئل بعضهم عن التصوف فقال : تصفية القلب عن موافقة البرية . ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإحدا صفات البشرية ، ومجانبة الدواعي النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واتباع الرسول في الشريعة . قال ذو النون المصري : رأيت يبيع سواحل الشام امرأة ، فقلت : من أين أقيمت ؟ قالت : من عند أقوام تجافي

جنوبهم عن المضاجع . فقلت : وأين تريدن ؟ قالت : إلى رجال لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فقلت : صفهم ،
فألتفت : قوم مومنون بالله قد عقلت . فإلهمهم تسمو إلى أحد
فطلب القوم مولايم وسيدهم . يا حسن مطلمم القواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف . من المطاعم والذات والرك
ولا ليس ثياب فاقى أتق . ولا روح سرور حل في بلد
إلا مسارعة في إثر منزلة . قد قارب الخطوفها بعد الأبد
فهم رهائن خدران وأودية . وفي الشواخ تلتاقم مع السدد

وقال الجني : الصوفي كالارض يطرح عليها كل قببح ولا يخرج منها إلا كل مليح . وقال أيضا : هو كالارض يطؤها
البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالفطر يسقي كل شيء .

وأقول للمشايع في ماهية التصوف تريد على ألف قول ، ويطول نقلها ، ونذكر ضابطا يجمع جل معانيها ، فإن الالتفات
وإن اختلفت مقاربة الماتق . فنقول : الصوفي هو الذي يكون دائم التنصية لا يزال يصني الأوقات عن شوب الأكدار
بتصفية القلب عن شوب النفس ، ويمتنع على كل هذه التنصية دوام افتقاره إلى موله ، فبدوام الافتقار بنفي من الكدر ،
وكما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها يصيرته النافذة وفر منها إلى ربه ، فبدوام تصفيته جميعته ،
وبحره نفسه تفرقة وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . قال الله تعالى (كونوا قوامين لله شهداء
بالقسط) وهذه القوامية هي على النفس هو التحقق بالتصوف ، قال بعضهم التصوف كله اضطراب ، فإذا وقع السكون
فلا تصوف ، والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلمية يعني أن روح الصوفي مطلعة منجذبة إلى مواطن القرب ،
والنفس بوضعا رسوب إلى طالعها ، وانقلاب على عقبا ، ولا بد للصوفي من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام القرار
وحسن التفقد لمواقع أصابات النفس ، ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى الصوفي جميع المتفرق في الإشارات .

الباب السادس : في ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد طاهر ، وقال أخبرني والدي ، قال أخبرنا أبو علي الشافعي بمكة حرسها
الله تعالى ، قال أخبرنا أحمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو عبد الله الخزومي ،
قال حدثنا سفيان عن مسلم عن أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة المذوديركب
الحمار ويلبس الصوف ، فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سمو صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة ، لأنهم اختاروا لبس
الصوف لكونه أرقن ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « حر بالصفرة من الرواح سيمون نيا حفاة عليهم العباء يؤمون
البيت الحرام » .

وقيل : إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ، ويأكل من الشجر ، ويبيت حيث أمسى .

وقال الحسن البصري رضى الله عنه : لقد أدركت سبعين بدرى كان لباسهم الصوف ، ووصفهم أبو هريرة وفضالة
ابن عبيد قالا : كانوا يخرجون من الجوع حتى يحسبهم الأعراب مجانين ، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يعمق
في ثوبه فيوجد متراثة الشأن إذا أصابه التيت . وقال بعضهم : إنه ليؤذني ربح هؤلاء ، أما يؤذني ربحهم ! يخاطب
رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فكان اختيارهم لبس الصوف تركهم زينة الدنيا ، وقناعتهم بسدا لجوعه وستر
العورة ، واستغراقهم في أمر الآخرة ، فلم يتفرغوا للملاذات والنفس وراحاتها ، لشدة شغلهم بخدمة مولايم ، وانصراف
همهم إلى أمر الآخرة ، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق ، لأنه يقال « تصوف » إذا لبس الصوف ،
كما يقال « قمص » إذا لبس القمص .

ولما كان حالهم بين سير وطير لتقاربهم في الأحوال وارتفاتهم من حال إلى أعلى منه ، لا يشهد وصف ولا يحسبهم نعت ، وأرباب المزيد علما وحال عليهم مفتوحة ، وبواطنهم معدن الحقائق وجميع العلوم ، فلما تذر تقديم بحال تقديم لتنوع وجدانهم وتجنس مزيدهم ، نسبوا إلى ظاهر اللبنة . وكان ذلك آيين في الإشارة إليهم ، وأدعى إلى حصر وصفهم ؛ لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم ؛ وأيضاً لأن حالهم حال القرين سابق ذكره . ولما كان الاعتناء إلى القرب - وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب يميز كشفه والإشارة إليه - وقصته الإشارة إلى زهم سترها لحلم وضيرة على عزير مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة ، فكان هذا اقرب إلى الأدب ، والأدب في الظاهر والباطن والقول والفعل عماد أهل الصوفية ، وفيه معنى آخر : وهو أن نسبتهم إلى اللبنة تنبئ عن قتلهم من الدنيا وزهدهم فيها تدعو النفس إلى الهوى من الملبوس الناعم ، حتى إن المبتدئ المريد الذي يؤثر طريقهم ويحب الدخول في أمرهم يوطن نفسه على التشغف والتغل ، ويعلم أن لما أكل أيضاً من جنس اللبوس فيدخل في طريقهم على بصيرة ، وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدئ ، والإشارة إلى شيء من حالهم في تسميتهم بهذا أنعم وأولى ، وأيضاً غير هذا المعنى بما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى وإذليل سمو صوفية إليهم الصوف كان أبعد من الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان اليق بحالهم ، وأيضاً لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ، ونسبتهم من أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن ، والحكم بالظاهر أوفق وأولى ؛ فاقول بأنهم سموا صوفية إليهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع ، ويقرب أن يقال : لما آثروا الذيل والخرول والتواضع والانكسار والتخفي والتوازي ، كانوا كالحفرة للغة والصوفة الرمية التي لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها ؛ فيقال : صوف ، نسبة إلى الصوفة ، كما يقال : كوفي ، نسبة إلى الكوفة ، وهذا ما ذكره بعض أهل العلم ، والمعنى المقصود به قريب وبلائم الاشتقاق ، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقنين والعباد .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه ، قال أخبرنا عبد الرزاق بن عبد الكريم ، قال أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد ، قال حدثنا أبو علي بن إسحاق بن محمد ، قال حدثنا الحسن بن عرفة ، قال حدثنا خلف بن خليفة عن حيد بن الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم كأم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكفه من صوف . ونملأه من جلد حمار غير مذكر .

وقيل : سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرايرهم بين يديه . وقيل : كان هذا الاسم في الأصل صفوى ، فاستقل ذلك وجعل صوفيا . وقيل سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ الفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض ﴾ الآية ، وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكنه صحيح من حيث المعنى ؛ لأن الصوفية يشاكل حال أولئك كونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله وفي الله ، كأصحاب الصفة ، وكانوا أخواناً ربهم وجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشاير ، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والربط ، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى طرح ولا إلى تجارة ، كانوا يحتطبون ويرضخون التمر بالنهار ، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسيهم ويحث الناس على مواساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم ، وفيهم زل قوله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، ومنزل في إن أم مكرم قوله تعالى ﴿ عيسى وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ وكان من أهل الصفة ، فعزب النبي صلى الله عليه وسلم لاجله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلحهم لا يزعجهم به من أيديهم ، وكان يفرقهم على أهل الجدة والسمة يبعث مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة ، وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد ، منهم من لا يبلغ ركبتيه ، فإذا ركع أحدهم قبض يديه بخافة أن يبدو عورته . وقال بعض أهل الصفة : جئنا جماعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلنا يا رسول الله ، أحرق بطوننا التمر فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر ثم قال : ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر ، أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة وقد واسونا به وواسيناكم كما واسونا به ، والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخان التبن ، وليس لهم إلا الأسودان الماء والتمر .

أخبرنا الشيخ أبو الفتوح محمد بن عبد الباقي في كتابه ، قال أخبرنا الشيخ أبو بكر ابن زكريا الطريثي قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، قال حدثنا محمد بن محمد بن سعيد الأنماطي ، قال حدثنا الحسن بن يحيى بن سلام ، قال حدثنا محمد بن علي الترمذي ، قال حدثني سعيد بن حاتم البلخي ، قال حدثنا سهل بن أسلم عن خالد بن محمد عن أبي عبد الرحمن السكري عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أهل الصفة فرأى قمرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال : أبشروا يا أصحاب الصفة فإنني معكم على النعمت الذي أتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه فإنه من رفقائي يوم القيامة .

وقيل : كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن ، ويسمونهم في خراسان شكنكية ؛ لأن « شكنك » اسم النار ، فيسبونهم إلى المأوى والمستقر . وأهل الشام يسمونهم جوعية ، والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخير والصلاح فسمى قوما برار وآخرين مقربين ، ومنهم الصابرون والصادقون ، والذاكرون ، والمحبون ، واسم الصوفي مشتعل على جميع المنفرق في هذا الاسم المذكورة ، وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل كان في زمن التابعين . ونقل عن الحسن البصري رحمه الله عليه أنه قال رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ وقال معي أربع دقائق يكفيني مامعي . ويشهد هذا ما روى عن سفيان أنه قال لولا أوهامهم الصوفي ما عرفت دقيق الرباء . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديما . وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى الماتنين من الهجرة النبوية ؛ لأن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمون الرجل محابيا لشرف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة ، وبعد انقراض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ منهم العلم سمي تابعيا ، ثم لما تقدم زمان الرسالة ، وبعد عهد النبوة وانقطع الوحي النبوي ، وتوارى التور المصطفوي ، واختافت الآراء وتفرعت الأسماء ، وتفرذ كل ذي رأى برأيه وكدر شرب العلوم شرب الأهوية ، وتزعزعت أبنية المتقين واضطربت عزام الزاهدين ، وغلبت الجاهالات وكف حجابها ، وكثرت العادات وتملكت أربابها ، وتزخرفت الدنيا وكثر خطاها . تفرد طائفة بأعمال سالحة وأحوال سنية وصدق في العريضة وقوة في الدين ، وزهدوا في الدنيا وعجبتها ، واعتنموا العبادة والوحدة ، واتخذوا لنفسهم زوايا يجتمعون فيها تارة ويفرّدون أخرى ، أسوة بأهل الصفة ، تاركين للأسباب ، متبئين إلى رب الأرباب ، فأثمر لهم صالح الأعمال سني الأحوال ، وتبها لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم ، وصار لهم بعد اللسان لسان ، وبعد العرفان عرفان ، وبعد الإيمان إيمان ، كما قال حارثة أصبحت مؤمنا حقا ، حيث كوشف برتبة في الإيمان غير ما يتعاهدها ، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها وإشارات يتعاهدونها ، فخرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها وتقرّب عن أحوال يمدونها ، فأخذ ذلك الخلف عن السلف ، حتى صار ذلك رسما مستمرا وخبرا مستقرا في كل عصر وزمان ؛ فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به وسموا به ؛ فالاسم معتهم ، والعلم بالله صفتهم ، والعبادة حلهم ، والتقوى شعارهم ، وحقائق الحقيقة أسرارهم ، نزاع القبائل وأصحاب الفصائل ، سكان قباب الغيرة وقطان ديار الحيرة ، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيد ، ولهم شوقهم يتأجج ويقول هل من مزيد اللهم احشرنا في زمرة من وارثنا حالائهم . والله أعلم .

الباب السابع : في ذكر المتصوف وللتشبه به

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو التيجيب السهروردي إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو منصور بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة ، قال أخبرنا محمد بن العباس بن زكريا ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الأصفهاني ، قال حدثنا الحسين بن الحسن الروزي ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا للمتمتر بن سليمان ، قال أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله متى قيام الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، فلما قضى الصلاة قال : أين السائل عن الساعة ؟ فقال الرجل : أنا يا رسول الله ، قال : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام - أو قال ما أعددت لها كبير عمل - إلا أني أحببته ورسوله ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : المرء مع من أحب أو أنت مع من أحببت ، قال أنس : ف رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا ، فالتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لحجته إياهم ، وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبه ، وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذي رويناه في المعنى ؛ روى عباد بن الصامت عن أبي ذر الثفاري قال : قلت يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم ، قال : أنت بالأدراع من أحببت ، قال : قلت فإني أحب الله ورسوله ، قال : فأنك مع من أحببت ، قال : فأعادهما أبو ذر ، فأعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحبة التشبه إياهم لا تكون إلا لتبني روحه لا تتهب له أرواح الصوفية ؛ لأن محبة أمر الله وما يقرب منه وما يقرب منه ، تكون بمحاذبة الروح ، غير أن التشبه تعمق بظلمة النفس ، والصوفى مخلص من ذلك ، والمتصوف متطلع إلى حال الصوفى ، وهو مشارك ببقاء شيء من صفات نفسه عليه للتشبه ، وطريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق ؛ فالتشبه صاحب إيمان . والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير . قال الجنيد رحمه الله عليه : الإيمان بطريقنا هذا ولاية ، ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة وأثار مستغربة عند أكثر الخلق ؛ لأنهم مكاشفون بالقدرة وغرائب العلوم وإشاراتهم إلى عظم أمر الله والتقرب منه ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة . وقد أنكر قوم من أهل الملّة كرامات الأولياء والإيمان بذلك إيمان بالقدرة ، ولهم علوم من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بزيد عنانيه ، فالتشبه صاحب إيمان والمتصوف صاحب علم ، لا يبدأ بالإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم وصار له من ذلك مواجيد يستدل بها على سائر ما ، والصوفى صاحب ذوق ، فلمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفى ، وللتشبه نصيب من حال المتصوف ، وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لا بد أن يكشف له علم بحال أعلى مما هو فيه ، فيكون في الحال الأول صاحب ذوق ، وفي الحال الذي كوشف به صاحب علم ، وبحال فوق ذلك صاحب إيمان ، حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكا ، فيكون في حال الذوق صاحب قدم ، وفي حال العلم صاحب نظر ، وفي حال فوق ذلك صاحب إيمان . قال الله تعالى (إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون) وصف الأبرار ووصف شرابهم ثم قال سبحانه وتعالى (ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون) فكان لشراب الأبرار مزج من شراب المقربين ، وللمقربين ذلك صرفا ؛ فالصوفى شراب صرف ، وللمتصوف من ذلك مزج في شرابه ، وللتشبه مزج من شراب المتصوف ؛ فالصوفى سبق إلى مقام الروح من بساط القرب ، والمتصوف بالنسبة إلى الصوفى كالتمرد بالنسبة إلى الزاهد ، لأنه تفعل وتفعل وتسبب إشارة إلى ما بقي عليه من وصفه ، فهو يجتهد في طريقه سائر إلى ربه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيروا ، سبق المفردون ، قيل : من المفردون يا رسول الله ؟ قال : المستزكون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفاة ، فالصوفى في مقام المفردين ، والمتصوف في مقام السائرين واصل في سيره مقام القلب من ذكر الله عز وجل ومراقبته بقلبه وتلذذه بنظره إلى نظر الله إليه ؛ فالصوفى في مقام الروح صاحب مشاهدة ، والمتصوف في مقام القلب

صاحب مراقبة ، والمتنبيه في مقاومة النفس صاحب مجاهدة وصاحب محاسبة ؛ فتلون الصوفي بوجود قلبه ، وتلون المنصور بوجود نفسه ، والمتنبيه لا تلوّن له لأن التلوّن لأرباب الأحوال ، والمتنبيه بمجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال ، والسلك يجمعهم دائرة الاصطفاء . قال الله تعالى (ثم أودعنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) قال بعضهم : الظالم الواحد ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب .

وقال بعضهم : الظالم الذي يخرج من البلاد ، والمقتصد الذي يصبر عند البلاد ، والسابق الذي يتلذذ بالبلاد . وقال بعضهم : الظالم يبعد على الغفلة والمادة ، والمقتصد يبعد على الرغبة والرغبة ، والسابق يبعد على الهبة والمهبة . وقال بعضهم : الظالم يذكر الله بلسانه ، والمقتصد بقلبه ، والسابق لا ينسى ربه . وقال أحد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله : الظالم : صاحب الأقوال ، والمقتصد : صاحب الأفعال ، والسابق : صاحب الأحوال . وكل هذه الأقوال قريبة التناسب من حال الصوفي والمنصور والمتنبيه ، وكلهم من أهل الفلاح والتجاح ، يجمعهم دائرة الاصطفاء ، وتؤلف بينهم نسبة التخصص بالشرح والطاعة .

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أبو الخير أحمد بن اسمعيل القزويني إجازة ، قال : أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس ، قال أخبرنا القاضي محمد بن سعيد ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال أخبرني الحسين بن محمد بن فخره ، قال حدثنا أحمد بن محمد بن وزمة ، قال حدثنا يوسف بن عاصم الرازي ، قال حدثنا أبو أيوب سليمان بن داود ، قال حدثنا حصين بن نعيم عن أبي ليلى عن أخيه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) ه كلهم في الجنة .

قال ابن عطاء ، الظالم : الذي يجب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذي يجب الله من أجل المعنى ، والسابق : هو الذي أسقط مراده بمراده فيه ، وهذا هو حال الصوفي ؛ فالمتنبيه فمرض لشيء من أمر القوم ، ويوجب له ذلك القرب منهم ، والقرب منهم مقدمة كل خير .

سمعت شيخنا يقول : جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالي ونحن بأصهان يريد منه الخرقه ، فقال له الشيخ اذهب إلى فلان يشير إلى حتى يكلمك في معنى الخرقه ، ثم احرص حتى ألبسك الخرقه ، قال فلجأ إلى فذكرت له حقوق الخرقه وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ومن يؤهل لبسها ، فاستعظم الرجل حقوقي الخرقه وجبن أن يلبسها ، فأخبر الشيخ بما يجدد عند الطالب من قولي له ، فاستحضرني وعائني على قولي له ذلك وقال بيته إليك حتى تكلمه بما يريد رغبته في الخرقه ، فكلمته بما فترت عزيمته ثم الذي ذكرته كله صحيح ، وهو الذي يجب من حقوق الخرقه ، ولكن إذا ألزمتا المبتدئ بذلك نفر وعجز عن القيام به ، فنحن نلبسه الخرقه حتى يتشب بالقوم ويترى بهم فيقر به ذلك من مجالسهم ومحافلهم ، وبركة مخالطته معهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم يجب أن يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شيء من أحوالهم .

ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الغزالي ما أخبرنا شيخنا رحمه الله قال أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفا قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف قال أخبرنا الشيخ عبد الرحمن السبكي قال سمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفرًا يقول سمعت أبا القاسم الجنيد يقول إذا لقيت الفقير فلا تبدأ بالملم وأبداه بالرفق ، فإن الملم يوحشه والرفق يؤنسه ، وبرفق الصوفية بالمتنبيين بهم ينتفع المبتدئ الطالب ، وكل من كان منهم أكل حلالاً وأوفر علماً كان أكثر رفقا بالمبتدئ الطالب .

حكى عن بعضهم أنه عجب طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات ولم يقصد بذلك إلا لنظر المبتدئ إليه والتأديب بأدبه والافتداه به في عمله وهذا هو الرفق الذي مداخل في شيء لإلزامه ، فالمتنبيه الحقيقي له إيمان بطريق القوم وعمل بمقتضاه وسلوك واجتهاد ، على ما ذكرناه أنه صاحب مجاهدة ومحاسبة ، ثم يصير متصوفاً صاحب مراقبة ثم يصير صوفياً صاحب مشاهدة ، فأما من لم يتطلع إلى حال التصوف والصوفي بالتنبيه ولا يقصد أو اطل

مقاصدم بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والمشاركة في الازى والصورة دون السيرة والصفة ، فليس يمتشبه بالصوفية ، لانه غير عاكك لهم بالدخول في بداياتهم ، فاذن هو متشبه بالمتشبه يمتزى إلى القوم بمجرد دليسه ومع ذلك هم القوم لا يشق بهم جليسم ، وقد ورد « من تشبه بقوم فهو منهم » أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني ، قال أخبرنا عبد الله بن جعفر ، قال حدثنا عمر بن أحمد بن أبي حاتم ، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعي ، قال حدثنا علي بن أحمد ، قال حدثنا علي بن علي المقدسي ، قال حدثنا محمد بن عبد الله بن عامر ، قال حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، قال حدثنا فضيل بن عياض عن سليمان الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله ملائكة فضلنا عن كتاب الناس يطوفون في الطرق ويتبشرون بجالس الذكر ، فإذا رأوا قوما يذكر الله تتادوا : هلوا إلى حاجاتكم ، فيحضون بأجنحتهم إلى عنان السماء ، فيقول الله وهو أعلم ما يقول عبادى ؟ قالوا يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك ، فيقول وهل رأوني ؟ فيقولون لا ، فيقول كيف لو رأوني ؟ قالوا لو رأوك كانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتعجيذا ، فيقول ما يسلونني ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشد طلبا وعليها أكثر حرصا ، قالوا : ويتعبدون من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول كيف لو رأوها ؟ قالوا : كانوا أشد منها تموزا وأشد فرارا ، فيقول أشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقول الملك فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، فيقول تبارك وتعالى م الجلساء لا يشق جليسمهم ، فلا يشق جليس الصوفية والمتشبه بهم والحب لهم

الباب الثاني : في ذكر الملامى وشرح حاله

وقال بعضهم الملامى هو الذى لا يظهر خيرا ، ولا يضر شرا ، وشرح هذا هو أن الملامى تشربت عروقه طعم الإخلاص ، وتحقق بالصدق ، فلا يجب أن يطلع أحد على حاله وأعماله .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل المقدسى إجازة قال أخبرنا أبو بكر علي بن خلف الشيرازى إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلى ، قال سمعت علي بن سعيد وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سمعت علي بن إبراهيم وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سمعت محمد بن جعفر الخفاف وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت أحمد بن يشار عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت أحمد بن علي الجهمى عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت الحسن عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت حذيفة عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ماهو ؟ قال « سألت جبرائيل عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت رب المرة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : هو سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى . »

فالملازمة لهم مزيد اختصاص بانفسك بالإخلاص ، يرون كم الأحوال والأعمال ، ويتلذذون بكنهها ، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته ، فالملامى عظم وقع الإخلاص وموضعه وتمسكه متدابه ، والصرفى غاب في إخلاصه عن إخلاصه . قال أبو يعقوب السوسى من شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص . وقال ذو النون ثلاث من علامات الإخلاص . استواء الذم والمدح من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال ، وترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت أبا عثمان المغربي يقول : الإخلاص ما لا يكون لنفس فيه حظ بمال ، وهذا إخلاص العوام ، وإخلاص الخواص ما يمرى عليهم لا بهم ، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها يمزول ولا يقع عليها رؤية ولا لها اعتداد ، فذلك إخلاص الخواص ، وهذا الذى فصله الشيخ أبو عثمان المغربي يفرق بين الصوفى والملامى ، لأن الملامى أخرج الخلق عن عمله وحاله ، ولكن أثبت

نفسه فهو غلص ، والصوفي أخرجه نفسه عن عمله وحاله كأخرج غيره فهو غلص ، وشتان ما بين الغلص الخالص والغلص قال أبو بكر الزقاق : نقصان كل غلص في إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد أنه أن يغص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون غلصا لا غلصا . قال أبو سعيد الحراز : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين . ومعنى قوله أن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص ، والعارف منزوع الرياء الذي يبطل العمل ، ولكن له يظهر شيئا من حاله وعمله يعلم كامل عنده فيه ، لجذب مرئيه أو معاناة خلق من أخلاق النفس في إظهار الحال والعمل ، وللمارفين في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم ، فيرى ذلك ناقص العلم بصورة رياء وليس برياء ، ولأنه صريح العلم به بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه .

قال ربيع : الإخلاص أن لا يرضى صاحبه عليه عوضا في الدارين ، ولا حظا من الملكين . وقال بعضهم : صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق ، والملاقي يرى الخلق فيخفي عمله وحاله وكل ما ذكرناه من قيل وصف إخلاص الصوفي ، ولهذا قال الزقاق . لا بد لكل غلص من رؤية إخلاصه ، وهو نقصان عن كمال الإخلاص ، والإخلاص هو الذي يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتي به على التمام . قال جعفر الخلدی : سألت أبا القاسم الجنيد رحمه الله ، قلت : أبين الإخلاص والصدق فرق ؟ قال : نعم ، الصدق أصل وهو الأول ، والإخلاص فرع وهو تابع ، وقال بينهما فرق لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل ثم قال إنما هو إخلاص ، وغالصة الإخلاص ، وغالصة كاتمة في الغالصة ، فعمل هذا الإخلاص حال الملاقي ، وغالصة الإخلاص حال الصوفي ، والغالصة الكاتمة من الغالصة ثمرة غالصة الإخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه ، بل غيبه عن رؤية قيامه وهو الاستغراق في الدين عن الآمار والتخلص عن لوث الاستئثار وهو فقد حال الصوفي . والملاقي مقف في أوطان إخلاصه غير متطلع إلى حقيقة إخلاصه ، وهذا فرق واضح بين الملاقي والصوفي ولم يزل في خراسان منهم طائفة ولم يشأج بهدون أساسهم ويصرفونهم شروط حالم . وقد رأيت أبا المراق من يسلك هذا المسلك ولكن لم يشتهر بهذا الاسم ، وقلنا يتداول أئمة أهل المراق هذا الاسم .

حكى أن بعض الملامية استدعى إلى سماع فامتنع ، فقيل له في ذلك فقال لا إن حضرت يظهر على وجد ، ولا أوتر أنه يعلم أحد حال .

وقيل إن أحمد بن أبي الحواري قال لأبي سليمان النراقاني إنى إذا كنت في الخلوة أجهد لمعاملي لئلا لأجدها بين الناس ، فقال له إنك إذا ضعيف ، فالملاقي وإن كان متمسكا بمرودة الإخلاص مستغفرا شاسبا الصدق ، ولكن بقي عليه بقية رؤية الخلق ، وما أحسبنا من بقية تحقق الإخلاص والصدق ، والصوفي صفا من هذه البقية في طرفي العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية ، ورأى بين الفناء والزوال ، ولا حيلة ناصية التوحيد ، وعان سر قوله (كل شيء هالك إلا وجهي) كما قال بعضهم في بعض غلباته ليس في الدارين غير الله ، وقد يكون إخفاء الملاقي الحال على وجهين أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصدق ، والوجه الآخر وهو الاتم لسر الحال عن غيره بنوع غير ، فإن من خلا بمحبوه بكراهة اطلاع الغير عليه ، بل يبلغ في صدق المحبة أن يكراه اطلاع أحد على حبه لمحبه ، وهذا وإن علا في طريق الصوفي علة ونقص ، فعمل هذا يتقدم الملاقي على المتصوف ويتأخر عن الصوفي .

وقيل إن من أصول الملامية أن الذكر على أربعة أقسام ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالسر و ذكر بالروح . فإذا صح ذكر الروح سكبت السر والقلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر المشاهدة . وإذا صح ذكر السر سكبت القلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الهية . وإذا صح ذكر القلب فسر اللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الآلاء والنعماء . وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العادة ، ولكل واحد من هذه الأذكار عند الله ، فأفقه ذكر الروح اطلاع السر عليه ، وأفقه ذكر السر اطلاع القلب عليه ، وأفقه ذكر القلب اطلاع النفس عليه ، وأفقه ذكر النفس رؤية ذلك وتمطيه ، أو طلب توابه ، أو ظن أنه يصل إلى شيء من المقامات

وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإقبال الحلق عليه بذلك ، وسر هذا الأصل الذي بنو عليه أن ذكر الروح ذكر الذات ، وذكر السر ذكر الصفات بجمعهم ، وذكر القلب من الآلام والعباء ذكر أثر الصفات ، وذكر النفس متعرض للملات ؛ ففني قولهم وإطلاع السر على الروح ، يشيرون إلى التحقق بفناء عند ذكر الذات وذكر الهية في ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهية ، وهو وجود الهية ، ووجود الهية يستدعي وجود الوقية ، وذلك يناقض حال الفناء ، وهكذا ذكر السر وجود هية وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب ، وذكر القلب الذي هو ذكر الآلام والثناء مشعر ببعد ما ، لانه اشتغال بذكر النعمة وذبول عن النعم . والاشتغال برؤية المعطاء عن رؤية المعطى ضرب من بعد للزلة وإطلاع النفس ، نظر إلى الأعراس اعتداد بوجود العمل ، وذلك عين الاعتدال حقيقة ، وهذه أقسام هذه الطائفة ، وبعضها أعلم من بعض ، والله أعلم .

الباب التاسع : في ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم

فإن أولئك قوم يسمون نفوسهم قلندية تارة وملائية أخرى ؛ وقد ذكرنا حال الملائي ، وأنه حال شريف ومقام عزيز ، ونمسك بالسن والآثار ، وتحقق بالإخلاص والصدق ، وليس بما يزعم الفتنون بشئ .

فأما القلندية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات ، وطرحوا التقيد بآداب المجالس والمحافل ، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم ؛ ففعلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفراغ ، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحا برخصة الشرع ، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبا حقائق العزمية ، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار ، وترك الجمع والاستكثار ، ولا يترجمون بمراسم المتشفيين والزهديين والمتعبدين ، وفتحوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك وليس عندهم نطلع إلى طلع مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب ، والفرق بين الملائي والقلندي : أن الملائي يعمل في كم العبادات والقلندي يعمل في تفريب العادات ، والملائي يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه ، ولكن يخفي الأعمال والأحوال ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وعلوبه وحركاته وأمره وسرته للحال لئلا يفتن له ، وهو مع ذلك مطلع على طلب المزيد بأذن مجوده في كل ما يتقرب به إليه . والقلندي لا يتقيد بجملة ولا يزال بما يعرف من حاله وما لا يعرف ، ولا يتعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله ، والصوفي يضع الأشياء مواضعها ويدير الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الحلق مقامه ويقيم أسر الحلق مقامهم ، ويستر ما ينبغي أن يستر ويظهر ما ينبغي أن يظهر ، ويأتي بالأمور في موضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكال معرفة ورعاية صدق وإخلاص ، فقوم من المفتزين سمو أنفسهم ملائية ولبسوا الهبة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشيء ، بل هم في غرور وغلط ، يستترون بلبسة الصوفية توقيتا لادعوى أخرى ، وينتهجون منها مع أهل الإباحة ، ويدعون أن ختمهم خلصت إلى الله تعالى ، ويقولون : هذا هو الظفر المراد ، والارتسام بمراسم الشريعة ربة العوام والقاصرين الأفهام للنحصرين في مضيق الاقتداء تقليدا ، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإلحاد ، فكل حقيقة ودتها الشريعة فهي زندقة ، وجعل هؤلاء المبرورون أن الشريعة حق البوذية ، والحقيقة هي حقيقة البوذية ، ومن صار من أهل الحقيقة تفيد بحقوق البوذية وصار مطالبا بالأمور وبادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك ، لأنه يخلع عن عقده ربة التكليف ويغامر بإطله الزين والتحرير .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه المقدسي قال أخبرنا أبو محمد الخطيب ، حدثنا أبو بكر بن محمد بن عمر ، قال حدثنا أبو بكر بن أبي داود ، قال حدثنا أحمد بن صالح ، قال حدثنا عتبة قال حدثنا يونس بن يزيد ، قال قال محمد بن الزهري ، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن عبادة بن عتبة بن مسعود حدثه قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيرا آمناء وقربناه ، وليس إلينا من سريره شيء ؛ الله تعالى يحاسبه في

سريرة : ومن أظهر لنا سوى ذلك لم تأمته وإن قال سريرى حسنة وعنه أيضا رضى الله عنه قال : من عرض نفسه للهم فليولم من أساء به الظن ؛ فإذا رأينا متهاونا بمحدود الشرع مهملات الصلوات المفروضة لا يتعد بحلابة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل في الداخل المكرهة المحرمة ، رده ولا تقبله ولا تقبل دعواه أنه له سريرة صالحة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو التجيب السهرودى إجازة عن عمر بن أحمد بن أبي خلف عن السلى ؛ قال : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجبرى يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة ؛ فقال الرجل : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى ؛ فقال الجنيد : إن هذا قول قوم بكموا باسقاط الأعمال ، وهذه عندى عظيمة ، والذي يسرق ويرزق أحسن حالا من الذى يقول هذا ؛ وإن العاوفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها ، ولو بقيت الأعمال لم أنقص من أعمال البر ذرة ؛ إلا أن يحال في دونها ؛ وإنما لا كد في معرفتى وأقوى لحالى . ومن جله أولئك قوم يقولون بالحلول ويرعون أن الله تعالى يحل فيهم ويحل في أجسام يصطفها ، ويسبق لأفهامهم معنى من قول الصامى في اللاهوت والتاسوت . ومنهم من يستسيح النظر إلى المستحسنات لإشارة إلى هذا الوهم ، ويتخيل له أن من قال كلمات في بعض غلباته كان مضرا لشيء مما زعموه ، مثل قول الحلاج : أنا الحق ، وما يصح أن يريد من قوله : سبحانه ، حاشا أن يعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى ، وهكذا يفنى أن يعتقد في قول الحلاج ذلك ، ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضرا لشيء من الحلول ودناه كما نردم ، وقد أئانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرية بضاء نقية يستقيم بها كل معوج ، وقد دللتنا تقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز ، والله تعالى مزه أن يحل به شيء أو يحل بشيء ، حتى لعل بعض المفتونين يكون عنده ذلك وفطنة غريبة ؛ ويكون قد سمع كلمات تملقت بباطنه فيتألف في فكره كلمات ينسبها إلى الله تعالى وأنها مكرمة الله إياه ، مثل أن يقول : قال لي وقلت له ، وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثها جاهل بربه وبكيفية المسألة والمخادفة ؛ ولما عالم بطلان ما يقول ، يحمله هواء على الدعوى بذلك ليوم أنه ظفر بشيء ، وكل هذا ضلال ، ويكون سبب تجهته على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة ، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكال الزهد في الدنيا ، فلما صفت أسرارهم فشككت في سراتهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة ، فنزلت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرار ، ولا يكون ذلك كلاما يسمعه بل كحديث في النفس يجدونه برؤية موافقا للكتاب والسنة ، مفهوما عند أهله . موافقا للعلم ، ويكون ذلك مناجاة لسرائرهم ، ومناجاة سرائرهم لإمام ، فيبشرون لنفوسهم مقام البودية ولولا هم الروبية ، فيضيئون ما يجدونه إلى نفوسهم وإلى مولا هم ، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله إنما هو علم حادث أحدثه الله في بواطنهم ، فطريق الإسماء في ذلك الفرار إلى الله تعالى من كل ما يتحدث نفوسهم به ، حتى إذا برمت ساحتهم من الهوى أهموا في بواطنهم شيئا ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى المحدث لأن نسبة الكلام إلى المتكلم ، لينصتوا عن الزيف والتحريف ، ومن أولئك قوم يرجعون أنهم يعرفون في عمار التوحيد ولا يشترن ؟ ويسقطون لنفوسهم حركة وفلا يرجعون أنهم مجبورون على الأشياء وأن لأفعل لهم مع فعل الله ، ويسترسلون في المعاصي وكل ما تدعو النفس إليه ؛ ويركون إلى البطالة ودوام الغفلة والاعتقار بالله والخروج من الملة وترك الحدود والاحكام والحلال والحرام .

وقد سئل سهل عن رجل يقول : أنا كالأب لا أتحرك إلا إذا حركت ، قال : هذا لا يقوله إلا أحد رجلين ؛ إما صديق أوزنديق ، لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن أقوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود البودية ، والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله وإسقاطا للامعة عن نفسه واختلاعا عن الدين ورسنه ، فأما من كان معتقدا للحلال والحرام والحدود والاحكام ، معتزفا بالبيعة إذا صدرت منه معتقدا وجوب التوبة منها فهو

سليم صحيح ، وإن كان تحت القصور بما ركن إليه من البطالة ويتروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد في البلاد ، متوصلاً إلى تناول اللذائذ والشهوات ؛ غير متمسك بشيخ يؤدبه ويهذب ويصبر بعيب ما هو فيه ، والله الموفق .

الباب العاشر : في شرح رتبة المشيخة

ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأنسين لكم ، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحبون الله إلى عاده ، ويحبون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة ، وهذا الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى ، لأن الشيخ يحب الله إلى عباد الله حقيقة ، ويجب عباد الله إلى الله ، ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونياية الثبوت في الدماء إلى الله . فأما وجه كون الشيخ يحب الله إلى عباد الله ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن صح اقتدائه واتباعه أحبه الله تعالى ، قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فأطيعوا ما يوحى بك من أمرك) ووجه كونه يحب عباد الله تعالى إليه : أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجملت مرآة القلب ؛ وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ؛ ولاح فيه جمال التوحيد ؛ وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم وروقة الكمال الأزل ؛ فأحب إليه بدريه لأعلاء ؛ وذلك بهرات التزكية . قال الله تعالى (قد أطلع من زكاهما) وفلاحتها بالظفر بمعرفة الله تعالى ، وأيضاً مرآة القلب إذا انجملت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وما هيئتها ؛ ولاحت الآخرة ونفاسها بكنها غايتها ، فتكشف البصيرة حقيقة البارئ وحاصل المزيلين ؛ فيحب العبد الباقي ويردد في الغافي ، فتظهر قائمة التزكية وجدوى المشيخة والتربية فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدي به الطالبين .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أخبرنا أبو الفضل عبد الواحد بن علي بن محمد ، قال أخبرنا أبو بكر محمد ابن علي بن أحمد الطوسي ، قال حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، قال حدثنا أبو عتبة ، قال حدثنا بقيق ، قال حدثنا صفوان بن عمرو ، قال حدثني الأزهر بن عبد الله ، قال قد سمعت عبد الله بن بشر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان يقال إذا اجتمع عشرون رجلاً أو أكثر ، فلن يسكن فيهم من يهاب الله عز وجل ، فقد خطر الأمر ، فعلى المشايخ وقار الله وهم يتأدب المريدون ظاهراً وباطناً ، قال الله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهم أقبلت) فالمشايخ لما اهتموا أهلوا للاقتداء بهم وجعلوا أئمة المتقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عايناه : « إذا كان الغالب على عدي الاشتغال في جعلت همته ولذته في ذكرى ، فإذا جعلت همته ولذته في ذكرى عشقى وعشقه ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه ؛ لا يسهر إذا سها الناس ، وأولئك كلام الانبياء ، أولئك الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتكم فيها فصرفتمهم عنهم ، والسر في وصول السالك إلى رتبة المشيخة أن السالك مأمور بسياسة النفس مبتلى بصفاتها ، لا يزال يسلك بصدق المعاملة حتى تلعن نفسه ولبطاً يندبها يتزجر عنها البرودة واليبوسة التي استصحبها من أصل خلقتها وما تستصحب على الطاعة والافتقار العبودية ، فإذا زالت اليبوسة عنها ولانت بحرارة الروح الواصلة إليها - وهذا الميز هو الذي ذكره الله تعالى في قوله (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) تعالى - فجميع إلى العبادة وتلين للطاعة عند ذلك ؛ وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس ذو وجهين : أحدهما وجهه إلى النفس والوجه الآخر إلى الروح ، يستمد من الروح بوجهه الذي يليه ، ورد النفس بوجهه الذي يليها حتى تلعن النفس ؛ فإذا طأمت النفس السالك وفرغ من سياستها انتهى سلوكه وتمكن من سياسة النفس ، وانفادت نفسه وظلت إلى أمر الله ، ثم القلب يشرب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس ، فتقوم نفوس المريدين والطالبيين والصادقين عنده مقام نفسه ، لوجود الجفسي في عين النفس من وجه ، ولوجود التألف بين الشيخ والمريد عن وجه التألف الإلهي . قال الله تعالى (لو أنفقت مافي الأرض جنيماً ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) فيبوس نفوس المريدين كما كان يبوس نفسه من قبل ، ويكون في الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قول الله تعالى : (٥٠ - طه) كتاب الإحياء)

و ألا ظال شوق الأبرار إلى لقاءى ، وإنى إلى لقاءهم لأشد شوقا ، وبما هيا الله تعالى من حسن التأليف بين صاحب
والمصحب بصير المرید جزء الشيخ ، كما أن الولد في الولادة الطبيعية ، وتصور هذه الولادة أنفا ولادة معنوية ،
كما ورد عن عيسى صلوات الله عليه ، لن يبلغ ملكوت السماء من لم يولد مرتين .

فبالولادة الأولى بصير له ارتباط بعام الملك ، وبهذه الولادة يصير له ارتباط بالملكوت . قال الله تعالى ﴿ وكذلك
نرى لإبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ وصرف اليقين على الكمال يحصل في هذه الولادة ،
فهذه الولادة يستحق ميراث الأنبياء ؛ ومن لم يصله ميراث الأنبياء ما ولد وإن كان على كمال من الفطنة والدكاء ،
لأن الفطنة والدكاء نتيجة العقل ، والعقل إذا كان يابسا من نور الشرع لا يدخل الملكوت ولا يزال مرددا في الملك ،
ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية لأنه تصرف في الملك ولم يرتق إلى الملكوت ، والملك : ظاهر الكون ،
والملكوت : باطن الكون ، والعقل : لسان الروح ، والبصير قالى منها نبعت أشعة الهداية : قلب الروح ، واللسان :
ترجمان القلب ، وكل ما ينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه ، وليس كل ما عند من يترجم عنه يبرز إلى
الترجمان ؛ فلماذا المعنى حرم الرافضون مع مجرد العقول المعربة عن نور الهداية - الذى هو موهبة الله تعالى عند الأنبياء
وأتباعهم - الصواب ، وأسبل دونهم الحجاب لرفوفهم مع الترجمان وحرمانهم غاية النيان ، وكأن في الولادة الطبيعية
ذرات الأولاد في صلب الأب مودعة ، تنقل إلى أصلاب الأولاد بمدد كل ولد ذرة وهي الذرات التي خاطبها الله تعالى
يوم الميثاق ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ حيث مسح ظهر آدم وهو ملقى بيطن لعنان بين مكة والطائف ، فسالت الذرات
من مسام جسده كما يسيل العرق بمدد كل ولد من ولد آدم ذرة ، ثم لما غوطيت وأجابت ردت إلى ظهر آدم ، فن
الآباء من تنفذ الذرات في صلبه ، ومنهم من لم يودع في صلبه شيء فيقطع لسه ، وهكذا المشايخ ؛ فمنهم من تكثر
أولاده ويأخذون منه العارم والأحوال ويودعونها غيرهم كما وصلت إليهم من التي صلى الله عليه وسلم بواسطة الصحبة ،
ومنهم من تقل أولاده ، ومنهم من ينقطع لسه ؛ وهذا النسل هو الذى رد الله على الكفار حيث قالوا : محمد أئير
لأنس له ، قال الله تعالى ﴿ إن شئتكم هو الأبر ﴾ وإلا فنسل رسول الله صلى الله عليه وسلم باق إلى أن تقوم الساعة ،
وبالنسبة المعنوية يصل ميراث العلم إلى أهل العلم .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إمامه ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن المسائلي قال : أخبرنا أبو
الحسن الباقوى ، قال أخبرنا أبو محمد الحوى ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندى قال أخبرنا أبو محمد الباقوى قال
أخبرنا نصر بن علي ، قال حدثنا عبد الله بن داود عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس
قال كنت جالسا مع أبي المرداء في مسجد دمشق ، فأقام رجل فقال : يا أبا المرداء إني أتيتك من المدينة مدينة
الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فاجاء بك تجارة ؟
قال : لا ، قال : ولا جاء بك غيره ؟ قال : لا ، قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقا
يبتغي به علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم
يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ،
وإن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما أودعوا العلم ، فمن أخذ به أخذ به سائر النجوم ،
وافر ، فأول ما أودعت الحكمة والعلم عند آدم أبى البشر عليه السلام ، ثم انتقل منه إلى النسيان والسيان
وما تدعى إليه النفس والشيطان ، كما ورد في إن الله تعالى أمر جبرائيل حتى أخذ قبضة من أجزاء الأرض ، والله تعالى
نظر إلى الأجزاء الأرضية التي كرتها من الجوهرة التي خلقها أولا فصار من مواقع نظر الله إليها غمامية السباع من
الله تعالى والجواب ، حيث خاطب السموات والأرضين بقوله ﴿ اتقيا طوعا أو كرها قلنا أتيناك طالبين ﴾ خلعت أجزاء
الأرض بهذا الخطاب غامية ، ثم انتزعت هذه الغامية منها بأخذ أجزائها التركيب صورة آدم فركب جسد آدم من
أجزاء أرضية معنوية على هذه الغامية فن حيث نسبة أجزاء الأرض تركب فيه الحوى ، حتى مدبده إلى شجرة الفناء

وهي شجرة الخلطة في أكثر الآقاويل ، فتطرق لقالبه الفناء ولا كرام الله إياه ينفع الروح الذي أخبرته بقوله ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ قال : العلم الحكمة ، فبالنسوية صار ذا نفس متفوسة وينفع الروح صار ذا روح ورواني ، وشرح هذا يطول ، فصار قلبه معدن الحكمة ، وقالبه معدن الهوى ، وانتقل منه العلم والهوى وصار ميرانه في ولده ، فصار من طريق الولادة أبا بواسطة الطابع التي هي عند الهوى ، ومن طريق الولادة المنوية أبا بواسطة العلم ، فالولادة الناطقة تطرق إليها الفناء ، والولادة المنوية محمية من الفناء ، لأنها وجدت من شجرة ، وهي شجرة العلم لا شجرة الخلطة التي سماها إبليس شجرة الخلط ، فأبليس يرى الشيء بعينه فتبين أن الشيخ هو الأب معني ، وكثيرا كان شيخنا شيخ الإسلام أبو التاجيب السهروردي رحمه الله يقول : ولدي من سلك طريق واهتدى بهدي ، فالشيخ الذي يكتب بطريقة الأحوال قد يكون مأخوذا في ابتدائه في طريق المحبين ، وقد يكون مأخوذا في طريق المحبرين ، وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام : سالك مجرد ، ومجدوب مجرد ، وسالك متدارك بالجذبة ، ومجدوب متدارك بالسلك . فالسالك المجرد لا يؤهل للشيخ ولا يلينها لبقاء صفات نفسه عليه ، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياسة ، ولا يرتقي إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة ، والمجدوب المجرد ممن غير سلكه يادها إلى آيات اليقين ، ويرفع عن قلبه شيئا من الحجاب ، ولا يؤخذ في طريق المعاملة . والمعاملة أترتام سوف نشرحه في موضعه إن شاء الله تعالى ، وهذا أيضا لا يؤهل للشيخة ويوقف عند حظه من الله مروحيا بماله ، غير مأخوذ في طريق أعماله ماعدا الفريضة . والسالك الذي تدور به بالجذبة هو الذي كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشرائط ، ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال ، فوجد العسل بعد الملقم ، وتروى بفسحات الفضل ، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهة ، وأولس بنفحات القرب ، وفتح له باب من المشاهدة فوجد دواء وقاض وعاقوه ، وصدرت منه كلمات الحكمة ومالت إليه القلوب ، وتوالت عليه فتوح الشيب وصار ظاهره مددا وباطنه مشاهدا ، وصلح للجودة وصار له في جلوده خلوة ، فيغلب ولا يغلب ، وبذئرس ، ولا يفترس ، يؤهل مثل هذا للشيخة ، لأنه أخذ في طريق المحبين ، ومنع حالا من أحوال القريين ، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين ، ويكون له أرباح ينتقل منه إليهم علوم ، ويظهر بطريقه بركة ، ولكن قد يكون عبوسا في حاله محكما حاله فيه لا يطلاق من وثاق الحال ، ولا يبلغ كال التوال ، يقف عند حظه وهو حظه وافرسي ، والذين أوتوا العلم درجات ، ولكن المقام الأكل في المشيخة القسم الرابع - وهو المجذوب المتدارك بالسلك يادته الحق بالكشف وأنوار اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجب ، ويستبصر بأنوار المشاهدة ، ويفرش قلبه ويتجافى عن دار الغرور ويغيب إلى دار الخلود ، ويرتوي من بحر الحال ، ويتخلص من الأغلال والأعلال ، ويقول معنا : لا أعبد ربا ما أره ، ثم يفيض من باطنه على ظاهره ، وتجري عليه صورة المعاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء ، بل بلذاتة وهناء ، ويصير قلبه بصفة قلبه : لا احتلاء قلبه بمحبوبه ، ولين جلده كال لائقه ، وعلامة لين جلده إجابة قلبه للعمل كل إجابة قلبه ، فيزيد الله تعالى إرادته خاصة ، ويرزقه محبة خاصة المحبين المرادين : ينقطع فيواصل ، ويعرض عنه فيواصل ، يذهب عنه جود النفس ؛ ويصطلي بمرارة الروح ، وتكشف عن قلبه عروق النفس . قال الله تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا محتشاهما ثمانى تتشمس منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ ثم تلبس جلودهم وتقرهم لهم ذكر الله ﴿ أخبر أن الجلود تلبس أن أن القلوب تلبس ؛ ولا يكون هذا إلا حال المحبر المراد . وقد ورد في الخبر : أن إبليس سأل السليل إلى القلب ، فقبله ؛ يحرم عليك ولكن السليل لك في مجارى العروق المشبكة بالنفس إلى حد القلب ، فإذا دخلت العروق عرفت فيها من ضيق مجاريها ، وامتزج عرقك بماء الرحمة المتبرشع من جانب القلب في مجرى واحد ، ويصل بذلك سلطانك إلى القلب ، ومن جعلته نيبا أو وليا فقلت تلك العروق من باطن قلبه فيجبر القلب سلبا ، فإذا دخلت العروق من قلبه إلى المشبكة بالقلب فلا يصل إلى القلب سلطانك ؛ فلهذا هو المراد من أن أهل المشيخة سلم قلبه وانشرح صدره ولان جلده ، فصار قلبه بطبعه أزواج ونفسه بطبع القلب ، ولأن النفس بعد أن كانت أمارة

بالسوء مصيبة ولأن الجله للين النفس ورد إلى صورة الأعمال يبدو جدان الحال ، ولا يزال روحه ينحذب إلى الحضرة الإلهية فيستريح الروح القلب وتستريح النفس ويستريح النفس القلب ؛ فامتزجت الأعمال القلبية والقالية ؛ وانخرق الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر ، والقدرة إلى الحكمة والحكمة إلى القدرة ، والدنيا إلى الآخرة والآخرة إلى الدنيا ؛ ويصح له أن يقول : لو كشف الغطاء ما زددت يقينا ، فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطراً على الحال لا للحال مسيطراً عليه ، ويصير حراً من كل وجه ، والشيخ الأول الذي أخذ في طريق المحبين حر من رق النفس ، ولكن ربما كان باقياً في رق القلب ؛ وهذا الشيخ في طريق المحبوبين حر من رق القلب كما هو حر من رق النفس ، وذلك أن النفس حجاب ظلماتي أَرْضِي أَعْتَقَ مِنْهُ الْأَوَّلُ ، والقلب حجاب نوراني سماوي أَعْتَقَ مِنْهُ الْآخِرُ ، فصار له به لقلبه ، ولوقته لا لوقته ، فعبادته حقاً وآمن به صدقاً ، ويسجد لله سواداً وخيالاً ، ويؤمن به فؤاده ، ويقر به لسانه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض بحوره ، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة ، وتعتبر عبادته مشاكلة لعبادة الله (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدور والأسال) .

فالتوالب هي الظلال الساجدة ، ظلال الأرواح المقرية في عالم الشهادة : الأصل كثيف والظل لطيف ، وفي عالم الغيب : الأصل لطيف والظل كثيف ، فيسجد لطيف العبد وكثيفه ، وليس هذا لمن أخذ في طريق المحبين لأنه يستمتع صور الأعمال ويمتلئ بمآئيل من وجدان الحال ، وذلك قصور في العلم وقلة في الحظ ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الروح بالجسد ، ورأى أن لا غنى عن الأعمال كالإغنى في عالم الشهادة عن التوالب ، فسادات التوالب باقية للعمل باق ، ومن صح في المقام الذي وصفناه هو الشيخ المطلق والمعارف المتحقق والمحبوب الحق ؛ نظره مدواء وكلامه شفاه ، بالله ينطق وبالله يسكت ، كما ورد : ولا يزال العبد يتقرب إلى بالتواضع حتى أحبه ، فإذا أحبه كتبه سمعاً وبصراً وبدواً مؤيداً ، في ينطق ويصير الحديث ؛ فالشيخ يعطى بالله ويمتع بالله ، فلا رغبة له في عطاء ومنع لغيره ، بل هو مع مراد الحق والحق يعرفه مراده ؛ فيكون في الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه ، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول في صورة محمودة دخل فيها لمراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة ، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة عباد الله تعالى .

الباب الحادى عشر : في شرح حال الخادم ومن يشبهه به

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قال : يا داود إذا رأيت لى طالباً فكن له عادماً ، الخادم يدخل في الخدمة راغباً في الثواب وفيما أعد الله تعالى لعباده ، تريصدى لإيصال الراحة وينفرغ خاطر المتبليين على الله تعالى عن مهام معاشهم ويفعل ما يرضاه الله تعالى بنية سالحة ، فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى ، والخادم واقف مع نيته ، فالخادم يفعل الشيء لله تعالى ، والشيخ يفعل الشيء لله فالشيخ في مقام المقرين ، والخادم في مقام الأبرار ؛ فيختار الخادم البذل والإيثار والارتفاق من الأغيار للأغيار ، وبوظيفة وقته تصديه لخدمة عباد الله ، وفيه يعرف الفضل ويرجمه على نوافله وأعماله ، وقد يقم من لا يعرف الخادم من الشيخ الخادم مقام الشيخ ، وربما جهل الخادم أيضاً حال نفسه فيحسب نفسه شيخاً لقلة العلم واندراس علوم التورم في هذا الزمان ، وقاعة كثير من الفقراء من المشايخ بالقيمة دون العلم والحال ، فكل من كان أكثر إطماعاً هو عندهم أحق بالمشيخة ولا يعلمون أنه خادم وليس بشيخ ، والخادم في مقام حسن وحظ صالح من الله تعالى . وقد ورد ما يدل على فضل الخادم فيما أخبرنا الشيخ أبو زرعة بن الحافظ أن الفضل محمد بن طاهر المقدسى عن أبيه ، قال أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد الله المقرئ ، قال حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوى ، قال حدثنا أبو حامد الحافظ ، قال حدثنا العباس بن محمد الدورى وأبو الأزهري ، قال حدثنا أبو داود ، قال حدثنا سفيان عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بعلام وهو يمر النهران فقال لابي بكر وعمر . كلا ، فقالا : إنا صائمان ، فقال : ارحلا لصاحبيكما ارحلا لصاحبيكما

ادنوا فكلما يعني أنكما ضعفتما بالصوم عن الخدمة فاحتجتما إلى من يخدمكما فكلما واحدكما أنفسكما ، فالخادم يحرص على حيازة الفضل ، فيتوصل بالكسب تارة ، وبالإسترقاق والدوروة تارة أخرى ، ويستعجل الوقت إلى نفسه تارة ، لعله أنه قيم بذلك ، صالح لإيصاله إلى الموقوف عليهم ، ولا يزال أن يدخل في كل مدخل لايذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة ، ويرى الشيخ يتغذى البصرة وقرة العلم أن الإتفاق يحتاج إلى علم تام ومعاناة تخليص الثبة عن شوائب النفس والشهوة الخفية ؛ ولو خلصت عليه نيته ما رغبت في ذلك ، لوجود مراده فيه ، وحالة ترك المراد إقامة مراد الحق .

أخبرنا أبو زرعة إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت محمد بن الحسين بن الحشاش يقول : سمعت محمد بن جعفر يقول : سمعت الجنيدي يقول : سمعت السري يقول : أعرف طريقا مختصرا قصدا إلى الجنة ؛ فقلت له : ماهو ؟ قال : لا تسأل من أحد شيئا ولا تأخذ من أحد شيئا ولا يكن ملكك شيء تعطى منه أحد شيئا . والخادم يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبذل والإيتار فيقدم الخدمة على التواكل ويرى فضلها ، وللخدمة فضل على الثافة التي يأتي بها السبد طالبا بها الثواب ، غير الثافة التي يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجود تقدي قبل وعد .

ومما يدل على فضل الخدمة على الثافة ما أخبرنا أبو زرعة قال أخبرني والدي الحافظ المقدسي ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بأصفهان ، قال أخبرنا إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد ، قال حدثنا الحسين بن إسماعيل الحمالي قال حدثنا أبو السائب ، قال حدثنا أبو معاوية ، قال حدثنا عاصم بن مورو عن أنس قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنا الصائم ومنا المفطر ، فزلنا منزلا في يوم حار شديد الحر ؛ فلما من يثقي الشمس يديه ، وأكثرنا ظلا صاحب الكساء يستظل به ، فنام الصائمون ، وقام المفطرون ففزعوا الأبيئة وسقوا الركاب ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهب المفطرون اليوم بالأجر . وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على الثافة ، والخادم له مقام عزيز يرغب فيه ؛ فأما من يعرف تخليص الثبة عن شوائب النفس وينشبه بالخادم ويتصدى لخدمة الفقراء ويدخل في مداخل الخدام بحسن الإرادة يطلب التأسي بالخدام ، فتكون خدمته مشوبة ، منها ما يصيب فيها لموضع إيمانه وحسن إرادته في خدمة القوم ، ومنها ما لا يصيب فيها لما فيه من مزج الهوى فيضع الشيء في غير موضعه ، وقد يتخذ بهواه في بعض تصاريفه ، ويتخذ من لا يستحق الخدمة في بعض أوقاته ، ويعيب الخدم والثناء من الخلق مع ما يصيب من الثواب ورضا الله تعالى وربما خدم للثناء ، وربما امتنع من الخدمة لوجود هوى يخافه في حق من يلقاه بمكره ، ولا يراعى واجب الخدمة في طرق الرضا والنضب لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى ، والخادم لا يتبع الهوى في الخدمة وفي الرضا والنضب ، ولا يأخذ في الله لومة لائم ويضع الشيء موضعه ؛ فلذا الشخص الذي وصفناه أنفا متخادم وليس بخادم ؛ ولا يميز بين الخادم والمتخادم إلا من له علم بصحة الثبات وتخليصها من شوائب الهوى ، والمتخادم التجيب يبلغ ثواب الخادم في كثير من تصاريفه ولا يبلغ من رتبته لتخلفه عن حاله مجرد مزج هواه ؛ وأما من أقبل لخدمة الفقراء بتسليم وقب إليه أو توفير رفق عليه وهو يتخذ لمال يصيبه أو حظ عاجل يدركه ، فهو في الخدمة لنفسه لا للغير ؛ فلو انقطع رفقه ما خدم ، وربما استخدم من يتخذ ؛ فهو مع حظ نفسه يتخذ من يخدمه ، ويحتاج إليه في المحافل يشكر به ويقيم به جاءه نفسه بكثرة الإتياع والأشباع ، فهو خادم هواه وطالب دنياه ، يحرص نهاره وليله في تحصيل ما يقيم به جاهه ويرضى نفسه وأهله وولده ، فيتبع في الدنيا ويتزها بغير زى الخدام والفقراء وتتشرب نفسه بطلب الحظوظ ، ويستولى عليه حب الرئاسة ، وكلما كثر رفقه كثرت مراده هواه واستطال على الفقراء ، ويحوج الفقراء إلى التعلق المفرط له لتطلب الرضا وتوقيا لفضيه وميله عليهم يقطع ما ينوبهم من الوقت ؛ فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدما ، فليس بخادم ولا متخادم ، ومع ذلك كله ربما نال ركنهم باختياره خدمتهم على خدمة غيره وبإتباته إليهم وقد أوردنا الخبر المستند الذي في سياقه « هم القوم لا يمشق بهم جالسهم » والله الموفق والمعين .

الباب الثاني عشر : في شرح خدمة المشايخ الصوفية

ليس الخرقه ارتباط بين الشيخ وبين تلميذه ، وتحكيم من المريـد للشيخ في نفسه ، والتحكيم سابق في الشرع لصالح دنوية فإذا بنكر المنكر ليس الخرقه على طالب صادق في طلبه يتقصـد شيخا يحسن ظن وعقيدة يحكمه في نفسه لصالح دينه يرشده ويهديه ويعرفه طريق اللواجيد ويصهره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل الدو ، فيسلم نفسه إليه ويستسلم لأمره واستصوابه في جميع تصاريفه ، فيلبس الخرقه إظهارا لتصرف فيه ؛ فيكون ليس الخرقه علامة التفويض والتسليم ودخوله في حكم الشيخ دخوله في حكم الله وحكم رسوله وإحياء سنة المباشرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرني والدي الحافظ المقدسي قال أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد البرار ، قال أخبرنا أحمد بن محمد أخى ميمى ، قال حدثنا يحيى بن محمد بن مساعد قال حدثنا عمرو بن على بن حفظة ، قال سمعت عبد الوهاب الثقفى يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال أخبرني أبى عن أبيه قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في السر واليسر والمنشط والمكره ، وأن لا نتنازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق . حيث كنا ولا نخاف في الله لومة لائم . ففي الخرقه معنى المباشرة ، والخرقة عتبة الدخول في الصحبة ، والمقصود الكلـى هو الصحبة ؛ وبالصحبة يرعى للمريـد كل خير .

وروى عن أبى يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وحكى الأستاذ أبو القاسم القشيري عن شيخه أبى على الدقاق أنه قال : الشجرة إذا نبئت بنفسها من غير فارس فإنها تورق ولا تثمر ، ومروكالك : ومجوز أنها تثمر كالأنجار التي في الأودية والجبال ، ولكن لا يكون لها كتهتها طعم فأكمة اليساين . والفرس إذا قتل من موضع إلى موضع آخر يكون أحسن حالاً أو كثر ثمرة لدخول التصرف فيه ؛ وقد اعتبر الشرع وجود التعلـيم في السكب المعلم ، وأكل ما يقتله بخلاف غير المعلم .

وسمعت كثيراً من المشايخ يقولون : من لم يرفع لاهل يرفع ، ولنا في رسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقوا العلوم والآداب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى عن بعض الصحابة : علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة ، فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بأدابه ، يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريـد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلفظ باطن المريـد ويكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال ، وينقل الحال من الشيخ إلى المريـد بواسطة الصحبة وسماع المقال ، ولا يكون هذا إلا للمريـد حصر نفسه مع الشيخ والسلخ من إرادة نفسه وفى في الشيخ بترك اختيار نفسه ، فيألتأف الإلهى يصير بين صاحب والمصحوب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية والطهارة الفطرية ، ثم لا يزال المريـد مع الشيخ كذلك متأدباً بترك الاختيار ، حتى يرتقى من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار من الله تعالى ، ويفهم من الله أن كل ما يفهم من الشيخ ، ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيوخ ، والخرقة مقدمة ذلك ، ووجه لبس الخرقه من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ أبى الفضل المقدسي ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الأديب النيسابورى ، قال أخبرنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ ، قال أخبرنا محمد بن إسحق ، قال أخبرنا أبو مسلم إبراهيم بن عبيدة المصري ، قال حدثنا أبو الوليد ، قال حدثنا إسحق بن سعيد ، قال حدثنا أبى ، قال حدثنى أم خالد بنت عاتكة قالت : أتى أبى عليه السلام نياپ فيها خيمة سوداء صغيرة ، فقال : من ترونا أكوهذه ؟ فسكت القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتوني بأمر خالد ، قالت : فأق فياً لئسنيها بيده فقال : أبلى وأخلق ، يقولان : وهما ينظر إلى طم في الخيمة أصفر وأمر ويقول : يألم خالد هذا ساءه - والسنا هو الحن بلسان الحبشة - ولا خفاء أن لبس الخرقه على الهيئة التي تعتمد عليها الشيوخ في هذا الزمان لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهيئة

والاجتماع لهوا الاعتدادهما من استحسان الشيوخ، وأصله من الحديث ما روينا، والشاهد لذلك أيضا التكليم الذي ذكرناه، وأى اعتداه برسول الله صلى الله عليه وسلم وأتم وأكد من الاقتداء به في دعاء الخلق إلى الحق. وقد ذكر الله تعالى في كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحكيم الربيد شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم. قال الله تعالى (فلادرك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلووا تسلياً) وسبب نزول هذه الآية: أن الزبير بن العوام رضى الله عنه اختصم هو وآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة - والشراج صيل الماء - كانا يسيقان به التخل، فقال النبي عليه الصلاة والسلام للزبير: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الرجل وقال: قضى رسول الله لأن عمته. فأرسل الله تعالى هذه الآية يعلم فيها الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشرط عليهم في الآية التسليم وهو الاقتياد ظاهراً ونزى الحرج وهو الاقتياد باطنا، وهذا شرط المريد مع الشيخ بعد التحكيم، فليس الحرة بزيل اتهام الشيخ عن باطنه في جميع تصاريفه ويجرد الاعتراض على الشيوخ فإنه السم القاتل للربيد، وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ باطنه فيعلم، ويذكر المريد في كل ما أشكل عليه من تصاريف الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام كيف كان يصدر من الخضر تصاريف يشكرها موسى، ثم لما كشف له عن معناها بان لم يرس وجه الصواب في ذلك، فهكذا ينبغي للربيد أن يعلم أن كل تصرف أشكل عليه سمته من الشيخ عند الشيخ فيه بيان وبرهان للصحة، ويد الشيخ في لبس الحرة تروى عن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسليم المريد له تسليمه ورسوله. قال الله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله بالله فوقي أيديهم فمن نكث فإني مكنت على نفسه) ويأخذ الشيخ على المريد عهد الرقاء بشرائط الحرة ويعرفه حقوق الحرة، فالشيخ للربيد صورة يستشف المريد من وراء هذه الصورة للطالبات الإلهية والمراعى النبوية، ويمتد المريدان الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه، منه يدخل، وإليه يرجع، وينزل بالشيخ سوانحه ومهامه الدينية والدنيوية ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم ما ينزل المريد به، ويرجع في ذلك إلى أقواله كما يرجع المريد إليه، وللشيخ باب مفتوح من المسكنة والمحادثة في التزم واليقظة فلا يتصرف الشيخ في المريد بهاء فهو أمانة الله عنده، ويستفتى إلى الله بجوانح المريد كما يستفتى بجوانح نفسه ومهام دينه ودنياه. قال الله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) فأرسل الرسول مختص بالأنبياء والوحى كذلك، والكلام من وراء حجاب بالإلغام والمهازف والمنام وغير ذلك للشيوخ والراغبين في العلم.

واعلم أن الربيد مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام، وقد سبق شرح الولادة المعنوية، فأوان الارتضاع أوان لزوم الصحة والشيخ يعلم وقت ذلك، فلا ينبغي المريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه. قال الله تعالى تأديب الأمة (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) وأى أمر جامع أعظم من أمر الدين، فلا يأذن الشيخ للربيد في المفارقة إلا بعد علمه بأن الله أوان الفطام، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه، واستقله بنفسه أن يفتح باب الفهم من الله تعالى، فإذا بلغ المريد رتبة إزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعرفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج فقد بلغ أوان فطامه، ومضى طرق قبل أوان الفطام يناله من الاعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ما ينال المنطوق لنهر أوانه في الولادة الطبيعية، وهذا التلازم بصحة المشايخ للربيد الحقيقي، والمريد الحقيقي يلبس خرقه الإرادة.

واعلم أن الحرة خرقتان: خرقه الإرادة، وخرقة التبرك: والأصل الذي قصد المشايخ للربيد خرقه الإرادة وخرقة التبرك لقب بخرقة الإرادة، خرقه الإرادة للربيد الحقيقي، وخرقة التبرك للقب، ومن لقبه يقوم فهو منهم وسر الخرقه أن الطالب الصادق إذا دخل في حجة الشيخ وسلم نفسه وصار كالولد الصغير مع الوالد برفقه الشيخ يلبه المستمد من الله تعالى بصديق الاقتدار وحسن الاستقامة، ويكون للشيخ نفوذ بصيرته بالإشراف على البواطن، فقد

يكون المرید یلیس الخشن کباب المتغفین المترعین وله فی تلك الهیة من الملبوس هو ى کامن فی نفسه لیرى بعین الزمادة ، فأشد ما علیه لبس الناعم والنفس هو ى واختیار فی هیة مخصوصة من الملبوس فی قصر الکم والذیل وطوله وخشوته ولزومته علی قدر حبسائها وهواها ، فیلبس الشیخ مثل هذا الراکن لتلك الهیة ثوبا یکسر بذلك علی نفسه هواها وفرضها ، وقد ىكون علی المرید ملبوس ناعم أو هیة فی الملبوس تشریب النفس لى تلك الهیة بالعادة ، فیلبس الشیخ ما یمزج النفس من عاداتها وهواها ، فتصرف الشیخ فی الملبوس کتصرفه فی المطعم ، وکتصرفه فی صوم المرید وإفطاره ، وکتصرفه فی أمر دینیه ، لى ما یرى له من المصلحة من دوام الذکر ودوام التفتل فی الصلاة ودوام التلاوة ودوام الخدمة ، وکتصرفه فیه برده لى الکسب أو الفتوح أو غیر ذلك ، فلتشیخ إشراف علی البواطن وتوقع الاستعدادات ، فیامر کل مرید من أمر معاشه ومعهاده بما یصلح له ، ولتتوقع الاستعدادات تنوع مراتب الدعوة . قال الله تعالى (ادع لى سبیل ربک بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالآیة الحسنی) فالحكمة وتبیه فی الدعوة ، والموعظة كذلك ، والجدالة كذلك ، فن یدعی بالحكمة لایدعی بالموعظة ولا تصلح دعوته إلا بالحكمة ، فیکذا الشیخ یعلم من هو علی وضع الأبرار ، ومن هو علی وضع المقربین ، ومن یصلح لدوام الذکر ومن یصلح لدوام الصلاة ، ومن له هو ى فی التفتل أو فی التمتع ، فینخلع المرید من عاداته یمخرجه من مضیق هو ى نفسه ، ویطعمه باختیاره ، ویلبسه باختیاره ثوبا یصلح له وهیة تصلح له ، ویداوى بالحرقة المخصوصة والهیة المخصوصة دام هواها ، یتوخی بذلك تقربه لى رضا مولاه ، فالمرید الصادق الملتزم باطنه بنار الإرادة فی بدء أمره وحده إرادته ، کاللسوع الحریص علی من یرقیه ویداويه ، فإذا صادف شیئا انبعث من باطن الشیخ صدق العناية به لاطلاعه علیه وبینث من باطن المرید صدق المحبة بتألف القلوب وتغام الأرواح وظهور سر السابقة فینما باجتاعهما هو فی الله وبالله ، فیکون التمیم الذى یلبس المرید خرقة تبشر المرید بحسن ضایة الشیخ به فیمعل عند المرید عمل قیص یوسف عند یعقوب علیهما السلام .

وقد نقل أن إبراہیم الخلیل علیه السلام حین أتى فی النار جرد من ثیابه وقذف فی النار عریانا ، فأناه جبریل علیه السلام بقمیص من حریر الجنة وألبسه إياه ، وكان ذلك عند إبراہیم علیه السلام فلما مات ورثه إسحق ، فلما مات ورثه یعقوب ، فجعل یعقوب علیه السلام ذلك القمیس فی تمویذ ، وجعله فی عنق یوسف فسکان لا یفارقه ، ولما أتى فی البئر عریانا جاءه جبریل وكان علیه التمویذ فأخرج القمیس منه وألبسه إياه .

أخبرنا الشیخ العالم رضی اللہ عنہ أحمد بن إسماعیل القزوينی إجازة ، قال أخبرنا أبو سعد محمد بن أبی العباس ، قال أخبرنا القاضي محمد بن سعید ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد ، قال أخبرنا ابن فنجويه الحسین بن محمد ، قال حدثنا غنم بن جعفر قال حدثنا الحسن بن علویہ ، قال حدثنا إسماعیل بن عیسی ، قال حدثنا إسحق بن بشر عن ابن السدی عن أبیه عن مجاهد قال : کان یوسف علیه السلام أعلم بالله تعالى من أن لا یملأ من قیصه لایرد علی یعقوب بصره ، ولكن ذاك کان قیص إبراہیم ، وذكر ما ذکرناه ، قال : فأمره جبرائیل أن أرسل بقمیصه فکان فیه ریح الجنة لا یقع علی مبتل أو سقیم إلا صبح وعوف ، فتكون الحرقة عند المرید الصادق متممة لیه عرف الجنة ، لمساعدته من الاعتداد بالصحة لله ، وبرى لبس الحرقة من ضایة الله به وفضل من الله ، فأما خرقة التبرک فیطلبها من مقصوده التبرک برى القوم ومثل هذا لا یطالب بشرائط الصحة بل یوصى بلزوم حدود الشرع وغضالة هذه الطائفة لتعود علی برکتهم ویتأدب بأدابهم ، فسوف یرقیه ذلك لى الأملیة لحرقة الإرادة فعلى هذا خرقة التبرک مبدولة لکل طالب وخرقة الإرادة ممنوعة إلا من الصادق الراغب ، ولبس الأزرق من استحسان الشیوخ فی الحرقة فإن رأى شیخ أن یلبس مریدا غیر الأزرق فلیس لاحد أن یمرض علیه لأن المشایخ آراؤهم فینما یفعلون بحکم الوقت وكان شیخنا ینقول : کان التقیر یلبس قصیر الاکمام لیکون أعون علی الخدمة . ویجوز للشیخ أن یلبس المرید خرقة فدعات علی قدر ما یتلح من المصلحة للبرید فی ذلك علی ما أسلفناه من تدایى هواه فی الملبوس والمألون فیتختار الأزرق

لأنه أرقق للفقير لكونه يحمل الوسخ ولا يجوز إل زيادة النسل لهذا المعنى الحب ، وما عدا هذا من الوجه التي يذكرها بعض المتصوفة في ذلك كلام إقناعي من كلام المتصنين ليس من الدين والحقيقة بشيء .

سمعت الشيخ سيد الدين أبا الفخر الحمداني رحمه الله قال : كنت بيندأ عند أبي بكر الشروطي ، فخرج إلينا فقير من زاويته عليه ثوب وسخ ، فقال له بعض الفقراء : إلا تفسل ثوبك ؟ فقال : يا أخى ما أفخر . فقال الشيخ أبو الفخر : لا زال أذكرك حلاله قول الفقير : ما أفخر ؛ لأنه كان صادقاً في ذلك ، فأجذلة لقره وبركة يذكرك في ذلك ؛ فاختاروا اللون لهذا المعنى ؛ لأنهم من رعاية وقته في شغل شاغل . وإلا فأى ثوب لبس الشيخ المريد من أبيض وغير ذلك فلشيخ ولا يذالك بحسن مقصده ووفور عله . وقد رأينا من المشايخ من لا يلبس الحرقة ، ويسلك بافوام من غير لبس الحرقة ، ويؤخذ منه العلوم والآداب ، وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الحرقة ولا يلبسونها المريدن ، فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل من السفة وشاهد من الشرع ، ومن لا يلبسها فله رايه وله في ذلك مقصد صحيح ، وكل تصارييف المشايخ محمولة على السداد والصواب ولا تخلو عن نية سالحة فيه ، وانه تعالى ينفع بهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى .

الباب الثالث عشر : في فضيلة سكان الرباط

قال الله تعالى (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) قيل : إن هذه البيوت هي المساجد ، وقيل : بيوت المدينة . وقيل : بيوت النبي عليه الصلاة والسلام . وقيل لما نزلت هذه الآية قام أبو بكر رضي الله عنه وقال : يا رسول الله ، هذه البيوت منها بيت علي وفاطمة ؟ قال : نعم أفضلها .

وقال الحسن : بقاع الأرض كلها جعلت مسجداً لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فلي هذا الاعتبار بالرجال إذا كرين لا بصور البقاع ، وأرى بقعة حوت رجالاً بهذا الوصف هي البيوت التي أذن الله أن ترفع .

روى النس بن مالك رضي الله عنه قال : ما من صباح ولا وراح إلا وبقاع الأرض ينادى بعضها بعضاً ، هل مر بك اليوم أحد صلى عليك أو ذكر الله عليك ؟ فن قائلة نعم ، ومن قائلة لا ، فإذا قالت نعم علت أن لها عليها بذلك فضلاً ، ومان عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض أو صلى لله عليها لا شهدت له بذلك عند ربك وعليه يوم يموت ، وقيل في قوله تعالى (فابك عليهم السماء والأرض) تنبيه على فضيلة أهل الله تعالى من أهل طاعته ؛ لأن الأرض تبكي عليهم ولا تبكي على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى ، فسكان الرباط هم الرجال ، لأنهم ربطوا نفوسهم على طاعة الله تعالى وانقطعوا إلى الله ، فأقام الله لهم الدنيا غادمة .

وورى عمران بن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من انقطع إلى الله كناه مؤتمته وورقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكلاه الله إليها ، وأصل الرباط : ما يربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل من يدفع أهله عن وراءه : رباط ؛ فالجاهد المرباط يدفع عن وراءه ، والمتقم في الرباط على طاعة الله يدفع به وبعثاته البلاء عن العباد والبلاء ، أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال : أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس الحلي قال : أخبرنا القاضي محمد بن سعيد الفرغراذي قال : أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد قال : أخبرنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو بكر بن خزيمة قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبو حميد الحمصي قال : حدثنا يحيى بن سعيد القطار ^(١) قال حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوية عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء .

(١) قوله « القطار » هكذا يندسه ؛ وفي أخرى « السار » وله « القطار » بالنون ، وإبرور .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لولا عبادة ركن وصية وضع وبها تم وقع لصب عليكم العذاب صبا ثم يرض رضا .

وروى جابر بن عبد الله قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ، ولا يزالون في حفظ الله ما دام فهم .

وروى داود بن صالح قال : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا ابن أخي ، هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية (اصبروا وصابروا وابطوا) ؟ قلت : لا ، قال : يا ابن أخي ، لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوير بيط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة ، فالرباط لجهاد النفس والمقيم في الرباط مرايط بمجاهد نفسه ، قال الله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) قال عبد الله بن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى وذلك حق الجهاد ، وهو الجهاد الأكبر ، على ما روى في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من بعض غزواته : رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . - وقيل : إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو فكتب إليه : يا أخي كل الثنور بجمعة لي في بيت واحد والباب على مردود ، فكتب إليه أخوه : لو كان الناس كلهم لزوموا ما لزمته اخذت أمور المسلمين وغلب الكفار ، فلابد من الغزو والجهاد ، فكتب إليه : يا أخي ، لو لم يكن الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم على جهاداتهم : الله أكبر ، أنهم سور قسطنطينية . وقال بعض الحكماء : ارتفاع الأصوات في سبيل العبادات بحسن الثبات وصفاء الطويات عمل مآخذة الأفلاك الدائرات ؛ فاجتناب أهل الرباط أحسن على الوجه الموضوع له الربط ، ولو تحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات وتوقر ما يفسد الأعمال واعتناء ما يصحح الأحوال عادت البركة على البلاد والعباد .

وقال سري السفيقي قوله تعالى (اصبروا وصابروا وابطوا) اصبروا عن الدنيا رجاها السلامة ، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ، وابطوا أحوال النفس القوام ، وانقوا ما يقبلكم التمام . لمحكم فلفحون غدا على بساط الكرامة . وقيل : اصبروا على بلائ ، وصابروا على نهائ ، وابطوا في دار اعدائ وانقروا بحجة من سوائ ، لمحكم فلفحون غدا بلقائ . وهذه شرائط ساكن الرباط قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك لا اكتساب اكنتاف بكفالة مسبب الأسباب ، وحسن النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، وعائق ليله ونهاره العبادة متعوضا بها عن كل عادة . شغله حفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب التفلات ، ليكون بذلك مرابطا مجاهدا . حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي ، قال أخبرنا ابن نهان محمد الكاتب ، قال أخبرنا الحسن بن شاذان ، قال أخبرنا دعلج ، قال أخبرنا البغوي عن أبي عبيد القاسم بن سلام ، قال : حدثنا صفوان عن الحارث عن سعيد بن المسيب عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إسباغ الوضوء في المسكارة ، وإعمال الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة : يغسل الخطايا غسلا . وفي رواية : ألا أخبركم بما يمحوا به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله : قال : إسباغ الوضوء في المسكارة ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط .

الباب الرابع عشر : في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قال الله تعالى (المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يطهروا راقه يحب المطهرين) هذا وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل لهم : ماذا كنتم تصنعون حتى أتى الله عليكم بهذا التناء ؟ قالوا كنا نتبع المساجد ، وهذا أشباه هذامن الآداب وظيفه صوفية الربط بلازمونه وبتماهده وتو الرباط بينهم ومضربهم ، ولكل قوم دار والرباط دارهم . وقد شابهوا أهل الصفة في ذلك على ما أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أخبرنا أحمد بن محمد البرازي ، قال أخبرنا عيسى بن علي الوزير ، قال حدثنا عبد الله البغوي ،

قال حدثنا وهبان بن بنية ، قال حدثنا عاصم بن عبد الله عن داود بن أبي هند عن أبي الحارث حرب بن أبي الأسود عن طلحة رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة ، وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة وكنت فحين نزل الصفة ، فالقوم في الرباط مرايطون متفقون على قصد واحد وعوم واحد وأحوال متساوية ، ووضع الربط لهذا المعنى أن يكون سكانها بوصف ما قال الله تعالى ﴿ وَزَعْنَا مَا فِي صدورهم من غل إخوانا على سرحن متقابلين ﴾ والمقابلة باستواء السر والعلاية . ومن آخر لأخيه غلا فليس بمقابل له وإن كان وجهه إليه : فأمل الصفة هكذا كانوا ؛ لأن مشار الفل والحقد وجوها لندنا ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، فأمل الصفة رفضوا الدنيا وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع فزال الأحقاد والغل عن بواطنهم ، وهكذا أمل الربط متقابلون بظواهرهم وبواطنهم ، مجتمعون على الآلفة والمودة مجتمعون الكلام ومجتمعون للعلم ويشرفون بركة الاجتماع .

روى وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أنهم قالوا : يا رسول الله إنا نأكل ولا نشفيع قال : ولعلكم تفرقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا الله تعالى يبارك لكم فيه ، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق ، فقيل : فملى أى شيء كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

قالعباد والزهاد طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع ، وكون نفوسهم مشتاق للأهوية والخواص فيما لا يمين فرأوا السلامة في الوحدة ، والصوفية قوة علمهم وصحة حالهم نزع عنهم ذلك فرأوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة ، فسجدة كل واحدوا رتبته ، وهم كل واحد ميمه ، ولعل الواحد منهم لا يتخطى همه بمجاده ، ولهم في اتخاذ السجادة وجه من السنة : روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيرا من الليف يصل عليه من الليل . وروى ميمونة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسبط له الخرة في المسجد حتى يصل عليها . والرباط يحتوى على شبان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب خلوة ، فالشيوخ بالروايا أليق نظرا إلى ما تدبر إليه النفس من التزم والراحة والاستبذاد بالمركات والسكات ، فلنفس شوق إلى التفرد والاسترسال في وجوه الرفق والشاب يضيئ عليه جمال النفس بالعودة في بيت الجماعة والانتكشاف لنظر الأغيار لتكثر العيون عليه فيفتقد ويتأدب ، ولا يكون هذا إلا إذا كان جامع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات وضبط الأنفاس وحراسة الخواص كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لسلك امرئ منهم يومئذ شأن يشبه ﴾ كان عتدم من هم الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض ببعض . وهكذا يلينى لاهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مضرب ريقهم ، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو والنلط فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة ويؤثر الشيخ الشاب براويته وموضع خلوته ليحبس الشاب نفسه عن دواعي الهوى والخواص فيما لا يمين ، ويكون الشيخ في بيت الجماعة قوة حاله وصبره على مداراة الناس وتخلصه من تبعات المخاطلة وحضور وقاره بين الجمع فينضبط به الغير ولا يتكدهمو . وأما الخدمة فشأن من دخل الرباط مبتدئا ولم يذيق طعم العلم ولم ينهض لنفاس الأحوال : أن يؤمر بالخدمة لتكون عبادته خدمة ، ومجذب بصن الخدمة لقلب أهل الله إليه فيقسمه بركة ذلك ويبين الإخوان المشتغلين بالمعبادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمنون إخوة يطلب بعضهم إلى بعض الخواص فيقضى بعضهم إلى بعض الخواص فيقضى الله لهم حاجاتهم يوم القيامة ، فيحفظ بالخدمة عن البطالة التي تميت القلب ، والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح ، وهي طريق من طرق المجاميد تكسيهم الأوصاف الجميلة والأحوال الحسنة ، ولا يرون استخدام من ليس من جلسهم ولا متطلعا إلى الائتداء بهمديهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال أخبرنا أبو الفضل حيد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا علي بن عبد العزيز ، قال حدثنا أبو عبيد ، قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن شريك عن أبي هلال الطائي عن وثيق بن الرومي قال : كتبت مملوكا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان يقول لي : أسلم

فإنك إن أسلمت أسلمت بك على أمانة المسلمين ، فإنه لا ينبغي أن أسلمت على أمانتهم من ليس منهم ، قال فأيت ، فقال عمر (لا إكراه في الدين) فلما حضرته الوفاة أعتق فقال : اذهب حيث شئت . قال قوم يكرهون خدمة الأغنياء ويأبون غفلتهم أيضا ؛ فإن من لا يحب طريقهم ربما استعصر بالنظر إليهم أكثر مما ينفع ، فلأنهم بشر ويبدونهم أمور يقتضي طبع البشر ، ويشكرها النور لقله عليه بمقاديرهم ، فيكون إياهم موضع الشفقة على الخلق لا من طريق التميز والترفع على أحد من المسلمين ، والشاب الطالب إذا خدم أهل الله المغنولين بطاعته يشاركهم في الثواب ، وحيث لم يؤهل لأحوالهم السلفية يخدم من أهل لها ، فخدمته لأهل القرب علامة حب الله تعالى .

أخبرنا : الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا أبو بكر بن خلاد ، قال حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، قال حدثنا معاوية بن عمرو ، قال حدثنا أبو إسحق عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبرك قال حين دنا من المدينة إن بالمدينة أنوما ما سرتم من مسير ولأظلمت واديا لا كانوا معكم ، قالوا : وم في المدينة ؟ قال : نعم ، حبسهم العذر ، فالتأثم بمحنة القوم لموعن بلوغ درجته بمنزلة القصور وعدم الأهلية ، لحام حول الحامي بالأذى بجهوده في الخدمة يتلألأ بالآثر حيث منع النظر ، لجزاء الله على ذلك أحسن الجزاء وأنا لله من جزيل العطاء ، وهكذا كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى ويمتصمون على المصالح الدينية ومواساة الإخوان بالمال والبدن .

الباب الخامس عشر : في خصائص أهل الربط والصوفية فيما يتعاهدونه ويختصون به

اعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهدية ، ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف ، وهم على هدى من ربهم ، قال الله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبها هم آتقوا) وما يرى من التصوف في حق البعض من أهل زماننا والتخلف عن طريق سلفهم لا يتضح في أصل أمرهم وصحة طريقهم ، وهذا القدر الباقي من الأثر واجتماع المنتصفة في الربط وما مياها الله تعالى لهم من الرفق : بركة جمعية بواطن المشايخ الماسخين ، وأثر من آثار من الحق في حقهم ، وصورته واجتماع في الربط الآن على طاعة الله والتمس بظاهر الآداب : عكس نور الجمعية من بواطن الماسخين وسلك الخلف في مناهج السلف ، فهم في الربط بكسب واحد بقلوب متفقة وعزائم متحدة ، ولا يوجد هذا في غيرهم من الطوائف . قال الله تعالى في وصف المؤمنين (كأنهم بغيان مرصوص) وبكس ذلك وصف الأعداء فقال (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) وروى الثمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما المؤمنون بكس رجل واحد إذا اشتكى عضون من أعضائه اشتكى جسده أجمع ، وإذا اشتكى مؤمن مؤمن اشتكى المؤمنون .

فالصوفية وظيفتهم اللازمة من حفظ اجتماع البواطن ، وإزالة التفرقة لإزالة شعث البواطن ، لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا ، وبرابطة التأليف الإلهي اتفقوا ، وبمشاهدة القلوب تواطؤوا ، ولهبذب النفوس وتصفية القلوب في الرباط رابطوا ، فلا بد لهم من التألف والتزود والنصح : روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المؤمن يألف ويؤلف ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه ، قال حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبي حرب ، قال أخبرنا أحمد بن الحسين الحيرى ، قال أخبرنا أبو سهل بن زياد القطان ، قال حدثنا الحسين بن مكرم ، قال حدثنا يزيد ابن هرون الواسطي ، قال حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، فهم واجتماعهم يجمع بواطنهم وتتقيد نفوسهم ، لأن بعضهم عين على البعض ، على ما ورد : المؤمن مرآة المؤمن ، فأى وقت ظهر من أحدهم أثر التفرقة تافروه ؛ لأن التفرقة تظهر بظهور النفس ، وظهور النفس من تضيق حق الوقت ، فأى وقت ظهرت نفس الفقير علوانته خروجه عن دائرة الجمعية وحكوا عليه بتضييع حكم الوقت وإعمال السياسة وحسن الرعاية ، فيقاد بالمناصرة إلى دائرة الجمعية

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو التحيب عبد القاهر السمرودي إجازة ، قال أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشهازي ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، قال : سمعت محمد بن عبادته يقول . سمعت رويما يقول : لا يزال الصوفي يتخير ماتافروا ، فإذا اصطالحوا اهلكوا ، وهذه إشارة من رويم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض إشفافاً من ظهور النفوس ، يقول : إذا اصطالحوا وورعوا المانعة من بينهم يخاف أن تخامر البوابن المسامحة والمرامة ومساحة البعض البعض في إهمال دقيق آفاتهم ، وبذلك تظهر النفوس وتستولى ،

وكان كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : رحم الله امرأً أهدى إلى عيوب . وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المسمى قال أخبرنا أبو عبادته محمد بن عبد الميزر الهروي ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح قال أخبرنا أبو القاسم البغوي ، قال حدثنا مصعب بن عبد الله البصري ، قال حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب : أن محمد بنان أخبر بأن عمر قال في مجلس فيه المهاجرون والأنصار : أرايت لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين قال : فسكتنا . قال : فقال ذلك مربي أو ثلاثاً : أرايت لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال يشر بن سعد : لو فعلت ذلك قوتنا كقوتهم التمدح ؛ فقال عمر : أنتم إذن أنتم .

وإذا ظهرت نفس الصوفي بفضب وخصومة مع بعض الإخوان فشرط أخيه أن يجادل نفسه بالقلب ، فإن النفس إذا قولت بالقلب انحسرت مادة الشر ، وإذا قولت النفس بالنفس ثارت الفتنة وذهبت المعصية . قال الله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلحقها إلا الذين صبروا) .

ثم الشيخ أو الحاد إذا شك إلى فقير من أخيه فله أن يعاتب أيما شاء ، فيقول للمتمدى : لم كذبت ؟ وللمعتدى عليه : ما الذي أذنبت حتى تمدى عليك وسلط عليك ؟ وملا قلبك بنفسه بالقلب وفقاً بأخيك ، وإعلاء للفتوة والصحة حقها ، أفكل منها جان ومعارض عن دائرة الجمعية فيرد إلى الدائرة بالقتار ، فيعود إلى الاستغفار ولا يسلك طريق الاصرار .

روت عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أسوأوا استغفروا ، فيكون الاستغفار ظاهراً مع الإخوان ، وباطناً مع الله تعالى ، وورناً لله استغفارهم ؛ فهذا المعنى يقفون في صف النمل على أقدامهم تواضعاً وانكساراً .

وسمعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة : قم واستغفر ؛ فيقول الفقير : ما أرى باطن صافياً ، ولا أورا للقيام للاستغفار ظاهراً من غير صفاء الباطن ؛ فيقول : أنت فمير كسميك وقيامك تزرق الصفاء ، فكان محمد ذلك ويرى أثره عند الفقير وتروق القلوب وترفع الوحشة .

وهذا من خاصية هذه الطائفة لا يبيتون والباطن منطوية على وحشة ، ولا يهتممون للطعام والباطن تغنىر وحشة ، ولا يرون الاجتماع ظاهراً في شيء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالباطن وذهاب التفرقة والشمع ، فإذا قام الفقير للاستغفار لا يجوز رد استغفاره محال .

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اوحوا ترحوا ، واغفروا يغفر لكم .

والصوفية في تقبيل يد الشيخ بيد الاستغفار أصل من السنة : روى عبد الله بن عمر قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحاص الناس حصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فرغنا من الزحف ويؤن بالنضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فقتلناها ؟ ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان لنا توبة وإلا ذمنا ، فأبينا قبل صلاة النداء فخرج فقال : د من القوم ؟ قلنا : نحن الفرارون . قال : لا ، بل أنتم المكارون ، أنا فتكم ، أنا فتة المسلمين ، يقال : عكر الرجل ، إذا تولى ثم كر راجعاً . والمكار المكارف

والرجاع . قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح قبل يد عمر عند قدومه . وروى عن أبي سريته الثوري أنه قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت إليه وقبلت يده . فهذا رخصة في جواز تقبيل اليد ، ولكن أدب الصوفي أنه متى رأى نفسه تعزز بذلك أو ظهر بوصفاً أن يتمتع من ذلك ، فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليدين معانقهم للإخوان عقيب الاستغفار ، لرجوعهم إلى الآلة بعد الوحشة ، وقدمهم من سفر الحجرة بالفرقة إلى أوطان الجمعية ، فظهر النفس تفرقوا وبعدوا ، وبنيية التفرس والاستغفار قدموا ورجعوا : ومن استغفر إلى أخيه ولم يقبله فقد أخطأ ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وعيد : روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب المكوس ، وروى جابر أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اتصل إليه فلم يقبل لم يرد على الخوض .

ومن السنة أن يقدم الإخوان شيئاً من الاستغفار ، روى أن كعب بن مالك قال لاني صلى الله عليه وسلم : إن من توبى أن أتخلف من مالي كله وأجر دار قومي التي فيها أثبت الذنب فقال له التي عليه الصلاة والسلام ، بجزئك من ذلك التلك ، فصارت سنة الصوفية المطالبة بالفرامة بعد الاستغفار والمناظرة ، وكل قصدهم رعاية التألف حتى تكون برائهم على الاجتماع كأن ظواهرهم على الاجتماع ، وهذا أمر تفردوا به من بين طوائف الإسلام .

ثم شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه أو يما يطلب لسكانه بالضرورة : أن يسكن عنده من الضل باله لا يسمه الكسب ، وإلا - إذا كان البطالة والخوض فيها لا يعني عنده مجال ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجهد والاجتهاد - فلا ينبغي له أن يأكل من مال الرباط بل يكتسب ويأكل من كسبه ؛ لأن طعام الرباط لا قيام لكل شغلهم بالله ، خدمتهم الدنيا لشغلهم بخدمة مولايم ؛ إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق ينتفع بصحبته ويهدى بهديه ، فيرى الشيخ أن يطعمه من مال الرباط ، فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة . ومن حيلة ما يكون للشيخ في ذلك من التنية : أن يشغله بخدمة الفقراء ؛ فيسكن ما يأكله في مقابلة خدمته .

روى عن أبي عمرو الإرجاسي قال : أقت عندا الجنيد مدة ، فما رأي قط إلا وأنا مشغول بنوع من العبادة ، فما كلني حتى كان يوم من الأيام خلال موضع من الجماعة ؛ فمسترتزعت لياني وكفست للموضع ونظفته ورششته وغسلت موضع الطهارة ، فرجع الشيخ ورأى على أثر التبار ، فدعا لي ورحب بي وقال : أحسنت عليك بها ثلاث مرات ، ولا يزال مشايخ الصوفية يندبون الشباب إلى الخدمة حفظاً لهم عن البطالة ، وكل واحد يكون له حظ من المعاملة وحفظ من الخدمة .

روى أبو عذرة قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا الأذان ، والسقاية لبني هاشم ، والحجابة لبني عبد المبار . وهذا يقتدى مشايخ الصوفية في تفريق الخدم على الفقراء ، ولا يعمدون في ترك نوع من الخدمة إلا الكامل الضل بوقته ، ولا نفي بكامل الضل شغل الجوارح ، ولكن نفي به دوام الرعاية والمحاسبة ، والضل بالقلب والقلب وقتاً وبالقلب دون القلب وقتاً ، وتفقد الريادة من القصاص ؛ فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغل تام ، وبذلك يؤدي شكر نعمة الفراغ ولعمة الكفاية . وفي البطالة كفران نعمة الفراغ والكفاية .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو الحبيب عبد القاهر إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد بن منصور ، قال أخبرنا أحمد بن خلف ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين ، قال سمعت أبا الفضل بن حدون يقول : سمعت علي بن عبد الحميد القضايري يقول : سمعت السري يقول : من لا يعرف قدر انعم سبحانه من حيث لا يعلم . وقد يعمد الشيخ الماجز عن الكسب في تناول طعام الرباط ولا يعمد الشاب . هذا في شرط طريق القوم على الإطلاق ، فأما من حيث فتوى الشرع : فإن كان شرط الوقف على المتصوفة وعلى من تزيأ بزي المتصوفة وليس خرقهم فيجوز أكل ذلك لهم على الإطلاق فتوى ، وفي ذلك التنازع إلى رخصة حدون الزميمة التي هي شغل أهل الإرادة . وإن كان شرط الوقف على من يسلك طريق الصوفية عملاً ، وسالاً فلا يجوز أكله لأهل البطالات والراكين إلى تصنيع الأوقات ، وطرق أهل الإرادة عند

مشايخ الصوفية مشهورة .

أخبرنا الشيخ التتة أبو الفتح ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا أبو العباس أحمد ابن محمد بن يوسف ، قال حدثنا جعفر القرياني ، قال حدثنا محمد بن الحسين البلخي بسمرقند ، قال حدثنا عبد الله ابن المبارك ، قال حدثنا سعيد بن أبي أروبا الخزازي . قال حدثنا عبد الله بن الوليد عن أبي سليمان الليثي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن كمثل الفرس في أخيته يحول ويرجع إلى أخيته ، وإن المؤمن يسوئهم يرجع الإيمان : فاطمعوها طامعكم الاتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين ،

الباب السادس عشر : في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم في السفر والمقام

اختلف أحوال مشايخ الصوفية ؛ فهم من سافر في بدايته وأقام في نهايته ؛ ومنهم من أقام في بدايته وسافر في نهايته ؛ ومنهم من أقام ولم يسافر ؛ ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة .

ونشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام : فأما الذي سافر في بدايته وأقام في نهايته فقصده السفر لمان ؛ منها : تعلم شيء من العلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم ولو بالصين ، وقال بعضهم : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى الصين في كفة تدل على مدى ما كان سفره ضائعا ، وتقل أن جابر بن عبد الله رحل من المدينة إلى مصر في شهر حديث بأنه أن أنسا يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع ، وقيل في تفسير قوله تعالى (الساعون) أنهم طلاب العلم .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو التجيب السهروردي إمامنا قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك الهروي ، قال أخبرنا أنور الترياق ، قال أخبرنا الجرجاني ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا وكيع ، قال حدثنا أبو داود عن سفيان عن أبي هرون ، قال : كنا غانقيا أسعدي فيقول : مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن النبي عليه السلام قال : إن الناس لكم تبعة وإن الرجال يأتونكم من أقطار الأرض يتفقون في الدين ؛ فإذا أتوك فاستوصوا بهم خيرا ، وقال عليه السلام : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وروى عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، إن الله تعالى أوحى إلى إنسان من سلك مسلكا في طلب العلم سهلت له طريقا إلى الجنة . ومن جملة مقاصدهم في البداية لقاء المشايخ والإخوان الصادقين ؛ فللمريد بقاء كل صادق مزيد ، وقد ينفعه لفظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال . وقد قيل : من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه . وهذا القول فيه وجهان : (أحدهما) أن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله أكثر ما يكلمهم بلسان قوله ؛ فإذا نظر الصادق إلى تضاريفه في مودده ومصدره وخلوته وجلته وكلامه وسكوته يتفجع بالنظر إليه ؛ فهو نفع اللطيف .

ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلنفعه أيضا لا ينفع لأنه يتكلم بهواه ، ونورانية القول على قدر نورانية القلب ، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها . (والوجه الثاني) أن نظر العلماء الراغبين في العلم والرجال البالغين ترياقي نافع ، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستكشف بنور بصيرته حتى يستمدد بالصادق واستثباته لمواهب الله تعالى الخاصة ؛ فيقع في قلبه عجة الصادق من المريد وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة ، وهم من جنود الله تعالى فيكسبون نظرم أحوالا سنية ويهون آثارا مرضية ، وماذا ينكر للسكر من قدرة الله ؟ إن الله سبحانه وتعالى كما جعل في بعض الأنواع من الخاصة أنه إذا نظر إلى إنسان يملكه بنظره ، جعل في نظر بعض خواص عباد الله إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه جالا وحياة . وقد كان شيخنا رحمه الله يظفر في مسجد الخيف بمنى ويتصفع وجوه الناس ، فقيل له في ذلك فقال : عباد إذا نظروا إلى شخص أكسبوه سعادة ، فأنا أكسب ذلك .

ومن جملة المقاصد في السفر ابتداء قطع المألوفات ، والانسلاخ من ركون النفس إلى موهود ومعلوم ، والتحامل على النفس بتجرع مرارة فرقة الآلائف والحلن والأمل والوطنان ، فنصبر على تلك المألوفات بحسب عتاده أجرا

فقد حاز فضلا عظيما . أخبرنا أبو زرعة بن أبي الفضل الحافظ المقدسي عن أبيه قال أخبرنا القاضي أبو منصور محمد بن أحمد الفتية الأصفهاني ، قال أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد قوله ، قال حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد التيسايوري ، قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب ، قال حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : مات رجل بالمدينة بمن ولدها ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ، ليت مات بغير مولده ، قالوا : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره من الجنة .

ومن جملة المقاصد في السفر استكشاف دقائق النفوس واستخراج رعوته وطمعها ، لأنها لا تكاد تدب حقائق ذلك بغير السفر . وسمى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق ، وإذا وقف على ذاته يتشعر لدوائه ، وقد يكون أثر السفر في نفس المبتدئ كأثر التوافل من الصلاة والصوم والتجديد وغير ذلك ، وذلك أن المتأمل سائر إلى الله تعالى من أوطان التفلاتل إلى محل القربات ، والمسافر يقطع المسافات ويتقلب في المفاز والقلوب بحسن التنية لله تعالى ، سائر إلى الله تعالى بمراعاة الهوى ومهاجرة ملاذ الدنيا .

أخبرنا شيخنا لإجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد ، قال أخبرنا أحمد بن محمد بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت عبد الواحد بن بكر يقول : سمعت علي بن عبد الرحمن يقول : سمعت النووي يقول : التصوف ترك كل حظ النفس . فإذا سافر المبتدئ تاركاً حظ النفس لطمأن النفس وتلين كما تلين بدماء النافلة ، ويكون لها بالسفر دباغ يذهب عنها الخشونة واليبوسة الجلية والغفوة الطيمية ، كالجلد يعود من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب ، فتعود النفس من طبيعة الطغيان إلى طبيعة الإيمان .

ومن جملة المقاصد في السفر : رؤية الآثار والمعبر ، وتوسيع النظر في مساح الفكر ، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال ومواطن أقدام الرجال ، واستماع التيسيح من ذوات الجمادات ، والفهم من لسان حال القطع المتجاورات ، فقد تجدده اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات ، وتتوفر بمطالعة المشاهد والمواقف الشواهد والذلال . قال الله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يبين لهم أنها الحق) وقد كان السري يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء ودخل أذار وأورقت الأشجار طالب الانتشار .

ومن جملة المقاصد بالسفر : إثارة الخوف وإطراح حظ التبول ، فصدق الصادق يتم على أحسن الحال ، ويرزق من الخلق حسن الإقبال ، وقفا يكون صادق متمسك بمروءة الإخلاص وذوق عامر إلا ويرزق إقبال الخلق ، حتى سمعت بعض المشايخ يبيح عن بعضهم أنه قال : أريد إقبال الخلق على لائق أبلغ نفسي حظها من الهوى ، فإني لأبالي أقبولاً أو أدبروا ، ولكن لكون إقبال الخلق علامة تدل على صحة الحال ، فإذا ابتلى المرید بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركون إلى الخلق ، وربما يفتح عليه باب من الرفق وتدخل النفس عليه من طريق السير والدخول في الأسباب المحمودة ، وتريه فيه وجه المصلحة والفضيلة في خدمة عباد الله وبذل الموجود ، ولا تزال النفس به والشيطان حتى يجره إلى السكون إلى الأسباب واستجلاب قبول الخلق ، وربما قويا عليه لجراه إلى التصنع والتعمل ويستع الحرق على الرافع .

وسمعت أن بعض الصالحين قال لمرید له ، أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر ، ولكن يدخل عليك من طريق الخير ، وهذا منزلة عظيمة للأقدام ، فانه تعالى يدرك الصادق إذا ابتلى بشيء من ذلك ويرجع به بالناتية السابعة والمهونة اللاحقة إلى السفر ، فيفارق المعارف والموضع الذي فتح عليه هذا الباب فيه ويتجده تعالى بالخروج إلى السفر ، وهذا من أحسن المقاصد في الأسفار للصادقين ، فهذه جملة المقاصد المطلوبة للمشايخ في بداياتهم معاد الحج والزور وزيارة بيت المقدس . وقد نقل أن عمر خرج من المدينة قاصداً إلى بيت المقدس وصلى فيه الصلوات الخمس ثم أسرع راجعا إلى المدينة من الخند . ثم إذا من الله على الصادق بإحكام أمور بدايته ، قلبه في

الأسفار ، ومنحه الحظ من الاعتبار ، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته ، واستفاد من مجاورة الصالحين ، وانتش في قلبه فوائد النظر إلى حال المتقين ، وتطهر باطنه باستشاق عرف معارف المقربين ، وتحصن بحماية نظر أهل الله وخاصته وسبر أحوال النعمس ، وأسفر السفر عن دقان أخلاقها وشبهاتها الخفية ، وسقط عن باطنه لظفر الحق ، وصار يفلح ولا يئيب ، كما قال الله تعالى إخباراً عن موسى (ففرت منك لما خفتك فوهب لبري حكار جعلني من المرسلين) ففند ذلك الرد الحق إلى مقامه ، ويمده بمجزل لإنامه ، وبجمله إماما للمتقين به يقتدى ، وعلماً للؤمنين به يهتدى . وأما الذي أقام في بدايته وسافر في نهايته : يكون ذلك شخصاً يسر الله له في بداية أمره صحة وقبض له شيخاً عالماً يسلك به الطريق ، ويدرجه إلى منازل التحقيق ، فيلزم موضع إرادته ويلتزم بصحة من رده عن عاداته وقد كان الشبل يقول للصخر في ابتداء أمره : إن خطر يالك من الجملة إلى الجملة غير الله غرام عليك أن تحضرق ، فمن رزق مثل هذه الصحة يحرم عليه السفر ، فالصحة خير له من كل سفر وقضية بقصدها .

أخبرنا رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال : أخبرنا أبو المفطر عبد النعم بن عبد الكريم ابن هوازن القشيري عن : الله الأستاذ أبي القاسم قال : سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول : سمعت عياش بن أبي الصخر يقول : سمعت أبا بكر الزقاق يقول : لا يكون المرید مریداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة فمن رزق صحة من يندب إلى مثل هذه الأحوال السنية والمراثم القوية يحرم عليه المفارقة واختيار السفر ، ثم إذا أحكم أمره في الابتداء بلزوم الصحة وحسن الاكتفاء . وأرتوى من الأحوال ، وبلغ مبلغ الرجال ، وانجس من قلبه عيون ماء الحياة ، وصارت نفسه مكتسبة للسماعات يستشقق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان في أقطار الأرض وشاسع البلدان ، يشررب إلى التلاق ويذهب إلى الطواف في الآفاق ، يسره الله تعالى في البلاد الفاتحة البعاد ، ويستخرج بمنطاطيس حاله خبء أهل الصدق والمطلعين إلى من ينجز عن الحق ، ويبدو في أراضى القلوب بذر العلاج ، ويكثر ببركة نفسه وصحبه أهل الصلاح . وهذا مثل هذه الأمة الهادية في الإجماع (كزرج أخرج شطاه فأروده فاستفاظ فاستوى على سوفه) تؤدبر بركة البعض إلى البعض ويكون طريق الرواة معموراً ، وعلم الإفادة منشوراً أخبرنا شيخنا قال أخبرنا الإمام عبد الجبار البيهقي في كتابه ، قال أخبرنا أبو بكر البيهقي ، قال أخبرنا أبو علي الروذباري قال حدثنا أبو بكر بن واسطه ، قال حدثنا أبو داود قال أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثنا إسماعيل بن جعفر ، قال أخبرني الملازم عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثامهم اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً ، فأما من أقام ولم يسافر يكون ذلك شخصاً رباه الحق سبحانه وتعالى وتولاؤه وقع عليه أبواب الخير وجذبه بمنائيه . وقد ورد جذبه من جذبات الحق توازي عمل الثقلين . ثم لما علم منه الصدق ورأى حاجته إلى من ينتفع به ساق إليه بعض الصديقين . حتى أيدهم بلطفه ولطفه ، وتدارك كسله ، ولتمه بقوة حاله ، وكفاه يسير الصحة لكان الأملية في صاحب والمصحوب ، وإجراء سنة الله تعالى في إعطاء الأسباب معها الإقامة ، رسم الحكمة يوجه إلى يسير الصحة ، فيقبه بالقليل الكثير ، ويهنيه اليسير من الصحة عن اللطع الكثير ، ويكتفي بوافر حظ الاستبصار عن الأسفار ، ويتعرض بأشعة الأنوار عن مطالعة النور والآثار ، كما قال بعضهم : الناس يقولون أفصحوا أعينكم وأبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم وأبصروا . وسمعت بعض الصالحين يقول لله عباد طور سيناهم ركبهم تسكون دوسهم على ركبهم وهم في حال القرب ، فمن نبع له معين الحياة في ظلمة خلوته فإذا يصنع بدخول الظلمات ؟ ومن اندرجت له أطباق السموات في طي شهوده ، ماذا يصنع بتقلب طرفه في السموات ؟ ومن جمعت أحداق بصيرته متفرقات الكائنات ، ماذا يستفيد من طي الغلوات ؟ ومن خلص بغاصية فطرته إلى جمع الأرواح ، ماذا تفيد زيادة الأشباح ؟

فيل أرسل ذو الثور المصري إلى أبي يزيد رجلاً وقال قل له إلى متى هذا النوم والراحة وقد سارت القافلة ؟

فقال الرسول : قل لأخي : الرجل من بنام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل التافلة ، فقال ذو النون: هنيئله ، وهذا كلام لا يبلغه أحوالنا .

وكان بشر يقول : يا معشر القراء سيجوا قليبوا ، فإن الماء إذا كثر مكث في موضع نفير ، وقيل قال بعضهم عند هذا السلام صريحاً حتى لا تتغير ، فإذا أدام المرء يد الباطن يقطع مسافة النفس الأماراة بالسوء ، حتى قطع منازل آفاتهما وبطل أخلاقها المدمومة بالحمودة ، وعائق الإقبال على الله تعالى بالصدق والإخلاص ، اجتمع له المتفرقات ، واستفاد في حضرة أكثر من سفره ، لكون السفر لا يتخلل من متاعب وكلف ومشوشات وطوارق ونوازل يتجدد الضعف عن سياساتها بالحم للضعفاء ، ولا يثقل على تسليط العلم على متجددات السفر وطواره إلا الأفوا به . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلبي زكي عنده رجلا هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال لا ، قال ما أراك تعرفه ؟ فإذا حفظ الله عبده في بلايا أمره من تشويش السفر ، ومنته بجمع المم وحسن الإقبال في الحضر وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح الحال ، فقد أحسن إليه .

قيل في تفسير قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ هو الرجل النقطع إلى الله بشكل عليه شيء من أمر الدين فيبعث الله إليه من أجل إشكاله . فإذا ثبت قدمه على شروط البداية رزق وهو في المقام من غير سفر فمرات النهاية ، فيستقر في الحضر انتهاء ، وأقيم في هذا المقام جمع من العالحين . وأما الذي أدام السفر فرأى صلاح قلبه وصحة حاله في ذلك . يقول بعضهم اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد ، ولا تموت إلا بين منزلين . وكان من هذه الطبقة إبراهيم الخواص ما كان يقيم في بلد أكثر من أربعين يوما ، وكان يرى إن أقام أكثر من أربعين يوما يفسد عليه توكله ، فكان علم الناس ومعرفتهم إياه سببا ومعلوما .

وحكى عنه أنه قال مكنت في البادية أحد عشر يوماً لم أكل وتطلعت نفسي أن أكل من حشيش البر ، فرأيت الحظير مقبلًا نحوي فهربت منه ، ثم التفت فلذا هو رجوع عي ، فقيل لم هربت منه ؟ قال تشوفت نفسي أن يغبني ، ففؤاء القارون بدنيهم . أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه قال أخبرنا أبو بكر أحد بن علي قال أخبرنا أبو عبدالله بن يوسف بن نامويه قال حدثنا أبو محمد الزهري القاضي قال حدثنا محمد بن عبدالله بن أسباط قال حدثنا أبو إسماعيل قال حدثنا محمود - يعني ابن مسلم - عن عثمان بن عبدالله بن أروس عن سليمان بن هرم عن عبد الله بن عيسى بن مريم يوم القيامة ، وهذه كلها أحوال اختلفت وانبع أربابها الصحة وحسن التيمع الله . وحسن التيمع يقتضى الصدق ، والصدق لعينه محمود كيف تقلبت الأحوال ، فمن سافر يغبني أن يتفقد ساليه ، ويصحح نيته . ولا يقدر على تخليص النية من شرائب النفس إلا كثير العلم تام التقوى ، وأما الحظ من الزهد في الدنيا . ومن الطوى على هوى كامن ولم يستقص من الزهد لا يقدر على تصحيح النية . فقد بدعوه إلى السفر نشاط جبلي نفساني وهو يظن أن ذلك داعية الحق ولا يميز بين داعية الحق وداعية النفس ويحتاج الشخص في علم صحة النية إلى العلم بمعرفة الخواطر ، وشرح الخواطر وعليها يحتاج إلى باب مفرد لنفسه ، ونوى الآن إلى ذلك بمن يدركه من نازله شيء من ذلك ، فأكثر الفقهاء من علم ذلك ومعرفة على يمد .

اعلم أن ما ذكرناه من نشاط النفس واقع للفقير في كثير من الأمور ، فمجدد الفقيه الروح بالخروج إلى بعض الصحراء والبساتين ، ويكون ذلك الروح مضرباً به في ثاق الحبال وإن كان يترأى له طيبة القلب في الوقت وسبب طيبة قلبه في الوقت أن النفس تنفس وتنفس بلوغ غرضها وتيسر يسير هواها بالخروج إلى الصحراء والتزهة ، وإذا أتممت بدلت عن القلب وتحدث عنه مقفوفة إلى متعلق هواها ، فيترك القلب لابل الصحرَاء بل يبعد النفس منه ، كخص خص يبعد عنه قرن يستقله . ثم إذا عاد الفقير إلى زوابعه واستفتح ديوان معاملته وبين دستور حاله ، يجد النفس مقارئة القلب يريد نقل موجب لثمرتها ، وكلما ازداد ثقلها وكدر القلب . وسبب زيادة ثقلها استرسالها في

تبادل هواها ، فيصير الخروج إلى الصحراء عين الماء ، ويظن الفقير أنه ترويح ودواء ، فلو صبر على الوحدة والخلوة ، ازدادت النفس ذوبانا ، وخفت ولطفت وصارت قربنا صالحا للقلب لا يستغفلها . وعلى هذا يقاس الترويح بالأسفار ، فالنفس وثبات إلى نوم التروحات ، فمن فطن لهذه الحقيقة لا يفتن بالتروقات المستعارة التي لا تحمد عاقبتها ولا تؤمن غايتها ، ويكتف عند ظهور خاطر السفر ، ولا يكثر من الخاطر بل يطرحه بعدم الالتفات مسيئا ظنه بالنفس وتسولاتها . ومن هذا القبيل - والله أعلم - قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشمس تطلع من بين قرني الشيطان ، فيكون النفس عند طلوع الشمس وثبات تستند تلك الوثبات والنهضات من النفس إلى المزاج والطباع ، ويطول شرح ذلك ويعمق . ومن ذلك القبيل خفة مرض المريض غدوة ، بخلاف المشيات فيتشكل اهتزاز النفس بهضات القلب ، ويدخل على الفقير من هذا القبيل آفات كثيرة : يدخل في مداخل باعواز نفسه ظنا منه أن ذلك حكم نهوض قلبه ، وربما يتراءى له أنه بالله يصول وبالله يقول وبالله يتحرك ، فتدأبلى بهضة النفس ووثوبها . ولا يقع هذا الاشتباه إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال ، وغير أرباب القلب والحال عن هذا يمزول ، وهذه منزلة قدم خصصة بالخواص دون العوام ، فاعلم ذلك فإنه عز وجل عليه . وأقل مراتب الفقراء في مبادئ الحركة السفر لتصحح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستخارة ، وصلاة الاستخارة لا تهمل وإن تبين للفقير صحة خاطر أو تبين له وجه المصلحة في السفر بيان أوضح من الخاطر ، فلقوم سرائب في التبيان من العلم بصحة الخاطر وبما فوق ذلك ، ففي ذلك كله لا تهمل صلاة الاستخارة اتباعا لسنة ، ففي ذلك البركة ، وهو من تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أحدتنا شيئا خاضيا من الدين أبو النجيب السهروردي (ملا قال : أخبرنا أبو القاسم بن عبد الرحمن في كتابه ، أن أبا سعيد الكنجي هروزي أخبرهم قال أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، قال حدثنا أحمد بن الحسين الصوفي ، قال حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموال عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن قال : إذا هم أحدكم بالأمر - أو أراد الأمر ، فليصل ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستعيرك بعملك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنه لا تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه بعينه - خير لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري - أو قال عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلمه شر لي - مثل ذلك - فأصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان .

الباب السابع عشر : فيما يحتاج إليه الصوفي في سفره من الفرائض والفضائل

فأما من الفقه - وإن كان هذا يذكر في كتب الفقه وهذا الكتاب غير موضوع لذلك ، ولكن نقول على سبيل الإيجاز تبينا بذكر الأحكام الشرعية التي هي الأساس الذي يبنى عليه - لابد للصوفي المسافر من علم التيمم والمسح على الخفين والتقصير والجمع في الصلاة ، أما التيمم لجأز المريض والمسافر في الجنابة والحادث عند عدم الماء أو الخوف من استعماله تلفا في النفس أو المال أو زيادة في المرض على القول الصحيح من المذهب ، أو عند حاجته إلى الماء الموجد لمطشه أو عطش دابته أو رفيقه ، ففي هذه الأحوال كلها يصل بالتيمم ولا إعادة عليه . والعائق من البرود يصل بالتيمم ويعيد الصلاة على الأصح . ولا يجوز التيمم إلا بشرط الطلب للماء في مواضع الطلب . ومواضع الطلب مواضع تزدد المسافر في منزله للاحتطاب والاحتشاش ، ويكون الطلب بعد دخول الوقت ، والفقر القصير في ذلك كالطويل . وإن صلى بالتيمم مع بقاء الماء في آخر الوقت جاز على الأصح . ولا يبعد معها صلى بالتيمم وإن كان الوقت باقيا . ومهما تروم وجود الماء بطل تيممه ، كما إذا طلع ركب أو غير ذلك . وإن رأى الماء في أثناء الصلاة لا يمتل صلاته ولا تلامها بالإعادة ، ويستحب له الخروج منها واستنابها بالوضوء على الأصح . ولا يقيم للفرض قبل دخول الوقت ويقيم لكل فريضة . ويصل معها شاه من نوافل يقيم واحد ، ولا يجوز أداء الفرض بيمين

الثالثة : ومن لم يجد ماء ولا ترابا يصل عند وجود أحدهما . ولكن إذا كان حدث لا يس الصنف . وإن كان جنبا لاقرأ القرآن في الصلاة بل يذكر الله تعالى عوض القراءة . ولا يقيم إلا بتراب طاهر غير غائط للرمل والحصى ، ويجوز بالغبار على ظهر الحيوان والثوب . ويسمى الله تعالى عند التيمم ، وينوي إسباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب ، ويضع أصابعه لضربة الوجه ويمسح بجميع الوجه ، فلو بقى شيء من عمل الفرض غير مسح لإصبع التيمم . ويضرب ضربة اليمين بوسط الأصابع ، ويمسح بالتراب على الفرض ، وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعدا كيف أمكنه لا بد أن يمسح التراب على الفرض . ويمسح إذا فرغ إحدى الراحتين بالأخرى حتى تصيرتا مسحيتين ، ويمسح اليد على ما نزل من الحلة من غير إصصال التراب إلى الثياب .

وأما المسح : فيمصح على الخف ثلاثة أيام وليالين في السفر . والقيم يوماً وليلة . وابتداء المدة من حين الحدب بعد لبس الخف ، لأن حين لبس الخف . ولا حاجة إلى التيق عند لبس الخف ، بل يحتاج إلى كال الطهارة ، حتى لو لبس أحد الخفين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسه على الخف . ويشترط في الخف إمكان متابعة المشي عليه وسرعة عمل الفرض ، ويكفي مسح يسير من أعلى الخف ، والأولى مسح أعلاهما أسفلهما من غير تكرار ، وفق ارتفاع حكم المسح - بانقضاء المدة أو ظهور شيء من عمل الفرض وإن كان عليه لفافة وهو على الطهارة - بفعل القدمين دون استئذان الوضوء على الأصح . والمسح في السفر إذا قام بمسح كالقيم ، ويمكنه القيم إذا سافر بمسح كالسافر . والبلد إذا ركب جوباً ولم يجرز المسح عليه ، ويجوز على المخرج إذا ستر عمل الفرض ، ولا يجوز على المنسوج وجهه الذي يستر بعض القدم به والباقي باللفافة :

فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر في وقت إحداهما . ويتيمم لكل واحد ولو لا يفصل بينهما بكلام وغيره . وهكذا الجمع بين المغرب والعشاء . ولا قصر في المغرب والصبح بل يصلحها كهئتها من غير قصر . وجمع . والسنن الرواتب يصلحها بالجمع بين السنتين قبل الفريضتين للظهر والعصر . وبعد الفراغ من الفريضتين يصل ما يصل بعد الفريضة من الظهر وكعتين أو أربعاً ، وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدي السنن الزايلة لها ويوتر بمسدها . ولا يجوز أداء الفرض على النداء بحال إلا عند التحام القتال للنازى . ويجوز ذلك في السنن الرواتب والوافل ، وكفيه الصلاة على ظهر الدابة ، وفي الركوع والسجود الإيماء ، ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع ، إلا أن يكون قادراً على التحنك مثل أن يكون في محاورة وغير ذلك ، ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة ، ولا يوجهها إلى غير الطريق إلا للقبلة حتى لو حرق دابته عن الصوب الموجه إليه لا إلى غير القبلة بطلت صلاته . والمأخوذ يتنقل في السفر ويقتنه استقبال القبلة عند الإحرام ، ولا يجوز في الإحرام إلا الاستقبال ، ويقتنه الإيماء للركوع والسجود ، وراكب الدابة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام أيضاً . وإذا أصبح المسافر مقياً ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم في العزم ، وهكذا إن أصبح مسافراً ثم أقام ، والعصوم في السفر أفضل من الفطر ، وفي الصلاة القصر أفضل من الإتمام ، فهذا القدر كالصوفي أن يدلّه من حكم الشرع في مهام سفره .

فأما التدوب والمستحب فينبغي أن يطلب لنفسه رفيقا في الطريق يعينه على أمر الدين ، وقد قيل : الرفيق ثم الطريق ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسافر الرجل وحده ، إلا أن يكون صوفيا عالما . باقية نفسه يختار الوحدة على بصيرة من أمره فلا بأس بالوحدة ، وإذا كانوا جماعة فينبغي أن يكون فهم متقدم أمير . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كنتم لثلاثة في سفر فأمرأوا أحداكم ، والذي يسميه الصوفية « يشتر » وهو الأمير وينبغي أن يكون الأمير أزهدا لجماعة في الدنيا ، وأوفرهم حظا من التقوى ، وأهمهم مروءة وسخاوة ، وأكثرهم شفقة . روى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، نقل عن عبد الله بن الحر دوى : أن أبا علي الرضا عليه السلام قال : على أن أكون أنا الأمير أو أنت ؟ فقال : بل أنت ؛ فلم يزل يحمل الزاد نفسه ولأبي علي ظهره ، وأعطت السيد ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه ينظفه بكناسه من

المطر ، وكذا قال لأفضل يقول الستة لا مبرور عليك الا بعباد الطاعة . فأما إن كان الأمر يصحب القراءة فلهذا الاستبعاد
وطلب الرابسة والتورز ليلتسلط على الخدام في الربط ويبلغ نفسه هوأما : فهذا طريق أرباب الهوى الجاهل المبائين
لطريق الصوفية ، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا ، فيلغظه لنفسه رفقاء مائتين إلى الدنيا يجتمعون لتحصيل أغراض
النفس والدخول على أبناء الدنيا والظلمة للتوصل إلى تحصيل مأرب النفس ، ولا يتفكر اجتماعهم هذان الخوض في
الغيب والدخول في المداخل المكره والظلمة في الربط والاستمتاع والنزعة ، وكذا كثر المعلوم في الرباط أظلم المقام
وإن تضرعت أسباب الدين ، وكذا قل المعلوم رحلوا وإن تيسرت أسباب الدين ، وليس هذا طريق الصوفية .

ومن المستحب أن يردع إخوانه إذا أراد السفر ، ويدعو لهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم :
صحب عبد الله بن عمر من مكة إلى المدينة ، فلما أردت مفارقتة شيعني وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : « قال لقمان لابنه : يا بني إن الله تعالى إذا استودع شيئا حفظه ، وإن استودع أقدنيك وأمانتك وخواتم
عقلك . » وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أراد أحدكم سفرا فليودع إخوانه ،
فإن الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة . » وروى عنه عليه السلام أيضا أنه كان إذا ودع رجلا قال : « وذكرك الله
التقوى ، وغفر ذنبك ، ووجهك الخير حيثما توجهت ، وينبغي أن يمتدح إخوانه إذا دعا لهم واستودعهم الله أن الله
يستجيب دعاءه . » فقد روى أن عمر بن الخطاب كان يعطى الناس عطائهم ، إذ جاء رجل معه ابن له فقال له عمر :
ما رأيت أحدا أشبه بأحد من هذا بك ؟ فقال الرجل : أحذرك عنه يا أمير المؤمنين ، إنني أردت أن أخرجك إلى سفر
وأما حامل به فالتقى : فخرج وقد غنى على هذه الحالة ؟ فقلت : استودع الله ما في بطنك ، فخرجت فم قد تمت فلذا هي قد
ماتت ، فجلسنا نتحدث فلذا نأمر تلوح على قبرها ، فقلت القوم : ما هذه النار ؟ فقالوا : هذه من قبر فلانة زناها كل
ليلة ، فقلت : والله إن ما كنت صوامعة قومة ، فأخذت الممول حتى انتهيت إلى القبر فخرنا وإذا سراج وهذا الغلام
يذهب ، فقلت : إن هذا وديعتك ولو كنت استودعنا أمه لو جدتها ، فقال عمر : هو أشبه بك من القرباء بالقراب ،
ويبقى أن يودع كل منزل رجل عنه بركتين ويقول : اللهم زدني التقوى واغفر لي ذنوبي ووجهني للخير أينما
توجهت ، وروى أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينزل منزلا إلا ودعه بركتين ، فينبه
أن يودع كل منزل ورباط يرحل عنه بركتين ، وإذا ركب الدابة فاقبل : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له
مقرنين ، بسم الله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم أنت الظاهر
وأنت المستهان على الأمور . والسنة أن يرحل من المأزلة بكرة ويبتدىء بيوم الخميس . وروى كعب بن مالك قال : قلنا
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى السفر إلا يوم الخميس ، وكان إذا أراد أن يبيت سرية يهتأ أول النهار
ويستحب كلما أشرق على منزل أن يقول : اللهم رب السموات وما أظلل ورب الأرضين وما أقفل ، ورب الشياطين
وما أضلل ، ورب الرياح وما ذرين ، ورب البحار وما جرين : أسألك خير هذا المنزل وخير أهله ، وأعوذ بك من
شر هذا المنزل وشر أهله . وإذا نزل فليصل ركعتين ، ويمسك يميني للسفر أن يصيبه آفة الطهارة قيل : كان إبراهيم
الخواص لا يفرقة أربعة أشياء في الحضر والسفر : الركوة ، والحليل ، والإبره وخيرها ، والمقراض . وروى عائشة
رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر جمل معه خمسة أشياء : المرأة ، والمكحلة ، والمدرى ،
والسواك ، والمشط . وفي رواية : المقراض ، والصوفية لا تفرقهم المعنى ، وهي أيضا من السنة .

روى معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أتخذ منبراً فقد أتخذ إبراهيم ، وإن أتخذ المصا
فقد أتخذ إبراهيم وموسى ، وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال التزكو على المصا من أخلاق
الأنبياء ، كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عصا يتركها عليها ويأمر بالتزكو على المصا : وأخذ الركوة أيضا من السنة .
وروى جابر عن عبد الله قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ من ركوة إذ جهش الناس نحوه أي أسرعوا
نحوه ، والأصل فيه البكاء ، كالصبي يتلازم بالأم ويصرخ إليها عند البكاء ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

هـ مالم؟ قالوا: يا رسول الله ما نحب ما نشرب ولا نتوضأ به إلا ما بين يديك؛ فوضع يده في الزكرة، فظفرت وهو يغور من بين أصابعه مثل السيوف؛ قال: فتوضأ القوم منه. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة في غزوة الحديبية.

ومن سنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة: روى أبو سعيد قال: حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقالوا: اربطوا على أوساطكم بأزركم، فربطنا ومشينا خلفه المروءة.

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصلي ركعتين في أول النهار يوم السفر بكرة كما ذكرنا، ويودع البقة بالركعتين، ويقدم الحنف ويقضه، ويشمر الكم البني ثم اليسرى، ثم يأخذ الميائيد الذي يشده وسطه ويأخذ خريطة الناس ويقضها، ويأتي الموضع الذي يريد أن يلبس الحنف فيفرش السجادة طاقين ويحك نعل أحد الناسين بالآخر، ويأخذ المداس اليسار والخريطة باليمين، ويضع المداس في الخريطة أعقابها إلى أسفل ويشد رأس الخريطة، ويدخل المداس بيده اليسرى من كه الأيسر ويقضه خلف ظهره، ثم يقعد على السجادة ويقدم الحنف ويساره ويقضه، ويبتدي باليمنى فيلبس، ولا يدع شيئاً من الزان أو المظفلة يقع على الأرض، ثم ينسل يديه ويجعل وجهه إلى الموضع الذي يخرج منه ويودع الحاضر، فإن أخذ بعض الإخوان روايته إلى خارج الرباط لاتباعه، وهكذا العساو الإبريق، ويودع من شبعه، ثم يشد الراوية يرفع يده اليمنى ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن ويشد الراوية على الجانب الأيسر، ويكرن كفه الأيمن غالباً وعقدة الراوية عن الجانب الأيمن؛ فإذا وصل في طريقه إلى موضع شريف أو استقبله جمع من الإخوان أو شيخ من الطائفة يحل الراوية ويحفظها ويستقبلهم ويسلم عليهم، ثم إذا جازوه يشد الراوية، وإذا دنا من منزل - رباطاً كان أو غيره - يحل الراوية ويحفظها تحت إبطه الأيسر، وهكذا العساو والإبريق يسكن يساره، وهذه الرسوم استحسناها فقراء خراسان والجبل، ولا يتهدها أكثر فقراء العراق والشام والمغرب، ويجري بين الفقراء مشاحة في رعائتها؛ فمن لا يتهدها يقول: هذه رسوم لا تلام، والالتزام بهاوقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق. ومن يتهدها يقول: هذه آداب وضعتها المتقدمون، وإذا رأوا من يحل بها أو يوشى منها ينظرون إليه نظر الازدراء والحقارة وقال: هذا ليس بصوفي، وكلا الطائفتين في الإنكار يتعدون الواجب. والصحيح في ذلك أن من يتهدها لا ينكر عليه، فليس بمنكر في الشرع وهو آداب حسن. ومن لم يلزم بذلك فلا ينكر عليه فليس بواجب في الشرع ولا مندوب إليه. وكثير من فقراء خراسان والجبل يبلغ في رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإفراط، وكثير ما يحل بها فقراء العراق والشام والمناوبة إلى حديث يخرج إلى التفريط. والأليق أن ما ينكره الشرع وينكره وما لا ينكره ولا ينكر، ويجعل لتعاريف الإخوان أعذاراً ما لم يكن فيها منكر أو إخلال بمندوب إليه، والله الموفق.

الباب الثامن عشر: في القدوم من السفر ودخول الرباط والآداب فيه

يلبئى الفقير إذا رجع من السفر أن يستعيز بالله تعالى من آفات المقام كما يستعيز به من وعاء السفر. ومن النداء المأثور: اللهم إني أعوذ بك من وعاء السفر، وكآبة المقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد، وإذا أشرى على يله يريد المقام بها، يشير بالسalam على من بها من الأحياء والأموات ويقرأ من القرآن ما تيسر ويجعله هدية للأحياء والأموات ويكبر، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل من غزو أو حج يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيوان عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ويقول إذا رأى البلد: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً، ولو اغتسل كان حسناً اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث اغتسل لدخول مكة، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من طاب الأحراب ونزل المدينة نزع لأمته واغتسل، واستحم، ولا يغتسل في الوضوء ويتغلب ويستمد لقاء الإخوان بذلك؛ وينوي التبرك

بن هنالك من الأخياء والأموات ويرورم .

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « خرج رجل يزور أخاه في الله فأرصد الله بمدرجته ملكاً وقال : أين تريد ؟ قال : أزور فلاناً ، قال لقرابة ؟ قال : لا ، قال : لثمة له عندك تشكرها ؟ قال : لا ، قال فيم تزوره ؟ قال إني أحبه في الله ، قال : فإني رسول الله إليك بأنه يحبك بحبك إياه . »

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا دعا الرجل أخاه أوزاره في الله قال الله له : طيب وطالب بمشاك ، ويتبوا من الجنة منزلاً ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة » فيحصل للفقير فائدة الأخياء والأموات بذلك . فإذا دخل البلد يبتدئ بمسجد من المساجد يصل فيه ركعتين ، فإن قصد الجامع كان أكمل وأفضل . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد أولاً يصل ركعتين ثم دخل البيت والرباط للفقير بمنزلة البيت ، ثم يقصد الرباط فقصد الرباط من السنة ، على ما رووهنا عن طلحة رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف يزل على عريفه ، وإن كان لم يكن له بها عريف زل الصفة ، فكتت عن أنزل الصفة . فإذا دخل الرباط يقضى إلى الموضع الذي يريد نزح الخف فيه ، فيحل وسطه وهو قائم ، ثم يخرج الخريطة يساراً من كه اليسار ويحل رأس الخريطة باليمين ويخرج المداس باليسار ، ثم يضع المداس على الأرض ويأخذ الميائيد ويلقيها في وسط الخريطة ، ثم ينزع خفه اليسار ، فإن كان على الوضوء يقبل قدميه بعد نزح الخف من تراب الطريق والعرق ، وإذا قدم على السجادة يطوى السجادة من جانب اليسار ، ويمسح قدميه بما الفطوى ثم يستقبل القبلة ويصل ركعتين ، ثم يسلم ويحفظ القدم أن يبطأ بها موضع السجود من السجادة ، وهذه الرسوم الظاهرة التي استحسناها بعض الصوفية لا تتكرر على من يتقيد بها لأنه من استحسان الشيوخ ، وزيته الظاهرة في ذلك : تقيد المريد في كل شيء بهيئة مخصوصة . ليكون أبا متفقداً لحركاته غير قائم على حركة بنى قصد وعزيمة وأدب ، ومن أخل من الفقهاء بشيء من ذلك لا ينكر عليه ما لم يخل بواجب أو مندوب ؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقيدوا بكثير من رسوم المتصوفة ، وكان الشبان يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى النية في الأشياء غلط ، فدل الفقير بدخل الرباط غير مشمر أكامه ، وقد كان في السفر لم يشمر الأكام فينبه أن لا يتماطى ذلك لنظر الخلق حيث لم يخل يندوب إليه شرماً ، وكوناً الآخر يشمر الأكام بقيس ذلك على شد الوسط وشد الوسط من السنة كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوساطهم في سفرهم بين المدينة ومكة ، فتشيمير الأكام في معناه من الخفة والارتفاق به في المشي ، فمن كان مشدود الوسط مشمراً بدخل الرباط كذلك ، ومن لم يكن في السفر مشدود الوسط وأكان راكباً لم يشد وسطه ، فمن الصدق أن يدخل كذلك ، ولا يعتمد شد الوسط وتشيمير الأكام لنظر الخلق فإنه تكلف ونظر إلى الخلق ، ومبنى التصوف على الصدق وسقوط نظر الخلق ، وما ينكر على المتصوفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدون بالسلام ويقول المنكر ؛ هذا خلاف المندوب ، ولا يبنى للتنكر أن يبادر إلى الإنكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتدوه وتركهم السلام يحتمل وجوها ، أحدها : أن السلام اسم من أسماء الله تعالى وقد روى عنه ابن عمر قال : مر رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبول ، فسلم عليه فلم يرد عليه حتى كاد الرجل أن يتوارى ، فغضب يده على الحائط ومسح بها وجهه ، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ، ثم رد على الرجل السلام وقال : « إنه لم يمتني أن أرد عليك السلام إلا أني لم أكن على طهر ، وروى أنه لم يرد عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه ، وقال « إني كرهت أن أذكركه تعالى إلا على طهر » وقد يكون جمع من الفقهاء مصطحبين في السفر وقد يتفق لأحدهم حدث ، فلو سلم المتوضئ وأمسك المحدث طهر حاله ، فترك السلام حتى يتوضأ من يتوضأ ويقبل قدمه من ينسل ستراً الحال على من أحدث ، حتى يكون سلامهم على الطهارة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد يكون بعض المتبعين أيضاً على غير طهارة فيستمدحون بالسلام أيضاً بالطهارة ؛ لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وهذا من أحسن ما يذكر

من الوجه في ذلك . ومنها أنه إذا قدم يمانه الإخوان وقد يكون معه من آثار السفر والطريق ما يكره فيستعد بالوضوء والنظافة ثم يسلم يمانتهم . ومنها أن جميع الرباط أرباب مراقبة وأحوال ؛ فلو حج عليهم بالسلام قد يزعج منه مراقب ويتشوش يحافظ ، والسلام يتقدمه استئناس بدخوله واشتغاله بفلس القدم والوضوء وصلاة ركعتين ، فيتأهب لجمع له كما يتأهب لهم بعدمسابقة الاستئناس . وقال الله تعالى (حتى تستأنسوا) واستئناس كل قوم على ما يليق بحالهم ، ومنها أنه لم يدخل على غير بيته ولا هو بغريب منهم ، بل لم إخوانه والألفة بالنسبة العنوية الجامعة لهم في طريق واحد ، والمزول منزله والموضع موضعه ، فيرى البركة في استفتاح المنزل بمعاملة الله قبل معاملة الخلق ، وكما يهد عذرم في ترك السلام يبنين لهم أن لا ينكروا على من يدخل وببديء بالسلام ، فسكا أن من ترك السلام له نية فاذى ابتداء به له أيضاً نية .

ولقوم آداب ورد بها الشرع ، ومنها آداب استحسنها شيوخهم ، فما ورد به الشرع : ما ذكرنا من شد الوسط والمسا والركوة والابتداء باليمين لبس الخفوفى نزعها باليسار : روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا اتعلمت فأبدوا باليمين ، وإذا خلعتم فأبدوا باليسار أو اخلعهما جميعا أو اخلعهما جميعا ، روى جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخلع اليسرى قبل اليمنى ويلبس اليمنى قبل اليسرى . وبسط السجادة وردت به السنة وقد ذكرناه . وكون أحدم لا يقعد على سجادة الآخر مشروع ومسنون وقد ورد في حديث طويل لا يؤم الرجل الرجل في سلطانه ولا يقعد على بكرته إلا بإذنه .

وإذا سلم على الإخوان يمانتهم ويمانقره ، فقد روى جابر بن عبد الله قال : لما قدم جعفر من أرض الحبشة فأنته النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن قبلهم فلا بأس بذلك روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم جعفر بن عبد الله بن عيينه وقال : ما أنا بفتح خير أسر من يقدم جعفر ، ويصافح إخوانه فقد قال عليه السلام وقبلة المسلم أعاء للصاخة ، وروى أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله ، الرجل يلقى صديقه وأعاء ينحنى له ؟ قال : لا . قيل يارمه ويقبله ؟ قال : لا . قيل فيصاح ؟ قال نعم .

يستحب للفقراء المقيمين في الرباط أن يتلقوا الفقراء بالترحيب روى عكرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حشته : مرحبا بالراكب المهاجر ، مرتين . وإن قاموا إليه فلا بأس وهو مسنون روى عنه عليه السلام أنه قام لجعفر يوم قدمه .

ويستحب للخادم أن يقدمه الطعام روى لقريط بن صبرة قال وفدنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نصادفه في منزله وصادفنا عائش رضى الله عنها ، فأمرت لنا بالحريرة فصنع لنا ، وأتينا بقتناح فيه تمر - والقتناح الطبق - فأكنا ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أصبتم شيئا ؟ قلنا نعم يا رسول الله .

ويستحب للقادم أن يقدم الفقراء شيئا لحق التقدم ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة نخرج وروا كرامتهم لتقديم القادم بعد العصر وجهه من السنة منع النبي صلى الله عليه وسلم عن طرق الليل .

والصوفية بعد العصر يستمدون الاستقبال الليل بالطهارة والانتكباب على الأذكار والاستغفار روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قدم أحكم من سفر فلا يطرق أهله ليلا ، وروى كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدم من السفر إلا نهرا في الضحى ؛ فيستحبون التقدم في أول النهار ، فإن فات من أول النهار فقد يتفق تعويق من ضف بعضهم في المشي أو غير ذلك ، فيعذر الفقير بقية النهار إلى العصر لاحتمال التعويق ، فإذا صار العصر ينسب إلى تفصيله في الاهتمام بالسنة وقدم أول النهار فيأتيهم بكرهون الدخول بعد العصر والله أعلم ، فإذا صار العصر يؤخر التقدم إلى الغد ليكون عاملا بالسنة للتقدم شخصية ، وأيضا فيه معنى آخر وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة .

ومن الأدب أن يصلي القادم ركعتين ؛ فذلك يكرهون التقدم بعد صلاة العصر ، وقد يكون من الفقراء القادمين

من يكون قليل الدراية يدخل الرباط ويتأله دهشة : فن السنة التقرب إليه والتردد وطاعة الوجه حتى يتبسط وتنمب عنه الدهشة ، ففي ذلك فضل كثير

وروى أبو رفاعة قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطف فقلت : يا رسول الله ، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه ؟ قال : فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم وترك خطبته ، ثم أتى بكرسي قوامه من حديد فقدم رسول الله ثم جعل يملأني عما عليه الله ، ثم أتى خطبته وأتم آخرها . فأحسن أخلاق الفقراء الرفق بالمسلمين ، واحتياح المسكروه من السموم والرقى ، وقد يدخل فقير بعض الربط ويخل بشيء من مراسم التصوفة فيهرج ويخرج ، وهذا خطأ كبير ؛ فقد يكون خلق من الصالحين والأولياء لا يعرفون هذا الترميم الظاهر ويقصدون الرباط بنية سالحة ، فلذا استقبلوا بالمكره ونحى أن تفتش برأيتهم من الأذى ويدخل على المشرك عليه ضرر في دينه ودينه ؛ فليحذر ذلك وينظر إلى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وما كان يتممه مع الخلق من المداراة والرفق . وقد صرح : أن أعرابيا دخل المسجد وبأى ، فأمر النبي عليه السلام حتى أتى بذنوب فصب على ذلك لم ينهر الأعرابي ، بل رفق به وعزفه الواجب بالرفق واللين . والنظافة والتخلط والتسلط على المسلمين بالقول والفعل من النفوس الخبيثة وهو ضد حال المتصوفة ، ومن دخل الرباط من لا يصلح للقيام به رأسا يصرف من الموضع على اللطف وجهه بعد أن يقدم له طعام فيحسن له الكلام ، فهذا الذي يليق بسكان الرباط ، وما يعتمد الفقراء من تغيير القامد خلق حسن ومعاملة سالحة وردت به السنة ، روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلام له حقيق يغمر ظهره فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ فقال : إن الناقة اقتحمت في ، فقد يحسن الرضا بذلك من يغمر في وقت تعب وقدمه من السفر ؛ فأما من يتخذ ذلك عادة وبسبب التعمير ويستجيب به التوم ويساكنه حتى لا يفوته فلا يلبث بحال الفقراء . وإن كان في الشرع جائز . وكان بعض الفقراء إذا استرسل في الغمر واستلذه واستعداه يحتلم ؛ فيرى ذلك الاحتلام عقوبة استرساله في التغيير ، ولأرباب الزمام أمور لا يسهم فيها الركون إلى الرخص .

ومن آداب الفقير إذا استقر وقد بعد قدومه أن لا يبتدئ بالكلام دون أن يسأل ، ويستحب أن يكف ثلاثة أيام لا يقصد زيارة أو مشهدا أو غير ذلك مما هو مقصوده من المدينة حتى يذهب عنه وعاث السفر ويهدى باطنه إلى هيئته ؛ فقد يكون بالسفر وعوارضه تغير باطنه وتكدر حتى يجتمع في الثلاثة أيام منه ويصلح باطنه ويستدل لقاء المشايخ والزيارات بتقرير الباطن ؛ فإن باطنه إذا كان منورا يستمر في حظه من الخير من كل شيخ وأخ يزوره ، وقد كنت أسمع شيخنا يوصي الأصحاب ويقول : لا تسلكوا أهل هذا الطريق إلا في أصق أو قاسم ، وهذا فيه فائدة كبيرة ، فإن نور الكلام على قدر نور القلب ، ونور السمع على قدر نور القلب ، فإذا دخل على شيخ أو أخ وزاره ينبغي أن يستأذنه إذا أراد الانصراف ؛ فقد روى عدي بن عمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا زار أحدكم أخاه اجلس عنده فلا يقوم حتى يستأذنه ، وإن نوى أن يقيم أياما وفي وقته سمع ولتفسد إلى البطالة وترك العمل تقصوف أن يطلب خدمة يقوم بها ، وإن كان دائم العمل لربه فكفى بالعبادة شغلا لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة ، ولا يخرج من الرباط إلا بإذن المتقدم فيه ، ولا يفعل شيئا دون أن يأخذ رأيه فيه .

فهذه جملة أعمال يستمدها الصوفية وأرباب الربط ، والله تعالى بقضه يزيدكم توفيقا وتاديبا ؛

الباب التاسع عشر : في حال الصوفي للتسبب

اختلف أحوال الصوفية في الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب ؛ فهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم ولا يتسبب بكسب ولا سؤال ؛ ومنهم من كان يكتسب ومنهم من كان يسأل في وقت فاته ، ولهم في كل ذلك أدب وحذر واعتدال ولا يتعدونه ، وإذا كان الفقير يمس نفسه بالمعالي يأتيه الفهم من الله تعالى الذي يدخل فيه من سبب أو ترك سبب ، فلا ينبغي للفقير أن يسأل مهما أمكن ؛ فقد حدث النبي عليه الصلاة والسلام عن ترك السؤال بالترغيب (١٣) - ملحق كتاب الإحياء

والترهيب ، فأما الترغيب فإروى ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يضمن لي واحدة أنسكتل له بالجنة . قال ثوبان : قلت أنا قال : لأتأسل الناس شيئا ، فكان ثوبان تسقط علاقته سوطه فلا يأمر أحدا بئاوله وينزل هو ويأخذها . وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم حبلًا فيخطب على ظهره فيما كل ويتصدق خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه ، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى . أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل الحافظ المقدسي قال : أخبرني والدي قال أخبرنا أبو محمد الصيرفي ببغداد قال أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا علي بن الجعد قال حدثنا شعبة عن أبي حمزة قال سمعت هلال بن حصين قال : أتيت المدينة فنزلت دار أبي سعيد فضمني وإياها ، المجلس لحدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام فأصبح وقد عصب على بطنه حجرا من الجوع ، فقالت لي امرأتى : أمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أتاه فلان فأعطاه وأتاه فلان فأعطاه قال : فأنيته وقلت أئتمس شيئا فذهبت أطلب فأتيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضب ويقول : من يستغف بعبه الله ومن يستغني عنه الله ، ومن سألنا شيئا فرجناه أعطيناه وإسنيته ، ومن استغنى عنه واستغنى فهو أحب إلينا من سألنا ، قال فرجعت وما سألته فرزقتي الله تعالى حتى ما علم أهل بيت من الانصار أكثر أمولا منه .

وأما من حيث الترهيب والتحذير : فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله ، وليس في وجهه من علقه ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذي تزده إلا كلفا ولا كلفنا والفرقة والفرقة ، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يظن بكنهه فيعطى ، هذا هو حال الفقير الصادق ، والمتصرف الحق لا يسأل الناس شيئا ، ومنهم من يلوم لأحد بطلب يؤديه إلى حال يستحي من الله تعالى أن يسأله شيئا من أمر الدنيا إذا حمت النفس بالسؤال ترده الهيبة ويرى الإقدام على السؤال جرأة فيعطيه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال : كما نقل عن إبراهيم الخليل عليه السلام : أنه جاء جبريل وهو في الهواء ، قبل أن يصل إلى النار فقال هل لك من حاجة ؟ فقال أما إليك فلا ، فقال له فسل ربك ، فقال حسبي من سؤالي عليه بحالي . وقد يصف من مثل هذا فيسأل الله عبودية ولا يرى سؤال المخلوقين ، فيسوق الله تعالى إليه القسم من غير سؤال مخلوق .

بلتنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشيء لا تخلو تلك المطالبة إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه إليه ، فتنبه النفس له ، فقد تتطلع نفوس بعض الفقراء إلى ماسوف يحدث وكأنها تغير بما يكون ، وإما أن يكون ذلك عقوبة لذنوب وجد منه ، فإذا وجد الفقير ذلك ، وألحت النفس بالمطالبة فليقم ويصبر الوضوء ويصل ركعتين ويقول يارب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنب فاستغفر وأتوب إليك ، وإن كانت لرزق قدرته لي فعجل وصوله إلى ، فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقه وإلا فتذهب المطالبة عن باطنه ، فشان الفقير أن ينزل حاجته بالحق ، فلما أن برزقه الشيء أو الصبر أو يذهب ذلك عن قلبه ، فقه سبحانه وتعالى أبواب من طريق الحكمة وأبواب من طريق القدرة ، فإن فتح بابا من طريق الحكمة وإلا فيفتح بابا من طريق القدرة وبآيته الشيء بحرق المادة ، كما كان يأتي مرهم عليهما السلام (كلما دخل عليهما وجد عندهما رزقا قال يامرهم أن يأتوا الله) قالت هو من عند الله .

حكى عن بعض الفقهاء قال جمعت ذات يوم وكان سأل أن لا أسأل ، فدخلت بعض المحال ببغداد مجتازا متعرضا لعل الله تعالى يفتح لي على يد بعض عباده شيئا فلم يفتقر ، فتمت جالما فأقنأت في منأى فقال لي لذهب إلى موضع كذا - وعين الموضع - فمخرقة زرقا . فيها قطيعات أخرجهما في مصالحك ، فن تجرد عن المخلوقين وتفرغ بالله فقد نغرد بنى قادر لا يجره شيء يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء ، وأول من سأل نفسه يسألها الصبر الجليل فإن الصادق يحميه نفسه .

وحكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له : أريد حبة ، قال : فقلت له : ما تفعل بالحبة ؟ فذكر شهوة يشترها بالحبة ، ثم قال : عن ذلك أذهب واستقرض الحبة ، قال : قلت فمِم استقرضها من نفسك فهي أولى من أقرض . وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

إذا شئت أن تستقرض المال متفقا • على شهوات النفس في زمن العصر
فصل نفسك الإنفاق من كثر صبرها • عليك وإرقاها إلى زمن اليسر
فلن فصلت كنت التقي وإن أبت • فكل متون بعدها واسع المنبر

فلذا استفد الفقير الجهد من نفسه وأشرف على الضعف وتحققت الضرورة وسأل مولاه ولم يقدر له بشئ موقتة يضيق عن الكسب من شغلته بجاله ، فمئذ ذلك يقرع باب السب ويسأل : فقد كان الصالحون يفعلون ذلك عند فائتهم . نقل عن أبي سعيد الخراساني أنه كان يمد يده عند الحاجة ويقول : ثم شيء .
ونقل عن أبي جعفر الحداد وكان أستاذا للجنيد أنه كان يخرج بين المشاهير ويسأل من باب أو بابين ، ويكون ذلك معلوما على قدر الحاجة بعد يوم أو يومين .

ونقل عن إبراهيم بن آدم أنه كان يمتلكنا بجامع البصرة مدة وكان ينظر في كل ثلاث ليال ليلة ، وليلة إضراره يطلب من الأبواب .

ونقل عن سفيان الثوري أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل في الطريق : كنت أذكر لهم حديثا في الضيافة فيقدم لي الطعام فأتناول حاجتي وأترك ما بقي ، وقد ورد من جامع ولم يسأل فأت دخل النار ، ومن عنده علم وله مع الله حال لا يبايئ ببثل هذا بل يسأل بالملم ويمسكه عن السؤال بالملم .

وحكى بعض مشايخنا عن شخص كان مصرا على المصاعى ، ثم اتقه وتاب وحسنت توبته وصار له حال مع الله تعالى قال : عزمت أن أحج مع القافة فقلت أن لا أسأل أحدا شيئا وأكتفي بملء الله تعالى ، قال : فبقيت أياما في الطريق ، ففتح الله على بالماء والزاد في وقت الحاجة ، ثم وقف الأمر ولم يفتح الله على بشئ ، لمحت وعطش حتى لم يبق لي طاقة ، فنهضت عن المشي وبقيت متأخر عن القافة قليلا قليلا حتى مررت القافة ، فظننت نفسي : هذا الآن مني إلقاء النفس إلى التهلكة ، وقد منع الله من ذلك ، وهذه مسألة الاخطار أسأل ، فداخمت بالسؤال انبثت من باطن إنكار لمذه الحال . وقلت : عزيمة عقيدتنا مع الله لا تقتضيان إيماننا على الموت دون نقض عزمي ، قصصدت شجرة وقصدت في ظلها وطرحنت رأسي استطرأ لآلئها وذويعت القافة ، فبينما أنا كذلك إذ جاءني شاب متفاد بسيف وحركتي ، قصمت وفي يده إداوة فيها ماء فقال لي : اشرب ؛ فشربت ثم قعمت لي طعاما وقال : كل ، فأكلت ، ثم قال لي : أريد القافة ؛ فقلت : من لي بالقافة وقد عبرت ؟ فقال لي : قم ، وأخفيدي ومشي معي خطوات ثم قال لي اجلس بالقافة إليك تجيء ، جلست ساعة فإذا أنا بالقافة ورأيت متوجهة إلى . هذا شأن من يهمل مولاه بالصدق .

وذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله : أن بعض الصوفية أول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحل ما أكل المؤمن من كسب يده ، بأنه المسألة عند القافة ، وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفي ، وذكر أن جعفر الخلدی كان يحكي هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية ، ووقع لي وافته أعلم أن الشيخ الصوفي لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه ، وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة ، فهو من أحل ما يأكل إذا أجاب الله سؤاله وساق إليه رزقه . وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (رب اني لما أترأت إلى من غير فقير) قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : قال ذلك وإن خضرة البقل تراءى في بطنه من الطوال ، وقال عبد الباقر رحمه الله قالها وإنه محتاج إلى شئ ثمرة ، وروى عن مطرف أنه قال أما والله لو كان عندني الله شيء ما أتيت المرأة ولكن حله على ذلك الجهد ، وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلي عن العطار بأذى أنه قال في قول (إن لما أترأت إلى من غير فقير) لم يسأل الحكيم الخلق وإنما كان سؤاله من الحق ، ولم يسأل

غذاء النفس إنما أراد سكون القلب .

وقال أبو سعيد الخراز : الخلق مترددون بين ما لهم وبين ما إليهم ، من نظر إلى ماله تكلم بلسان الفقر ، ومن شامد ما إليه تكلم بلسان الخيال والفخر ، ألا ترى حال الكلام عليه السلام لما شامد خواص ما خاطبه به الحق كيف قال : أرى أنظر إليك ؟ ولما نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال : إني لما أنزلت إلى من خير فقير ؟ وقال ابن عطاء فنظر من العبودية إلى الربوبية خضع وخضع ، وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من الأنوار ، افتقار المبدل إلى مولاه في جميع أحواله ، لا افتقار سؤال وطلب . وقال الحسين فقير لما خصصني من علم اليقين أن ترقيني إلى عين اليقين وحقه ، ووقع والله أعلم في قوله (لما أنزلت إلى من خير فقير) أن الإنزال مشعر ببعده نبته عن حقيقة القرب فيكون الإنزال عين الفقر فأتبع بالهزل وأراد قرب اللذل ، ومن صبح فقره فققره في أمر آخرته كفقره في أمر دنياه ، ورجوعه إليه في الدارين وإياه يسأل حوائج الزلايين ، وتساوى هذه الحاجتان لاهله مع غير الله شغل في الدارين .

الباب العشرون : في ذكر من يأكل من الفئوح

إذا كل شغل الصوفي بالله وكل زهد لكال تقواه بحكم الوقت عليه يترك التسبب وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم ، فيزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويكون مقدمة هذا أن يفتح الله بابا من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطلقا عما هو منهى عنه في الشرع يبعد غيب ذلك في وقته أو يرميه ، كان يقول بعضهم إني لأعرف ذنبي في سوء خلق غلامى ، وقيل إن بعض الصوفية قرض الفار خضه فلما رآه تألم وقال .

لو كنت من مازن لم تستبح ليلى • بنو النيطحة من ذهل بن شيبانا

إشارة منه إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شيء استوجب به ذلك ، فلا يزال به المقابلات متعصنة التعريفات الإلهية حتى يتحصن بصدق المحاسبة وصفاء المراقبة عن تضيق حقوق العبودية ومخالفة حكم الوقت ، ويتجرد له حكم فعل الله ويتمشى عنده أفعال غير الله فيرى المعطى والمنع هو الله سبحانه ذوقا حالالاعلا وإيمانا ، ثم يتداركه الحق تعالى بالمعونة ويرفقه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى ، كما حكي عن بعضهم أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قبرة عمياء عرجاء ضعيفة فوقق متعجبا منها متفكرا فيما تأكل مع عجها عن الطيران والمشي والروية ، فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض وخرجت سكرجتان في إحداهما سمسم نقي وفي الأخرى ماء صافي فأكلت من السمسم وشربت من الماء ثم انشقت الأرض ونابت السكرجتان ، قال فلما رأيت ذلك سقطت عن فلي الاهتمام بالرزق فلذا أوقف الحق عبده في هذا المقام يزيل عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويرى الدخول في التسبب والتكسب بالسؤال وغيره وربة العوام ويصير مصلوب الاختيار غير متطلع إلى الأغيار ناظرا إلى فعل الله تعالى منتظرا لأمر الله ففناك إلى الأقسام ويفتح عليه باب الإنعام ، ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله وترصده ما يحدث من أمر الله تعالى مكاشفا له تجليات من الله تعالى بطريق الأفعال ، والتجلى بطريق الأفعال رتبة من القرب ومنه يترقى إلى التجلى بطريق الصفات ، ومن ذلك يترقى إلى تجلى النيات والإشارة في هذه التجليات إلى الرب في اليقين ومقامات في التوحيد شيء فوق شيء وشيء أسفى من شيء ، فالتجلى بطريق الأفعال يحدث صفو الرضا والتسليم ، والتجلى بطريق الصفات يكسب المحبة والأنس ، والتجلى بالذات يكسب الفناء والبقاء ، وقد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله فناء يمتنون به فناء الإرادة ، والمهوى والإرادة ألطف أقسام المهوى ، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر ، فأما الفناء الباطن وهو محر آثار الوجود عند لمان نور الشهود يكون في تجلى النيات وهو أكل أقسام اليقين في الدنيا ، فأما تجلى حكم النيات فلا يكون إلا في الآخرة وهو المقام الذى حظى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المراج ومنع عنه موسى

بلن تراق ، فليعلم أن قولنا في التجلي إشارة إلى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة فإذا وصل العبد إلى مبادئ أقسام التجلي وهو مطالعة الفعل الإلهي مجردا عن فعل سواء يكون تناوله الأقسام من الفتوح . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسئلة ولا إشراف فليأخذه وليوسع به في رزقه فإن كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو أحوج منه ، وفي هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره ، وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى ؟ ثم إذا أخذ منهم من يخرج به إلى المحتاج ومنهم من يقف في الإخراج أيضا حتى يرد عليه من الله علم خاص ليكون أخذه بالحق وإخراجه بالحق .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر قال : أخبرنا والدي الحافظ أبو الفضل المقدسي قال : أخبرنا أبو إسحق بن سعيد الحبال قال : أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن سعيد قال : أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن عمرو قال : أخبرنا يونس ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب قال : حدثنا عمرو بن الحارث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حبيب بن عبد المزي عن عبيد الله السدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى العطاء فأقول له أعطه يا رسول الله من هو أفقر مني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ قمطه أو لبدق به وما جاك من هذا المال وأنت غير مقشرف ولا سائل فخذ وما لا فلا تدبه نفسك ، قال سالم : فن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعليه . درج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصحاب بأوامر إلى رؤية فعل الله تعالى والخروج من تدبير النفس إلى حسن تدبير الله تعالى .

سئل سهل بن عبد الله التستري عن علم الحال قال : هو ترك التدبير ولو كان هذا في واحد لكان من أو تاد الأرض وروى زيد بن خالد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من جاء معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله فإنما هو شيء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه .

وهذا العبد الواقع مع الله تعالى في قبول ماساق الحق آمن بما ينشئ عليه ، إنما ينشئ على من يرد ، لأن من رد يأمن من دخول النفس عليه أن يرى بيمين الزهد ، في أخذه إسقاط نظر الحق تحققا بالصدق والإخلاص ، وفي إخراجه إلى الغير إثبات حقيقته ، فلا يزال في كلا الحالين زاهدا يراه الغير بيمين الرغبة لقلعة العلم بحاله ، وفي هذا المقام يتحقق الزهد في الزهد . ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه ، ومنهم من لا يعلم دخول الفتوح عليه ، فبهم من لا يتناول من الفتوح إلا إذا تقدمه علم بتعريف من الله إياه . ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرد له الفعل ، ومن لا ينتظر مقدمة العلم فوق من ينتظر مقدمة العلم تمام محبته مع الله والسلاخه من إرادته وعلم حاله في ترك الاختيار ومنهم من يدخل الفتوح عليه لا بمقدمة العلم ولا رؤية تجرد الفعل من الله ، ولكن برزق شرابا من ناحية بطريق رؤية النعمة ، وقد يتكدر شرب هذا بتغير مهبود النعمة ، وهذا حال ضعيف بالإضافة إلى الحالين الأولين لأنه علة في المحبة وليجة في الصدق عند الصديقين . وقد ينتظر صاحب الفتوح العلم في الإخراج أيضا كما ينتظر في الأخذ لأن النفس تظهر في الإخراج كما تظهر في الأخذ . وأهم من هذا من يكون في إخراجه مختارا أو يأخذ مختارا بعد تحققة بصحة التصرف فإن انتظار العلم إنما كان لموضع اتهام النفس وهو بقية هوى موجود فلذا زال الاتهام بوجود صريح العلم بأخذ غير محتاج إلى علم متحدد ويخرج كذلك ، وهذه حال من تحقق بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : حاكيا عن ربه ، فإذا أحببت كنت له سمعا وبصيرا ، فبى يسمع وبى يبصر ، وبى ينطق ، الحديث فلما صح تعرفه صح تعرفه ، وهذا أعز في الأحوال من الكبريت الأحمر . وكان شيخنا ضياء الدين أبو العجب السهروردى رحمه الله يحكى عن الشيخ حماد الدباس أنه كان يقول : أنا لا أكل إلا من طعام الفضل فكان يرى الشخص في المنام أن يعمل إليه شيئا وقد كان يمين للرائى في المنام أن أحل إلى حاد كذا وكذا . وقبل أنه يبق زمانا يرى مو في واقته أو منامه إنك أحلست على فلان بكذا وكذا . وحكى عنه أنه كان يقول : كل جسم ترى بطعام الفضل لا يتسلط عليه البلاء . وببنى بطعام الفضل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق ومن كانت هذه حاله فهو غنى باه .

قال الواسطي: الافتقار إلى الله أعلى درجة للمريد والاستغناء بالله أعلى درجة للصديقين . وقال أبو سعيد الخزاز: المعارف تدبيره فني في تدبير الحق فالواقف مع الفتوح واقف مع الله ناظر إلى الله ، وأحسن ما حكى في هذا : أن بعضهم رأى الثوري يمد يده ويسأل الناس : قال : فاستظلمت ذلك منه واستجبته له فأنيبت الجنيد وأخبرته فقال لا لا يعظم هذا عليك فإن الثوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يظنهم وقول الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم اليد العليا يد الأخذ لأنه يعطي الثواب ، قال : ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فالتفتاها على المائة ثم قال أحملها إليه فقلت في نفسي إنما وزن لي عرف مقدار ما فكيف خطط المجبول بالموزون وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة إلى الثوري فقال : هات الميزان فوزن مائة درهم وقال : ردما وقال له أنا لأؤبل منك شيئا وأخذ ما زاد على المائة قال: فراد تعجب فسألته عن ذلك ، فقال : الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الجبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا للثواب وطرح عليها قبضة بلا وزن فقه أخذت ما كان لله ورددت ما جعله لنفسه ، قال : فرددتها على الجنيد فبكي وقال : أخذ ما له ورد ما لنا ، ومن لطائف ما سمعت من أصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه : نحن محتاجون إلى شيء من المعلوم فارجعوا إلى خلواتكم واسألوا الله تعالى وما يفتح الله تعالى لكم اتقوا به ففعلوا ثم جاءهم من بينهم شخص يعرف بإسميل البطاخي ومعه كاع قد عليه ثلاثون دائرة وقال هذا الذي فتح الله لي في واقعي فأخذ الشيخ الكاع فلم يكن إلا ساعة فإذا بشخص دخل ومعه ذهب فقدمه بين يدي الشيخ ففتح القرباس وإذا هو ثلاثون صحيفة فترك كل صحيفة على دائرة وقال : هذا فتوح الشيخ لإسماعيل أو كلاما هذا عنده . وسمعت الشيخ عبد القادر رحمه الله يبعث إلى شخص وقال : لفنان طعام وذبح اتقني من ذلك بكذا ذمبا وكذا طعاما ، فقال الرجل : كيف أقصرك في وديعة عندي ولو استفتيتك ما أفتيتني بالتصرف ؟ فأقره الشيخ بذلك فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذي طلب ، فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب من صاحب الوديعة وهو غائب في بعض نواحي العراق أن أحمل إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا وهو القدر الذي عيته الشيخ عبد القادر ، فمات به الشيخ بعد ذلك على توفقه وقال طئنت بالقرآن أن إشاراتهم تكون على غير صحة وعلم فالعبد إذا صح مع الله تعالى أتى هو ما يطلبه الله تعالى يرفع الله عن باطنه هموم الدنيا ويجعل الغنى قلبه ويفتح عليه أبواب الرفق ، وكل المعلوم للسلطة على بعض الفقراء لكون قلوبهم ما استكملت الشغل بالله والاهتمام برعاية حقائق العبودية ، فعلى قدر ما خلص من المهم بالله ابتليت بهم الدنيا ولوا امتلات من هم الله ما عذب بهموم الدنيا وقتت وارتقت ، وروى أن عرف بن عبد الله المسعودي كان له ثلثمائة وستون صديقا وكان يكون عند كل واحد يوما ، وآخر كان له ثلاثون صديقا وكان يكون عند كل واحد يوما ، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند واحد ؛ فكان إخوانهم معلومهم والمعلوم إذا أقامه الحق الناظر إلى الله الكامل توحيد يكون نعمة هائلة . جاء رجل إلى الشيخ أبي السعود رحمه الله - وكان من أرباب الأحوال السنية والواقفين في الأشياء مع فعل الله تعالى متمكنا من حاله تاركا لاختياره ؛ ولعله سبق كثيرا من المتقدمين في تحقيق ترك الاختيار ، رأينا منه وشاهدنا أحوالا صحيحة عن قوة وتمكين - فقال له الرجل أريد أن أعين لك شيئا كل يوم من الخير أحله إليك ولكي قلت الصوفية يقولون للمعلوم شؤم قال الشيخ نحن ما نقول للمعلوم شؤم فإن الحق يصني لنا وفعله نرى فكل ما يقسم لنا نراه مباركا ولا نراه شوما . أخبرنا أبو زوزة بإجازة قال أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن خلف الشيرازي بإجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلي قال سمعت أبا بكر بن شاذان قال سمعت أبا بكر الكتاني قال كنت أنا وعمرو المسكي وعياشي بن المهدي نصطحب ثلاثين سنة نصل النخلة على طهر البصر ، وكنا فمردا بمكة على التجرد ما نأكل الأرض ما يساوي فلما ؛ وربما كان يصحبنا الجوع يوما ويومين وثلاثة وأربعة وخمسة ولانسال أحدا فإن ظهر لنا شيء وعرفنا وجهه من غير سؤال ولا تريض قبلناه وأكلناه ولإطربنا ؛ فلذا اشتد بنا الأمر وخضنا على أنفسنا نقصان في القرائض قصدنا أبا سعيد الخزاز فيتحذلنا ألوانا من الطعام ولا تصد غيره ولا تنقبض إلا إليه لما نعرف من تقواه

وورعه ، وقيل لابي يزيد : ما تارك تشتغل بكسب فمن أين معاشك ؟ فقال : مولاي يرزق الكلب والخنزير ليرزق أبا يزيد ؟ قال السلي : سمعت أبا عبد الله الرازي يقول سمعت مظهرا التوميني يقول : الفقير الذي لا يكون له إلى الله حاجة ، وقيل ليهضم ما الفقر ؟ قال : وقوف الحاجة على القلب ومحوها من كل أحد سوى الرب .

وقال بعضهم : أخذ الفقير الصدقة من بطنه لا من قلبه إلى يده ، ومن قبل من الرسائل فهو المرمس بالفقر مع دناءة حمة ، أنبأنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي قال : أخبرنا عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصغار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلي قال سمعت أحمد بن علي بن جعفر يقول : سمعت أن أبا سليمان الفارابي كان يقول : آخر أقدام الزاهدين أول أقدام التوكلين ، روى أن بعض المكارفين زهد فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار وقال : لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتي يرزقني فأخذ يسبح فأقام في سجع جبل سبعاً لم يأت به شيء حتى كاد أن يتلف فقال : يارب إننا أحببتني فأنتي رزقتني الذي قسمت لي وإلا فأناضني إليك فألمه الله تعالى في قلبه وعزى وجلال لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس ؛ فدخل المدينة وأقام بين ظهراني الناس لجماء هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب فأوجس في نفسه من ذلك فسمع هائفاً أردت أن تبطل حكمتك بهذا الدنيا ، أما عدت أن يرزق العباد بأيدي العباد أحب إليه من أن يرزقهم بأيدي القدرة فالواقع مع الفتوح استوى عند الأديمين وأيدي الملامكة واستوى عنده القدرة والحكمة وطالب الفغار والتوصل إلى قطع الأسباب من الارتكان برؤية الأسباب وإذا صمحت توحيد ثلاث الأسباب في عين الإنسان أخبرنا شيخنا قال أخبرنا أبو حفص عمر قال أخبرنا أحمد بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال أخبرنا محمد بن أحمد بن حمدان الكبري قال سمعت أحمد بن محمود بن اليسري يقول سمعت محمد الإسكافي يقول سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول : من استفتح باب المعاش بغير مفااتيح الأفراد وكل إلى الخلوقين ، قال بعض القطيعين كنت ضامعة جليلة فأريد من تركها لحاك في صدرى من أين المعاش ؟ فتهتف في هائف لأراه تقطع إلى وتتهنى في رزقك على أن أخذمك ولينا من أوليائي أو أسحر لك منافقا من أعدائي ، فلما صبح حال الصوفي وانقطعت أطباعه وسكنت عن كل تشوف وتطلع خدمته الدنيا ، واصلحت له الدنيا غادمة وما رضىها غدومة ، فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتشوف جنابة وذنباً .

روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فأشترى دقيقاً ولم يكن في ذلك الموضع من يحمله فوافي أيوب الخيال لحمله ودفع إليه أحد أجرته فلما دخل النار بعد إذنه له اتفق أن أهل النار قد خبروا ما كان يتقدم من الدقيق وتركوا الخبر على السرير ينشف فراه أيوب وكان يصوم الدهر ، فقال أحد دلائه صالح ادفع إلى أيوب من الخبر فدفع له رغيغين فردهما ، قال أحد منهما ثم صبر قليلاً ثم قال خذهما فالحقه بهما فالحقه فأخذهما فرجع صالح متجنباً فقال له أحد عجبت من رده وأخذته ؟ قال نعم ، قال هذا رجل صالح فرأى الخبر فاستقرت نفسه إليه فلما أعطياه مع الاستشراق رده ثم أيسر فردناه إليه بعد الإياس فقبل هذا حال أرباب الصدق إن سألوهم أو سألواهم وإن أسكوا عن السؤال أسكوا بحال ، وإن قبلوا قبلوا بلم فمن لم يرزق حال الفتوح فله حال السؤال والكسب بشرط العلم فما السائل مستكثر فوق الحاجة لاني وقت الضرورة فليس من الصوفية بشيء سمع عمر رضي الله عنه سأل أبا إسحاق فقال له عنده ألم أقل لك عش السائل ؟ فقال قد عشيته ؛ فنظر عمر فلما تحت إبطه حيلة معلومة خبراً ؟ فقال عمر ألك عيال ؟ فقال لا ، فقال عمر لست بسائل ولكك تاجر ، ثم نشر خللاته بين يدي أهل الصدقة وخزبه بالدره وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال إن الله تعالى خلقه مثنى ثبات فقر وعقوبات فقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مشرباً أن يحسن خلقه ويطيع ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علامة الفقر إذا كان عتوباً أن يسوء خلقه ويصمى ربه ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء خلال الصوفية حسن الأدب في السؤال ، والفتوح والصدق مع الله على كل حال كيف تطلب .

الباب الحادى والعشرون

فى شرح حال التجرد والتأمل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصوفى يتزوج كما يتجرد ، فلنجرده مقصداً وأوان ، ولتأمله مقصداً وأوان ، والصادق يعلم أن التجرد والتأمل لأن الطبع المألوف للصوفى ملجم بلجام العلم . مهما يصلح له التجرد لا يستعجله القطع إلى الزوج ولا يقدم على الزوج إلا إذا انصلحت النفس واستحقت إدغال الرقيق عليها ؛ وذلك إذا صارت متقادة مطروعة بحجة إلى ما يرادها بمثابة الطفل الذى يتعاهد بما يروق له ويمنع عما يضره . فإذا صارت النفس محكومة مطروعة فقد قامت إلى أسرارها وتصلت عن مشاحة القلب فيصلح بينهما بالعدل وينظر في أمرهما بالتسقط . ومن صبر من الصوفية على العزوبة هذا الصبر إلى حين بلوغ الكتاب أجله ينتخب له الزوجة انتخاها ويحيى الله لها عوانا وأسباباً وينعم برفيق يدخل عليه وورق يساق إليه ومن استمحل للبرد واستغفزه الطبع وعاسره الجهل يثوران دعان الشهوة الماطة لتضامع العلم وانحط من أوج العزيمة الذى هو قضية حاله وموجب إرادته وشريطة صدق طلبه إلى حضيض الرخصة التى هى رحمة من الله تعالى إمامة خلفه يحكم عليه بالتقصان ويشهد له بالخمران ومثل هذا الاستمجال هو حضيض الرجال . قال سهل بن عبد الله التستري : إذا كان للبرد مال يتوقع به زيادة فدخل عليه الابتلاء فرجعه عن الابتلاء إلى حال دون ذلك نقصاناً وحدث . وسمعت بعض الفقهاء ، وقد قيل له : لم لا تزوج ؟ فقال : للمرأة لا تصلح إلا للرجال وأنا ما بلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج ؟ فالصادقون لهم أوان بلوغ عهده يتزوجون .

وقد تمارضت الأخبار وتماثلت الآثار فى فضيلة التجريد والتزوج وتوقع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك لتزوج الأحوال ، ففهم من فضيلته فى التجريد ، ومنهم من فضيلته فى التأمل ، وكل هذا التعارض فى حق من تارة توفاه برد وسلام لكأل تقواه وقهره هواه ، وإلا ففى غير هذا الرجل الذى يجب عليه الفتنة يجب النكاح فى حال الثوران المفرط ويكون الخلاف بين الأئمة فى غير التائق فالصوفى إذا صار متأهلاً يتعين على الإخوان معاوته بالإيتار . ومما سمعته فى الاستكثار إذا رأى ضعيف الحال قاصراً عن ربه الرجال كما وصفنا من صبر حتى ظفر لما بلغ الكتاب أجله ، أخبرنا أبو زرعة عن والده أبى الفضل المقدسى الحافظ قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الحطيب قال أخبرنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن أخى ميمى قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز ، قال : حدثنا محمد بن هرون قال : أنبأنا المنيرة قال حدثنا صفوان بن عمرو قال حدثنا عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن عوف بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه فيه قسمة فى يومه فأعطى المتأمل حظين والعزب حظاً واحداً ، فذعينا وكنت ادعى قبل عمار بن ياسر فأعطاني حظين ، وأعطاه حظاً واحداً فسخط حتى عرف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه ومن حضره ، فقيمت معه سلسلة من ذهب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفنها بطرف عصاه وتسقط وهو يقول : كيف أتم يوم يكفر لكم من هذا ؟ فلم يجبه أحد ، فقال عمار : ودنا يارسول الله لوقد أكثر لنا من هذا ، فالتجرد عن الأزواج والأولاد أعون على الوفاء للفقير وأجمع لهمه والأندلسيه ويصلح للفقير فى ابتداء أمره قطع الملاقى ومحو الموائق والتثقل فى الأسفار وركوب الأخطار والتجرد عن الأسباب والخروج عن كل ما يكون حجاباً ، والتزوج انعطاط من العزيمة إلى الرخص ووجوع من التروح إلى النقص وتقييد بالأولاد والأزواج ودوران حول مظان الأعرجاج والتفتات إلى الدنيا بعد الوعدة والاعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة ، قال أبو سليمان الناباذي : ثلاث من ظلمن فقد ركن إلى الدنيا ، من طلب معاشاً أو تزوج امرأة أو كتب الحديث ، وقال : ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج ثبتت على مرتبته . أخبرنا الشيخ طاهر قال أخبرنا والدى أبو الفضل قال أخبرنا محمد بن إسماعيل الحمري قال أخبرنا أحمد بن الحسن قال أخبرنا حاجب الطرسى قال : حدثنا عبد الرحيم قال حدثنا الفزارى عن سليمان التيمي عن أبى عثمان النهدي عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، ما تركت بشيء أشد على الرجال من النساء ، وروى جهم بن حيرة عن معاذ بن جبل ، قال : ابتلينا بالظراء فصبونا وابتلينا بالسراة فلم نصبر وإن أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسوون بالذهب ولبس ربط الشام وعصب العين وألعين الفتي وكفن التقير ما لا يجد . وقال بعض الحكماء معالجة الزوجة خير من معالجة النساء ، وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال : الصبر عنهن خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقيل في تفسير قوله تعالى (خلق الإنسان ضيعا) لأنه لا يصبر عن النساء وقيل في قوله تعالى (ربنا ولا نجعلنك لما طاعة لنا به) العلة .

فإن قدر الفقير على مقاومة النفس وورق العلم الوافر بحسن المعاملة في معالجة النفس ومبرعين فقد حاز الفضل واستعمل العقل ، واهتدى إلى الأمر السهل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خيركم بعد للماتين رجل خفيف الحاذ ، قيل يا رسول الله وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذي لا أهل له ولا ولد ، وقال بعض الفقهاء : لمناخيل له زوج - أنا إلى أن أطلق نفسي أحوج مني إلى الزوج ، وقيل لبشر بن الخارث : إن الناس يتكلمون فيك فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك السنة - يعني التكاح - فقال : قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة . وكان يقول : لو كنت أعول دهاجة خفت أن أكون جلادا على الجسر .

والصوفي مبتل بالنفس ومطالبها وهو في شغل شاغل عن نفسه ، فإذا انضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته يضعف طلبه وتكلم إرادته وتفترع عيته . والنفس إذا أطعمت طمعت ، وإذا أقنعت قنعت ، فيستعين الشاب الطالب على حسم مراد خاطر التكاح بإدامة الصوم ، فإن للصوم أثر ظاهر في قلع النفس وفهرها ، وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سر به جماعة من الشبان وهم يرفعون الحجارة فقال : يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء ، أصل الوجاء رض المحصنين ، كانت العرب تجأ الفحل من الغنم لتذهب طيرته ويسمن ، ومنه الحديث : ضي رسول الله صلى الله عليه وسلم بكهشين المحصنين موجودين ، وقد قيل هي النفس إن لم تنهها فشلتك ، فإذا دام الشاب المريد العمل وأدب نفسه في العبادة تقل عليه خواطر النفس ، وأيضا شغلته بالعبادة يثمر له حلاوة المعاملة ، ومحبة الإكثار منه ، ويفتح عليه باب السهولة والعيش في العمل فينار على حاله ووقته أن يتكسر بهم الزوجة

ومن حسن أدب المريد في عزوبته أن لا يمكنه خواطر النساء من باطنه ، وكذا خطر له خاطر النساء والشهوة يفر إلى الله تعالى بحسن الإجابة فيتداركه الله تعالى حيث تزد قوة العزيمة ويؤيده بمراحمته النفس ؛ بل ينمكس على نفسه نور قلبه ثوابا لحسن إجابته فتسكن النفس عن المطالبة ، ثم يعرض على نفسه ما يدخل عليه بالكآبة من الدخول في المداخل المذمومة المؤدية إلى الفل والخوان ، وأخذ الشيء من غير وجهه ، وما يتوقع من التواطع بسبب التفتات الحاطل إلى ضبط المرأة وحراستها والكف التي لا تنحصر . وقد سئل عبد الله بن عمر عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال وقلة المال وقد قيل كثرة العيال أحد الفقرين ، وقلة العيال أحد اليسارين . وكان إبراهيم بن آدم يقول : من تردود أخذ النساء لا يفلح ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرافمية والدعة ، وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ويسقط على الباطن خوف الفقر ومحنة الادخار ، وكل هذا بعيد عن المتجرد ، وقد ورد : إذا كان بعد الماتين أبيحت الزوجة لأمن ، فإن تواتت على التقير خواطر التكاح ، وزاحت باطنه سباني الصلاة والأذكار والتلاوة فليستمن بالله أولا ثم بالمشايخ والإخوان ، ويشرح الحال لهم ويسألهم مسألة الله في حسن الاختيار ، ويظفر على الأعياء والأموال والمساجد والمشاهد ويستظم الأمر ولا يدخل فيه بقلة الاكثرات فإنه باب فتنة كبيرة ونظر عظيم وقد قال الله تعالى (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) ويكثر العنارة إلى الله تعالى ويكثر البكاء بين يديه في الخلوات ويكرر الاستخارة ، وإن رزق القوة والصبر حتى يستيقن له من فضل الله الخيرة في ذلك فهو السكال والتميم بقدره . يكشف الله تعالى للصادق ذلك منما أو اطلاقا في منابه ، أو يقظته ، أو على لسان من يشق إلى دمه ، وسأله أنه إذا

أشار لأبيسر إلا على بصيرة ، وإذا حكم لا يحكم إلا بحق فمقد ذلك يكون تزوجه مدبرا معناه فيه . ومعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلي قال له بعض الصالحين : لم تزوجت ؟ فقال : ما تزوجت حتى تأتلي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج ؛ فقال له ذلك الرجل : الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخص وطريق القوم التلزم بالزمية . فلا أعلم ما قال الشيخ في جوابه ولكني أقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخصة وأمره على لسان الشرع ، فأما من التجأ إلى الله تعالى وافترى إليه واستخاره فيكاشفه الله بتدبيره إياه في منامه ، وأمره هذا لا يكون أمر رخصة بل هو أمر يتجه أبواب الزمية لأنه من علم الحال لا من علم الحكم ، ويدل على صحة ما وقع لي - ما نقل عنه - أنه قال : كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أجتري على التزوج خوفا من تكدير الوقت فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله لي أربع زوجات مائتين إلا من تتفق على إزاده وروعة ، فهذه ثمرة الصبر الجليل الكامل فلذا صبر الفقير وطلب الفرج من الله بآية الفرج والمخرج (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فلذا تزوج المقير بعد الاستقصاء والإكثار من الصراعة واللباء . وورد عليه وورد من الله تعالى يأذن فيه فهو الغاية والنهاية . وإن عجز عن الصبر إلى ورود الإذن واستغند جهده في الدماء والصراعة فقد يكون ذلك حظه من الله تعالى ، ويمان عليه لحسن نيته وصدق مقصده ، وحسن رجائه واعتاده على ربه ، وقد نقل عن عبيد الله بن عباس أنه قال : لا يتم لسلك الشاب حتى يتزوج . ونقل عن شيخ من مشايخ خراسان أنه كان يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو عن زوجتين أولاث ؛ فموتت في ذلك فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف وقفة في معاملته غلط على قلبه خاطر شهوة ؟ فقالوا : قد بصيننا ذلك ؛ فقال : لو وضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد ما تزوجت قط ، ولكني ما خطر على قلبي خاطر شهوة قط شغلني عن حال إلا نفضته لأستريح منه وأرجع إلى شغلي ، ثم قال منذ أربعين سنة ما خطر على قلبي خاطر معصية ، فالتصاقرت ما دخلوا في النكاح إلا على بصيرة ونصدرا جسم مواد النفس وقد يكون للأقوياء والمعلماء الراستخين في العلم أحوال في دخولهم في النكاح تختص بهم وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والمراقبات والرياضات تطعن نفوسهم وتقبل قلوبهم ، والقلوب إقبال وإدبار .

يقول بعضهم : إن القلوب إقبال وإدبار ، فلذا أدبرت ورحت بالإرقاق ، وإذا أقبلت ردت إلى الميثاق فتبقى قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير . ولا يلدوم إقبالها إلا لطمأنينة النفوس وكفها عن المنازعة ، وترك التشتيت القلوب فلذا اطمانت النفوس واستقرت عن طيشها ونفورها وشراستها توفرت عليها حقوقها ، ووجه بصير من حقوقها حظوظها . لأن في أداء الحق إقتضا ، وفي أخذ الحظ إقتضا ، وهذا من دقيق علم الصوفية ، فلمنهم يتسعون بالنكاح المباح إقبالا إلى النفس حظوظها لأنها ما زالت تخالف هواها حتى صار دائها دواها ، وصارت الشهوات المباحة والذات المشروعة لا تضرها ولا تنفع عليها أعراؤها ، بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحا وانفساحا ، ويصير بين القلب والنفس موافقة يعطف أحدهما على الآخر ويزداد كل واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ ، كلما أخذ القلب حظه من الله خلع على النفس خلع الطمأنينة فيكون مزيد السكينة للقلب مزيد الطمأنينة للنفس وينشئ :

إن السماء إذا اكتست كست الثرى • حللا يدهجها الضمام الزام

وكذا أخذت النفس حظها تروح القلب تروح الجوار المشفق براحة الجوار . سمعت بعض الفقهاء يقول : النفس تقول للقلب كن معي في الطعام أكن معك في الصلاة ، وهذا من الأحوال العزيزة لا تصلح إلا للعالم واني ، وكل من مدع بهلك بتومه هذا في نفسه ، ومثل هذا البديرداد بالنكاح ولا ينقص ، والبيد إذا كل دله يأخذ من الأشياء ولا يأخذ الأشياء منه ، وقد كان الإنجليزي يقول : أنا أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام .

وسمع بعض العلماء بعض الناس يطمئن في الصوفية فيقال : يا هذا ما الذي ينقصهم عندك ؟ فقال : يا كاهن كثيرا ،

فقال : وأنت أيضا لو جمعت كما يجوعون أكلت كما يأكلون . ثم قال : ويتزوجون كثيرا ، قال : وأنت أيضا لو حفظت فرجك كما يحفظون تزوجت كما يتزوجون ، قال : وأي شيء أيضا ؟ قال : يسمعون القول ، قال : وأنت أيضا لو نظرت كما ينظرون سمعت كما يسمعون .

وكان سفيان بن عيينة يقول : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية ، وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول : خير هذه الأمة أكثرها نساء . وقد ذكر في أخبار الأنبياء أن عابدا يتبتل للعبادة حتى فاق أهل زمانه فذكر لبي ذلك الزمان فقال : نعم الرجل لو أنه تارك لشيء من السنة ؛ فمضى ذلك إلى العابد فأمه فقال : ما تمنى عبادي وأنا تارك السنة ؛ فجاء إلى النبي عليه السلام فسأله فقال : نعم إنك تارك الزوج ؛ فقال ما تركته لأنني أحرمه وما تمنى منه إلا أني فقير لأمي ولوالدي عيال على الناس يطعمني هذا مرة وهذا مرة فأكره أن أتزوج بإمرأة أعزلها أو أرهقها جهدا ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : وما يمنعك إلا هذا ؟ قال : نعم فقال : أنا وأزوجك باق في وجه النبي عليه السلام ابنته وكان عبدالله بن مسعود يقول لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام أحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزابا وما ذكر الله تعالى في القرآن من الأنبياء إلا المتأهلين . وقيل إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج لأجل السنة ولم يكن قريبا وقيل إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل إلى الأرض ويولد له . وقيل إن ركنة من متأهل خيرة سبعين ركنة من عرب أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل قال أخبرنا أبو منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الهيثم القوي القزويني قال أخبرنا أبو طلحة القاسم بن أبي البدر الخطيب قال حدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطان قال حدثنا أبو عبدالله بن محمد بن يزيد بن ماجه قال حدثنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا آدم قال حدثنا عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة رضي الله عنه قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : التكاثر سقى فن لم يعمل بسقى فليس من قتر وجوا غنى مكاتبكم الأمم ، ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصيام ، فإن الصوم له وجاء ، وما ينبغي للتأهل أن يحذر من الإفراط في المخالطة والمعاذرة مع الزوجة إلى حد يقطع عن أوراده وسياسة أوقاته ، فإن الإفراط في ذلك يقرى النفس وجنودها ويفتر ناهض المهمة . وللتأهل بسبب الزوجة فتنتان فتنه لعموم وفتنه لخصوص حاله فتنه عموم حاله الإفراط في الاهتمام بأسباب المعيشة ، كان الحسن يقول : واه ما أصبح اليرم رجل يطبع امرأته فيأثر في إلا أكبه الله على وجهه في النار . وفي الخبر : يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يذوخته وأبو هو كده يعمونه بالفقر ويكلفونه ما لا يطيق فيدخل في الداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك . . وروى أن قوما دخلوا على يونس عليه السلام فأصافهم ، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستعيل عليه وهو ساكت ، فمضبوا من ذلك وهابوه أن يسأله فقال لا تمجبوا من هذا فإني سألت الله فقلت يارب ما كنت معاقبه في الآخرة فجعلني في الدنيا فقال إن عقوبتك بذي فلان تزوج بها فتزوجت بها ، وأنا صابر على ما زون ، فلذا أفرط الفقير في المداواة بما تعدى حدا الاعتدال في وجوه المعيشة متعلبا رضا الزوجة فهذا فتنه عموم حاله . وفتنه لخصوص حاله الإفراط في الجمالة والمخالطة فتطلق النفس عن قيد الاعتدال وتشرق الأرض بطول الاسترسال فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغفلة ، ويستجلس مقار المهلة فيقول الوارد لفة الأوراد ويتذكر الحال لإهمال شروط الأعمال والطرف من هذين الفتنتين فتنه أخرى تختص بأهل القرب والحضور وذلك أن النفوس امتزاجا وبرابطة الامتزاج تمتد وتشتد وتنطري طبيعتها الجمادة وتلقب نارها الجامدة ، فدواء هذه الفتنه أن يكون للتأهل عند الجمالة عيتان باطنان ينظرهما إلى مولاه وعيتان ظاهران يستعملهما في طريق هواه ، وقد قالت رابعة في معنى هذا لفظاً :

إني جعلت لك في القواد عتقاً . وأجبت جسمي من أراد جلوسى

فأجسم من للجليس مؤانس . وحبيب قلبي في القواد أنيسى

والطيف من هنا فتنه أخرى يخشاها المتأهل ، وهو أن يصير للروح استرواح إلى لطف الجمال ، ويكون ذلك

الاسترواح موقفاً على الروح ، ويصير ذلك وليجة في حب الروح المخصوص بالتهلق بالحضرة الإلهية ، فتبدل الروح ويغدو باب المزيد من الفتوح ، وهذه البلاد في الروح ، يعز الشهور بها فلتحذر . ومن هذا التقييل : دخلت الفتنة على طائفة قالوا بالمشاهدة ، وإذا كان في باب الحلال وليجة في الحب يتولد منها بلادة الروح في القيام بوظائف حب الحضرة الإلهية ، فما ظنك فيمن يدعى ذلك في باب غير مشروع يفرضه سكون النفس فيظن أنه لو كان من قبل الهوى ما سكنت النفس ؟ والنفس لا تسكن في ذلك دائماً بل تلب من الروح ذلك الوصف وتأخذ إليها ، على أني استحيث عما يبطل به المفترون بالمشاهدة ، فوجدت الحمى من ذلك من صورة القسق عنده رغبة شراب الشهوة ، إذ لو ذهب علة الشراب ما بقيت الرغبة ، فليحذر ذلك جداً ولا يسمع ممن يدعى فيه حالا وصحة فإنه كذاب مدع ، ولهذا المعنى قال الأطباء : الجماع يسكن هيجان العشق - وإن كان من غير المعشوق - فليعلم أن مستنده الشهوة ، ويكذب من يدعى فيه حالا ، وهذه فن المتأمل .

وفتنة العزب مرور النساء بخاطره وتصورهن في متخيله ، ومن أعطى الطهارة في باطنه لا يدنس باطنه بخراطير الشهوة ، وإذا منع الخاطر يحو بحسن الإنابة واللياذ بالهرب ، ومتى سامر الفكر كشف الخاطر خرج من القلب إلى الصدر ، وعند ذلك يعذر حساس العضو بالخاطر فيصير ذلك عملاً خفياً ، وما أقبح مثل هذا بالصادق المتطلع إلى الحضور واليقظة ، فيكون ذلك قاضية الحال . وقد قيل مرور الفاحشة بقلب المعارفين كعمل الفاعلين لها وراقه أعلم .

الباب الثاني والعشرون : في القول في السماع قبولاً وإشاراً

قال الله تعالى ﴿ فيشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ قيل أحسنه : أي أمده وأرشده ، وقال عز وجل ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ هذا السماع هو السماع الحق - الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان - محكوم لصاحبه بالمداية واللب ، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع ، لأنه تارة يشير بنا والآخر حار ، وتارة يثير شوقاً والشوق حار ، وتارة يثير ندماً والتندم حار ، فإذا أنال السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكى وأدمع ، لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرا ماء ، فإذا ألم السماع بالقلب تارة يخف للماء فيظهر أثره في الجسد ويقتصر منه الجلد ، قال الله تعالى ﴿ تخشع منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ وتارة يعظم وقعه ويتصوب أثره إلى فوق نحو الدماغ كالخبر للعقل فيعظم وقع المتجدد الحادث فتندفق منه العين بالدمع ، وتارة يتصوب أثره إلى الروح فتعوج منه الروح موجاً يكاد تضيئ عنه لطاق القلب فيكون من ذلك الصباح والاضطراب وهذه كلها أسواق يجدها أربابها من أصحاب الحال ، وقد يحكيها بدلائل هو النفس أرباب الحال :

روى أن عمر رضي الله عنه كان يوماً مر بآية في ورده فتخذه العبرة ويسقط ، ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً ، قال السماع يستجلب الرحمة من الله الكريم .

روى زيد بن أسلم قال : قرأ ابن بكعب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرقوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اغتموا الدعاء عند الرقة فلها رحمة من الله تعالى ، وروى أم كلثوم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا انشمر جلد العبد من خشية الله تمحات عنه الذنوب كما تمحات عن الصخرة اليابسة ورقها ، وورد أيضاً : إذا انشمر الجلد من خشية الله حرمة الله تعالى على النار .

وهذه جملة لا تسكر ولا اختلاف فيها ، إنما الاختلاف في استماع الأشعار بالإنسان ، وقد كثرت الأقوال في ذلك وبما يثبت الأحوال فن منكر يلحقه بالنسق ، ومن مولع به يشهد بأنه واضح الحق ويتجاوزان في طرق الإفراط والتفريط . قيل لابي الحسن بن سالم كيف تسكر السماع وقد كان الجندوسرى السقطي وذو النون يسمعون ؟ فقال : كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني ؟ فيقد كان جعفر الطيار يسمع ، وإنما المنكر الهو واللب

في السماع وهذا قول صحيح .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل عن أبيه الحافظ المقدسي قال : أخبرنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافي قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال حدثنا أبو بكر بن وثاب وقال حدثنا عمرو بن الحارث قال حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها : أن أبا بكر دخل عليها وعندها جارتان تفتيان وتضربان بدين ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى بشوبه ، فأتتهما أبو بكر فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد ، ، وقالت عائشة رضي الله عنها : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترق برذاته وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا أسأم . وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله ما يدل على تجويزه ، ونقل عن كثير من السلف صحابي وتابعي وغيرهم . وقول الشيخ أبي طالب المكي يعتبر لو فور عليه وكال حاله وعله بأحوال السلف ومكان ورعه وتقواه وتحريمه الأصوب والأولى . وقال : في السماع حرام وحلال وشبهه ؛ فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوة وهوى فهو حرام ، ومن سمعه بمقوله على صفة مباح من جارية أو زوجة كان شبهة لدخول الهوى فيه ، ومن سمعه بقلب يشاهد معاني تدله على الدليل ويشهده طرقات الجليل فهو مباح ، وهذا قول الشيخ أبي طالب المكي وهو الصحيح . فإذن لا يطلق القول بمنه وتحريمه والإنكار على من يسمع كفعل القراء المتزهدين المباليغين في الإنكار ، ولا يفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض المشتهرين به المهملين شر وطه وآدابهم المقيمين على الإصرار .

ونفصل الأمر فيه تفصيلا ، ونوضح الماهية فيه تحريما وتحليلا . فأما الذنب والشبهة وإن كان فيهما في مذهب الشافعي فسحة ؛ فالأول تركهما بالأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف .

وأما غير ذلك فإن كان من القصاص في ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار ووصف نعم الملك الجبار ، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات فلا سبيل إلى الإنكار ، ومن ذلك التجميل قصائد الفزاة والحجاج في وصف الغزو والحج ؛ مما يثير كامن العزم من الفزاي وساكن الشوق من الحجاج .

وأما ما كان من ذكر القدود والحدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانات الاجتماع لئلا يخل ذلك .

وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والتقطيع والصد مما يقرب حمله على أمور الحق - سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين ؛ فمن سمع ذلك وحدث عنه ندب على ما فات أو تجدد عنه عزم لما هو آت فكيف يكون سماعه ؟ وقد قيل إن بعض الواجدن يقتات بالسماع ويتقوى به على الطي والوصال ، ويثير عنده من الشوق ما يذهب عنه لخب الجوع ؛ فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه كأن يسمع الحادي يقول مثلا :

أثوب إليك يا رحمن إلى . أسأت وقد تصاعقت الذنوب

فأما من هوى لبيل وحبي . زيارتها فإني لا أثوب

فطالب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات في أمر الحق إلى المات - يكون في سماعه هذا ذكر الله تعالى . قال بعض أصحابنا كنا نعرف مواجيد أصحابنا في ثلاثة أشياء : عند المسائل ، وعند الغضب ، وعند السماع . وقال الجنيذ تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع : عند الأكل لأنهم يأكلون من قافة ، وعند المذاكرة لأنهم يتحاورون في مقامات الصديقين وأحوال التبيين ، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا . وسئل روم عن وجد الصوفية عند السماع فقال : يقتبون للماضي التي تمزب عن غيرهم فيشير إليهم إلى " فيقيمون بذلك من الفرح ، ويقع الحجاب للوقت فيعود ذلك الفرح بكاء ، فمنهم من يمزق ثيابه ، ومنهم من يبكي ، ومنهم من يصيح .

أخبرنا أبو زرعة بإجازة من ابن خلف بإجازة عن السلي قال : سمعت أبا سهل محمد بن سليمان يقول ؟ المستمع بين استنار ونجمل ، فالاستنار يورث التلب ، والتلب يورث المريد ، فالاستنار يتولاه منه حركات المريد وهو على الضعف

والعجز ، والتجلى يتولد منه السكن الواصيل وهو محل الاستقامة والتكفين . وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلا الذبول تحت موارد الحياة . قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي : سمعت جدى يقول : المستمع بذبحى أن يستمع بقلب ونفس ميتة ، ومن كان قلبه ميتا ونفسه حية لا يعمل له السماع .

وقيل في قوله تعالى (يزيد في الخلق ما يشاء) الصوت الحسن . وقال عليه السلام : لله أشد أذنا بالرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قينة إلى قينته ، نقل عن الجنيد قال : رأيت إبليس في التزم فقلت له : هل تظفر من أصحابنا بشيء أوتال منهم شيئا ؟ فقال إنه يعسر على شأنهم ويعظم على أن أعيب منهم شيئا إلا في وقتين ، قلت : أى وقت ؟ قال : وقت السماع وعند النظر فإني أسترقي منهم فيه وأدخل عليهم به ، قال : لحكيت رؤياى لبعض المشايخ فقال لورأيت قلت له يا أحمق من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر أترجى أن عليه شيئا أو تظفر بشيء منه ؟ فقلت صدقت ، وروت عائشة رضى الله عنها قالت : كانت عندي جارية تسمعى فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى على حالها ، ثم دخل عمر ففرت ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : ما يضحكك يا رسول الله ؟ فحدثه حديث الجارية فقال : لأرح حتى أسمع ما سمع رسول الله ؛ فأمر ما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسمعته . وذكر الشيخ أبو طالب المكي قال : كان لسطاء جارياتان تلحنان وكان إخوانه يجتمعون إليهما ، وقال : أدركما أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن التلحين أعهدهن للصوفية ، وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبى طالب فقال : وعندى اجتناب ذلك هو الصواب ، وهو لا يسلم إلا بشرط طهارة القلب وغض البصر والوقار بشرط قوله تعالى (يعلم عاقبة الأعمى وما تخفى الصدور) وما هذا القول من الشيخ أبى طالب المكي الا مستغرب عجيب ، والتزده عن مثل ذلك هو الصحيح .

وفى الحديث : في مدح داود عليه السلام أنه كان حسن الصوت بالتياحة على نفسه وبتلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والطير لسماع صوته ، وكان يعمل من مجلسه آلاف من الجنائر ، وقال عليه السلام في مدح أبى موسى الأشعرى : لقد أعلنى من مزارا من مزارى آل داود ، وروى عنه عليه السلام أنه قال : إن من الشمر لحكمة ، ودخل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده قوم يقرءون القرآن وقوم يشدون الشعر فقال : يا رسول الله قرآن وشعر ؟ فقال : من هذا مرة ومن هذا مرة .

وأشد الثابتة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم آياته التى فيها :

ولا خير في حكم إذا لم يكن له . . يواحد يحصى صفوه أن يكذرا

ولا خير في أمر إذا لم يكن له . . حكيم إذا ما أورد الأمر أصدر

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحسنت يا أبا بلي لا يفضل الله فاك ، ففأش أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس نفرا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لسانه منبرا في المسجد ؛ فيقوم على المنبر قائما يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول الذى صلى الله عليه وسلم : إن روح القدس مع حسان مادام ما دفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى بعض الصالحين أبا العباس الحضرة قال ، فقلت له ما تقول في السماع الذى يختلف فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفا الزلال لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء . ونقل عن عمشاد الدينورى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله هل تسكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال ما أنكره ولكن قل لم يفتتحون قبله قراءة القرآن ويحتمون بعده بالقرآن ، فقلت يا رسول الله إنهم يؤذون وينبسطون ، فقال احتلمهم بأباغى هم أصحابك . فكان عمشاد يفتخر ويقول كنانى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما وجه الإنكار فيه فهو أن يرى جماعة من المريدين دخلوا في مبادئ الإرادة ونفوسهم ما تمرنت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم ويعلمون ما لهم عليهم مشغلين به .

حكي أن ذا الثور لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال : فاستأذنه أن يقول شيئا فأذن له فأند التوال :

صغير هواك عذبي . فكيف به إذا احتكاك وأنت جمعت من قلبي . هوى قد كان مشتركا

أما ترى لمكتبه . إذا ضحك الخلى بكى فطاب قلبه ، وقام وتواجد وسقط على جبهته وانهم بقطر من جبهته ولا يقع على الأرض . ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو الثور فقال : اتق الذي يراك حين تقوم ، وخلص الرجل ، وكان جلوسه أوضع صدقه وعلته أنه غير كامل الحال غير صالح للقيام متواجد ، فيقوم أحدهم من غير تدبر وعلم في قيامه وذلك إذا سمع إيقاعا موزونا يسمع يؤدي ماسمه إلى طبع موزون ، فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون والإيقاع الموزون ، وينسبل حجاب نفسه المتبسط بانسباط الطبع على وجه القلب ، ويستغزه النشاط للثبث ، من الطبع فيقوم برقص موزونا مزوجا يتصنع وهو عزم عند أهل الحق ، وينسب ذلك طيبة القلب ، ومارأى وجه القلب وطيبته لله تعالى . ولعمري هو طيبة القلب ولكن قلب ملون بنفس ميال إلى الهوى موافق لقرى لا يهتدى إلى حسن الثبة في الحركات ولا يعرف شروط محال الإرادات ، ولئلا هذا الرقص قيل : الرقص نقص ، لأنه رقص مصدره الطبع غير مقترن بنية صالحة لاسيا إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتزود والتقرب إلى بعض الحاضرين من غيرية ، بل بدلالة نشاط النفس من المعانقة وتقبيل اليد والقدم ، وغير ذلك من الحركات التي لا يتصدها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد ذوى صورة ، أو يكون القوال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه وتستلذ ذلك ونضمر خواطر السوء ، أو يكون للفنار إشراف على الجمع وتراسل البواطن المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريره فأهل المواخير حينئذ أرحى حالا من يكون هذا خيمه وحركاته ، لأنهم يرون فسقه وهذا لا يراه ويريه عبادة لمن لا يعلم ذلك ، أقرى أحدا من أهل الديانات يرضى بهذا ولا ينكره ؟ فن هذا الوجه لتفكير الإنكار ، وكان حقيقا بالاعتذار ، فكمن حركات موجبة للثبث ، ولمن نهضات تذهب رونق الرقة ، فيكون إنكار المنكر على المرید الطالب بمنع مثل هذه الحركات ، ويحذره من مثل هذه المجالس ، وهذا إنكار صحيح . وقد برقص بعض الصادقين إيقاع ووزن من غير إظهار وجد حال ، ووجه نيته في ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقهاء في الحركة فيتحرك بحركة موزونة غير مدعها حالا ووجدا ، يجعل حركته في طرف الباطل ، لأنها إن لم تكن محرمة في حكم الشرع ولكنها غير محلة بحكم الحال لما فيها من الهوى ، فنصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التي تجرى عليه من الضحك والمداعبة وملأه بالآه والولد . ويدخل ذلك في باب الترويح للقلب . وربما صار ذلك عبادة بحسن النية إذا نوى به استجمام النفس . كما نقل عن أبي الدرداء أنه قال : إنى لاستجم نفسي بشيء من الباطل ليكون ذلك عوناً إلى على الحق . ولوضع الترويح كرهت الصلاة في أوقات ليستريح عمال الله وترتفع النفوس ببعض ما أجزاها من ترك العمل وتستطيب أوطان الملل . والآدى بتركه المختلف وترتيب خلقه للتنوع بتنوع أصول خلقته . وقد سبق شره في غير هذا الباب . لا تفتي قواه بالصبر على الحق الصبر ، فيكون التفتيح في أمثال ما ذكرناه من المباح الذي ينزع إلى هو ما باطلا يستعان به على الحق ، فإن المباح وإن لم يكن باطلا حقيقة الشرع ؛ لأن حد المباح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه ، ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال . وروايت في بعض كلام سهل بن عبد الله يقول في وصفه للصادق : الصادق يكون جهله مزيدا لعله ، وباطله مزيدا لحقه ، ودينه مزيدا لأخبرته ، ولهذا المعنى حجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ليكون ذلك حظ نفسه الشريفة الموهوب لها حظوظها ، الموفر عليها حقوقها لموضع طهارتها وقدها ، فيكون ما هو نصيب الباطل الصبر في حق الثير من المباحات المقبولة برخصة الشرع المردودة بمنزلة الحال في حق الله صلى الله عليه وسلم مقبلة بسمه العبادات . وقد ورد في فضيلة السكاح ما يدل على أنه عبادة ، ومن ذلك من طريق القياس اشتباهه على المصالح الدنيوية والقيمية على ما طبقت في شرح الفقهاء في مسئلة التخلل لنوافل العبادات ؛ فإذا بخرج هذا الرقص بهذه النية المتبرئ من دعوى الحال في ذلك من إنكار المنكر فيكون رقصه لاعليه ولاله ، وربما كان بحسن النية في الترويح يصير عبادة سيما إن أضمر في نفسه

فرسا بربه ونظر إلى شمول رحمته وعطفه ، ولكن لا يليق الرقص بالشيخ ، ومن يقتدى به لما فيه من مشابهة الله ، والله لا يليق بمصنعه ويأين حال التحكك مثل ذلك .

وأما وجه منع الإنكار في السماع فهو أن المنكر للسمع على الإطلاق من غير تفصيل لا يغفلون أحد أمور ثلاثة : إما جاهل بالسنن والآثار ، وإما متر بما أتبع له من أعمال الأخيار ، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصر على الإنكار ، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقابل بما سوف يقبل . أما الجاهل بالسنن والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضى الله عنها وبالأخبار والآثار الواردة في ذلك ، وفي حركة بعض المتحركين تعرف رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم للحبشة في الرقص ونظر عائشة رضى الله عنها إليهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا إذا سلمت الحركة من المحاكم التي ذكرناها . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لملي رضى الله عنه : أنت مني وأنا منك ، غجيل ، وقال لجعفر : أشبهت خلقي وخلقى ، غجيل ، وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا ، غجيل ، وكان غجيل جعفر في قصة ابنة حزة لما اختصم فيها علي وجعفر وزيد ، وأما المنكر للغزير بما أتبع له من أعمال الأخيار فيقال : تقربك إلى الله بالعبادة لشغل جوارحك بها ، ولولا نية قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر ، فلما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، والثنية للنظر إلى ذلك خوفا أو رجاء ، فالسمع من الشعر يبتا يأخذ منه معنى يذكره إما فرحا أو حزنا أو انكسارا أو افتقارا كيف يقرب قلبه في أنواع ذلك ذكر آثره ، ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت وتفكر في قدرة الله تعالى وتسويت حنجره الطائر وتسخير خلقه ومنشأ الصوت وتأديته إلى الانماع كان في جميع ذلك الفكر مسجعا مقدسا ، فإذا سمع صوت آدمي وحضره مثل ذلك الفكر واعتلا باطنه فكرا وفكر كيف ينكر ذلك .

حكى بعض الصالحين قال : كنت معتكفا في جامع جد ، على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون في جانب منه شيئا ، فأنكرت ذلك بقاى وقلت : في بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام تلك القبلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر ، وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والتي رضى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك ، فقلت في نفسي : ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع وأبو بكر إلى جنبه يقول ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول هذا حق أو حق من حق ، بل إذا كان ذلك الصوت من أمر يفتنى بالنظر إليه الفتنة ، أو من امرأة غير محرم ، وإن وجد من الأذكار والافتكار ما ذكرنا : يحرم سماعه خوفا الفتنة لا لغيره بالصوت ، ولكن يجعله سماع الصوت حريم الفتنة ، ولكل حرام حريم ينسحب عليه حكم المنع لوجه المصلحة كالقبلة للشباب الصائم ، حيث جعلت حريم حرام الوقاع ، وكالحلوة بالاجنية وغير ذلك . فعلى هذا قد تقتضى المصلحة المنع من السماع إذا علم حال السامع وما يؤيده إليه سماعه فيجعل المنع حريم الحرام هكذا ، وينكر السماع جامد الطبع عديم الذوق فيقال له : التين لا يملأ لذة الوقاع ، والمكفوف ليس له بالجمال البارح استمتاع ، وغير المصاب لا يتكلم بالاسترجاع ، فإذا ينكره من محب ربي باطنه بالشوق والمحبة يرى انحباس روحه الطيارة في مضيق قصص النفس الأمانة يمر بروحه نسيم أنس الأوطان وتلوح له طالع جنود العراق ، وهو يوجود النفس في دار الغربة يتجرع كأس الهجران ، يئن تحت أعباء المجاهدة ولا يحمل عنه سواها المشاهدة ، وكلما قطع منازل النفس بكثرة الأعمال لا يقرب من كعبة الوصول ولا يكشف له المسيل من الجباب ، فيروح بنفس الصعداء ويرتاح بالألح من شدة البراء ، ويقول غاطبا النفس والشيطان وهما الماثلان :

أيما جيل ليمان بالله خليا ه نسيم الصبا ينطس إلى نسيدهما
فإن الصبا ربح إذا ما تنصمت ه على قلب محزون تجملك همومها
أجد بردها أو تنشف من حرارة ه على كبد لم يبق إلا صميمها
ألا إن أدراك بليل قديمة ه وأقتل داء الماشقين قديمها

ولعل المنكر يقول هل المحبة إلا امتثال الأمر ؟ وهل يعرف غير هذا وهل هناك إلا الخوف من الله ؟ ينكر المحبة الخاصة التي تختص بالعلماء والراغبين والأبدال القربين . ولما تقرر في فهمه القاصر أن المحبة تستدعي مثالا وخيالا وأجناسا وأشكالاً أنكر محبة القوم ولم يعلم أن القوم بلغوا في رتب الإيمان إلى أتم من المحسوس وجادوا من فرط الكشف والبيان بالأرواح والنفوس . وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق الساء ؟ قالت : الله ، قال : من خلق الأرض ؟ قالت : الله ، قال : من خلق الجبال ؟ قالت : الله ، قال : من خلق النعم ؟ قالت : الله ، فقال : إني أسمع شأنا ويرى بنفسه من الجبل تنقطع ، فأجبال الأزل الإلهي منكشف للأرواح غير مكيف للعقل ولا مفسر للفهم ، لأن العقل موكل بمالم الشهادة لا يبتدئ من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود ولا يتطرق إلى حرم الشهود المتجلى في طي الغيب المتكشف للأرواح بالدرج ، وهذا رتبة من مطالعة الجلال الربوبية خاصة ، وأعم منها من رتب المحبة الخاصة دون العامة مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والحلال والاستقلال بالتمتع والتوالد والصفات المنقسمة إلى مظاهر منها في الآداب والذات في الآزال ؛ فللكمال جمال لا يدرك بالحواس ولا يستبطن بالقياس . وفي مطالعة ذلك الجلال أخذ طائفة من المحبين خصوصاً بتجلى الصفات ولم يحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسماح . والادلون منحوا قسطا من تجلئ الذات فكان ووجد هم على قدر الوجود وسماحهم على حد الشهود .

وحكى بعض المشايخ قال : رأينا جماعة ممن يمشي على الماء والهوا هو يسمعون السماع ويمجدونه ويتوكلون عنده . وقال بعضهم : كنا على الساحل فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلب على الماء يمز ويحيى حتى رجع إلى مكانه . ونقل أن بعضهم كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها . ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع فأخذ شمة فجعلها في عينه ، قال الناقل : قربت من عينه ، أنظر ، فرأيت نارا أورتها يخرج من عينه يرد نارا للشمعة وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع من الأرض في الهواء أذرعاً بحر ويحيى فيه . وقال الشيخ أبو طالب المسكي رحمه الله في كتابه : إن أنكرنا السماع بمجلا مطلقا غير مقيد مفصل يكون إنكارا على سبعين صديقا ، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والمتمجدين ، وإلا فالافتقار ذلك لافهم لا يعلمون ، وسعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين ما لا يسمعون . وهذا قول الشيخ عن علي الوافر بالنسب والآثار مع اجتراحه وتحرره بالصواب ولكن نيسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار ، ونوضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وبين سماع ينكر وسمع الشبل قائلا يقول : أسألك عن سلمى فهل من مخبر ؟ يكون له علم بها أين تنزل فزق الشبل وقال : لا والله ما في القارين عنه مخبر .

وقيل الوجد سر صفات الباطن كما أن الطاعة سر صفات الظاهر ، وصفات الظاهر الحركة والسكون وصفات الباطن الأحوال والأخلاق . وقال أبو نصر السراج أهل السماع على ثلاث طبقات : فقوم يرجعون في سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون ، وقوم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم فهم مرتبطون بالعلم ومطالبين بالصدق فيما يشيرون الله من ذلك ، وقوم هم القراء المجردون الذين قطعوا الملاق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون لطيفة قلوبهم . ويليق بهم السماع فهم أقرب الناس إلى السلامة وأسلمهم من الفتنة . وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف .

وسئل بعضهم عن التكليف في السماع فقال : هو على ضربين ؛ تكليف في المستمع لطلب جاء أو منفعة دنيوية وذلك تلبس وخيانية ، وتكلف فيه لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بالتواجد وهو عزلة التياكي المتدرب إليه . وقول القائل إن هذه الهيئة من الاجتماع بدنية يقال له : إنما البدعة المخدورة الممنوعة منها ؛ بدعة تراحم سنة ما موارها وعالم يكن هكذا فلا بأس به . وهذا القيام بالداخل ؛ لم يكن ، فكان في عادة العرب ترك ذلك ، حتى نقل أن رسولا لله صلى الله عليه وسلم كان يدخل ولا يتام له ، وفي البلاد التي فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتمد ذلك لنيل القلوب والهداية لا بأس به ؛

لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور ؛ فيكون ذلك من قبيل العثرة وحسن الصفة . ويكون بدعة لأبأس بها لأنها لم تراحم سنة مأثورة .

الباب الثالث والعشرون : في القول في السماع ودا وإنكارا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق منه بأهل الصدق وحيث كثرت الفتنة بطريقة وذاك العصمة فيه ؛ وتعدى الحرص عليه أقوام قلت أعالهم ، وفسدت أحوالهم وأكثروا الاجتماع للسماع ، وربما يتخذ للاجتماع طعام تطلب النفوس الاجتماع لذلك لارغبة القلوب في السماع كما كان من سير الصادقين ، فيصير السماع معلولا تركن إليه النفوس للشهوات واستحلاء لمواطن النهي والمفلات ، ويقطع ذلك على المرید طلب المزيد . ويكون بطريقه تضييع الأوقات وقلة الحظ من العبادات ، وتكون الرغبة في الاجتماع طلبا لتناول الشهوة واسترواحا لألذ الطرب والنهي والعثرة ولا ينبغي أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق . وكان يقال لا يصح السماع إلا لعارف مكين ، ولا يباح لمريد مبتدئ .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إذا رأيت المرید يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية البطالة . وقيل إن الجنيد ترك السماع فقيل له : كنت تسمع ؟ فقال : مع من ؟ قيل له : تسمع لنفسك ؟ فقال : من ؟ لأنهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل فلما فقد الإختران ترك . فما اختاروا السماع حيث اختاروه إلا بشرط وقيود وآداب ؛ يذكرون به الآخرة ، ويرغبون في الجنة ، ويحذرون من النار ، ويرداد به طلبهم ، ونحسن به أحوالهم ، ويفقه لهم ذلك اتفاقا في بعض الأحيان لا لأن مجملوه دأبا ودينا حتى يتركوا لأجله الأوراد .

وقد نقل عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال في كتاب القضاء : النماء هو مكروه يشبهه الباطل ، وقال : من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته ؛ واتفق أصحاب الشافعي أن المرأة غير المحرم لا يجوز الاستماع إليها سواء كانت حرة أو مملوكة أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب . ونقل عن الشافعي رضي الله عنه ؛ أنه كان يكره الطنطنة بالفضيب ويقول : وضمنه الزائدة ليشتلوا به عن القرآن ، وقال : لأبأس بالقرأة بالألحان وتحسين الصوت بها بأى وجه كان . وعند مالك رضي الله عنه : إذا اشترى جارية فوجدتها مننية فله أن يردّها بهذا العيب ، وهو مذهب سائر أهل المدينة ، وهكذا مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه .

وسماع النماء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء . ومن أباحه من الفقهاء أيضاً لم ير إعلاناً في المساجد والبقاع الشريفة . وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هو النماء والاستماع إليه ، وقيل قوله تعالى ﴿ وأنتم ساعدون ﴾ أى مغنون ؛ رواه عكرمة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو النماء بلغة حير ، بقرأ أهل النين : سميد فلان ، وإذغنى ، وقوله تعالى ﴿ واستغفر من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال مجاهد : النماء والمزمار .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان إبليس أول من ناح وأول من تقي ، وروى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنما نبيت عن صوتين فاجرين : صوت عند نعمة ، وصوت عند مصيبة . وقد روى عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : ما غيت ولا تبيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : النماء يلبث التفاق في القلب ، وروى أن ابن عمر رضي الله عنه مر على قوم وهم يحرمون وفيهم رجل يتغنّى فقال : ألا لسمع الله لكم ، ألا لا لسمع الله لكم . وروى أن إنساناً سأل القاسم بن محمد عن النماء فقال : أهلكه الله وأكرمه لك ، قال أحرام هو ؟ قال : انظر يا ابن أخي إذا ميز الحق والباطل في أيهما يجعل النماء ؟ وقال الفضيل بن عياض : النماء رقية الزنا ، وعن الحسنك : النماء مفسدة القلب مستطلة للرب ، وقال بعضهم : لما كثر النماء قلته يزيد الشهوة ويهدم المروءة ، وأنه لينوب

عن الخثر ويقبل ما يقبل السكر ، وهذا الذي ذكره هذا القائل صحيح لأن الطبع الموزون يفيق بالنقاء والأوزان ، ويستحسن صاحب الطبع عند السماع ما لم يكن يستحسنه من الفرقة بالأصابع والتعقيق والرقص وتصدر منه أنمال تدل على سخافة العقل ، وروى عن الحسن أنه قال : ليس الدف من سنة المسلمين ، والذي نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه سمع الشعر ، لا يدل على إباحة الفناء فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام منثور لحسنه وحسن وقيمه قبيح ، وإنما يصير غناء بالألحان وإن أنصف النصف وتفكر في اجتماع أهل الزمان وقعود الغنى بدنه والمشيب بثباته وتصور في نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئة بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل استحضروا قولاً وقعدوا مجتمعين لاستماعه لأشك به ينكر ذلك من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ ولو كان في ذلك فضيلة تطلب ما أهملوها ؟ فمن يشير بأنه فضيلة تطلب ويجتمع لها لم يحظ بدفع معرفة أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين ، واستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك . وكثيرا ما ينلظ الناس في هذا ، وكلما احتج عليهم بالسلف الماضين يجتنبون بالتأخرين . وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهدم أشبه بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكثير من الفقهاء يسمعون عند قراءة القرآن بأشياء من غير غلبة . قال عبدالله بن عروة بن الزبير : قلت لجدي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنها كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفهمون إذا قرئ عليهم القرآن ؟ قالت : كانوا كأرواحهم الله تعالى تدفع أذهانهم وتشتعل جلودهم ، قال : قلت إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحد منهم مغشيا عليه ، قالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وروى أن عبدالله بن عمر رضى الله عنه سمر برجل من أهل العراق يتساقط قال : ما هذا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط ، فقال ابن عمر رضى الله عنه : إنما نخشى الله وما تسقط إن الشيطان يدخل في جوف أحدكم ، ما هكذا كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وذكر عبد ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ القرآن فقال : بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيت باسطا رجله ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره ، فلن رى بنفسه فهو صادق . وليس هذا القول منهم إنكاراً على الإطلاق إذ ينفذ ذلك لبعض الصادقين ، ولكن للصنع المتهوم في حق الأكثرين ، فقد يكون ذلك من البعض تصنعا ورياء ، ويكون من البعض لتصور . علم وخمارة جهل عزوج يهوى بل بأحد يسير من الوجد فيقتربه بزيادات يجهل أن ذلك يضرب بدنه ، وقد لا يجهل أن ذلك من النفس ولكن النفس تسترق السمع استراقا خفيا تفرج الوجد عن الحذر الذي ينبغي أن يقف عليه وهذا يباين الصدق نقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه فشق رجل منهم قميصه ، فقيل لموسى عليه السلام : قل لصاحب القميص لا يشق قميصه ويشرح قلبه .

وأما إذا انضاف إلى السماع أن يسمع من أمرد فقد توجهت الفتنة وتعين على أهل الديانات إنكار ذلك . قال بقية بن الوليد : كانوا يكرهون النظر إلى الغلام الأمرد الجليل . وقال عطاء : كل نظرة يرواها القلب فلا خير فيها . وقال بعض التابعين : ما أنا أخوف على الشاب الثائب من السع الضاري خوفاً عليه من الغلام الأمرد يقعد إليه ، وقال بعض التابعين أيضا : الخطيئة على ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصالحون ، وصنف يميلون ذلك العمل . فقد تعين على طائفة الصوفية اجتنب مثل هذه الجماعات وانعام مواضع التهم فإن التصرف صدق كله وجد كله يقول بعضهم : التصرف كله جد فلا تخاطوه بشيء من الهزل ، فهذه الآثار دلت على اجتباب السماع وأخذ الحذر منه . والباب الأول بما فيه دل على جوازه بشروطه وتزيهه عن المنكاره التي ذكرناها وقد فضلنا القول وفرقتا بين القصاص والنقاء وغير ذلك ، وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون ومع ذلك لا يشكرون على من يسمع بنية حسنة ويراعى الأدب فيه .

الباب الرابع والعشرون : في القول في السماع ترغفا واستغناء

اعلم أن الوجد يشمر بسابقة فقد لم يفتد لمجد ، إنما كان التقيد لمراعاة وجود البد بوجود صفاته وبقيائه فلو

تمحض عبد التحض حراً ومن تمحض حراً الوجود فشر ك الوجود يصطاد البقاء بوجوده بالتخلف شيء من العطايا
قال الحصري رحمه الله : ما أدون حال من يحتاج إلى مزيج يزججه ؛ فالوجود بالسماع في حق الحق كالوجود بالسماع
في حق المبتل : من حيث النظر إلى انزاجه ، وتأثير الياطن به ، وظهور أثره على الظاهر ، وتغييره للمبدن حال إلى
حال . وإنما يختلف الحال بين الحق والمبتل : أن المبتل يجد لوجود هو النفس ، والحق يجد لوجود إرادة القاب ؛
ولهذا قيل : السماع لا يحدث في القلب شيئاً ، وإنما يحرك ما في القلب ، فمن يتعلق بباطنه بفكر الله يحركه السماع فيجد
بالموى ، ومن يتعلق بباطنه بمحبة الله يجد بالإرادة إرادة القلب ؛ فالمبتل محجوب بحجاب النفس ، والحق محجوب
بحجاب القلب ، وحجاب النفس حجاب أرضي ظلامي ، وحجاب القلب حجاب سماوي نوراني ، ومن لم يفقد بدوام
التحقق بالشهد ولا يتشرب بأذيال الوجود فلا يسمع ولا يجد ، ومن هذه المظالمه قال بعضهم : الوجود نار دم كلي
لا ينفذ في قول .

وسر عباد الدين يرى رحمه الله بقوم فهم قول ؛ فلما رأوه أمسكوا ، فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فوالله
لوجعت ملاهي الدنيا في أذن ما شغل همي ولا شغل ماني ، فالوجد صراخ الروح المبتلى بالنفس تارة في حق
المبتل وبالقلب تارة في حق الحق ، فثار الوجد الروحاني في حق الحق والمبتل ، ويكون الوجد تارة من فهم
المعاني بظاهر ، وتارة من مجرد الثفات والألحان ، فما كان من قبيل المعاني تشاركت النفس الروح في السماع في حق المبتل
ويشارك القلب في حق الحق . وما كان من قبيل مجرد الثفات تتجرد الروح للسماع ، ولكن في حق المبتل تسترق
النفس السمع ، وفي حق الحق يسترق القلب السمع . ووجه استدلال الروح الثفات : أن العالم الروحاني بجمع الحسن
والجمال ، ووجود التناسب في الأكوان مستحسن قولاً وفعلاً ، ووجود التناسب في الهمياكل والصبر وميراث الروحانية
فمن سمع الروح الثفات المنيذة والألحان المتناسبة تأثر به لوجود الجنسية ، ثم يتقيد ذلك بالشرع بمصالح عالم الحكمة ،
ورعاية الحدود لمبدأ عين المصلحة عاجلاً وآجلاً ، ووجه آخر : إنما يستلذ الروح الثفات ، لأن الثفات بالخلق النفس
مع الروح بالإيماء الحق إشارة ورمزاً بين المتعاشقين ، وبين الفروس والآرواح تعاشق أصلي ينزع ذلك إلى أرونة
النفس وذكرورة الروح ، والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع ، قال الله تعالى ﴿ وجعل منها زوجها
ليستنكحها ﴾ وفي قوله سبحانه ﴿ منها ﴾ إشعار بتلازم وتلاصق هو واجب للاختلاف والتعاشق ، والثفات يستلذهما
الروح لأنها مناغاة بين المتعاشقين ، وكان في عالم الحكمة كونه حواء من آدم في عالم القدرة كونه النفس من
الروح الروحاني ، فهذا التآلف من هذا الأصل : وذلك أن النفس روح حيواني تجلس بالقرب من الروح الروحاني
وتجسّسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف القرب من الروح الروحاني فصارت نفساً ، فإذا تكونت النفس
من الروح الروحاني في عالم القدرة ، كسكون حواء من آدم في عالم الحكمة ، فهذا التآلف والتعاشق ونسبة الأرونة
والذكورة من هنا ظهر ، وبهذا الطريق استطابت الروح الثفات ، لأنها مراسلات بين المتعاشقين ومكاملة بينهما ،
وقد قال القائل :

تكلّم منا في الوجود حيوتنا • فتمسكوت والهوى يتكلم

فإذا استلذ الروح النعمة وجدت النفس الملوثة بالهوى وتحركت بما فيها لحدوث العارض ، ووجد القلب المعلوم
بالإرادة وتحرك بما فيه لوجود العارض في الروح :

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة • وللأرض من كأس الكرام نصيب

فنفس المبتل أرض لسما قلبه ، وقلب الحق أرض لسما روحه ، فألبان يبلغ الرجال والمتجرهم المتجر من أعراض
الأحوال خلق فعل النفس والقلب بالوادي المقدس ، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر استقر وعرس ، وأحرق بنور
النيران أجرام الألحان ولم تصغ روحه إلى مناغاة عاشقه لشغله بمطالمة آثار محبوه ، فالهائم المشتاق لا يسمعه كشف
ظلامه المشاق ، ومن هذا حاله لا يحركه السماع رأساً ، وإذا كانت الألحان لا تلتحق هذا الروح مع لطافة مناجاتها

وحتى تلف مناهاها ، كيف يلحظه السماع بطريق فهم الماتى وهو أكثف ، ومن يصف من حمل لطيف الإشارات كيف يتحمل ثقل أعباء العبارات ، وأقرب من هذا عبارة تقرب إلى الأفهام : الوجد وارد يرد من الحق سبحانه وتعالى ، ومن يري دأقه لا يتقنع بسماع عنده ، ومن صار في محل القرب متحققا به لا يلبيه ولا يحركه ماورد من عند الله ؛ فالوارد من عنده مسموع ، والتقريب واجد فأيضن بالوارد ، والوجدان والقلب الواحد به نور ، والنور ألطف من النار ، والكثيف غير مسيطر على اللطيف ، فسادم الرجل البالغ مستمرا على جادة استقامته غير منحرف عن وجه ممهودة بنوازع وجوده لا يدركه الوجد بالسماع ، فإن دخل عليه فتور أوعاقه قصور بدخلوا لا يتلاءم عليه من المتبلى المحسن يتألف المحن من تفاريق صور الابتلاء : أى يدخل عليه وجوده يدركه الوجد لمود المبدع عند الابتلاء إلى حجاب القلب ، فمن هو مع الحق إذا زل وقع على القلب . ومن هو مع القلب إذا زل وقع على النفس .

سمعت بعض مشايخنا يحكى عن بعضهم أنه وجد من السماع ، فقيل له : أين حالك من هذا ؟ فقال : دخل على داخل أوردني هذا المورد .

قال بعض أصحاب سهل : سمعت سهلا منين ما رأيت تغيير عنده شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن ؛ فلما كان في آخر عمره قرئ عنده (فاليوم لا يؤخذ منك فدية) فارتعد وكاد يسقط ؛ فسأله عن ذلك ؟ قال : أتم الحق ضعف . وسمع مرة (الملك يومئذ الحق الرحمن) فاضطرب ، فسأله ابن سأم وكان صاحبه قال : قد ضعف ؛ فقيل له : إن كان هذا من الضعف فما القوة ؟ قال : القوة أن السكامل لا يرد عليه وارد لا يتلهم بقوة حاله فلا يغيره الوارد . ومن هذا القبيل قول أبى بكر رضى الله عنه : هكذا كنا حتى قست القلوب ، لما رأى الباكي يبكى عند قراءة القرآن . وقوله وفست ، أى فصلت وأدمنت سماع القرآن وألفته . وأوره فاستقرت به حتى تغير والواجد كالمتغرب . لهذا قال بعضهم : حالى قبل الصلاة كحال فى الصلاة إشارة منه إلى استمرار حال الشهود فهكذا فى السماع كقبول السماع . وقد قال الجنيد : لا يضرب نقصان الوجد مع فضل العلم ، وفضل العلم أتم من فضل الوجد . وبلغنا عن الشيخ حاد رحمة الله كان يقول : البكاء من بقية الوجود . وكل هذا يقرب البعض من البعض فى اللحن لمن عرف الاشارة فيه ، وفهم وهو عزيز الفهم ، عزيز الوجود ، واعلم أن للباكين عند السماع مواجيد مختلفة فهم من يبكى خوفا ، ومنهم من يبكى شوقا ، ومنهم من يبكى فرحا ؛ كما قال القائل :

طغى السرور على حتى لانى . من عظم ما قد سرى أبكاني

قال الشيخ أبو بكر الكتانى رحمه الله : سماع العوام على متابة الطبع ، وسماع المريدين رغبة وروية ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء ، وسماع العارفين على المشاهدة ، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والبيان ، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام . وقال أيضا : الموارد تزداد تصادف شكلا أو موقفا فأى وارد صادف شكلا ما زج ؟ وأى وارد صادف موقفا ساكنه ؟ وهذه كلها مواجيد أهل السماع . وما ذكرناه حال من ارتفع عن السماع . وهذا الاختلاف منزل على اختلاف أقسام السكلم التى ذكرناها من الخوف واليقوق والفرح ، وأعلاها بكاء الفرح بمثابة تادم يقدم على أهله بعد طول غربته فتند رؤية الأهل يبكى من قوة الفرح وكثرته .

وفى البكاء رتبة أخرى أضر من هذه يمز ذكرها ويكبر نشرها لقصور الأفهام عن إدراكها ؛ فرسما يقابل ذكرها بالإستكار ويخفى بالاستكبار ، ولكن يعرفها ، نوجدها قدما ووصولا أو فهمها نظرا كثيرا وشرلا ، وهو بكاء الوجدان غير بكاء الفرح ، وحدث ذلك فى بعض مواطن حق اليقين ، ومن حق اليقين فى الدنيا إسماءات يسيرة فيوجد البكاء فى بعض مواطنه لوجود تقابر وتباين بين المحدث والتقديم ، فيكون البكاء وشما هو من وصف الحدثنان لوجه مطوية عظيمة الرحمن . ويقرب من ذلك مثلا فى الشاهد قطر النمام بتلاقي مختلف الأجرام . وهذا وإن عن مشعر ببقية تنفذ فى صرف الفناء . لم قد يتحقق البعد فى الفناء متجرذا عن الآثار منغمسا فى الإترار ، ثم يرتقى منه إلى مقام البقاء ، ويرد إليه الوجود مظهرا ، فتعود إليه أقسام البكاء خوفا وشوقا وفرحا ووجدانا بمشاكله صورها ومباينة حقائقها .

بفرق لطيف يدرك أربابه ، وعند ذلك يعود عليه من السباع أيضا قسم ، وذلك القسم مقدور له مقهور معه يأخذه إذا أراد رده إذا أراد ، ويكون هذا السباع من المتمكن بنفس اطمأن واستنارت وبايئت طيبة لها واكتسبت طمأنينتها ، وأكسبها الروح معنى منه فيكون سماعه نوع تمتع لنفس كتمتها ؛ بأحاسات الذات والشهوات لأن يأخذ السباع منه أو يزيد به أو يظهر عليه منه أثر ، فتكون النفس في ذلك بمثابة الطفل في حجر الوالد يفرحه في بعض الاوقات ببعض ما يراه . ومن هذا القبيل ما نقل أن أبا محمد الرازي كان يشغل أصحابه بالسباع ويعزل عنهم ناحية يصلي ؛ فقد انطرق هذه الثغرات مثل هذا المصل فتدخل إليها النفس متمتعة بذلك ، فيزداد مورد الروح من الانس صفاء عند ذلك لبعد النفس عن الروح في تمتعها ، فلانها مع طمأنينتها توصف من الأجنبية برحمتها وجلبتها ، وفي بعدها توفر أقسام الروح من الفرح ، ويكون طروق الانحان سمح في الصلاة غير محيل بينه وبين حقيقة المناجاة ، وفهم تنزيل الكلمات ، وتصل الأقسام إلى عالمها غير مزاحة ، ولا مزاحة وذلك كله لسعة شرح الصدر بالإيمان والله المحسن المنان ولهذا قيل السباع لقوم كالنواء ، ولقوم كالغذاء ، ولقوم كالروحة . ومن عود أقسام البكاء ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابي دأقر ، فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : أحب أن أسمعه من غيري . فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشيعة وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فإذا عيناه تهللن ، . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلا يبكى ، وقال : يا عمر ههنا تسكب العبرات . والمتمكن تعود إليه أقسام البكاء ، وفي ذلك فنيعة سالها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم ارزقني عينين هطالتين ، ويكون البكاء في الله ، فيكون لله ويكون بالله هو الاتم لعوده إليه بوجوه مستأنف موهوب له من الكريم الخالق في مقام البقاء .

الباب الخامس والعشرون : في القول في السباع تأديبا واعتناء

ويتضمن هذا الباب آداب السباع ، وحكم التخريق وإشارات المشايخ في ذلك ، ومافي ذلك من المأثور والمحدور مبنى التصرف على الصدق في سائر الأحوال وهو جد كله ، لا يفتنى لصادق أن يعتمد الحضور في يكون بجمع فيه سماع إلا بعد أن يخلص التنية لله تعالى ويتوقع به من يرد في إرادته وطلبه ، ويحذر من ميل النفس لشيء من هواها ، ثم يقدم الاستخارة للحضور ويسأل الله تعالى إذا همم بالبركة فيه . وإذا حضر يلزم الصدق والوقار يسكن الأطراف ، قال أبو بكر الكتاني رحمه الله : المستمع يجب أن يكون في سماعه غير مستروح إليه يهيج منه السماع وجدا أو شوقا أو غلبة أو واردا والوارد عليه يغنيه عن كل حركة وسكون ، فيبقى الصادق استدعاء الوجود ويحسب لماركة فيه مهما أمكن سببا بحضرة الشيوخ .

حكى أن شابا كان يصحب الجنيذ رحمه الله وكلما سمع شيئا زعق وتغير ، فقال له يوما : إن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحني ، فكان بعد ذلك يضبط نفسه ، وربما كان من كل شعرة منه تنقط قطرة عرق ، فلما كان يوما من الأيام زعق زعقة خرج روحه . فليس من الصدق إظهار الوجود من غير وجدنازل ، أو ادعاء الحال من غير حال حاصل ، وذلك عين التفات .

قيل كان النصر آبادي رحمه الله كثير الولوج بالسباع فموتب في ذلك فقال : نعم هو خير من أن تقعد وتنتاب ، فقال له أبو عمرو بن عبيد وغيره من إخوانه : هيات يا أبا القاسم زلة في السباع شر من كذا وكذا سنة تغتاب الناس . وذلك أن زلة السباع إشارة إلى الله تعالى وترويح الحال بصريح الحال . وفي ذلك ذنوب متعددة منها : أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئا وما وهب له . والكذب على الله من أقبح الزلات ، ومنها : أن ينز بعض الحاضرين فيحسن به الظن والإغراء خيانة ، قال عليه السلام : من غشنا فليس منا . ومنها أنه إذا كان مبتلا ويرى بعين الصلاح فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المعتد فيه فيفسد عقيدته في غيره عن يظن به الخير من أمثاله ،

فيكون سببا إلى فساد العقيدة في أهل الصلاح ، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته ؛ فينقطع عنه مدد الصالحين ، ويتشعب من هذا آفات كثيرة يثر عليها من يحث عنها ومنها أنه يهجو الحاضرين إلى موافقته في قيامه وقعوده فيكون مثكلنا مكلفا للناس بباطله ، ويكون في الجمع من يرى بؤر القناسة أنه مبطل ويحمل على نفسه الموافقة للجمع مداريا ويكثر شرح الذنوب في ذلك فليطبق الله في ربه ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته حركة المرتضى الذي لا يجد سبيلا إلى الإمساك ، وكالماطس الذي لا يقدر أن يرد الغطسة ، وتكون حركته بمثابة النفس الذي يدعو إليه داعية الطبع قهرا .

قال السرى : شرط الواجد في زعته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجع ، وقد يقع هذا لبعض الواجدين نادرا ، وقد لا يبلغ الواجد هذه الرتبة من الغيبة ، ولكن زعته تخرج كالتنفس بنوع إرادة مبروجة بالاضطرار . فهذا الضبط من رعاية الحركات ورد الزعقات وهو في تمزيق الثياب أكد ، فإن ذلك يكون إتلافا للمال وإنفاق الحال ، وهكذا رى الخرقه إلى الحادى لا يبنى أن يفعل إلا إذا حضرته نية محتجب فيها التكلف والرمادة وإذا حسنت النية فلا بأس بإلقاء الخرقه إلى الحادى ، فقد روى عن كعب بن زهير أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وأشهده آياته التي أولها .

بانت سعاد قلبي اليوم متبول • • • • •

حتى انتهى إلى قوله فيها .

إن الرسول سيف يستعده به • مهتد من سيف الله مسلول

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنت ؟ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، أنا كعب بن زهير ؟ فرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه بردة كانت عليه ، فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب بن زهير : بنتا بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشرة آلاف ، فوجه إليه ما كنت لأورث بؤب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا ، فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بمشرين ألفا وأخذ البردة . وهى البردة الباقية عند الإمام التاصر لعين الله اليوم حادت بركتها على أيامه الزاهرة .

وللمتصوفة آداب يتعاهدونها ، ورعايتها حسن الأدب في الصحة والمعاشرة ، وكثير من السلف لم يكونوا يمتدنون ذلك ؛ ولكن كل شيء استحسونه وتواطوا عليه ولا ينكره الشرع لاجبه للإسكار فيه . فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك في السباع فوقعت منه خرقه أو نازله وجد ورى حمامته إلى الحادى ، فاستحسن عندهم موافقة الحاضرين له في كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ ، وإن كان ذلك من الشبان في حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان في ذلك ، وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين في ترك الموافقة للشبان ، فلذا استكروا عن السباع ورد الواجد إلى خرقته ، ويوافقه الحاضرون برفع المائم ثم ردها على الروس في الحال للروافة ، والخرقة إذا رميت إلى الحادى هى للحادى إذا قصد إعطائه إياها ، وإن لم يقصد إعطائها للحادى ، فقيل هى للحادى لأن المحرك هو ومنه صدر الموجب لرى الخرقه . وقال بعضهم : هى للجمع والحادى واحد منهم لأن المحرك قول الحادى مع بركة الجمع في إحداث الوجد ، وإحداث الوجد لا يتقاصر عن قول القائل فيكون الحادى واحدا منهما في ذلك .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : من وقف بمكان كذا فله كذا ، ومن قتل فله كذا ومن أسر فله كذا ، ففسارح الشبان وأقام الشيوخ والوجه عند الرايات ، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبان أن يجعل ذلك لهم ، فقال الشيوخ : كنا ظهرا لكم وردنا فلا تنهوا بالقتام دوتا ، فأزله الله تعالى (يستلوثك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) قسم النبي صلى الله عليه وسلم بينهم بالسوية .

وقيل : إذا كان القول من القوم يجعل كواحد منهم ، وإذا لم يكن من القوم فإنا له قيمة يؤثر به ، وما كان من خرق الفقراء يقسم بينهم . وقيل إذا كان القول أجيبا فليس له منها شيء ، وإن كان متبرعا يؤثر بذلك ، وكل هذا

إذا لم يكن هناك شيخ يحكم ، فأما إذا كان هناك شيخ يهاب ويمثل أمره فالشيخ يحكم في ذلك بما يرى ، فقد تختلف الأحوال في ذلك والشيخ اجتهد فيعمل ما يرى فلا اعتراض لأحد عليه ، وإن فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين فرضى القوال والقوم بما رضوا به وعاد كل واحد منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك ، وإذا أمر واحد على الإتيان بما خرج منه لئلا له في ذلك يؤثر بخرقته الحادى ، وأما تزريق الخرقه المجروحة التي مر فيها واحد صادق عن غلبة سلبت اختياره ككتابة النفس ، فمن يعتمد إسماعه في تفرقتها وتزريقها التبرك بالخرقه لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق وتزريق الخرقه أثر من آثار الوجد ، فصارت الخرقه متأثرة بأثر وراثى من حقها أن تغدى بالنفوس وتترك على الرموس إكراما واعازا :

تضوع أرواح غيد من ثيابهم • يوم القدوم لقرب العهد بالدار

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل النبي ويتبرك به ويقول « حديث عهد بربى » فالخرقة المعروفة حديثة العهد ، لحكم المجروحة أن تفرق على الحاضرين ، وحكم ما يلبسها من الخرق الصحاح أن يحكم فيها الشيخ ، إن خصص بشئ منها بعض الفقهاء فله ذلك ، وإن خرقها خرقا فله ذلك ، ولا يقال هذا تفريط وسرف فإن الخرقه الصفيرة ينتمى بها في موضعها عند الحاجات كالكبيرة .

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حلة حرير فأرسل بها إلى طرجمت فيها فقال لى « ما كنت لأكره لنفسى شيئا أرضاه لك فشققها بين النساء خرا » وفى رواية أتيت فقلت : ما أصنع بها اليسها ؟ قال : لا ، ولكن اجعلها خرا بين الفواطم ، أراد فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة بنت حمزة ، وفى هذه الرواية أن الهدية كانت حلة مكشوفة بحرير ، وهذا وجه فى السنة تزريق الثوب وجملة خرقا .

حكى أن الفقهاء والصوفية ينسابور اجتماعوا في دعوة فوقعت الخرقه ، وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبى محمد الجوينى وشيخ الصوفية الشيخ أبى القاسم القشيري ؛ فقسمت الخرقه على عاداتهم ؛ فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرا ، هذا سرف وإضاعة المال ، فسمع أبو القاسم القشيري ولم يقل شيئا حتى فرغت القسمة ، ثم استدعى الخادم وقال : انظر في الجمع من ممة بجمادة خرقا اتقى بها ، لجاءه بسجادة ثم أحضر رجلا من أهل الخيرة ، فقال : هذه السجادة بكم تشتري في المزاد ؟ قال بدینار ، قال : ولو كانت قطعة واحدة كم أساوى ؟ قال : نصف دينار ثم التفت إلى الشيخ أبى محمد وقال : هذا لا يسمى إضاعة المال . والخرقة المعروفة تقدم على جميع الحاضرين من كان من الجنس أو من غير الجنس إذا كان حسن الظن بالقوم ممتددا للتبرك بالخرقه .

روى طاروق بن شهاب أن أهل البصرة غزوا نهاوند ، وأدمم أهل الكوفة وعلى أهل الكوفة عمار بن ياسر ؛ فظفروا وأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة من التنيمة شيئا ، فقال رجل من بني تميم لعمار . أهيأ الأجدع تريد أن تقارنكا في غنائنا ، فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب عمر رضى الله عنه ، إن التنيمة لمن شهد الوقعة ، وذهب بعضهم إلى أن المجرع من الخرق يقسم على الجمع وما كان من ذلك صحيحا يعطى للقوال ، واستدل بما روى عن أبي قتادة قال : لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين وفرغنا من القوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلًا فله سلبه » وهذا له وجه في الخرقه الصحيحة ، فأما المجروحة لحكمها إسهام الحاضرين والقسمة لهم ، ولودخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرا قسم له . روى أبو موسى الأشعري رضى الله عنه قال : لما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خبر ثلاث ، فأقسم لنا ولم يسهم لاحد لم يشهد المعركة غيرها ، ويكره القوم حضور غير الجنس وعدم في السباع كنزهد لأذوق له من ذلك فينكر ما لا ينكر ، أو صاحب دنيا يهوج إلى المداواة والتكلف ، أو متكلف للوجد يعيش الوقت على الحاضرين بتواجده .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن والده أبى الفضل الحافظ القنصلى قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفرى

بسرخص قال أخبرنا أبو علي الفضل بن منصور بن نصر الكاغدي السمرقندي إجازة ، قال حدثنا الهيثم بن كليب قال أخبرنا أبو بكر عمار بن اسحق قال حدثنا سعيد عامر عن شعبة عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال :
 كما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله إن قراء أمتك يدخلون
 الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ؛ ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل فيكم من يشدنا ؟
 فقال بدوي : نعم يا رسول الله فقال مات فأنشأ الأعرابي :

قد لست حية الهوى كجدي * فلا طيب لها ولا راق

إلا الحبيب الذي شغفت به * فنسده رفيق وتراقي

فتواجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فلما فرغوا أوى كل واحد منهم إلى مكانه ، قال معاوية بن أبي سفيان ما أحسن لعبيكم يا رسول الله ، فقال : ه يا معاوية ليس بكرم من لم يهتد
 عند سماع ذكر الحبيب ، ثم قسم رداءه رسول الله صلى الله عليه وسلم على من حاضرهم بأربابية قطعة . فهذا الحديث
 أورده مسنداً كما سمعناه ووجدناه ، وقد تكلم في صحته أصحاب الحديث . وما وجدنا شيئاً نقل عن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يشاكل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم إلا هذا ، وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان
 في سماعهم وتميزهم الخرق وقسمتها أن لوصح والله أعلم .

ويحتاج سري أنه غير صحيح ، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه على
 ما بلغنا في هذا الحديث ويأتي القلب قبوله ، والله أعلم بذلك .

الباب السادس والعشرين : في خاصية الأربعينية التي يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوب القوم من الأربعين ، شيئاً مخصوصاً لا يطلونه في غيرها ؟ ولكن لما قرعهم مخالفات حكم الأوقات
 أحبوا تعقيد الوقت بأربعين رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم ، فيكونوا في جميع أوقاتهم كيتهم في
 الأربعين ، على أن الأربعين خصت بالله كرفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخلص الله أربعين صباحاً ظهرت
 ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ، وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكر في قصة موسى عليه السلام وأمره بتخصيص
 الأربعين بمزيد بمثل قال الله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وذلك
 أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى إذا أملاك عدوم واستغفروهم بأيديهم بأنهم بكتاب
 من عند الله تعالى فيه تبيان الحلال والحرام والحدود والأحكام . فلما فعل الله ذلك وإهلاك فرعون سأل موسى ربه
 الكتاب ، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوماً . وهو ذو القعدة - فلما تمت الثلاثون ليلة أنكر غلوف فله فسوك
 يعود خرنوب ، فقالته الملائكة : كنا نשמ من فيك راحة المسك فأفسدته بالسواك . فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة
 أيام من ذي الحجة وقال له أما عذت أن خوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ؟ ولم يكن صوم موسى عليه
 السلام ترك الطعام بالآثار وأكله بالليل ، بل طوى الأربعين من غير أكل . فدل على أن خلو المدة من الطعام أصل
 كبير في الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستمد لمسكلة الله تعالى .

والعلوم الدينية في قلوب المتفطنين إلى الله تعالى ضرب من المسكلة : ومن انقطع إلى الله أربعين يوماً غلصت أمانته أهدا
 نفسه بخفة المدة بفتح الله عليه العلوم الدينية كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . غير أن تعيين الأربعين من المدة في
 قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أمراءه تعالى موسى عليه السلام بذلك والتحديد والتعقيد للأربعين لحكمة فيه .
 ولا يطلع أحد على حقيقة ذلك إلا الأنبياء إذا عرفهم الحق ذلك أو من خصه الله تعالى بتعريف ذلك من غير
 الأنبياء . ويلوح في سر ذلك معنى والله أعلم .

وذلك أن الله تعالى لما أراد بشكوك آدم من تراب قدر التخمير بهذا القدر من البدن . كما ورد في خرطبة آدم

يبدد أربعين صباحاً ، فكان آدم لما كان مستصلاً لمارة الدارين وأراد الله تعالى منه عمارة الدنيا كما أراد منه عمارة الجنة كونه من التراب تركيباً يناسب عالم الحكمة والشهادة ، وهذه الدار الدنيا ، وما كانت عمارة الدنيا تأتي منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضية سفلية بحسب قانون الحكمة . فمن القرب كونه ، وأربعين صباحاً خريطته ؛ ليبدأ بالتخمين أربعين صباحاً بأربعين حجاً من الحضرة الإلهية كل حجاب هو معنى مودع فيه يصلح به لمارة الدنيا ويتوق به عن الحضرة الإلهية ومواطن القرب ؛ إذ لو لم يتوق بهذا الحجاب ما عرته الدنيا . فتأصل البدن عن مقام القرب فيه لمارة عالم الحكمة وخلافة الله تعالى في الأرض . فالتبذل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه والانتزاع عن التوجه إلى أمر الماش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع . وعلى قدر زوال كل حجاب ينجلي ويستخدم زلاقي القرب من الحضرة الإلهية التي هي نبع العلوم ومصدرها . فإذا تمت الأربعون زالت الحجب وانصبت إلى العلوم والمعارف انصباباً . ثم العلوم والمعارف هي أعيان انقلب أنواراً باتصال أكسير نور العظمة الإلهية بها ، فانقلبت أعيان حديث النفس علوماً مالم الحامية ، وتصدت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة ، فلولا وجود النفس وحديثها ما ظهرت العلوم الإلهية ؛ لأن حديث النفس وعاء وجودي لقبول الأنوار وما للقلب في ذاته لقبول العلم شيء ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» ، أشار إلى القلب باعتبار أن القلب وجهها إلى النفس باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة ، وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب ، فيستمد القلب العلوم المكتونة في النفس ويخرجها إلى اللسان الذي هو ترجمانه ، فظهور العلوم من القلب لأنها متأصلة فيه ، فلقلب والروح مراتب من قرب اللهم سبحانه وتعالى فوق رب الإلهام ، فالبدن بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم وتندرد في الخاء .

الناس معادن كمدائن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وفي كل يوم بإخلاصه في العمل لله يكشف طبقة من الطبايع الترابية الجبلية المبدعة عن الله تعالى إلى أن يكشف باستكمال الأربعين أربعين طبقة ، في كل يوم طبقة من أطباق حجابها ، وآية محبة هذا العبد وعلامة تأثره بالأربعين ووفائه بشروط الإخلاص أن يزهّد الأربعين في الدنيا ويتجافى عن دار النور وبئب إلى دار الخلود ، لأن الزهد في الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة ، ومن لم يزهّد في الدنيا ما ظفر بالحكمة ، ومن لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تبين أنه قد أخذ بالشروط ولم يخلصه تعالى ، ومن لم يخلصه تعالى ، لأن الله تعالى أمرنا بالإخلاص كأمرنا بالمعالي فقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل إجازة قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف إجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال أخبرنا أبو منصور الضبي قال حدثنا محمد بن أشرس قال حدثنا حفص بن عبد الله قال حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عاصم عن زر عن صفوان بن عسال رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إذا كان يوم القيامة يحيى الإخلاص والشرك يمشون بين يدي الرب عز وجل ، فيقول الرب للإخلاص : اطلق أنت وأهلك إلى الجنة . ويقول للشرك : اطلق أنت وأهلك إلى النار » . وبهذا الإسناد قال السلمي سمعت علي بن سعيد وسأله عن الإخلاص ما هو ؟ قال سمعت إبراهيم التقي وسأله عن الإخلاص ما هو قال سمعت محمد بن جعفر الحنفي وسأله عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن يشار عن الإخلاص ما هو قال سألت أبا يعقوب الشروطي عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن علي الهجيمي عن الإخلاص ما هو قال سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو قال سألت الحسن عن الإخلاص ما هو قال سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ما هو قال : سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : هو سر من سرى أودعته قلب من أحببت من عبادي .

فإن الناس من يدخل الخلوة على مراغة النفس ، إذ النفس بطبعها كارهة للخلوة ميالة إلى مخالطة الخلق ، فإذا أزعجها عن مقام عبادتها وحسبها على طاعة الله تعالى يفتقب بكل مرارة تدخل عليها حلوة في القلب .

قال ذوالنون رحمه الله : لم أوشيت أبعد على الإخلاص من الخلوة ، ومن أحب الخلوة ، فقد استمسك بمود الإخلاص وظفر بركن من أركان الصدق . وقال الشبلي رحمه الله لرجل استوصاه : الهم الوحدة واع اسمك عن القوم واستقبل الجدار حتى تموت ، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : الوحدة مئة الصديقين .

ومن ثلث من يبعث من باطنه داعية الخلوة وتجذب النفس إلى ذلك وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد وقد روى من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب [ملا] قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم اسمعيل بن أحمد القرطبي قال أخبرنا جعفر بن الحكك المكي قال أخبرنا أبو عبد الله الصنعاني قال أخبرنا أبو عبد الله البغوي قال أخبرنا إسحق بن الصبري قال أخبرنا عبد الرزاق عن معمر قال : أخبرني الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرحي : الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبيب إليه لخله فكان يأتي حراء فيتحدث فيه الليالي ذات العدد ويتوعد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيزود لثلاثها حتى جاءه الحلق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارئ ؟ فأخذني فغطاني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ؟ فأخذني فغطاني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ؟ فأخذني فغطاني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق) حتى بلغ (ألم يعلم) فرجع بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفف بواديه حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروح فقال خديجة : مالي .. وأخبرها الخبر . فقال : قد خشيت على عقل ، فقالت : كلا أشر فواءه ما يخزيك أقبالاً منك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المدوم وتقرى الضيف وتأمين على نواب الحق ، ثم انطلقت به خديجة مرضى الله عنها حتى أتته به ورقة بن نوفل وكان امراً تصر في الجمالية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخنا كبيراً قديمي ، فقالت له خديجة : يا معمر سمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوخرجيهم ؟ قال ورقة : نعم إنهم لم يأت أحد قط بما جئت به إلا عودى وأودى وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ .

وحدث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن فترة الرحي فقال في حديثه : فيينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجلست منه رعباً فرجعت فقلت : زملوني زملوني ؟ فذكروني فأرسل الله تعالى (يا أيها المشرقم فأندبر) إلى (والجز فاجبر) .

وقد نقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب مراراً كي يردى نفسه من شواقي الجبال ، فكان لا يفي ذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدي له جبرائيل عليه السلام فقال : يا محمد إنك لرسول الله حقاً فيسكن لك جاشه ؛ وإذا طالت عليه فترة الرحي عاد لمثل ذلك فيتبدي له جبريل فيقول له مثل ذلك ، فهذا الأخير المتيبة عنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الأصل في إرشاد المشايخ الخلوة للربدين والطالين ؛ فإني إذا أخلصوا تعالى في خلواتهم يفتح عليهم ما يؤنسهم في خلوتهم تعويضاً من الله إياهم عما تركوا لأجله ، ثم خلوة القوم مستمرة ، وإنما الأربعون واستكملها له أثر ظاهر في ظهور مبادئ بشار الحق سبحانه وتعالى وسنوح مواهب السلية .

الباب السابع والعشرون : في ذكر فتوح الاربعينية

وقد غلط في طريق الخلوة والاربعينية قوم وحرفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان وفتح عليهم باباً

من الفرور ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوة بالإخلاص ، وسعوا أن المشايخ والصوفية كانت لهم خلوات وظهّرت لهم وقائع وكوشفوا بمراتب وعجائب فدخلوا الخلوة لطلب ذلك ، وهذا عين الاعتلال وبعض الضلال ، وإنما القوم اختاروا الخلوة والوحدة لسلامة الدين وتفقد أحوال النفس وإخلاص العمل لله تعالى .

نقل عن أبي عمرو الأنصاري أنه قال : لن يصغر المائل فهم الأخير إلا بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول ، والمواطن التي ينبغي أن يعرف منها أمراده هو أم متقص ؟ فقليله أن يطلب مواضع الخلوة لكي لا يمارضه شاغل فيفسد عليه ما يريد .

أنبا أنطامرين أبي الفضل إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة قال . أنبأنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا تمام الغربي يقول من اختار الخلوة على الصعبة فينبغي أن يكون غالبا من جميع الأفكار إلا ذكر به عز وجل ، وغالبا من جميع المرادات للإمراد به ، وغالبا من مطالبة النفس من جميع الأسباب فلن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته ترقمه في فتنة أولية .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر إجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الوراق وقال له : أوصني ، فقال : وجدت الدنيا والآخرة في الخلوة والقلّة وجدت شرهما في الكثرة والاختلاط .

فمن دخل الخلوة مبتلا في دخوله دخل عليه الشيطان وسول له أنواع الطغيان ، وامتلا من الفرور والهمال فظن أنه على حسن الحال ، ففد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الآداب واستجمعوا نفوسهم بالدلالة عن الخلوة ، ومنعوا الشواغل من الحواس كغفل الرهايين والبرامة والغفلافة ، والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا ، فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق للتائبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتج توتر القلب والزهد في الدنيا وسلاوة الذكر ، والمعاملات بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك ، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتج صفاء في النفس يستعان به على اكتساب علوم الرياضة مما يعتق به الفلاسفة والديريون - خذلهم الله تعالى - وكلما أكثر من ذلك بعد عن الله . ولا يزال المبتلى على ذلك يستغنى الشيطان بما يكتسب من العلوم الرباطية أربما قد يقرأ له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه الركون التام ويظن أنه فاز بالمقصود ، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من التصاري والبرامة ، وليس هو المقصود من الخلوة يقول بعضهم إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة ، وقد يفتح على الصادقين شيء من خوارق العادات ، وصدق الفراسة ، ويقيّن ما سيحدث في المستقبل ، وقد لا يفتح عليهم ذلك ، ولا يقدح في حالم عدم ذلك ، وإنما يقدح في حالم الانحراف عن حد الاستقامة ، فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سببا لزيد باقتحامه والفاغى لم إلى صدق المجاهدة والمعامله والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لزيد بعده وغروره وحمايته واستطالته على الناس وازدراؤه بالحق ، ولا يزال به حتى يخلع ربة الإسلام عن عنقه وينكر الحدود والأحكام للحلال والحرام ، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى ويترك متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وترندق بعزّه بالله من الضلال ، وقد يلوح لأقوام خيالات يتفنونها وقائع ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك ، فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا أخلص لله وأحسن نيته وقصد في الخلوة أربعين يوما أو أكثر ؛ فهم من يباشر بباطنه صفو اليقين ويرفع الحجاب عن قلبه ويصير كأنه قال لهم : رأي قلبي ربي ، وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات وكف الجوارح وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر على الأوقات ، وتارة بإيادته الحق لموضع صدقه وقوة استعداده مبادأة من غير عمل وجد منه ، وتارة يهد ذلك بملازمة ذكر واحد من الآداب لآله لا يزال يردد ذلك الذكر ويقول ، وتكون عبادته الصلوات الحسن بسننها الرابطة لحسب ، وسائر أوقاته مشغولة بالذكر الواحد لا يتخللها فتور ، ولا يوجد منه قصور ، ولا يزال يردد ذلك الذكر ملازما به حتى في طريق الوضوء

وساعة الأكل لا يفتر عنه .

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلمة لا إله إلا الله ، وهذه الكلمة لها خاصية في تدوير الباطن وجمع الملم إذا داوم عليها صادق مخلص ، وهي من مواهب الحق لهذه الأمة ، وفيها خاصية لهذه الأمة ، فبما حدثنا شيخنا ضياء الدين إملاء قال : أخبرنا أبو القاسم الدمشقي الحافظ قال أخبرنا عبد الكريم بن الحسين قال أخبرنا عبد الوهاب الدمشقي قال أخبرنا محمد بن خريم قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا الوليد بن مسلم قال أخبرنا نعيم الرحمن بن زيد عن أبيه : أن عيسى بن مريم عليه السلام قال : رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة ؟ قال : أمة محمد عليه الصلاة والسلام علماء أخفاء أقياء حلما أصفياء حكماء أنبياء يرضون مني القليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . ياعيسى هم أكثر سكان الجنة لأنها لم تذلل لسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذلل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت رقابهم .

وعن عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : إن هذه الآية مكتوبة في التوراة : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحزرا للؤمنين وكذرا للأعين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس يفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزى بالسيرة السيئة ولكن يصفو ويصفح ولأن أقبضته حتى تقام به الملة الموجبة بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، وينتهوا أعينا عما وآذانا عما وقلوبا غلغا ، فلا يزال العبد في خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه مع مواطأة القلب حتى يصير الكلمة متأصلة في القلب من ملة لحديث النفس ينوب منها في القلب عن حديث النفس ؛ فإذا استمرت الكلمة وسهلت على اللسان يتشربها القلب ، فلو سكنت اللسان لم يسكن القلب ، ثم تتجهر في القلب وتتجهر ما يستكن نور اليقين في القلب ، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزال نورها متجوهرها ويتخذ الذكر مع روية عظمة المذكور سبحانه وتعالى ، ويصير الذكر حديث ذكر الذات ، وهذا الذكر هو الشاهدة والمكاشفة والمبينة - أعني ذكر الذات يتجهر نور الذكر - وهذا هو المقصد الأنصبي من الخلوة . وقد يحصل هذا من الخلوة لا يذكر الكلمة بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة واجتهد في مواطأة القلب مع اللسان ، حتى تجرى التلاوة على اللسان ، ويقوم معنى الكلام مقام حديث النفس ، فيدخل على المبدئية في التلاوة والصلاة وينتور الباطن بتلك السهولة في التلاوة والصلاة يتجهر نور الكلام في القلب ويكون منه أيضا ذكر الذات ويجمع نور الكلام في القلب مع مطالعة عظمة المتكلم سبحانه وتعالى ، ودون هذه الموهبة ما يفتح على العبد من العلوم الإلهامية الددنية ، وإلى حين بلوغ العبد هذا المبلغ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه قد يغيب في الذكر من كمال أنسه وحلاوة ذكره حتى يلتحق في غيبته في الذكر بالنائم ، وقد تنجلي له الحقائق في لبسة الخيال أولا كما تنكشف الحقائق للنائم في لبسة الخيال ، كن وأى في المنام أنه قتل حية فيقول له المعبر : نظفر بالدمر ، فظفره بالدمر وكشف كاشفه الحق تعالى به ، وهذا الظفر روح مجرد صاغ مثل الرزيا له جسدا لهذا الروح من خيال الحية ، فالروح الذى هو كشف الظفر إخبار الحق ، ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبثاق نفس الرائي في المنام من استصحاب القوة الوهية والخيالية من اللفظة يتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية فافتقر إلى التعبير ، إذ لو كشف بالحققة التى هو روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير ، فكان يرى الظفر ويصح الظفر . وقد يتجرأ الخيال باستصحاب الخيال والوهم من اللفظة في انما من غير حقيقة فيكون المنام أضنان أحلام لا يبر وقد يتجرأ لصاحب الخلوة الخيال المنبث من ذاته من غير أن يكون وطء حقيقة فلا يبنى على ذلك ولا يلتفت إليه ، فليس ذلك واقعة وإنما هو خيال ، فأما إذا غاب الصادق فيه ذكره تعالى حتى يغيب عن المحسوس بحيث لا يدخل عليه داخل من الناس لا يعلم به لغيبته في الذكر ، فمتد ذلك قد يفتن في الابتداء من نفسه مثال وخيال يفتن فيه روح الكشف فلذا عاد من غيبته فلما يأتيه تفسيره من باطنه موهبة من الله تعالى ولما يفسره له شيخه ، كما يبر المعبر المنام ويكون ذلك واقعة لأنه كشف حقيقة في لبسة مثال ، وشرط صحة الرقعة الإخلاص في الذكر أولا ثم الاستغراق في الذكر ثانيا

وعلمة ذلك الزهد في الدنيا وملازمة التقوى لأن الله جعله بما يكشف به في واقعه مورد الحكمة ، والحكمة تحكم بالزهد والتقوى ، وقد يتجرد للذاكر الحقائق من غير أية المثال فيكون ذلك كشفا وإخبارا من الله تعالى إياه ، ويكون ذلك تارة بالروية وتارة بالسماع ، وقد يسمع في باطنه وقد يطرئ ذلك من الهواء لا من باطنه كالمواقف يعلم بذلك أمرا يريد الله إحداه أو لنفيه فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيدا ليقينه ، أو يرى في الختام حقيقة الشيء .
نقل عن بعضهم أنه أتى بشراب في قدح فوضعه من يده وقال : قد حدث في العالم حدث ، ولا أشرب هذا دون أن أعلم ما هو ؛ فأنكشف له أن قوما دخلوا مكة وقتلوا فيها .

وحكى عن أبي سليمان الخواص قال : كنت راكبا حاراً إلى يوما ، وكان يؤذيه الذباب فيطأني رأسه ؛ فكنيت أحزب رأسه بنسبة كانت في يدي ؛ فرفع الحمار رأسه إلى وقال : احزب فإنك على رأسك تعزب ؛ قيل له : يا أبا سليمان وقع لك ذلك أروعته ، فقال : سمعت يقول كما سمعتي . وحكى عن أحمد بن عظاما وذاكري قال : كان لي مذهب في أمر الطهارة ؛ فكنت ليلة من الليالي أستحي إلى أن معنى تلك الليل ولم يطلب قلبي فتضجرت ؛ فكبت وقلت : يارب العفو ؛ فسمعت صوتا لم أر أحدا يقول يا أبا عبد الله العفو في العلم .

وقد بكشف الله تعالى عبده بآيات وكرامات تربية للعباد وتقوية ليقينه وإيمانه . قيل : كان عند جعفر المحدث رحمه الله فصل له قيمة ، وكان يوما من الأيام راكبا في السيارة في دجلة ، فهم أن يعلو الملاح قطعة وحل الحرة فوقع الفص في الدجلة ، وكان عنده دعاء العناء يجرب ، وكان يدعو به فوجد الفص في وسط أوراقي كان يتصفحها والدعاء هو أن يقول : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع على ضالتي . وسمعت شيخنا بهمدان حكى له شخص أنه كشف في بعض خلواته بولد له في جيحون كاد يسقط في الماء من السفينة قال : فزجرته فلم يسقط . وكان هذا الشخص بنواحي همدان وولده مجيحون ؛ فلما قدم الولد أخبر أنه كاد يسقط في الماء فسمع صوت والده فلم يسقط .
وقال عمر رضي الله عنه : ياسارية الجبل - على المنبر بالمدينة وسارية بنهاوند - فأخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو ؛ فقتل لسارية كيف علت ذلك ؟ فقال سمعت صوت عمر وهو يقول : ياسارية الجبل .

مثل ابن سالم وكان قد قال : للإيمان أربعة أركان : ركن منه الإيمان بالقدر ، وركن منه الإيمان بالحكمة ، وركن منه التبري من الحول والقوة ، وركن منه الاستعانة بالله عز وجل في جميع الأشياء قيل له : ما معنى قولك الإيمان بالقدر ؟ فقال هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالمشرق - قائما على يمينه - ويكون من كرامة الله أنه أن يعطيه من القوة ما ينقلب من يمينه على يساره ؛ فيكون بالمغرب يؤمن بجزاز ذلك وكونه .

وحكى في تقرير أنه كان بمكة وأرجف على شخص يتنداد أنه قد مات ؛ فكشفه الله بالرجل وهو راكب يمشي في سوق يتنداد فأخبر إخوانه أن الشخص لم يموت . وكان كذلك حتى ذكر لي هذا الشخص أنه في تلك الحالة أتى كوشف بالشخص راكبا قال : رأيته في السوق وأنا أسمع بأذني صوت المطرقة من الحداد في سوق يتنداد وكل هذه مواهب الله تعالى وقد يكشف بها قوم وقطعي ، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا لأن هذه كلها تقوية اليقين . ومن منع صرف اليقين لاساحة له إلى شيء من هذا . فكل هذه الكرامات دون ما ذكرناه من تجوهر الذكر في القلب ووجوده ذكر الذات ، فإن تلك الحكمة فيها تقوية للربيدن وتزينة السالكين ليردادوا بها يقينا ينجذبون به إلى مراعاة النفوس والسلو عن ملاذ الدنيا ويستنهض منهم بذلك ساكن عزمهم لمارتهم بالوقت بالقرات ؛ فينروحون بذلك وبروقن لطيفة من كوشف بصرف اليقين من ذلك لمكان أن نفسه أسرع إجابته وأسهل انقيادا وأنهم استمداداً . والأولون استلن بذلك منهم ما استوعرو واستكشف منهم ما استتر .

وقد لا يمنع صور ذلك الرهاين والبراهمة عن هو غير منتج سهل المدي وراكب طريق الردي ليكون ذلك في حقهم مكر واستدراجا ؛ ليستصنوا حالم ويستروا في مقار الطرد والبذل ليقام لهم فيها أراد الله منهم من العمى والضلال والردي والويل ؛ حتى لا يغتر السالك يسير شيء يفتح له ، ويعلم أنه لومش على الماء والهواء لا ينفعه ذلك حتى يؤدي

حق التقوى والزهّد ، فأما من تقوى بخيال أوقع بحال ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص يدخل الخلوة بالزور ويخرج بالفرور ، فيرفض العبادات ويستحقر ما وينسب له لذة المعاملة وتذهب عن قلبه مية الشريعة وينتفع في الدنيا والآخرة . فليعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بممارسة الأوقات وكف الجوارح عن المنكروها ، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة إمامة الأولاد وتوزيعها على الأوقات ، ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد ويصلح لقوم مداومة المراقبة ، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأولاد ، ولقوم الانتقال من الأولاد إلى الذكر ، ومعرفة مقدار ذلك بعمله المصحوب للشيخ المطلع على اختلاف الأوضاع وتنوعها مع نصحه للأمة وشفتقه على الكفاية ، يريد المرید لله لالنفسه ، غير مبتلى بهوى نفسه ، محبا للاستبعا ، ومن كان محبا للاستبعا فإفساده مثل هذا أكثر مما يصلحه .

الباب الثامن والعشرون : في كيفية الدخول في الأربعينية

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخلطة خرجته ساجدا أربعين يوما و ليلة حتى أتاه الغفران من ربه . وقد تقرر أن الوحدة والتملة ملاك الأمر وممسك أرباب الصدق ، فمن استمرت أوقاته على ذلك لجميع عمره خلوة وهو الأسلم لديه ، فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أولا ثم بالأهل والأولاد ثانيا فليجعل لنفسه من ذلك قصيدا .

نقل عن سفيان الثوري فيما روى أحمد بن حرب عن خالد بن زيد عنه أنه قال : كان يقال ما أخلص عبد لله أربعين صباحا إلا ألبت الله سبحانه الحكمة في قلبه وزمده الله في الدنيا ورجه في الآخرة وبصره بما الدنيا ودوامها ، فيتمادى العبد بنفسه في كل سنة مرة ، وأما المرید الطالب إذا أراد أن يدخل الخلوة فأكل الأمر في ذلك أن يتجرد من الدنيا ويخرج كل ما يملكه وينتقل غسلا كاملا - بعد الاحتياط للثوب والمصلى بالنظافة والطهارة - ويصل ركعتين ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه بيبكاء وتضرع واستكانة وتخضع ، ويسوى بين السريرة والعلاية ولا ينطوى على غل وغش وحسد وخيانة ، ثم يقعد في موضع خلوته ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة وصلاها جماعة ، فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ ، فإن وجد تفرقة في خروجه يكون له شخص يصل معه جماعة في خلوته ، ولا ينبغي أن يرضى بالصلاة منفردا البتة فيترك الجماعة يخشى عليه آفات ، وقد رأينا من يتشوش عقله في خلوته ولعل ذلك بدوهم إصراره على ترك صلاة الجماعة ، غير أنه ينبغي أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذا كر لا يشتر عن الذكر ، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى ، ولا يصنى إلى ما يسمع لأن القوة الحافظة والمختلة كلوح ينتش بشكل صرفي ومسموع ، فيكثر بذلك الوسواس وحديث النفس والخيال ، ويمتد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيرة الإحرام ، فإذا سلم الإمام والصرف ينصرف إلى خلوته ، ويتقي في خروجه استجلاء نظر الحلق إليه وعلمهم بجلوسه في خلوته ، فقد قيل : لا تلطمع في المنزل عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس ، وهذا أصل ينفسد كثير من الأعمال إذا أهمل وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر ، ويكون في خلوته جماعا وقته شيئا موهبا لله بإدامة فعل الرضا إما ثلاثة أو ذكرا أو صلاة أو مراقبة ، وأى وقت قدر عن هذه الأنعام ينأى . فإن أراد تعيين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر أتى بذلك شيئا فشيئا ، وإن أراد أن يكون محكم الوقت يمتد أخف ماعل قلبه من هذه الأنعام ، فإذا قدر عن ذلك ينأى ، وإن أراد أن يبقى في سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعة أو ساعتين فعمل ، ويلزم في خلوته إدامة الوضوء ولا ينأى إلا عن غلبة لبد أن يدفع النوم عن نفسه مرات . فيكون هذا شغلا ليله ونهاره ، وإذا كان ذا كر لركلة : لا إله إلا الله . وسمت النفس الذكر باللسان يقولها قبله من غير حركة اللسان . وقد قال سهل بن عبد الله إذا قلت : لا إله إلا الله . مد الكلمة وانظر إلى قدم الحق فأنبتوا بطل ما سواه ، وليعلم أن الأمر كالسلسلة يتداعى - لمحة حلقة فليكن دائم التلزم بفعل الرضا .

وأما قوت من الأربعينية والخلوة فالأولى أن يتبع بالخبر والمألوف ويتناول كل ليل قرا واحدا - بالبنادى -

يتناوله بعد العشاء الآخرة ، وإن قسمة نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخف للبدنة وأعون على قيام الليل وإحيائه بالذكر والصلاة ، وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليعمل ، وإن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام ، وإن كان الإدام شيتا يقوم مقام الحنظل ينقص من الحنظل بقدر ذلك ، وإن أراد التقليل من هذا القدر أيضا ينقص كل ليلة دون القصة بحيث ينتهي بثلثه في العشر الأخير من الأربعين إلى نصف رطل وإن قوى قمع النفس بنصف رطل من أول الأربعين ونقص يسيرا كل ليلة بالتدرج حتى يهود فطوره إلى ربيع رطل في العشر الأخير .

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء : قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام والاعتزال عن الناس ، وقد جعل للجوع وقتان : أحدهما : آخر الأربع والعشرين ساعة فيكون من الرطل لكل ساعتين أو قية بأكلة واحدة يجعلها بعد العشاء الآخرة أو يقسمها أكنتين كما ذكرنا ، والوقت الآخر : على رأس الثنتين وسبعين ساعة ؛ فيكون الطلى ليلتين والإفطار في الليلة الثالثة ، ويكون لكل يوم ولية ثلث رطل ، وبين هذين الوقتين وقت وهو أن يفر من كل ليلتين ليلة ، ويكون لكل يوم ولية نصف رطل ، وهذا ينبغي أن يفعله إذا لم ينتج عليه سآمة وضجرا وقلة أشراف في الذكر والمعاملة ، فإذا وجد شيئا من ذلك فليقلل كل ليلة ويأكل الرطل في الوقتين أو الوقت الواحد ، فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلة ، ثم دعت إلى الإفطار كل ليلة تقنع ، وإن سوتحت بالإفطار كل ليلة لا تقنع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات ، وقس على هذا ، فهي إن أطعمت طعمت ، وإن أقدمت قمت ، وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها ، ومن الصالحين من كان يميز القوت بنوى الفجر وينقص كل ليلة نواة ، ومنهم من كان يعبر بعود رطب وينقص كل ليلة بقدر ثلث العود ، ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغبة حتى يفي الرغبة في شهر ، ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل في تقليل القوت ولكن يعمل في تأخيرها بالتدرج حتى تدرج ليلة في ليلة ، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى طبعهم إلى سبعة أيام وعشرة أيام وخمسة عشر يوما إلى الأربعين .

وقد قيل لسهل بن عبد الله : هذا الذي يأكل في كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لب الجوع عنه ؟ قال يطنه الثور ، وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لي كلاما بجملة دلت على أنه يجد فرحا بربه ينظف معه لب الجوع ، وهذا في الحق واقع أن الشخص يطرفه فرح وقد كان جائعا فيذهب عنه الجوع ، وهكذا في طرق الخوف يقع ذلك ، ومن فعل ذلك ودوج نفسه في شيء من هذه الأقسام التي ذكرناها لا يؤثر ذلك في نقصان عقله واضطراب جسمه إذا كان في حيازة الصدق والإخلاص ، وإنما ينشئ في ذلك وفي دوام الذكر على من لا يتخلص لله تعالى .

وقد قيل : حد الجوع أن لا يميز بين الحنظل وغيره عما يؤكل ، ومتى عيب النفس الحنظل فليس بجائع وهذا المعنى قد يوجد في آخر الحدين بعد ثلاثة أيام ، وهذا جوع الصديقين ، وطلب النقاء عند ذلك يكون ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية . ويكون هذا حدا للضرورة لمن لا يجتهد في التقليل بالتدرج فأما من درج نفسه في ذلك فقد يصبر على أكثر من ذلك إلى الأربعين - كما ذكرنا - وقد قال بعضهم : حد الجوع أن يبرق ، فإذا لم يقع الذباب على براقه يدل هنا على خلو البدنة من الفسامة ، وصفاه الزاقي كالماء الذي لا يقصده الذباب .

وروى أن سفیان الثوري وإبراهيم بن آدم رضي الله عنهما كما يطويان ثلاثا ثلاثا وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوي ستا . وكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يطوي سبعة أيام . واشتهر رجال جدا عند محمد بن عبد الله المعروف بعمويه رحمه الله ، وكان صاحب أسود الدينوري - أنه كان يطوي أربعين يوما ، وأقصى ما بلغ في هذا المعنى من الطي : رجل أدركا زمانه ومارأته - كان في أهر يقال له الزاهد خليفة كان يأكل في كل شهر لوزة ، ولم نسمع أنه بلغ في هذه الأمة أحد بالطي والتدرج إلى هذا الحد ، وكان في أول أمره على ما حكى بنقص القوت ينشأ الودم طوي حتى انتهى إلى الورقة في الأربعين ، ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمع من الصادقين وقد يسلك غير الصادق

هذا لوجود هو مستمكن في باطنه يكون عليه ترك الأكل إذا كان له استهلاك لنظر الخلق وهذا عين النفاق فهو ذباقة من ذلك ، والصادق ربما يقدر على الطي إذا لم يعلم بحاله أحد ؛ وربما تضعف عزمته في ذلك إذا علم بأنه يطوى ؛ فإن صدقه في الطي ونظره إلى من يطوى لأجله يكون عليه العلي ، فإذا علم به أحد تضعف عزمته في ذلك ، وهذا علامة الصادق فهما أحس في نفسه أنه يجب أن يرى بين الثقل فليتهم نفسه فإن فيه شائبة النفاق ، ومن يطوى شيء يعرفه الله تعالى فرحا في باطنه بنفسه الطعام ، وقد لا ينسى الطعام ولكن امتلاء قلبه بالأنوار يقوى جاذب الروح الروحاني فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحاني وينثر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية ، وأما أثر جاذب الروح إذا تخلف عنه جاذب النفس عند كمال طمأنينتها وانكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستقر فأجل من جذب المغناطيس للحديد ؛ إذ المغناطيس يجذب الحديد لروح في الحديد مشاكل للمغناطيس فيجذب بنفسه الجذبة الخاصة ، فإذا تجنست النفس بمعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير في النفس روح استمدتها القلب من الروح وأدأها إلى النفس فتجذب الروح النفس بمنجسية الروح الحادثة فيها فتزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية . ويتحقق عنده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبيت عند ربي يطعمني ويسقني ، ولا يقدر على ما وصفنا إلا بعد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة فيتناول من الطعام أيضا ضرورة ، ولو تكلم مثلا بكلمة من غير ضرورة التلب فيه نار الجوع التهاب الحلقاء بالنار ، لأن النفس الراقدة تسليق كل ما يوقظها وإذا تسليقت نزع إلى هواها ، فاعلم المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس ورزق العلم بها عليه الطي وتداركته الموتة من الله تعالى ؛ لاسيما إن كشف بشيء من المنع الإلهية وقد حكى لي فقير أنه اشتبه به الجوع وكان لا يطلب ولا يتسبب قال : فلما انتهى جوعي إلى الغاية يبدأ بام فتح الله على بشافة قال : فتناولت النفاقة وقصدت أكلها فلما كسرتها كشرت بها كشرت بحورا نظرت إليها تعقب كسرها ، وحدث عنى من الفرح بذلك ما استغنى عن الطعام أياما ، وذكر لي أن الحوراء خرجت من وسط النفاقة ، والإيمان بالقدرة ركن من أركان الإيمان فسلم ولا تتسك . قال سهل بن عبد الله رحمه الله : من طوى أربعين يوما ظهرت له القدرة من المملوكات وكان يقال : لا يزهو البعد حقيقة الزهد الذي لا مشوبة فيه إلا بمساعدة قدرة من المملوكات وقال الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله : عرفنا من طوى أربعين يوما بريضة النفس في تأخير القوت ، وكان يؤخر فطره كل ليلة إلى نصف سبع الليل ، حتى يطوى ليلة في نصف شهر ، فيطوى الأربعين في سنة وأربعة أشهر ، فتندرج الأيام والليال حتى يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد ، وذكر لي أن الذي فعل ذلك ظهرت له آيات المملوكات وكوشف بممانى قدرة من الجبروت تجلي الله بها له كيف شاء .

واعلم أن هذا المعنى من الطي والثقل لوانه عين الفضيلة ما فات أحدا من الأنبياء ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ من ذلك إلى أقصى غايته ، ولا شك أن تلك فضيلة لا تتسك ، ولكن لا تنحصر مواهب الحق تعالى في ذلك ، فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل من يطوى أربعين يوما ، وقد يكون من لا يكشف شيء من معاني القدرة أفضل من يكشف بها إذا كاشفه بصرى المعرفة ، فالقدرة أثر من القادر . وعن أهل القرب القادر لا يستغرب ولا يستعجب شيئا من القدرة ، ويرى القدرة تتجلى له من جميع أجزاء علم الحكمة ، فإذا أخلص العبدته تعالى أربعين يوما واجتهد في ضبط أحراره بشيء من الأنواع التي ذكرنا من العمل والذكر والقوت وغير ذلك ، تعود بركة تلك الأربعين على جميع أوقانه وساعاته ، وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين .

وكان جماعة من الصالحين يختارون للأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة ، وهي أربعون موسى عليه السلام . أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو الحجيب إجازة قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خير بن إجازة قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد ابن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا أبو معاوية الضرير قال حدثنا الحجاج عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخلص الله تعالى العبادة أربعين يوما ظهرت

ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

الباب التاسع والعشرون : في أخلاق الصوفية وشرح الخلق

الصوفية أوفر الناس حظا في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بإحياء سنته والتخلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسن الاقتداء وإحياء سنته : على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبو أحمد عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم المروى قال أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن أحمد الترياق قال أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي قال أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي قال حدثنا مسلم بن حاتم الأنصاري البصري قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس في قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال : يا بني وذلك من سلق ، ومن أحيا سلقى فقد أحيا نبي ومن أحياني كان معي في الجنة ، فالصوفية أحيوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم وقفوا في بداياتهم لرعاية أنواله ، وفي وسط حالهم اقتدوا بأعماله فأثمر لهم ذلك أن تحققوا في نهاياتهم بأخلاقه ، وتحسين الأخلاق لا يأتي إلا بعد تزكية النفس ، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وإنك لأمر على خلق عظيم) لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسا كان أحسنهم خلقا ، قال بجاهد (على خلق عظيم) أي على دين عظيم ، والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة .

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان خلقه القرآن . قال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى وينتهي عما نهى الله عنه ، وفي قول عائشة : كان خلقه القرآن ، سر كبير وعلم غامض . ما نقلت بذلك إلا بما خصه الله تعالى به من ركة الوحي السابري وصحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيصه بإياها بكلمة « خذوا شطر دينكم من هذه الحيرة » ، وذلك أن النفوس مجبولة على غرار وطبائع هي من لوازمها وعزيرتها ، خلقت من تراب ولها بحسب ذلك طبع ، وخلقت من ماء ولها بحسب ذلك طبع ، وهكذا من حما مشنون ، ومن صلصال كالفضار ، وبحسب تلك الأصول التي هي مبادئ تكونها استفادت صفات من البهيمية والسبعية والشيطنية ، وإلى صفة الشيطنة في الإنسان إشارة بقوله تعالى (من صلصال كالفخار) لدخول النار في الفخار . وقد قال الله تعالى (وخلق الجن من نار) والله تعالى بخفي لطفه وعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ماورد في حديث حليلة ابنة الحارث أنها قالت : في حديث طويل : فيينا نحن خلف بونتنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخ له من الرضاغة في بهم لنا ، جاءنا أخوه يشتد فقال : ذاك أخى القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب يياض فأضجدها فشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه فشدت نحوه فوجداه قائما منتقلا لونه فاعتنته أبوه ، وقال : أي بني ما شأنك ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب يياض فأضجعا فشقا بطني ، ثم استخرجا منه شيئا فطر ساه ، ثم ردها كان ، فرجعنا به معنا ، فقال أبوه يا حليلة : لقد خبيت أن يكون ابني هذا قد أصيب أطلق بنا فلرده إلى أهل قبل أن يظهر به ما نتخوف قالت : فاحذرنه فلم ترع أمه إلا وقد قدمنا به عليها ، قالت : ما ردتك قد كتبنا عليه حريصين ، قلنا : لا والله لا نصير إلا أن الله عز وجل قد أدى عنا وقضيتنا الذي كان علينا ، وقلنا ننمى الأنلاف والأحداث زرده إلى أهل ، فقالت ماذا بك فأصداقني شأنك ؟ قل تدعنا حتى أخبرنا ما خبره ، فقالت : خبيت على الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل ولله لكائن لابني هذا شأن ألا أخبرك بخبره ؟ قلنا : بلى ، قالت : حملت به فاحملت حملا قتل أخف منه : فأريت في الترم حين حملت به كأنه خرج مني نور قد أضابت به قصور الشام ثم وقع حين ولده وقوعا لم يقعه المولود معتمدا على يديه رافعا رأسه إلى السماء فعداه عنك .

فبعد أن طهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حدة نفوس البشر ، لما ظهر وبصفت

وأخلاق مبتناة على رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للخلق لوجود أمهات تلك الصفات في نفوس الأمة بمزيد من الطلعة لتفاوت حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحال الأمة ، فاستمدت تلك الصفات المبناة بظهورها في رسول الله صلى الله عليه وسلم بتزليل الآيات المحكمات ليؤاخذها لقبها ، تأديبا من الله لنبيه رحمة خاصة له وعامة للأمة ، موزعة بنزول الآيات على الآمان والأوقات عند ظهور الصفات ، قال الله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ وثبتت الفؤاد بعد اضطرابه بحركة النفس بظهور الصفات لارتباط بين القلب والنفس ، وعند كل اضطراب آية متضمنة لحلق صالح سنى إما نصريحا أو تمريضا ، كما تحركت النفس الشريفة النبوية لما كسرت رباعيته وصار الدم يسيل على الوجه ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمسحه ويقول : كيف يفلح قوم غضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ ، فأنزل الله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ ، فاكسفت القلب النبوي لباس الاصطبار وقام بعد الاضطراب إلى القرار ، فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات في مختلف الأوقات صفتها الأخلاق النبوية بالقرآن ليكون خلقه القرآن ، ويكون في إبقاء تلك الصفات في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى قوله عليه السلام : إنما أنسى لاسن ، فظهر صفات نفسه الشريفة وقت استنزال الآيات لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها رحمة في حقهم حتى تترك نفوسهم وتشرّف أخلاقهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأخلاق غزوة عند الله تعالى فإذا أراد الله تعالى بعد غيرا ممنه منها خلقا ، وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما يثبت لأتمم مكارم الأخلاق ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم ، إن الله تعالى مائة وبضعة عشر خلقا من آتاه واحدا منها دخل الجنة ، فتقديرها وتعديدها لا يكون إلا بوحى سماوى لمسل ونبي ، والله تعالى أبرز إلى الخلق أسماء منجبة عن صفاته سبحانه وتعالى وما أظهرها لهم إلا ليدعوم إليها ، ولولا أن الله تعالى أودع في القوى البشرية التخلق بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء .

ولا بعد - والله أعلم - أن قول عائشة رضى الله عنها ، كان خلقه القرآن ، فيه رمز غامض وإلماع خفي إلى الأخلاق الربانية فاحتضمت من الحضرة الإلهية أن تقول : متخلفا بأخلاق الله تعالى ، فبرت عن المعنى بقولها : كان خلقه القرآن . استحياء من سبحات الجلال وسرا الحال بلطف المقال ، وهذا من وفور عليها وكإل أدبها وبين قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ وبين قوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ مناسبة مشعرة بقول عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن .

قال الجنيد رحمه الله : كان خلقه عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى ، وقال الراسبي رحمه الله : لأنه جاد بالكونين عرضا عن الحق ، وقيل : لأنه عليه السلام عاشر الخلق بخلقهم وبإينهم بقلبه ؛ وهذا ما قاله بعضهم في معنى التصوف : التصوف الخلق مع الخلق والصدق مع الحق . وقيل : عظم خلقه حيث صغرت الأكوان في عينه بمشاهدة مكوناتها ، وقيل سمى خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه .

وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته إلى حسن الخلق في حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال : أخبرنا الشيخ الحروري قال أخبرنا أبو نصر الترياق قال أخبرنا أبو محمد الجراحي قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي قال أخبرنا أبو عيسى الحافظ الأزمدى قال حدثنا أحمد بن الحسين بن غراس قال حدثنا حبان بن هلال قال حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثني عبد الله بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من أحبك إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون ، قالوا : يارسول الله علنا الثرثارون والمتشدقون فما المتشبهون ؟ قال : للمتكبرون ، والثرثار هو المتكازر من الحديث ، والمتشدد المتناول على الناس في الكلام .

قال الراسبي رحمه الله : الخلق العظيم أن لا يخافهم ولا يخافهم ، وقال أيضا ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لوجدانك حلاوة المطالعة على شرك . وقال أيضا : لأنك قبلت قرون ما أسديت من نعمي أحسن مما قبله غيرك من الأنبياء

والرسل وقال الحسين : لأنه لم يؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق . وقيل : الخلق العظيم لباس التقوى والتخلق بأخلاق الله تعالى إذ لم يبق للأعراض عند خطر .

وقال بعضهم . قوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لاخذنا منه باليمين) أتم لأنه حيث قال (وإنك) أحضره وإذا أحضره أغفله وحجبه . وقوله (لاخذنا) أتم لازيه فناء . في قول هذا القائل نظر ؛ فهلا قال : إن كان في ذلك فناء في قوله (وإنك) بقاء وهو بقاء بعد فناء ، والبقاء أتم من الفناء ، وهذا أليق بمنصب الرسالة لأن الفناء إنما عز لراحة وجود مدموم ، فإذا نزع المدموم من الوجود وتبدلت التمتوت فأى عزة تبقى في الفناء ؟ فيكون حضوره بالله لا بنفسه فأى حجة تبقى هناك ؟

وقيل من أقر الخلق فقد أقر أعظم المقامات لأن للمقامات ارتباطا عاما والخلق ارتباطا بالتموت والصفات . وقال الجنيد : اجتمع فيه أربعة أشياء السخاء والألفة والنصيحة والشفقة . وقال ابن عطاء : الخلق العظيم أن لا يكون له اختيار ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المألوف ، وقال أبو سعيد القرشي : العظيم هو الله ومن أخلافه الجود والكرم والصفى والمغفر والإحسان ، ألا ترى إلى قوله عليه السلام : إن لله مائة وبضعة عشر خلقا من أن يواحد منها دخل الجنة ، فلما تحقق بأخلاق الله تعالى وجد الثناء عليه بقوله (وإنك لملى خلق عظيم) وقيل : عظم خلقه لأنكم ترضى بالأخلاق وسرت ولم تسكن إلى التمتوت حتى وصلت إلى الذات ، وقيل : لما ثبت محمد عليه الصلاة والسلام إلى الحجاز حجره بها عن الذات والشهوات وألقاه في الغربة والجفوة فلما صفا بذلك عن دنس الأخلاق قال له (وإنك لملى خلق عظيم) .

وأخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة بن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي عن أبيه قال : أخبرنا أبو عمر المليحي قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن يوسف قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي قال حدثنا جعفر بن المهدي قال أخبرنا أبو برب بن محمد الوزان ، قال حدثني الوليد قال حدثني ثابت عن يزيد عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول : مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : صدق الحديث صدق اليأس وأن لا يشيع وجاره وصاحبه جاثمان وإعطاء السائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة وصلة الرحم والتذم للصاحب وإفراء الضيف ورأسن الحياة . . وسائر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال : تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : الفم والفرج ، يكون هذا الفم غم فوات الحظوظ العاجلة ، لأن ذلك يتضمن التخطئ والتضجر ، وفيه الاعراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء ، ويكون الفرج المشار إليه الفرج بالخطوط العاجلة الممنوع منه بقوله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وهو الفرج الذي قال الله تعالى (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) لما رأى صفاته قوته بالعصية أول القوة . فأما الفرج بالانقسام الآخر فهو محمود يناسب فيه قال الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) وفسر عبدالله بن المبارك حسن الخلق فقال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف وكف الأذى .

فالصوفية راضوا بنفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق وكمن نفس تهيب إلى الأعمال ولا تهيب إلى الأخلاق . فنفس المباد أجابت إلى الأعمال وجمعت عن الأخلاق ، ونفس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض ، ونفس الصوفية أجابت إلى الأخلاق السكوية كلها .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة بإجازة عن أبي بكر بن خلف بإجازة عن السلي قال : سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت أبا بكر الكتاني يقول : التصوف خلق فن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف . فالعباد أجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بتور الإسلام ، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم يسلكوا بتور الإيمان ،

والصورية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان ، فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين وتأصل في بواطنهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه ، لأن القلب يبيض بعنه بنور الإسلام ، وبعضه بنور الإيمان ، وكله بنور الإحسان والإيقان . فإذا ابيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس ، والقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح ، ونفس وجه إلى القلب ، ووجه إلى الطبع والفرقة . والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح ب كله ، ويكون ذا وجهين ، وجه إلى الروح ، ووجه إلى النفس ، فإذا ابيض كله توجه إلى الروح ب كله ، فيتداركه مداد الروح ، ويزداد إشراقا وتنورا . وكلما اعجب القلب إلى الروح انعجبت النفس إلى القلب ، وكلما اعجبت توجهت إلى القلب بوجهها الذي يليه ، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذي يلي القلب . وعلامة توارها طمأنينتها قال الله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) وتنور وجهها الذي يلي القلب بمثابة نورانية أحد وجهي الصدق لاكتساب الثورانية من التوكل . وبهاء شيء من النظرة على النفس لنفسه وجهها الذي يلي الفرقة والطبع ، كبهاء ظاهر الصدق على ضرب من الكدر والنقصان مخالفا لنورانية باطنه . وإذا تنور أحد وجهي النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت ، ولذلك سمي الأبدال أبدالاً . والسر الأكبر في ذلك أن قلب الصوفي بذوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقي إلى ذكر الذات ، ويصير حيثئذ بمثابة العرش . فالمرس قلب الكائنات في عالم الخلق والحكمة والقلب عرش في عالم الأمر والقدرة . قال سهل بن عبد الله التستري : القلب كالعرش والسمندر كالكرسي . وقد ورد عن الله تعالى لا يسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدي المؤمن .

فإذا اكتمل القلب بنور ذكر الذات وصار بحرا مواجا من لسيات القرب جرى في جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى . حكى عن الشيخ أبي علي الفارومى أنه حكى عن شيخه أبي القاسم الكركراني أنه قال : إن الإسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك وهو بعد في السلوك غير واصل ، ويكون الشيخ عن هذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفا يلائم ضعف حال البشر وقصوره ، مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى الرحيم ، معنى من الرحمة على قدر قصور البشر ، وكل إشارات المشايخ في الإسماء والصفات التي هي أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير . وكل من توم بذلك شيئا من الحلول يزدق وألحد .

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا وصية جامعة لحاسن الأخلاق فقال له ، يا معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ، وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجور من الحساب وخفض الجناح ، وإياك أن تسب حلما أو تكذب سادقا أو قطع أنما أو تمسح إماما عادلا أو تفسد أرضا . أوصيك بانتهاء الله عند كل حجر وبحجر ومدبر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر ، والملاينة بالملاينة ، بذلك أدب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، وروى معاذ أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال د حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ،

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي بإسناده المتقدم إلى الترمذى رحمه الله قال : أخبرنا أبو كريب قال حدثنا قبيصة بن الليث عن مطرف عن عطاء عن أم البرداء عن أبي البرداء قال : سمعت النبي عليه السلام يقول « مامن شيء يوضع في الميزان أقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » وقد كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل ولم يجده من يعطيه وبأية الليل لا يأوى إلى منزله حتى يبرأ منه ، ولا ينال من الدنيا ، وأكثر قوت طامه من أسر ما يجد من التمر والشعير ، ويضع ماعدا ذلك في سبيل الله ، لا يبتل شيئا إلا يعطى ثم يعود إلى قوت عامه فؤثر منه حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام ، وكان يخفف التمل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله وقطع اللحم معون ، وكان أشد الناس حياء وأكرمهم تواضعا فضلوته الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

الباب الثلاثون : في تفاصيل أخلاق الصوفية

من أحسن أخلاق الصوفية التواضع ، ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع ، ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقداراً يعلم أه قيمته ، ويقيم كل أحد على ماعنده من نفسه ؛ ومن رزق هذا فقد استراح وأراح (وما يقلها إلا المألون)

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي ، قال أخبرنا عثمان بن عبدالله ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن ابراهيم ، قال حدثنا عبد الرحمن بن حمدان ، قال حدثنا أبو حاتم الرازي ، قال حدثنا الثضر بن عبد الجبار ، قال أخبرنا ابن طهية عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا ولا يبقئ بعضكم على بعض .

وقال عليه السلام في قوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) قال : على البر والتقوى والرمية وذلة النفس . وكان من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيب دعوة الحر والبد ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو عذراء أرنب ويكافئ عليها ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين .

وأخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف بإجازة عن السلي ، قال أخبرنا أحمد بن علي المقرئ ، قال أخبرنا محمد بن المنهال ، قال حدثني أبي عن محمد بن جابر الجاني عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من تقرب ، وترد على من سلم عليك ، وأن ترضى بالدون من المجلس ، وأن لا تحب اللذة والزخية والبر .

ورود أيضاً عنه عليه السلام : طوبى لمن تواضع من غير متقصة ، وذلل في نفسه من غير مسكة .

سئل الجنيد عن التواضع فقال : خفض الجناح والين الجانب . وسئل الفضيل عن التواضع فقال : تخضع للحق وتتقاد له وتقبله من فاه وتسمع منه . وقال أيضاً : من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب .

وقال وهب بن منبه : مكتوب في كتب الله : إلى أخرجت الدر من صلب آدم فلم أجد قلباً أشد تواضعاً لي من قلب موسى عليه السلام ، فذلك اصطفيته وكلمته .

وقيل : من عرف كومان نفسه لم يطعم في العلو والشرف ويسلك سبيل التواضع ؛ فلا يخاصم من يذمه ، ويشكر الله لمن يحمده .

قال أبو حفص : من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرماتهم ؛ لأن شدة تواضعهم في أنفسهم يقتدى بهم ولا يستكبر .

وقال لقمان عليه السلام : لسل كل شيء مطية ، ومطية العمل التواضع .

وقال الثوري : خمسة أنفس أمر الخلق في الدنيا : عالم زاهد ، وفقه صوفي ، وغني متواضع ، وفقير شاكرو وفير سني .

وقال الجلاء : لو لا شرف التواضع كنا إذا مشيتنا نخط . وقال يوسف بن أسباط قد سئل : ما غاية التواضع ؟ قال : أن تخرج من بيتك فلا تلتقي أحداً إلا رأيته خيراً منك .

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا التيبب - وكنت معه في سفره إلى الشام وقد بحث بعض أبناء الدنيا له طعاماً على رموس الأسارى من الأفرنج وهم في قيودهم - فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى يفرغ قال للخدام : أحضر الأسارى حتى يقدموا على السفرة مع الفقراء ، فجاء بهم وأقدمهم على السفرة صفوا واحداً ، وقام الشيخ من سجدته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم ، فأكل وأكلوا ، وظهر لنا هل وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله والانكسار في نفسه والسلاخنة من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله .

أخبرنا أبو زرعة ، بإجازة عن أبي بكر بن خلف ، بإجازة عن السلي قال : سمعت أبا الحسين الفارسي يقول :

سمعت الجريري يقول : صبح عند أهل المعرفة أن للدين رأس مال : خمسة في الظاهر ، وخسة في الباطن ؛ فأما اللواتي في الظاهر : ففقدن في اللسان ، وسخاوة في الملك ، وتواضع في الأبدان ، وكف الأذى ، واحتاله بلا إياه . وأما اللواتي في الباطن : فحب وجود سيده ، وخوف الفراق من سيده ، ورجاء الوصول إلى سيده ، والتدب على فعله ، والحياة من ربه .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع في الخلق حسن ، ولكن في الاغنياء أحسن . والتكبر سميج في الخلق ، ولكن في الفقراء أسمى .

وقال ذو النون : ثلاثة من علامات التواضع : تصغير النفس معرفة بالعب ، وتعتظيم الناس حرمة للتوحيد ، وقبول الحق والتصيحة من كل واحد .

وقيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه حقما ولا حالا من عليه بشرها وازدراها ولا يرى أن في الخلق شرا منه .

قال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والجنل ، أحد من الكبر مع الأدب والسخاء .

وقيل لبعض الحكماء : هل تعرف نسمة لا يحسد عليها ، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه ؟ قال : نعم ، أما النسمة فالتواضع ، وأما البلاء فالكبر .

والكشف عن حقيقة التواضع : أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعف ؛ فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره ، والضعف وضع الإنسان نفسه مكانا يروى به وينفضى إلى تضييع حقه . وقد انفهم من كثير من إشارات المشايخ في شرح التواضع أشياء إلى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة ، ويلوح فيه الهوى من أوج الإغراط إلى حضض التفریط ، ويروم انحرافا عن حد الاعتدال ، ويكره تقدم في ذلك المبالغة في قبح نفوس المريدین خوفا عليهم من العجب والكبر ؛ فقل أن ينفك مريد في مبادئ ظهور سلطان الحال من العجب ، حتى لا تغفل عن جمع من الكبراء كلمات مؤذنة بالإعجاب ، وكل ما نقل من ذلك القليل من المشايخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم في مضيق سكر الحال وعدم الخروج إلى فضاء الصوفى ابتداء أمرهم ، وذلك إذا حقق صاحب البصيرة نظره يعلم أن استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب ، والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يحجز على الوقت وصلافة الحال فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب ، كقول بعضهم : أخرجت وأبليت وطفنت في أقطار الأرض وقلت مثل ؟ وقول بعضهم : قدى على رقية جمع الأولياء ، وكقول بعضهم : أخرجت وأبليت وطفنت في أقطار الأرض وقلت هل من مبارز فلم يخرج إلى أحد ، لإشارة منه في ذلك إلى تفرد في وقته . ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع فلين ذلك بمنزلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعهم واجتماعهم أمثال هذه الكلمات واستبعادهم من يجوزون لمبدأ التظاهر بئى من ذلك ، ولكن يحمل لسلام الصادقين وجه في الصحة ؛ يقال : إن ذلك طفق عليهم في سكر الحال وكلام السكران يجعل ؛ فالمشايخ أرباب الفطنة لما علموا في النفوس هذا الماء الدفين بالقوا في شرح التواضع إلى حد آخره بالضعة تدأوا للمريدین ، والاعتدال في التواضع : أن يرضى الإنسان بضعته ؛ قاله ماستحقه ، ولو آمن الشخص بجرح النفس لا وقفها على حد يستحقه من غير غير زيادة ولا نقصان ، ولكن لما كان الجرح في جبهة النفس - لكونه مغرقة من صلال كالغبار في نسبة النار في طلب الاستسلام بطبعها إلى مركز النار - احتاجت للتدأى بالتواضع وإزاحتها من ماستحقه لئلا يتطرق إليها الكبر ، فالكبر ظل الإنسان أنه أكبر من غيره والتكبر إظهاره ذلك ، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى ، ومن ادعاه من المخلفين يكون كاذبا ، والكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة ، وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى (إنه لا يحب المستكبرين) وقال تعالى (أليس في جهنم مثوى للمستكبرين) وقد ورد في قوله الله تعالى : الكبرياء وذات العظمة إزارى فمن نازعني واحدا منهما قصمته ، وفي رواية : قدخته في نار جهنم ، وقال

عن رجل ردا الإنسان في طغيانه إلى حده : ﴿ ولا تمش في الأرض مراحا لنك تنفرك الأرض وإن باع الجبال طولا ﴾ وقال تعالى ﴿ فليظفر الإنسان سم خلق خلق من ماء دافق ﴾ وأبلغ من هذا قوله تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من لطفه خلقه قدره ﴾ وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين : أولئك لطفة مدرة ، وآخر كجيفة قدرة ، وأنت فيما بين ذلك حامل المدرة : وقد نظم الشاعر هذا المعنى :

كيف يزهو من رجيته ه أيد المهر ضجيجه

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر انتشر أثره في بعض الجوارح وترشح الإباء بمافيه وفارة يظهر أثره في النقي بالتقابل ، وفارة في الخد بالتصغير . قال الله تعالى ﴿ ولا تصغر عنك للناس ﴾ وفارة يظهر في الرأس عند استعصاء النفس . قال الله تعالى ﴿ لورا رؤوسهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ .

وكان الكبر له انقسام على الجوارح والأعضاء تنشعب منه شعب ، فكذاك تنشعب أكف من البعض : كالتيه والزهو والعزة وغير ذلك ، إلا أن العزة تشعب بالكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالفضة ، والتواضع محمود والفضة مذمومة ، والكبر مذموم والعزة محمود . قال الله تعالى ﴿ وفيه العزة ولرسله وللوأمين ﴾ والعزة غير الكبر ، ولا يحمل المؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه . وإكرامه : أن لا يرضى لأعراض حاجلة ذنبية ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإزائها فوق منزلتها . قال بعضهم للحسن : ما أعظمك في نفسك ! قال : لست بعظيم ولكني عزيز . ولما كانت العزة غير مذمومة وفيها مشاكلة بالكبر قال الله تعالى ﴿ تستكبرون في الأرض بفكر الحق ﴾ فيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، فالوقوف على حداث التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر ، ولا يؤيد في ذلك ولا يثبت عليه إلا أقدام العلماء الراعيين والسادة للمقرين وروساء الأبدان والصدقيين . قال بعضهم : من تكبر فقد أخبر عن نذلة نفسه ، ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه .

وقال الرمزي : التواضع على ضربين : الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونبيه ، فإن النفس تطلب الراحة تتلوى عن أمره ، والشهوة التي فيها تهوى في نبيه ، فإذا وضع نفسه لأمره ونبيه فهو تواضع . والثاني : أن يضع نفسه لعظمة الله فإن اشتدت نفسه شيئا عما أخلق له من كل نوع من الأنواع منها ذلك . وجملة ذلك : أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى .

واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمان نور المشاهدة في قلبه ؛ فعند ذلك تذوب النفس ، وفي ذوبانها صفائها من غش الكبر والعجب ، فتلين وتطيع للحق والخلق نحو آثارها وسكون وجهها وغبارها ، وكان الخط الأوفر من التواضع لتبينا عليه السلام في أوطان القرب ، كما روى عن عائشة رضي الله عنها في الحديث الطويل قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فأخذني ما يأخذ النساء من الشهرة فظننت أنه عند بعض أزواجه ، فظلمته في حجر نسائه فلم أجده ، فوجدته في المسجد ساجدا كالتوب الخلق وهو يقول في سجوده : سبح لك سوادى ونسيالي ، وأمن بك فوادى وأمر بك لسانى ، وهما أنا ذا بين يديك ، يا عظيم يا غافر الذنب العظيم ، وقوله عليه السلام « سبح لك سوادى ونسيالي » استقصاء في التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تختلف ذرة منه عن السجود ظاهر أو باطنا ، وقيل يمكن للصوفى حفظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حفظه في التواضع للخلق ، وهذه سعادات إن أقبلت جهات بكليتها . والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية .

ومن أخلاق الصوفية : المداراة واحتال الأذى من الخلق ، وبلغ من مداراة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه وجد قتيلاً من أصحابه بين اليهود ، فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق ، بل وداه بمائة ناقة من قبله وإن بأصحابه حاجة إلى بعير واحد يتقون به .

وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاما ولا ينهر عابدا . أخبرنا الشيخ العالم حياه الدين عبد الوهاب بن علي ،

قال أخبرنا أبو الفتح الكرخي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس الخبزي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين سنة فما قال لي أف قط وما قال لي شيء صنعت لم صنعته ولا شيء تركته لم تركته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، وما مسست خرا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرأ كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالمداراة مع كل أحد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية وبإحسان الأذى يظهر جوهر النفس . وقد قيل لسلك شيء جوهر وجوهر الإنسان الثقل وجوهر العقل الصبر .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ المقدسي قال أخبرنا أبو محمد الصريفيني ، قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله ابن حباب ، قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز ، قال حدثنا علي بن الجعد ، قال أخبرنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : من هو ؟ قال : ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : المؤمن الذي يماض الناس ويصبر على أذى من غير من الذي لا يماضهم ولا يصبر على أذى ، وفي الخبر : أيعجز أحدكم أن يكون كافي ضخم ؟ قيل : ماذا كان يصنع أبو ضخم ؟ قال : كان إذا أصبح قال : اللهم إني تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمني ، فمن ضربني لا أخربه ، ومن شتمني لا أشتمه ، ومن ظلمني لا أظلمه .

وأخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب قال أخبرنا أبو الفتح المروزي ، قال حدثنا الترياق ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا الخبزي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا ابن أبي عمير ، قال حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال : يسألني المشيرة أو آخر المشيرة . ثم أذن له فلأن له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله قتلته ما ظننت أني أقتله القول قال : يا عائشة إن من شر الناس أو يدعه الناس اتقاء لحشمه ، وروى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : اتق الله حيثما كنت وأبضع السيوف الحسنة بمعها وعاني الناس بخلق حسن ، فإني أستدله على قوة عقل الشخص ووفور عليه وحله كحسن المداراة ، والنفس لا تزال تقسمون بين يكسر مرادها ؛ ويستنزها النقيض والغضب ، بالمداراة قطع حمة النفس ورد طيشها ونفورها . وقد ورد من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاء الله يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء . وروى جابر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، ألا أخبركم على من تحرم النار ؟ على كل حين لين سهل قريب . وروى أبو مسعود الانصاري رضى الله عنه قال : أتى النبي عليه السلام برجل فكلمه فأرعد فقال : هون عليك فإني لست بمالك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

وعن بعضهم في معنى لين جانب الصوفية :

هينون لينون أيسار بنو يسر . سواس مكرمة أبناء أيسار

لا ينظرون عن الفحشاء إن فلقوا . ولا يمارون إن ماروا ط كاتر

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم . مثل النجوم التي يسرى بها الساري

وروى أبو البرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من أعطى حظه من الرزق فقد أعطى حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرزق فقد حرم حظه من الخير .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو التجيب إمامه قال حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عبد الله الماليني ، قال أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبي طلحة النادوي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله الحمزي السرخسي ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى بن عمر السمرقندي ، قال أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي ، قال أخبرنا محمد بن أحمد بن أبي خلف ،

قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن إسحق قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن رجل من العرب قال : زحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وفي رجل لي كشيقة ، فوطئت بها علي رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفضت نفضة بسوط في يده وقال : بسم الله أوجعتني ، قال . فبت لنفسى لأنما أقول : أوجعت رسول الله ، قال : فبت بيلة كما يعلم الله ؛ فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ قلت : هذا والله الذي كان معي بالأمس . قال : فأنفطنت وأنا متخوف ، فقال لي : ، إنك ووطئت بملكك علي رجل بالأمس فأوجعتني ، فنفضت نفضة بالسوط فهذه ثمانون نسجة نخذها بها .

ومن أخلاق الصوفية : الإيثار والواساة ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعا ، وقوة اليقين شرعا ، ويؤثرون بالوجود ويصبرون على المفقود .

قال أبو زيد البسطامي : ما غلبني أحدا ما غلبني شاب من أهل بلخ ، قدم علينا حاجا فقال لي : يا أبا يزيد ، ما حال الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكفنا ، وإذا فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ ، فقلت له : وما حال الزهد عندكم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا ، وإذا وجدنا آثرنا .

وقال ذو النون : من علامة الزاهد المذروح صدره ثلاث : تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، والإيثار بالقوت . وروى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم التضير للأَنْصار : إن شئتم فاسمتم للهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركوهم في هذه التسمية ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم تقسم لكم شيئا من التسمية ، فقالوا : لأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالتسمية ولأننا نشاركهم فيها ؛ فأمر الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصابه جهد فقال : يا رسول الله ، إنني جائع فأطعمني ، فبعت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أزواجه ، هل عندك شيء ؟ فكلوا قلن : والذي بئذك باقني نبييا ما عندنا إلا الله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما عندنا ما طعامكم هذه البيلة ، ثم قال : من أضيف هذا هذه البيلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ؛ فأتى به منزله فقال لأهله : هذا أضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميه ولا تدخري عنه شيئا ؛ فقالت : ما عندنا إلا قوت الصبية ؛ فقال : فمري عليهم عن قوتهم حتى يتأمو ولا يطعمون شيئا ثم اسرجي ، فإذا أخذ الضيف ليأكل قومي كأنك تصلحين السراج فأطعميه وتعال تضعف ألسنتنا لضيف رسول الله حتى يشبع ضيف رسول الله ، فقامت إلى الصبية فملاهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئا ، ثم قامت فأوردت وأسرجت ؛ فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته ، فجلا بمنعنا ألسنتنا لضيف رسول الله ، وظن الضيف أنهما ياكلان معه حتى شبع الضيف وباتوا طائرين ؛ فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما نظر إليهما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال وقد عجب الله من فلان وفلانة هذه البيلة ، وأمر الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ،

قال أنس رضي الله عنه : أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى - وكان مجهدا - فوجه به إلى جاره ، فتداوله سبعة أنفس ثم عاد إلى الأول ؛ فأمرت الآية لذلك .

وروى أن أبا الحسن الأنطاكي اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرى الزوى وله أرغفة معدودة لم تقسم خمسة منهم ، ففكسروا الرغفان وأطفأوا السراج وجلسوا الطعام ؛ فلما رفعوا الطعام فإذا هو بماله لم يأكل أحد منهم إشارا منه على نفسه .

وحكى عن حذيفة المدني قال انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لي ممي في من ماء وأنا أقول : إن كان به من سقيته ومسح وجهه ، فإذا أنا به ، فقلت : أسقيك ، فأشار إلي أن لنم ؛ فإذا رجل يقول : آه ، فقال ابن عمي : انطلق به إليه ، فجلت إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : يا أسقيتك ، فسمع هشام آخر يقول : آه ، فقال ، انطلق

به إليه ، لمحت إليه فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلى عظامه ، فإذا هو أيضا قد مات ، ثم رجعت إلى ابن عمي ، فإذا هو أيضا قد مات .

وسئل أبو الحسين البوشنجي عن الفتوة قال : الفتوة عندي ما وصف الله تعالى به الأنصار في قوله (والذين تبرؤوا الدار والإيمان) قال ابن عطاء : (يؤثرون على أنفسهم) جودا وكرما (ولو كان بهم خصاصة) . يعني جوعا وفقرا .

قال أبو حفص : الإيثار هو أن يقدم حظوظ الإخوان على حظوظه في أمر الدنيا والآخرة . وقال بعضهم : الإيثار لا يكون عن اختيار ، إنما الإيثار أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك ، ولا يميز في ذلك بين أخ وصاحب وذو معرفة .

وقال يوسف بن الحسين : من رأى نفسه ملكا لا يصب منها الإيثار ، لأنه يرى نفسه أحق بالشيء برؤية ملكه ، إنما الإيثار من يرى الأشياء كلها الحق ؛ فمن وصل إليه فهو أحق به ، فإذا وصل شيء من ذلك إليه يرى نفسه وبه فيه بدأمانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤذيها إليه .

وقال بعضهم : حقيقة الإيثار أن تؤثر بحظ آخرتك على إخوانك ، فإن الدنيا أقل خطرا من أن يكون لإيثاره على أو ذكر . ومن هذا المعنى ما نقل أن بعضهم رأى أعا له فلم يظهر البشر الكثير في وجهه ، فأنكر أخوه ذلك منه ، فقال : يا أخي سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا التقى المسلمان ينزل عليها مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشرا ، وعشرة لأقلهما بشرا ، فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر .

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم إجازة ، قال أخبرنا أبو حفص عمر بن الصغار التيسابوري قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، قال : سمعت أبا القاسم الرازي يقول : سمعت أبا بكر بن أبي سمدان يقول : من صعب الصوفية فليصحبهم بلانفس ولاقلب ولاملك ، فمن نظر إلى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بليغ مقصده .

وقال سهل بن عبد الله : الصوفى من يرى دمه هدرا وملكه مباحا . وقال روم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبلذل والإيثار وترك التمرض والاختيار .

قيل : لما سمى بالصوفية وتمييز الجنيد باللقبة وقبض على الشمام والرقام والثورى وبسط النعل لضرب رقابهم ، تقدم الثورى فقيل له : إلى ماذا تبادر ؟ فقال : أؤثر إخواني بفضل حياة ساعة .

وقيل : دخل الروذباري دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق ، فقال : صوفى وله باب مغلق ، اكسروا الباب فكسروه وأمر جميع ما وجدوا في البيت أن يباع ، فأنفذوه إلى السوق واقتضوا من رفا الثمن وقعدوا في الدار ، فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئا ، ودخلت امرأته وعليها كساء ، فدخلت بيتا فرمت بالكساء وقالت : هذا أيضا من بقية المتاع فيمونه ، فقال الزوج لها : لم تكلف هذا باختيارك ؟ قالت : استكت مثل الشيخ ياسطابو يحكم علينا ويبيق لنا شيء نذخره عنه .

وقيل : مرض قيس بن سعد فاستبطأ إخوانه في عيادته ، فسأل عنهم فقالوا : إنهم يستحيون بمسالكهم من الدين ، فقال : أخرى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا ينادى : من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل . فكسرت عتبة دارها المعنى لكثرة عواده .

وقيل : أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب ، فلما خرج قال : لماذا جئتني ؟ قال : لأرغبكم ديني على ، فدخل الدار ووزن أرطبا فندمهم وأخرجها إليه ودخل الدار باكيا فقال لمرأته : هلا تملك حين شق عليك الإجابة ، فقال : إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج أن يضاقني .

وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي ، قال أخبرنا محمد بن محمد إمام جامع أصفهان : قال حدثنا أبو عبد الله الجرجاني ، قال حدثنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمدي ، قال حدثنا أبو البختري ، قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا زيد بن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأشعرين إذا أرموا في النزو وقل طعام عيالهم جفوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا في إناه واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم . . . وحدث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه إذا أراد أن يفزو قال : يا معشر المهاجرين والانصار ، إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة ، فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة ، فما لأحدكم من ظهر جملة إلا عتبة كعبة أحدكم ، قال : فضمت إلى اثنين أو ثلاثة مالي إلا عتبة كعبة أحدكم من جملة .

وروي أنس قال : لما قدم عبدالرحمن بن عوف المدينة آخى النبي عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع فقال له : أقاتلك مال نصفين ، ول امرأتان فأطلق إحداها فإذا اقتضت عدتها فتزوجها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أملاك ومالك .

فاحل الصوفى على الإيثار لإطهارة نفسه وشرف غريزته ، وما جملة له تعالى صوفيا إلا بعد أن سوى غريزته لذلك ، وكل من كانت غريزته السخاء والسخى يوشك أن يصير صوفيا ، لأن السخاء صفة الغريزة ، وفي مقابلة الشح ، والشح من لوازم صفة النفس . قال الله تعالى (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) حكم بالفلاح لمن يوق الشح ، وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال (وعارز قنانه يتفقن) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) والفلاح : أجمع اسم لسعادة البارين ، والنبي عليه السلام به بقوله : ثلاث مهلكات ... وثلاث منجيات ، فجعل إحدى المهلكات شحا مطاعا ، ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا بل يكون مهلكا إذا كان مطاعا ، فأما كونه موجودا في النفس غير مطاع فإنه لا يشكر ذلك ، لأنه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها التراب ، وفي التراب قبض وإسك ، وليس ذلك بالعجب من الأدنى وهو جبل فيه : وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة ، وهو لنفس الصوفية الباعى لهم إل البذل والإيثار والسخاء أتم وأكمل من الجود ففي مقابلة الجود البخل ، وفي مقابلة السخاء الشح ، والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق العادة بخلاف ، الشح والسخاء إذا كان من ضرورة الغريزة ، وكل معنى جواد ، وليس كل جواد سخيا ، والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء ، لأن السخاء من نتيجة الفرائز وافته تعالى منزله عن الغريزة ، والجود يتطرق إليه الرياء ويأتى به الإنسان متعلما إلى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من التناز وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى . والسخاء لا يتطرق إليه الرياء لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة من الأعراض دينا وآخرة ، لأن طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض ، فما تمحض سخاء ، فالسخاء لاهل الصفاء ، والإيثار لاهل الأنوار ويجوز أن يكون قوله تعالى (إنما نطمعكم لرغبة الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أنه نفي في الآية الإطعام لطلب الأعراض حيث قال (لا نريد) بمد قوله (لرغبة الله) فإكانه لا يشعر بطلب العوض ، بل الغريزة لطهارتها تتجذب إلى مراد الحق لا العوض ، وذلك أكل السخاء من أطهر الفرائز .

روت اسماء بنت أبي بكر قالت : قلت يا رسول الله ، ليس مني شيء إلا ما أدخل على الزبير فأعطى ؟ قال : نعم ، لا تترك فيوك عليك .

ومن أخلاق الصوفية : التجاوز والمغز ومقابلة السيئة بالحسنة . قال سفيان : الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، فإن الإحسان إلى الحسن متاجرة كتقصد السوق خذ شيئا ومات شيئا . وقال الحسن : الإحسان أن تم ولا تحض كالشمس والريح والغيث .

وروي أنس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت : يا جبريل لمن هذه ؟ قال : لسكاطين النيط والمافين عن الناس . .

روى أبو هريرة رضي الله عنه : أن أبا بكر رضي الله عنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس ، لما دخل فوقع في أبي بكر وهو ساكت والتفت عليه السلام يتبسم ، ثم رد أبو بكر عليه بعض الذي قال ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام ، فلفحه أبو بكر فقال : يا رسول الله شئتني وأنت تتبسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبني وقت ، فقال : ذلك حيث كنت ساكتا كان مملكا يرد عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لأفند في مقعد فيه الشيطان ، بأبي بكر ، ثلاث كاهن حق : ليس عبد يظلم بمظلة فيعفو عنها إلا أعر الله نصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يتبني بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال : أخبرنا الكرخي ، قال أخبرنا الترياق ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا أبو هشام الرقاعي ، قال حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطئوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تمشوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا ، وقال بعض الصحابة : يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقرئ ولا يضيئ ، فيمرى أفا جريه ؟ قال : لا ، أنه . وقال الفضل : الفترة الصفع عن عثرات الإخوان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الواصل المكاف ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمة وصلها ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مكارم الأخلاق أن تمفو عن ظلمك وتصل من ظلمك وتعطي من حرمك .

ومن أخلاق الصوفية : البشر وطلاقة الوجه ، الصوفي بكأوه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس ، فالبشر على وجهه من آثار أثار قلبه ، وقد تنازل باطن الصوفي منازل إلهية ومواهب فسيية يروى منها القلب ، ويمتلئ فرحا وسرورا (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) والسرور إذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره ، قال الله تعالى (وجهه يومئذ مسفر) أي مضئ مشرق (ضاحك مستبشر) أي فرح ، قيل : أشرق من طول ما أغرت في سبيل الله ، ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على للزجاج والمشكاة ، فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح ؛ فإذا تم القلب بلذيد المسامرة طهر البشر على الوجه . قال الله تعالى (تعرف في وجوههم أضرة النعيم) أي فضارته وبريقه ، يقال أنضر الثبات إذا أزهى ونور (وجهه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فلما نظرت نضرت ، فأرباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور المشاهدة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجلال الأزلي ، وإذا أشرق الشمس على المرأة المصقولة استنارت الجدران ، قال الله تعالى (سيأبهم في وجوههم من أثر السجود) وإذا تأثر الوجه بسجود الظلال ، وهى القوالب في قول الله تعالى (وظلالهم ينادون والأصاال) كيف لا يتأثر بشهود الجلال .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا الكرخي ، قال أخبرنا الترياق ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا ثقيبة ، قال حدثنا الشكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك .

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدي : يمجى من القراء كل سهل طلق مضحك ؛ فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك ، فلا أكثر الله في القراء مثله .

ومن أخلاق الصوفية : السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم وترك التعسف والتكلف ، وقد روى في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار . وأخلاق الصوفية تماكي أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول عليه الصلاة والسلام : أما إنى أفرح ولا أفرح إلا حقا ، وروى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام ، وكان بدويا ، وكان لا يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا جاء بطريقة يدها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا يوما

من الأيام فوجدته رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق المدينة يبيع سلة له ولم يكن أثناء ذلك اليوم ، فاحتضنه النبي عليه السلام من ورائه بكفيه ، فالتفت فأبصر النبي عليه السلام فقبل بكفيه ، فقال النبي عليه السلام : « من يشتري العبد ؟ » فقال : « إذن تجدي كاسدا يارسل الله » فقال : « ولكن عد الله وبيع » ثم قال عليه السلام : « لكل أهل حضر يادية وبادية آل محمد زاهر بن حرام » .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسي عن أبيه ، قال أخبرنا المظهر بن محمد الفقيه ، قال أخبرنا أبو الحسن قال أخبرنا أبو عمرو بن حكيم ، قال أخبرنا أبو أمية ، قال حدثنا عبيد بن إسحق المطار ، قال حدثنا سنان بن هرون عن حميد عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسل الله ، احملني على جمل ، فقال : « أحملك على ابن الناقة » قال : أقول لك احملني على جمل وتقول أحملك على ابن الناقة ؟ فقال عليه السلام : « فاجل ابن الناقة » .

وروى صيب فقال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه تمر يأكل ، فقال : « أصب من هذا الطعام » فجعلت أكل من التمر ، فقال : « أنا أكل وأنت ترمد ؟ » فقلت : « إذن أمضغ من الجانب الآخر » فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم « ياذا الأذنين » . وسئلت عائشة رضى الله عنها : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في البيت ؟ قالت : كان ألين الناس بساما سخاكا . وروى أيضا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ساقها فسبقته ، ثم ساقها بعد ذلك فسبقها ، فقال : « هذه بتلك » .

وأخبرنا الشيخ العلامة ابن عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح المروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس الحبري ، قال أخبرنا أبو عيسى الحافظ الترمذى ، قال حدثنا عبدة بن الوضاح الكوفي ، قال حدثنا عبدة بن إدريس عن أبي التياح عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : « إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأطينا حتى إنه كان يقول لأخ لي صغير « يا أبا عمير مافعل التغير » ، والتغير : عصفور صغير » .

وروى أن عمر سابق زبيرا رضى الله عنهما فسبقه الزبير ، فقال : « سبقتك ورب الكعبة » ، ثم سابقه مرة أخرى فسبقه عمر ، فقال عمر : « سبقتك ورب الكعبة » . وروى عبدة بن عباس قال : قال لى عمر : « تعال أنا فأسلك فى الماء أينما أطول نفسا » ونحن محرمون .

وروى بكر بن عبدة قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتباحون حتى يقبضون بالبطح ؛ فإذا كانت الحفائظ كانوا هم الرجال . يقال : يدح يدح : إذا رى ، أى يتمامون بالبطح . وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال : أخبرنا الحسن بن أحمد الكرخي ، قال حدثنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبدة ، حدثني إسحق الجرجي ، قال حدثنا أبو سلة ، قال حدثنا حماد بن خالد ، قال أخبرنا محمد بن عمرو بن علقمة ، قال حدثنا أبو الحسن بن عيصم الليثي عن يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب بن أبي بلتمة قال : « إن عائشة رضى الله عنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بحمرة طبعنها له وقلت لسودة والتي صلى الله عليه وسلم بين وبيننا : كلى ، فأبت ، فقلت لها : كلى ، فأبت ، فقلت : لنأكلن أولنا طعن بها وجهك ، فأبت ، فوضعت يدي في الحريرة فلفطخت بها وجهها ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع لحيته وقال لسودة : الطغى وجهها ، فلفطخت بها وجهي ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فر عمر رضى الله عنه على الباب فنادى : يا عبدة يا عبدة ، فظن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيدخل ، فقال قوما فاعسلا وجهي كما ، فقالت عائشة رضى الله عنها قال قلت لأهاب عمر لعبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لياه » .

ووصف بعضهم ابن طائوس فقال : كان مع الصبي صيا ومع الكهل كهلا وكان فيه مزاجه إذا خلا .
وروى معاوية بن عبد الكريم قال : كنا ننذاكر الشعر عند محمد بن سيرين ، وكان يقول ونمرح عنده ويمزحنا
وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك ، وكنا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكي ؛ فهذه الأخبار
والآثار دالة على حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيها يعتمدونه من المداعبة في الربط وينزلون
مع الناس على حسب طباعهم لنظرم إلى سعة رحمة الله ؛ فلذا خلوا وقفوا موقف الرجال واكتسوا ملابس الأعمال
والأحوال ، ولا يفت في هذا المعنى على حد الاعتدال إلا صوفي قاهر لنفسه عالم بأخلافتها وطباعها سائل لما يوفو
العلم ، حتى يفت في ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، ولا يصلح الإكثار من ذلك للريدين المبتدئين
لقلة علمهم ومعرفةهم بالنفس وتقدمهم حدا الاعتدال ؛ فلتنفس في هذه المواطن نهضا وتوحيات تهر إلى الفساد وتجنب
إلى الغفاد ، فالنزل إلى طباع الناس يحسن بمن صعد عنهم وترقى لمواضعه ومقامه ، فينزل إليهم وإلى طباعهم حين
ينزل بالعلم ؛ فأما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم وفيه بقية مزح من طباعهم ونفوسهم الجامعة الأمانة بالسوء ، إذا دخلت
في هذه المداخل أخذت النفس حظها واغتصمت مأزجها واستروحت إلى الرخصة ، والنزول إلى الرخصة يحسن لمن
يركب العزيمة غالب أوقاته ، وليس ذلك شأن المبتدئ ؛ فللصوفية الدباء فيأخذ كراهة ترويج يملون حاجة القلب إلى
ذلك ، والقي إذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة ، ومعيار مقدار الحاجة في ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد
قال سعيد بن العاص لابنه : اقتصد في مزاحك فالإفراط فيه يذهب بالباه ويجرئ عليك السفاه وتركه ينفذ
المؤانسرين ويوحش المخاطلين . قال بعضهم : المزاح مسلبة للباه مقطعة للإعلاء ، وكما يصيب معرفة الاعتدال في ذلك يصيب
معرفة الاعتدال في الضحك ، والضحك من خصال الإنسان ويبرزه عن جلس الحيوان ، ولا يكون الضحك إلا عن
سابقة تسعج ، والتسج يستدعي الفكر ، والفكر شرف الإنسان وعاجيته ، ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من
ترسخ قدمه في العلم ، ولهذا قيل : إياك كثرة الضحك فإنه يمسح القلب ، وقيل : كثرة الضحك من الرعة وروى
عن عيسى عليه السلام أنه قال : إن الله تعالى يبغض الضحك من غير عجب ، للشاء في غير أرب ، وذكر فرق بين
المداعبة والمزاح ، فقيل : المداعبة ما لا ينضب جده ، والمزاح ما ينضب جده . وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله التفهيم في
السلامة من الذنب ، وحكم بطلان الوضوء بها ، وقال : يقوم الإثم مقام خروج الخارج ؛ فالاعتدال في المزاح والضحك
لا يتأتى إلا إذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهمية ، فإنه يقوم بكل مضيق من هذه المضائق بعض التفويم ،
فيتمتع الحال فيه ويستقيم ، فاليسر والرجاء بثمان المزاح والضحك والخوف والقبض يحكان فيه بالعدل .
ومن أخلاق الصوفية : ترك التكلف ، وذلك أن التكلف تصنع وتعمل وتسايل على النفس لأجل الناس ، وذلك
يبين حال الصوفية ، وفي بعضه خفي منازعة للأقدار ، وعدم الرضا بما قسم الجبار ، ويقال : التصوف ترك التكلف ،
ويقال : التكلف تخلف وهو تخلف عن شأن الصادقين . وروى أنس بن مالك قال : شهدت رؤية لرسول الله ما فيها خير
والحلم . وروى عن جابر : أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم بنجور وغل وقال : كلوا فلي سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : نعم الإدام الحل ، وعن سفيان بن سلة قال دخلت على سلمان الفارسي فأخرج إلى خبز وملح وقال
كل ، لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن يتكلف أحد لأحد لتكلفت لكم . والتكلف مذموم في جميع
الأشياء كالتكلف باللبوس للناس من غير نية فيه ، والتكلف في الكلام وزيادة التلق الذي صار دأب أهل الزمان ؛
فما يكاد يسلم من ذلك إلا أحماد وأفراد . فكمن متعلق لا يعرف أنه متعلق ولا يفتل ؛ فقد يمتلق الشخص إلى حد
يجرجه إلى صريح التفارق وهو مبين لحال الصوفي .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترمذ ، قال
أخبرنا أبو محمد الجرجاني ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذ ، قال حدثنا أحمد بن منيع
قال حدثنا يزيد بن هرون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

والحياء والى شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان شعبتان من التفاف ، البذاء : القبح ، وأراد بالبيان هنا : كثرة الكلام والتكلف فلفاس بزيادة تعلق وفناء عليهم وإظهار التفتيح ، وذلك ليس من شأن أهل الصدق .

وحكى عن أبي وائل قال : مضيت مع صاحبني زور سلمان : فقدم إلينا خبز شعير وملحاً جريشاً ؛ فقال صاحبي لو كان في هذا الملح ستر كان ألييب ، فخرج سلمان ووهن مظهره وأخضعنا ، فلما أكلنا قال صاحبي الحمد لله الذي قمتما بما رزقنا ؛ فقال سلمان : لو قمتما بما رزقك لم تكن مظهر قمر هونة . وفي هذا من سلمان ترك التكلف قولاً وفعلاً وفي حديث يونس التي عليه السلام : أنه زاره أخوانه فقدم إليهم كسراً من خبز شعير ونجز لهم بقلًا كان يزرعه ثم قال : لو أن الله لعن المتكفين لتكلفت لكم .

قال بعضهم : إذا قصدت الزيارة فقدم ما حضر ، وإذا استمرت فلا تبقى ولا تذر . وروى الزبير بن الدوام قال : نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومه اللهم اغفر للذين يدعون لاموات أمي ولا يتكلمون ، ألا إني برىء من التكلف وصالحو أمي .

وروى أن عمر رضى الله عنه قرأ له تعالى (فأنت تافها حيا وعيا وقضيا وزيوتا ونحو ذلك) فغلبوا فكمه وأباه ثم قال : هذا كله قد عرفناه في الأب ؛ قال : ويذكر عرصاء فطرب بها الأرض ثم قال : هذا لعمرك الله هو التكلف ؛ فخذوا أيها الناس ما بين لكم منه ، فما عرفتم أعلموا به ومن لم تعرفوا فكلوا عليه إلى الله .

ومن أخلاق الصوفية : الإنفاق من غير إقتار ، وترك الادخار ؛ وذلك أن الصوفى يرى خزائن فضل الحق ، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر ، والمقيم على شاطئ البحر لا يدخر الماء في قربته وراوئته ؛ روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من يوم إلا له ملكان يناديان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » وروى أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئا لند وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر ، فأطعم خادمه طيرا ، فلما كان الند أناب به فقال رسول الله : ألم أعلمك أن نخب شيئا لند ، فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد . وروى أبو هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على بلال وعنده صبرة من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ فقال : أدخر يا رسول الله قال : أما تخشى ، أم تحب بلالا ولا تخشى من ذى العرش إقلالا .

وروى أن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم كان يأكل الشجر ، ويلبس الشعر ، ويبيت حيث أمسى ، ولم يكن له ولد يموت ولا يدب يفر ، ولا يخاف شيئا لند .

فالصوفى كل خباياها في خزائن الله اصدق توكله وحقته بربه ، فالدنيا الصوفى كدار الغرباء ليس له فيها ادخار ولا له منها استنكار . قال عليه السلام : لو توكلت على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير قندو وخصا وروح بطاها . أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عبد الله الديلمي ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن الهاردي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله السرخسي ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندي ، قال أخبرنا عبد الله ابن عبد الرحمن الدارمي ، قال أخبرنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ابن المنكدر عن جابر قال ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا . قال ابن عيينة إذا لم يكن عنده وعد .

وبالإسناد عن الدارمي قال أخبرنا يعقوب بن حديد ، قال أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخي الزهري ، قال إن جبريل عليه السلام قال ما في الأرض أهل عشيرة من آيات إلا فلبتهم ، فما وجدت أحدا أشد إنفاقا لهذا المال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أخلاق الصوفية الفتنة بالبسر من الدنيا قال ذو النون المصري من تقع استراح من أهل زمانه واستطال على أقراه . وقال بشر بن الحارث لولم يكن في الفتنة إلا التفتع بالمركب لكنني صاحبه . وقال بنان الخمال

الحرم عبد ما طمع • والعبد حر ما تقع

وقال بعضهم : انتقم من حرصك بالفتاعة كما انتقم من عدوك بالقتصاص .

وقال أبو بكر المراسي : العاقل من دبر أمر الدنيا بالفتاعة والتسويق ، ودبر أمر الآخرة بالحرص والتجمل .

وقال يحيى بن مازة : من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الفتاعة سيف لا ينو .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن الحسن الحلال بسند قال أخبرنا أبو حفص عمر بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو القاسم البغوي ، قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن عزة عم عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الأعواد يقول : ما قل وكفى خير مما تكثر وألمى ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً ثم صبر عليه .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا وقال : اللهم اجعل رزق آل محمد قنوا .

وروى جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الفتاعة مال لا ينفذ .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : كونوا أوعية الكتاب وبنابيع الحكمة ، وعسدوا أنفسكم في الموت ، واسألوا الله تعالى الرزق يوماً بيوم ، ولا يضركم أن لا يكثر لكم .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبي الفضل والده ، قال أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن عبد الله الشاذلي قال أخبرنا أحمد بن علي الحافظ ، قال أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، قال حدثنا الحسن بن سفيان ، قال حدثنا عمرو بن مالك البصري ، قال حدثنا مروان بن معاوية ، قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي سلة الأنصاري ، قال أخبرني سلق بن عبد الله ابن محسن عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أصبح آمناً في سربه معافاً في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا ، وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ فلتحييته حياة طيبة ﴾ هي الفتاعة .

فالصوفي قوام على نفسه بالقسط ، عالم بطباع النفس وجدوى الفتاعة والتوصل إلى استخراج ذلك من النفس لعله بدائها ودواها .

وقال أبو سليمان الناراني : الفتاعة من الرضا كما أن الورع من الزهد .

ومن أخلاق الصوفية : ترك المراء والمجادلة والذنب والإبغى واعتقاد الفرق والحلم ؛ وذلك أن النفوس تلب وتظهر في الممارين . والصوفي كلما رأى نفس صاحبه ظاهرة قابلاً بالقلب ، وإذا قبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة وانطفأت الفتنة . قال الله تعالى تدلنا لعباده ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ ولا ينزع المراء إلا من نفوس زكية اتزعت منها الغل ، ووجود الغل في النفوس مراد بالباطن ، وإذا اتزعت المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضاً ؛ وقد يكون الغل في النفس مع من يشاكله ويمثل له لوجود المنافسة ، ومن استقصى في تنزيب النفس بنار الزهادة في الدنيا ينمى الغل من باطنه ، ولا تبقى عنده منافسة دنيوية في حظوظ عاجلة من جامدات : قال الله تعالى في وصف أهل الجنة المتقين ﴿ وزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قال أبو حفص : كيف يبق الغل في قلوب المتلطف بالله وانفتحت على محبته واجتمعت على مودته وأنست بذكره ؛ فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الباطن ، بل كلك بنور التوفيق فصلرت لإخوانه ؛ فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة ، ومن التزم بشرط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق .

والناس رجلان : رجل طالب ما عند الله تعالى ويدعو إلى ما عنده نفسه وغيره ؛ فالحق الصوفي مع هذا منافسة ومراء وغل ، فإن هذا منه في طريق واحد ووجه واحدة ، وأخوه ومعيته ، والمؤمنون كالبيان يشد بعضهم بعضاً . ورجل مفتن بشئ من محبة الجاه والمال والرياسة ونار الخلق ، فالصوفي مع ١-٨ منافسة لأنه زهد في ما به رغب ، فس شأن الصوفي أن ينظر إلى مثل هذا فنار راحة وشفقة حيث يراه معجوباً مفتناً فلا ينطوي له على غل ولا يماريه

في الظاهر على شيء ، لعله يظهر نفسه الأمانة بالسوء في المراء والمجادلة
أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح المحمدي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال
أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحمدي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا ياد بن أيوب ،
قال حدثنا المحمدي عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
« لا تغاروا أخاك ولا تعدوا موعدا فتختلف » .

وفي الخبر « من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ، ومن
حسن خلقه بني له في أعلاها » .

وأخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو التيجيب ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السهروردي محمد بن أبي عبد الله المالبني ، قال
أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الحوي ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى
السمرقندي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الداوي ، قال حدثنا يحيى بن بسطام عن يحيى بن خزيمة قال :
حدثنا الثمان بن مكي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب العلم ليأبى
به العلماء أو يعمى به السفهاء أو يريد أن يقبل بوجه الناس إليه ، أدخله الله تعالى جهنم » ، انظر كيف جعل رسول الله
صلى الله عليه وسلم المراءاة مع السفهاء سبيلا لدخول النار ، وذلك يظهر ونفوسهم في طلب التهور والغلبة ، والتهور والغلبة
من صفات الشيطنة في الآدمي .

قال بعضهم : المجادل المماري يضع في نفسه عند الخوض في الجدل أن لا يقع بشيء ، ومن لا يقع إلا أن لا يقع فما إلى
إفقا وسبيل ، فنفس الصوفي تبدل صفاتها وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية ، وبديل باليقين والرفق والسهولة والطمانينة .
روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يعلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن
حتى يأمن جاره بواقفه » ، انظر كيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم من شرط الإسلام سلامة القلب واللسان .
وروى عنه عليه السلام أنه لم يرقم ولم يحدون حجرا . قال : « ما هذا ؟ » قالوا : هذا حجرا الأشداء . قال :
« ألا أخبركم بأشد من هذا ؟ رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فقلب شيطان وشيطان أخيه فكله » .
وروى أنه جاء غلام لآبي ذر وقد كسر رجل شاة فقال أبو ذر : من كسر رجل هذه الشاة ؟ فقال : أنا قال :
ولم فعلت ذلك ؟ قال : عمدا فعلت . قال : ولم قال أغيتك فتعزيتني فتأتمم ؟ فقال أبو ذر : لا غيتن من حسنك على
غيتي ، فاعتقه .

وروى الأصمعي عن أعرابي قال إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد تخالف أقرهما إلى هواك ،
فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي قال أخبرنا خورشيد ، قال حدثنا
إبراهيم بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن محمد بن سليم قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا سعيد بن سعد عن أخيه عن
جده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما
المنجيات غشية الله في السر والعلانية ، والحكم بالحق عند الغضب والرضا ، والاقتصاد عند الفقر والغنى . وأما المهلكات
ففسح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » ، فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم رباني أمير
على نفسه يصرفها بمثل حاضر وقلب يقظان وفطر إلى الله بحسن الاحتساب .

نقل أنهم كانوا يتوخاؤون عن إيذاء المسلم ، يقول بعضهم لأن أتوخأ من كلمة خبيثة أحب إلى من أن أتوخأ
من طعام طيب .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ألفت خديان : حدث من فرجك ، وحدث من فيك ، فلا يحمل حوة
الوقار والحلم إلا الغضب ويخرج عن حد العدل إلى العبدوان يتجاوزا الحد ، فبالغضب يثور دم القلب ، فإن كان الغضب

على من فوقه مما يعجز عن إنفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجسد واجتمع في القلب ويهيم منه الهم والحزن والانتكاد ، ولا يتجاوز الصوفى على مثل هذا ؛ لأنه يرى الحوادث والأعراض من الله تعالى فلا يشكك ولا يفتن . والصوفى صاحب الرضا صاحب الروح والراحة ، والتي عليه السلام أخبر أن الهم والحزن في الشك والسخط .

سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب ؟ قال : غرهما واحد والفظ مختلف ، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبا ، ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا . والحذر : غضب أيضا ولكن يستعمل إذا قصد المضروب عليه ، وإن كان الغضب على من يشاكله وبالله من يتردد في الانتقام منه يتردد القلب بين الانقباض والانبساط فيقول له الغل والحقد ولا يأوى مثل هذا إلى قلب الصوفى . قال الله تعالى (وزعماني صدورهم من غل) وسلامة قلب الصوفى وحاله يقدف زيد الغل والحقد كما يقدف البحر الريد ، لحافيه من تلاطم أمواج الانس والهيبة ، وإن كان الغضب على من دونه بمن يقدر على الانتقام منه تاردم القلب ، والقلب إذا تاردم يحمر ويقتو ويتصلب وتذهب عنه الرقة والبياض ، ومنه يحمر الوجهان ، لأن الدم في القلب تار وطلب الاستسلام وانتفخت منه العروق ، فظهر عكسه وأثره على الحقد ، فيتمدى الحدود ويحشد بالهزيمة والشتم ، ولا يكون هذا في الصوفى إلا عند مثل الحرامات والغضب لله تعالى ؛ فأما في غير ذلك فينظر الصوفى عند الغضب إلى الله تعالى ، ثم يتقواه بحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل ، ويهتم النفس يهدم الرضا بالقضاء .

قيل ليهضمهم : من أفر الناس لنفسه ؟ قال : أرضاهم بالمقدور . وقال بعضهم : أصبحت مالى سرور إلا مواقع القضاء . وإذا اتهم الصوفى النفس عند الغضب بتأديك العلم ، وإذا لاح علم الغم قوى القلب وسكنت النفس وعاد دم القلب إلى موضعه ومقره واعتدل الحال وغاضت حرة الحدو بانتفضية العلم . قال عليه السلام : السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة .

وروى حارثة بن قدامة قال : قلت لرسول الله أوصني وأقل لعل أعيه ، قال : فأعد عليه ، كل ذلك يقول لا تغضب ، قال عليه السلام : إن الغضب حجرة من النار ، ألم تنظروا حرة عييه وانتفاخ أوداجه ، من وجد ذلك منك فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فليضطجع .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق قال أخبرنا الجراحى ، قال أخبرنا المجبوى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا محمد بن عبدالله ، قال حدثنا بشر بن الفضل عن قرعة بن خالد عن أبي حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأشجع عبد التيس : إن فيك خصلتين يهجمهما الله تعالى : الحلم والآناة .

ومن أخلاق الصوفية : التودد والتألف ، والمواظبة مع الإخوان وترك المخالفة . قال الله تعالى وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال الله تعالى (لو أنفقت مائى الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم . ولكن الله آلف بينهم) والتودد والتألف من اتلاف الأرواح على ما روى في الخبر الذى أوردناه ، فاعترف منها اتلف قال الله تعالى (فأصبحتم نعمة على إخواننا) وقال سبحانه وتعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال عليه السلام : المؤمن ألف مألوف ، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

وقال عليه السلام : مثل المؤمن إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداها الأخرى ، وما التقي مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا . وقال أبو إدريس الخولاني لما ذ : إني أحبك في الله ، فقال : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ينصب لطاقمة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفرح الناس وهم لا يفرحون ، ويتخاف الناس وهم لا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : المتحابون في الله .

وقيل : لو تحاب الناس ولما طوا أسباب المحبة لاستفتوا بها عن العداة .

وقيل : العداة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة . وقيل : طاعة المحبة أفضل من طاعة الربة ؛ فإن طاعة المحبة من داخل وطاعة الربة من خارج ؛ ولهذا المعنى كانت محبة الصوفية مؤثرة من البعض في البعض ، لأهم لها تحوافاً افتقاروا بمحاسن الأخلاق ووقع القبول بينهم لوجود المحبة ، فاستفادوا بذلك المريد الشيخ ، والأخ بالأخ ؛ ولهذا المعنى أمراته تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في المساجد أهل كل درب وكل محلة ، وفي الجامع في الأسبوع مرة أهل بلد ، وانضمام أهل السواد إلى البلدان في الأعياد في جميع السنة مرتين ، وأهل الانظار من البلدان المتفرقة في العمر مرة للحج : كل ذلك لحكم بالغة ، منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين . وقال عليه السلام : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض .

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنا والذي أبو الفضل قال أخبرنا أبو نصر محمد بن سلمان العدل قال أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محسن الزياطي ، فقال أخبرنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرماني ، قال حدثنا يحيى الكرماني ، قال حدثنا حماد بن زيد عن مجاهد بن سعد عن الشعبي عن الثمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا إن مثل المؤمنين في توادهم وتواحمهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر السهر والحر ، والتألف والتودد يؤدكان أسباب الصحة ، والصحة مع الأخيار مؤثرة جدا . » وقد قيل : لقاء الإخوان لقاء ، ولاشك أن البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض ، بل مجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا ، والنظر في الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المظهر إليه ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، ودوام النظر إلى المسرور يسر . وقد قيل : من لا ينفك لخلق لا ينفك لفظه ، والمجل الشroud يصير ذلولا بمقارنة المجل الذلول ؛ فالمقارنة لها تأثير في الحيوان والنبات والجماد ، والمساو والمواء يفسدان بمقارنة الجيف ، والزرع تنق عن أنواع العروق في الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة ، وإذا كانت المقارنة مؤثرة في هذه الأشياء ، ففي النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا ؛ وسمى الإنسان إنسانا لأنه يأسي بمساره من خير وشر ، والتألف والتودد مستجلب للمريد ، وإنما العزلة والوحدة تعمد بالنسبة إلى أراد الناس وأهل الشر ؛ فأما أهل العلم والصفاء والوفاء ذل الأخلاق الحميدة فيشتتم مقارنتهم ، والاستئناس بهم . استئناس بالله تعالى ، كأن محبتهم محبة لله ، والجامع رابطة الحق ومع غيرهم رابطة الطبع ؛ فالصوف مع غير الجنس كأن بآن ، ومع الجنس كأن مغاير ، والمؤمن مرآة المؤمن ، إذا نظر إلى أخيه يستفهم من وراء أنواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية ، وتريفات وتلويحات من الله الكريم خفية ؛ غابت عن الأغيار ، وأدركها أهل الأنوار . ومن أخلاق الصوفية : شكر المحسن على الإحسان والنعمة ، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربه و صفاء توحيدهم وقطعهم النظر إلى الأغيار ورؤيتهم التعم من التمس الجبار ، ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال : « ما من الناس أحد آمن علينا في محبته وذات يده من ابن أبي نحافة ، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، وقال : « ما تنفعني مال كمال أبي بكر » فالحق حجبوا عن الله بالخلق في المنع والعطاء .

فالصوفي في الابتداء يفتي عن الخلق ، ويرى الأشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيد وخرق الحجاب الذي منع الخلق عن صرف التوحيد ، فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء ، ويحببه الحق عن الخلق ؛ فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بدشكر الحق ، ويثبت لهم وجودا في المنع والعطاء ، بعد أن يرى المسبب أولا ، ولذلك لسمعة عليه وقوة معرفته ثبت الواسطة ، فلا يحببه الخلق عن الحق كعامة المسلمين ، ولا يحببه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين ؛ فيكون شكره الحق لأنه الهتم والمعلل والمسبب ، ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يدعى إلى الجنة المحامدون الذين يحمدون الله تعالى في السراء والضراء » وقال عليه السلام : « من عطس أوتحيشا فقال الحمد لله على كل حال دفع الله تعالى بها عنه سبعين داه أهرتها الجذام » .

وروي جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد ينعم عليه بنعمة فيحمد الله إلا كان

الحمد أفضل منها ، فهو له عليه السلام . كان الحمد أفضل منها ، يحتمل أن يرعى الحق بها شكرا ، ويحتمل أن الحمد أفضل منها لعمدة فتشكون فعمدة الحمد أفضل من النعمة التي حمد عليها ؛ فإذا شكروا للنعمة الأول يشكرون الواسطة للنعمة من الناس ويدعون له .

روى أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند قوم قال : أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وزلت عليكم السكينة .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد البزار ، وقال أخبرنا أبو حفص عمر بن إبراهيم ، قال حدثنا عبدة بن محمد بن محمد البغوي ، قال أخبرنا عمرو بن زرارة ، قال حدثنا عيينة بن يونس عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لأخيه جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء .

ومن أخلاق الصوفية : بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة ، فإذا كانا الرجل والمرء لم يصير أبغى من النفس وأقربا وشبها فليرى وصول إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة في إصلاح ذات البين ، وفي هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم ، لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم ، ولا يصلح ذلك إلا لوصفي تام الحال عالم وباق .

روى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان نبي من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس .

وقال عطاء : لأن رأت الرجل سنين فيك تسب جامها يعيش فيه مؤمن ، أتم له أن يخلص العمل لنجاة نفسه .

وهذا باب غامض لا يؤمن أن يفتن به خلق من الجهال اللذنين ، ولا يصلح هذا إلا لبداء طالع على باطنه فمسل منه أن لا رغبة له في شيء من الجاه والمال ، ولو أن ملوك الأرض وقفوا في خدمته ماطن ولا استطال ، ولو دخل إلى

أون يوقد مظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال ، وهذا لا يصلح إلا لأحد من الخلق وأفراد من الصادقين

يفلسخون عن إرادتهم واختيارهم ويكشفهم الله تعالى بمراده منهم ، فيدخلون في الأشياء بمراده تعالى ؛ فإذا علوا

أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون في ذلك بنية صفات النفس ، وهذا لأقوام ماتوا بهم حشوا وأحكموا

مقام الفناء ثم رقا إلى مقام البقاء ، فيكرن لهم في كل مدخل ومخرج رهان ويسان وإذن من الله تعالى ، فهم على

بصيرة من ربهم ، وهذا ليس فيه أرتياب لصاحب قلب مكشوف بصريح المراد في غنى الخطاب ؛ فيأخذ وقته أبدا

من الأشياء ولم تأخذ الأشياء من وقته ، ولا يكون في قطر من الانقطاع إلا واحد متحقق بهذا الحال .

قال أبو عثمان الجعفي : لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه في أربعة أشياء : المنع والعطاء والمز والذل ، ولثل هذا

الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيها ذكرناه .

قال سهل بن عبد الله : لا يستحق الإنسان الرياسة حتى يجتمع فيه ثلاث خصال : يصرف جهله عن الناس ويحتمل

جهل الناس ، ويترك مافي أيديهم ، ويذل مافي يده لهم . وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التي زهد فيها وتعين

الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه ، وإنما هذه رياسة ألقها الحق لصلاح خلقه ، فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها

وشكر نعمتها لله تعالى .

الباب الحادى والثلاثون : في ذكر الأدب ومكانه من التصوف

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أدبى ربى فأحسن تأدبى ، فالأدب : تهذيب الظاهر والباطن

فإذا تهذب ظاهرك وبدنك صار صوفيا أدبيا ، وإباحيت المأدبة مأدبة لا يجتمعها على أشياء ، ولا يتكامل الأدب

في العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق ، ومكارم الأخلاق مجموعها من تحيين الحق ؛ فالخلق صورة الإنسان والخلق

معناه ، فقال بعضهم : الحق لا سبيل إلى تبيده كالحق ، وقد ورد : فرغ ربكم من الحق والخلق والرزق والأجل ،

وقد قال تعالى (لا تبدل خلق الله) والأصح أن تبدل الإخلاق بممكن مقدور عليه ، بخلاف الحق . وقد روى

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : حسنوا أخلاقكم ، وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهياً لقبول الصلاح والفساد وجملة أهلا للآداب ومكارم الأخلاق ، ووجود الأهلية فيه كوجود النار في الزناد ووجود النخل في الثوى ؛ ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان وعكس من إصلاحه بالترية إلى أن يضير الثوى نخلاً ، والزناد بالعلاج حتى يفرج منه ناراً ، وكجعل في نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيه صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ ونفس وما سواها فأولمها بجرمها ونفوها ﴾ فقصر عنها صلاحيتها للشيئين جميعاً ثم قال عز وجل ﴿ قد أفلح من زكاهما وقد غاب من ساءها ﴾ فإذا تركت النفس تدبر بالهوى واستقامت أحوالها الطاهرة والباطنة وتهدت بالآخلاق وتكونت الآداب فالآداب : استخراج مافي القوة إلى الفعل ، وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه ، والسجية فعل الحق لأقدرة البشر على تكوينها ، تتكون النار في الزناد إذ هو فعل الله المحض واستخراجه بكسب الأدب ، فهكذا الآداب منبها السجيا الصالحة والمنح الإلهية ، ولما هيا الله تعالى بواطن الصوفية بتكثير السجيا فيها توحلوا بحسن الممارسة والريضة إلى استخراج مافي النفوس وهو مركز بخلق الله تعالى إلى الفعل ، فصاروا مؤدبين مهذبين ، والآداب تقع في حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة ، وريضة لقوة ما أودع الله تعالى في غرائزهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبني ربّي فأحسن تأديبي ، وفي بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة لتقصان قوى أصولها في الثرية ، فلهذا احتاج المريدون إلى محبة المشايخ لتكون الصعبة والتعلم عوناً على استخراج مافي الطبيعة إلى الفعل ، قال الله تعالى ﴿ قروا أنفسكم وأهلكم ناراً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : تفهروهم وأدبهم . وفي لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبني ربّي فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ » قال يوسف بن الحسين : بالآداب يفهم العلم ، وبالعلم يصبح العمل ، وبالعمل تنال الحكمة ، وبالحكمة يقام الهدى ، وبالهدى ترك الدنيا ، وبترك الدنيا يرغب في الآخرة ، وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى .

قيل : لما ورد أبو حفص العراقي جاء إليه الجنيّد فرأى أصحاب أبي حفص وقفاً على رأسه يأتمرون لأمره لا يخطئ أحد منهم ، فقال : يا أبا حفص أدب أصحابك أدب الملوك ، فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب في الظاهر هو أن الأدب في الباطن .

قال أبو الحسين التوري : ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة ؛ وآداب الشريعة حلية الظاهر ، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحل بمحاسن الآداب . قال عبده المبارك : أدب الخدمة أعز من الخدمة .

حكى عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال : دخلت مكة فكنيت ربما أقعد بعباد الكعبة وربما كنت أسلق وأمد رجل : لجامتي عائنة المكبة فقالت لي : يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم ، أقبل مني كلمة ، لا تنجسها إلا بآداب وإلا فيمحي اسمك من ديوان القرب ، قال أبو عبيد : وكانت من العارقات .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوا الآداب ، والعبد مأمور بملازمة الآداب ، والنفس تهوى بطباعها في ميدان الخفاقة والعبد يردّها بمجدها إلى حسن المطالبة ؛ فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرماية ، ومهما أخطأ فهو شريكها .

وقال الجنيّد : من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه ، لأن العبودية ملازمة الآداب ، والطينان سوا الآداب أخبرنا الشيخ العالم حياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح المروزي ، قال أخبرنا أبو النصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن معاذ عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يؤدب الرجل ولله خير له من أن يتصقق بصاح » .

وروى أيضا أنه قال عليه السلام : ما نحل والدولنا من نعمة أفضل من أدب حسن . وروى عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه . وقال أبو بكر على الباق : العبد يصل بطاعته إلى الجنة ، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى . قال أبو القاسم القشيري رحمه الله وكان الأستاذ أبو علي لا يستند إلى شيء ، فكان يوما في مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهري لأقرب رأيت غير مستند ، فتنحى عن الوسادة قليلا ، فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجدة ، فقال : لا أريد الاستناد ، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شيء أبدا .

وقال الجلال البصري : التوحيد يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان يوجب الشريعة ، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له ، والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له . وقال بعضهم : ألزم الأدب ظاهرا وباطنا ، فإساءة أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا ، وإساءة أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا .

قال بعضهم - هو غلام الباق - نظرت إلى غلام أسرد فنظر إلى الباق وأنا أنظر إليه ، فقال : لتجدن غيبا ولو بعد سنين ، قال : فوجدت غيبا بعد عشرين سنة أن أفنيت القرآن .

وقال سري : صليت وردى ليلة من الليالي ومددت رجلي في المحراب ، فنردت : يا سري هكذا تجالس الملوك ؟ فضمت رجلي ثم قلت : وعزلك لأمددت رجلي أبدا . وقال الجنيد : بقيت سنين سنة مامد رجله ليلا ولا نهارا . وقال عبد الله بن المبارك : من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن . ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض . ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة .

وسئل السري عن مسئلة في الصبر فجعل يتكلم فيها ، فذهب على رجله عترب فجعلت تعتبه بإيرتها ، فقيل له : ألا تدفنها عن نفسك ؟ قال : أستحي من الله أن أتكلم في حال ثم أخالف ما أعلم فيه . وقيل : من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : زويت في الأرض فأريت مشارفها ومغارها ، ولم يقل رأيت .

وقال أنس بن مالك : الأدب في العمل علامة قبول العمل .

وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع المستحسنات . قيل : ما معناه ؟ قال : أن تعامل الله سرا وعلا بالأدب ؛ فإذا كنت كذلك كنت أدبيا وإن كنت أعجميا . ثم أنشد :

إذا نطقك جاءت بكل مليحة • وإن سكنت جاءت بكل مليح

وقال الجرجري منذ عشرين سنة مامددت رجلي في الخلوة ، فلان حسن الأدب مع الله أحسن وأولى .

وقال أبو علي : ترك الأدب موجب للطرود ، فمن إساءة الأدب على البساط رد إلى الباب ، ومن إساءة الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب .

الباب الثاني والثلاثون : في آداب الحضرة الإلهية لأهل القرب

كل الآداب تتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه عليه السلام يجمع الآداب ظاهرا وباطنا ، وأخير الله تعالى عن حسن أدبه في الحضرة بقوله تعالى (ما زاغ البصر وما طغى) وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس في الإعراض والإقبال ، أعرض عن حماسي الله وتوجه إلى الله ، وترك وراء ظهره الأرضين والدار المعالجة بمحظوظها والدار الآخرة بمحظوظها ، فإلى التفت إلى ما عرض عنه ولا لحنه الأسف على الثائب في إعراضه ، قال الله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) فهذا الخطاب للعموم و (ما زاغ البصر) إخبار عن حال النبي عليه السلام بوصف خاص من معني ما غاطب به العموم

فكان (مازغ البصر) حاله في طرف الإعراض وفي طرف الإقبال تلقى ماورد عليه في مقام قاب قوسين بالروح والقلب؛ ثم فر من الله تعالى حياة منه وهية وإجلالا، وطوى نفسه بفراره في مطاوى انكساره وانقاره، لكيلا تنبسط النفس فتعطنى، فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس. قال الله تعالى (كلان الإنسان ليطغى أن أَرَاهُ استغنى) والنفس عند الموابح الواردة على الروح والقلب تسترق السمع، ومضى نالت قسطا من المنح استغنت وطغت والطغيان يظهر منه فرط البسط، والإفراط في البسط يسد باب المزيد وطغيان النفس اضيق وعاطها عن الموابح؛ فوسى عليه السلام صبح له في الحضرة أحد طرفي (مازغ البصر) وما التفت إلى ماكانه (وماطنى) متأسفا لحسن أدبه، ولكن اعتلا من المنح، واسترقت النفس السمع وتطلعت إلى التسطوا لحظ؛ فلما حظيت النفس استغنت وطغت عليها ما وصل إليها، وضاق لظافها فتجاوز الحد من فرط البسط وقال (أرى أنظر إليك) فنع ولم يطلق في فضاء المزيد، وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام، وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية، فكل قبض يوجب عقوبة لأن كل قبض سد في وجه باب الفتوح، والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط في البسط، ولوحصل الاعتدال في البسط ماوجب العقوبة بالقبض، والاعتدال في البسط بإيقاف التازل من المنح على الروح والقلب، وإيقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال التي عليه السلام من تغيب النفس في مطاوى الانكسار، فذلك الثرار من الله إلى الله وهو غاية الأدب حظى به رسول الله عليه الصلاة والسلام لما قوبل بالقبض، فدام من بده وكان قاب قوسين أو أدنى، وبنا كل الشرح الذي شرحناه قول أبي العباس بن عطاء في قوله تعالى (مازغ البصر وماطنى) قال لم يره بطنيان يميل، بل رآه على شرط اعتدال القوى.

وقال سهل بن عبد الله تسترى: لم يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاعده نفسه ولا إلى مشاهدتها، وإنما كان مشاهدا بكلية لربه؛ يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك الحال؛ وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز في ذلك عن سهل بن عبد الله، ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو الشجيب السهروردى بإجازة، قال أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفصه عمر بن محمد بن منصور الصغار التيسابورى، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلى، قال: سمعت أبا نصر بن عبد الله ابن على السراج، قال أخبرنا أبو الطيب العسكى عن أبي محمد الحريرى، قال: التمرع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة، والوقوف على حد الانحرامجة، والياد بالمرح من علم البدو صلة، واستقبال ترك الجواب ذخيرة، والاعتصام من قبول دواعي استماع الخطاب تكلف، وخوف فوت علم ما لطفى من فصاحة الفهم في حين الإقبال مساهة والإصغاء إلى تلقى ما ينفصل عن معدنه ببد، والاستسلام عند التلاقى جراءة، والانبساط على عمل الأنسفرة، وهذه السكبات كلها من آداب الحضرة لأربابها. وفي قوله تعالى (مازغ البصر وماطنى) وجه آخر أظف بما سبق (مازغ البصر) حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وماطنى) لم يسبق البصر البصيرة فبقتجاوز حده ويتعدى مقامه، بل استقام البصر مع البصيرة، والظاهر مع الباطن، والقلب مع القلب، والنظر مع القدم، ففي تقدم النظر على القدم طغيان، والمضى بالنظر علم، وبالقدم حال القلب، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا، ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيرا، فلما اعتدلت الأحوال وصار فيه كفاية وقالبه كقلبه، وظاهره كباطنه وباطنه كظواهره، وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره، بحيث انتهى نظره وعله فانه قدمه وساله، ولهذا المعنى انكس حكم مناه ونوزع على ظاهره، وأرى البراق ينهى خطوه حيث ينتهى نظره، لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء في حديث المراج، فكان البراق غالبه مشا كاللعمنة، ومتصفا بصفته لقوة حاله ومعناه، وأشأرف حديث المراج إلى مقامات الأنبياء ورأى في كل سماء بعض الأنبياء إشارة إلى تعريقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته، ورأى موسى في بعض السموات فن هو في بعض السموات يكون قوله (أرى أنظر إليك) تجاوزاً للنظر عن حد القدم وتخلفا للقدم عن النظر، وهذا هو الإخلال بأحد الوصفين من قوله (مازغ البصر وماطنى) فرسول الله حمل مقترنا قدمه

ونظرة في حبال الحياء والتواضع ، ناظرا إلى قدمه ، تادما على نظره ، ولو خرج من حبال الحياء والتواضع وتطاول بالنظر متديا حد القدم فوق في بعض السموات كتموق غيره من الأنبياء ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم متجلسا حباله في خفارة أدب حاله ، حتى خرق حجب السموات ، فأصبحت إليه أقسام القرب انصبابا ، وانفتحت عنه صحاب الحجب حجابا حجابا ، حتى استقام على صراط (مازاغ البصر وما طغى) فر كالبق الحاطف إلى مدخ الوصل والطائف ، وهذا غاية في الأدب ونهاية في الأرب .

قال أبو محمد بن وليم حين سئل عن أدب السافر فقال : لا يجاوز همه قدمه ، بحيث وقف قلبه بكون مقره . أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أخبرنا عمر بن أحمد ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلي ، قال حدثنا القاضي أبو محمد يحيى بن منصور ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي قال حدثنا محمد بن رزام الأيلي ، قال حدثنا محمد بن عطاء المجيمي ، قال حدثنا محمد بن نصير عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (رب أرني أنظر إليك) قال : قال ياموسى إنه لا يرى حتى الإلام ، ولا يابس إلا تدهده ، ولا رطب إلا تفرق ، إنما يرى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم .

ومن آداب الحضرة ما قاله الشبل : الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب ، وهذا يختص ببعض الأحرار والأشياء دون البعض ، ليس هو على الإطلاق ، لأن الله تعالى أمر بالهياء ، وإنما الإنسك عن القول كما أمرك موسى عن الانبساط في طلب المآرب والمحاجات الدنيوية ، حتى رفه الحق مقابا في القرب وأذن له في الانبساط وقال : اطلب منى ولو ملحا لمعيجك ، فلما بسط انبسط وقال (رب إني لما أنزلت إلى من غير فقير) لأنه كان يسأل حوائج الآخرة ويستظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها وهو في حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات ، ولهذا مثال في الشاهد ، فإن الملك المعظم يسأل المعظلات ويصتقم في طلب المحقرات ، فلما رفع بساط حجاب الحشمة صار في مقام خاص من القرب يسأل المحقر كما يسأل الخفير .

قال ذو القرن المصري : أدب العارف فوق كل أدب ، لأن معرفته مودب قلبه وقال بعضهم : يقول الحق سبحانه وتعالى : من ألهمته القيام مع اسمائى وصفائى ألهمته الأدب ، ومن كشف له عن حقيقة ذاتى ألهمته العطب . فأنفأها شئت : الأدب أو العطب . وقول القائل هذا : يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجوب محتاج إلى الأدب لبقاء رسوم البشرية وحفظ النفس ومع لسان نور عظيمة الذات تتلانى الآثار بالأنوار . ويكون معنى العطب : التحقق بالفتاء ، وفي ذلك العطب نهاية الأرب .

وقال أبو علي الدقاق في قوله تعالى (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) لم يقل أرحم لأنه حفظ أدب الخطاب . وقال عيسى عليه السلام (إن كنت قلته فقد علمته) ولم يقل : لم أقل ، رعا لأدب الحضرة وقال أبو نصر الدراج : أدب أهل الخصوصية من أهل الدين في طهارة القلوب ، ودراسة الأسرار ، والرفاء بالههود ، وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض والبوايد والعوائق ، واستواء السر والعلانية ، وحسن الأدب في مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور . والأدب أدبان : أدب قول ، وأدب فعل ؛ فمن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعل منحه عبة القلوب .

قال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم . وقال أيضا : الأدب للمعارف بمنزلة التوبة للسنائف .

وقال الثوري : من لم يتأدب الوقت فوقته مقت .

وقال ذو القرن : إذا خرج المرید عن حد استمهال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء .

وقال ابن المبارك أيضا : قد أكثر الناس في الأدب ونحن نقول : هو معرفة النفس . وهذه إشارة منه إلى أن (٢٠) - ملحق كتاب الإحياء

النفس هي منبع الجلالات ، وترك الآداب من حضارة الجهل ؛ فإذا عرف النفس صادف نور العرفان ، على ماورد
 « من عرف نفسه فقد عرف ربه ، ولهذا النور لا تظهر النفس بجماله إلا ويقعها بصريح العلم وحيث يتأدب ،
 ومن قام بأداب الحضرة قبر بغيرها أقوم وعليا أقدر .

الباب الثالث والثلاثون : في آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى في وصف أصحاب الصفة (فيرجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) قيل في التفسير : يحبون
 أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات بالماء . قال الكلبي : هو غسل الأديبار بالماء . وقال عطاء : كانوا
 يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل قباء لما زلت هذه الآية
 « إن الله تعالى قد أثنى عليكم في الطهور فما هو ؟ » قالوا : إما نستنجي بالماء ، وكان قبل ذلك قال لم رسول الله
 « إذا أتى أحدكم الحلاء فليستنج بثلاثة أحجار » وهكذا كان الاستنجاء في الابتداء حتى تركت الآية في أهل قباء .
 قيل لسان : قد علمكم نبينا كل شيء حتى الخراءة فقال سلمان : أجل نهما أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، أو
 نستنجي باليمن ، أو يستنجي أحدا بأقل من ثلاثة أحجار ، أو نستنجي برجميع أعظم .

حدثنا شيخنا ضيا الدين أبو العجب ملاد ، قال أخبرنا أبو منصور الحرابي ، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب ، قال أخبرنا
 أبو عمر الهاشمي ، قال أخبرنا أبو علي القواضي ، قال أخبرنا أبو داود ، قال حدثنا عبد الله بن محمد ، قال حدثنا ابن المبارك
 عن ابن جعلان عن القطيع عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم « إنما أتاكم
 بنبأ الله أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستقبل يمينه ، وكان يأمر بثلاثة أحجار
 ويضيئ عن الروث والرمة . » والفرس في الاستنجاء شيئا : إذا التفت وطهارة للزبل : وهو أن لا يكون رجيا وهو
 الروث ، ولا مستملا مرة أخرى ، ولا رمة وهي عظم الميت . وروى الاستنجاء سنة فلما ثلثة أحجار أو خمس أو سبع ،
 واستعمال الماء بعد الحجر سنة ، وقد قيل في الآية (يحبون أن يتطهروا) ولما سئلوا عن ذلك قالوا : كنا نبيع الماء
 الحجر ، والاستنجاء بالثياب سنة ، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة ، وهكذا يكون في الصحراء إذا كانت أرضا
 طاهرة وترابا طاهرا . وكيفية الاستنجاء أن يأخذ الحجر بيضاه ويضعه على مقدم المخرج قبل ملاقة النجاسة ويمره
 بالمسح ويدبر الحجر في مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع ، ويفعل ذلك إلى أن ينتهي إلى مؤخر المخرج ،
 ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ، ومسح إلى المقدمة ، ويأخذ الثالث ويدبره حول المسربة . وإن استجمر بحجر
 ذي ثلاث شعب جاز . وأما الاستبراء إذا انقطع البول فيمدد كره من أصله ثلاثا إلى الحشفة بالرفق ثلاثيندق بقية
 البول ، ثم يشرف ثلاثا ، ويحتاط في الاستبراء بالاستقاء : وهو أن يتخفف ثلاثا ، لأن العروق متعددة من الخلق إلى الذكر ،
 وبالتخفف تتحرك وتقذف مافي مجرى البول ؛ فإن مشى خطوات وزاد في التخفف فلا بأس ، ولكن براعى حد العلم
 ولا يجعل الشيطان عليه سبيلا بالروسة فيضيع الوقت ، ثم مسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر إلى أن لا يرى الرطوبة .
 وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال ، لا يزال تظهر منه الرطوبة مادام يتغير براعى الحشفة ذلك ، وبراعى الوتر في ذلك أيضا ،
 والمسحات تكون على الأرض الطاهرة أو حجر طاهر . وإن احتاج إلى أخذ الحجر لضعفه فليأخذ الحجر باليمن والذكر
 باليسار ومسح على الحجر ، وتكون الحركة باليسار باليمن ثلاثين يكون مستنجيا باليمن . وإذا أراد استعمال الماء انتقل
 إلى موضع آخر ويقع بالحجر مالم ينقثر البول على الحشفة ، وفي ترك الاستقاء في الاستبراء وعيد ورد فيأورد عبد الله
 ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال « إنهما إيمان وإيمان ما يدان في كبير ،
 أما هذا فكان لا يستبرئ أولا يستنزه من البول ، وأما هذا فكان يمشي بالنميمة » ثم دعا بحسب وطب فشق اثنين ،
 ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال « لعله يخفف عنهما مالم يبسا ، والصب : الجريد ، وإذا كان في
 الصحراء يبعد عن العيون .

روى جابر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد البراء انطلق حتى لا يراه أحد . وروى المنيرة من شعبة رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم حاجته فأبعدني من المذهب وروى : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبتوأ حاجته كما يبتوأ الرجل الخول ، وكان يستتر بحائط أو نثر من الأرض أو كوم من الحجارة .

ويجوز أن يستتر الرجل براحلته في الصحراء أو بذي له إذا حفظ الثوب من الرشاخ . ويستحب البول في أرض دمنة أو على تراب مهيل . قال أبو موسى : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يبول ، فأتى دمثا في أصل جدار فبال ثم قال : إذا أراد أحدكم أن يبول فليتردد لبوله .

وينبى أن لا يستقبل القبلة ولا يستديرها ، ولا يستقبل الشمس والقمر ، ولا يكره استقبال القبلة في البنيان ، والأولى اجتنابه لذهاب بعض العقهاء إلى كراهية ذلك في البنيان أيضا ، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ، ويتجنب مهاب الريح احترازا من الرشاخ : قال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصه : أحسبك تحسن الخراءة ؛ فقال : بلى وأنيك إني بها لحاذق . قال : فصفها لي ، فقال : أبعد البشر وأعد المندر ، واستقبل الشيح وأستدير الريح وأنى إقباء الظي وأجفل لإجفال التمام . يعنى استقبل أصول الثبات من الشيح وغيره وأستدير الريح احترازا من الرشاخ . والإقامة ههنا : أن يستوفى على صدور قديميه . والإجفال : أن يرفع عجزه .

ويقول عند الفراغ من الاستنجاء : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وظهر قلبي من الرياء ، وحسن فرجى من القواحش .

ويكره أن يبول الرجل في المغفل : روى عبد الله بن مغفل أن النبي صلى الله عليه وسلم ، نبى أن يبول الرجل في مستحمه وقال : وإن عامة أنوساس منه . وقال ابن المبارك : يوسع في البول في المستحم إذا جرى فيه الماء وإذا كان في البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاه ويقول قبل الدخول : بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو التيجيب السهروردى ، قال أخبرنا أبو منصور المقرئ ، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب قال أخبرنا أبو عمرو الهاشمي ، قال أخبرنا أبو علي الثؤلى ، قال أخبرنا أبو داود ، قال حدثنا عمرو هو ابن مرزوق البصرى قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن هذه الحشوش محضرة فإذا أتى أحدكم الخلاه فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخبائث ، وأراد بالحشوش الكف . وأصل الخش : جماعة التخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ الكف في البيوت . وقوله : محضرة ، أى يحضرها الشياطين .

وفى الجلوس الحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ولا يتوكل بيده ، ولا يخطى الأرض والحائط وقت قموده ، ولا يكثر النظر إلى هورته إلا للحاجة إلى ذلك ، ولا يتكلم ، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يخرج الرجلان يضربان الناقط كاشفين عوراتهما يتحدان ، فإن الله تعالى يمتحن على ذلك .

ويقول عند خروجه : غفرانك ، الحمد لله الذى أذهب عني ما يؤذنى وأبقى على ما ينفعنى . ولا يستصحب معه شيئا عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره ، ولا يدخل حاسر الرأس : وروى عائشة رضى الله عنها عن أبيها أن بكر رضى الله عنه أنه قال : استحيوا من الله فأتى لأدخل الكثيف فألوق ظهري وأعطى رأسى استحياء من ربى عز وجل .

الباب الرابع والثلاثون : فى آداب الوضوء وامراره

إذا أراد الوضوء يبتدىء بالسواك : حدثنا شيخنا أبو التيجيب قال أخبرنا أبو عبد الله الطائى ، قال أخبرنا الحافظ الفراء ، قال أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ، قال أخبرنا أبو منصور محمد بن أحمد ، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار ، قال حدثنا حميد بن زنجويه ، قال حدثنا حميد بن عبيد ، قال حدثنا محمد بن يحيى عن محمد

ان إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن خالد الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن
أشعق على أمي لأخبرت المشاء إلى تلك الليل ، وأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة ، ورويت عائشة رضي الله تعالى عنها
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : السواك مطهرة للفم مرضاة للرب . وعن حذيفة قال : كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك . . والشوص : الدلك . ويستحب السواك عند كل صلاة
وعند كل وضوء ، وكلما تغير الثمن من أزم وغيره . وأصل الأزم إسساك الأسنان بعضها على بعض . وقيل السكوت :
أزم ، لأن الأسنان تطبق وبذلك يتغير الفم . ويكره الصائم بعد الزوال . ويستحب له قبل الزوال ، وأكثرا استحبابه
مع غسل الجمعة ، وعند القيام من الليل ، ويندئ السواك اليابس بالماء ، ويستاك عرضا وطولا ؛ فإن اقتصر فمرضا ،
فإذا فرغ من السواك ينفسه ويجلس للوضوء ، والأولى أن يكون مستقبل القبلة ، ويبتدئ بيسم الله الرحمن الرحيم
ويقول (رب أعوذ بك من هزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضروني) ويقول عند غسل اليد : اللهم إني
أسألك الدين والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة . ويقول عند المضمضة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعني
على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك . ويقول عند الاستنشاق : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأوجدني راحة
الحنجرة وأنت حي راض .

ويقول عند الاستنشاق : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك من روائح التاروسود الدار . ويقول عند
غسل الوجه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ويغسل وجهي يوم تبيض وجوه وأرلياك ، ولا تسود وجوهي يوم تسود
وجوه أعدائيك . وعند غسل العينين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتي كتابي يميني وحاسيني حسابا يسيرا ،
وعند غسل الشال : اللهم إني أعوذ بك أن تؤتيني كتابي بشكلى أو من وراء ظهري ، وعند مسح الرأس : اللهم صل
على محمد وعلى آل محمد وغشني برحمتك وأرسل على من بركاتك وأطلقني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك
ويقول عند مسح الأذنين : الله صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني من يسمع القول فيتبع أحسنه ، اللهم أسمعني
منادى الجنة مع الأبرار . ويقول في مسح النقي : اللهم فك رقبتي من النار . وأعوذ بك من السلاسل والأغلال .
ويقول عند غسل قدمه اليمنى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين . ويقول
عند اليسرى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن نزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين (١)
وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا
عبده ورسوله ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سودا وظلمت نفسي استغفرك وأتوب إليك فأغفر لي
وتب علي فإنه أنت التواب الرحيم ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين
واجعلني صبورا شكورا ، واجعلني أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصिला .

وفرائض الوضوء : الثانية عند غسل الوجه . وغسل الوجه - وحد الوجه من مبتدأ تسطيع الوجه إلى منتهى
الاذن وما ظهر من الحية وما استرسل منها ، ومن الإذن إلى الأذن عرضا ، ويدخل في الغسل البياض الذي بين
الأذنين والحية وموضع الصلع وما انحصر عنه الشعر وم الثغتان من الرأس ، ويستحب غسلهما مع الوجه ويوصل
الماء إلى شعر التحذيف وهو الشعر الذي يزيله النساء من الوجه ، ويوصل الماء إلى المنقطة والشارب والحاجب
والصدار ، وما عدا ذلك لا يجب ، ثم الحية إن كانت خفيفة يجب إصصال الماء إلى البشرة ، وحد الخفيف
أن ترى البشرة من تحته . وإن كانت كثيفة فلا يجب ، وتجهد في تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين
الواجب الثالث . غسل اليدين إلى المرفقين ويجب إدخال المرفقين في الغسل ويستحب غسلهما إلى أنصاف المصدين ،

(١) ما ذكره المؤلف من الأذكار عند غسل الأعضاء في الوضوء هو خلاف الثالث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم
يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الوضوء إلا التسبب بأوله والتعهد في آخره ، فيكتفي بما يكفي الذي صلى الله تعالى عليه وسلم
وأصحابه ، فتدبر والله ولي التوفيق ، له

وإن طالت الأظافر حتى خرجت من ورس الأصابع يجب غسل ما تحتها على الأصح . الرابع الرابع : مسح الرأس ، ويكنى ما يطلق عليه اسم المسح ، واستيعاب الرأس بالمسحنة : وهو أن يبلق رأس أصابع اليمنى اليسرى ويضعها على مقدم الرأس ويدها إلى الخلف ثم يردهما إلى الموضع الذي بدأ منه ، ويصف بلل الكفين مستقبلا ومستديرا .
والواجب الخامس : غسل القدمين ، ويجب إيداع الكفين في القفل ، ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين ويقنع غسل القدمين من الكعبين ، ويجب تخليل الأصابع للتمتة ، فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى ، وإن كان في الرجل شقوق يجب إيصال للماء إلى باطنها ، وإن ترك فيها عيونا أو حنجا يجب إزالته عن ذلك الشيء ، الرابع السادس : الترتيب على النفس المذكور في كلام الله تعالى . الرابع السابع : التسابع في القول القديم عند الشافعي رحمه الله تعالى ، وحد التفريق الذي يقطع التسابع إنشاف الموضع اعتدال الهواء .
وسن الوضوء ثلاثة عشر : التسمية في أول الطهارة . وغسل اليدين إلى الكوعين ، والمضمضة . والاستنشاق ، والمباينة فهما ، فيفرغ في المضمضة حتى يرد الماء إلى الفمصة ، ويستند في الاستنشاق الماء بالنفس إلى الحياشيم ، ويرفق في ذلك إن كان صائما . وتخليل اللحية الكثة ، وتخليل الأصابع المتفرجة ، والبادة باليامن ، وإطالة الفرج ، واستيعاب الرأس بالمسح ، ومسح الأذنين ، والتثليل ، وفي القول الجديد : التسابع ، ويحسب أن يزيد على الثلاث ، ولا يفيض اليد ، ولا يتكلم في أثناء الوضوء ، ولا يلطم وجهه بالماء لطما ، ويجدد الوضوء مستحب بشرط أن يهمل بالوضوء ما ليس ، وإلا فكرهه .

الباب الخامس والثلاثون : في آداب أهل الخصوص والصوفية في الوضوء

آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام : أدبهم في الوضوء حضور القلب في غسل الأعضاء ، سمعت بعض الصالحين يقول : إذا حضر القلب في الوضوء يحضر في الصلاة ، وإذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة في الصلاة . ومن آدابهم : استدامة الوضوء ، والوضوء سلاح المؤمن ، والجوارح إذا كانت في حيازة الوضوء الذي هو أثر شرعي يقل طرق الشيطان عليها . قال عدي بن حاتم : ما أقيمت صلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء . وقال أنس بن مالك : قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين ، فقال لي : يا بني إن استطعت أن لا تزال على الطهارة فافعل ، فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة ، فثنا الماقل أن يكون أبدا مستعدا للوئ ، ومن الاستعداد لزوم الطهارة . وحكى عن الحصري أنه قال ، مهما أنقذ من الليل لا يحتمل النوم إلا بوضوء ما أقوم ما أجدد الوضوء ثلاثا يعود إلى النوم وأنا على غير طهارة . وسمعت من صحب الشيخ علي بن المهدي أنه كان يقد الليل جميعه ، فإن غلبه النوم يسكن قاعدا كذلك ، وكذا أنقذ يقول : لا أكون أسأت لأدب ، فيقوم ويجدد الوضوء ويصل ركعتين . وروى أبو هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر : يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فأن سمعتك فليكن بين يدي في الجنة . قال : ما عملت عملا في الإسلام أرجى عندي أني لم أنظر طهرا في ساحة ليل أو نهار إلا وصلت لربي عز وجل بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي .

ومن أدبهم في الطهارة : ترك الإبراب في الماء والوقوف على حد العلم ، أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح أفرود ، قال أخبرنا أبو نصر الأتباعي ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا محمد بن بشار ، قال حدثنا أبو داود ، قال حدثنا خارجة بن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن بن يحيى بن حمزة السعدي عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : للوضوء شيطان يقال له الوطان فأتوا وسوا من الماء .

قال أبو عبد الله الروذباري : إن الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بني آدم ، فلا يزال أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيها أمروا به أو ينهوا عنه .

وحكى عن ابن الكرنبي أنه أمابت جنازة ليلة من الليالي ، وكانت عليه مرقعة مخيطة غليظة ، لجاء إلى الدجلة وكان برد شديد ، فخرت نفسه عن الدخول في الماء لشدة البرد ، فطرح نفسه في الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال : عقدت أن لا أزعجها من بدني حتى تجف على : فكنت عليه شهرا لتخايتها وغظائها : أدب بذلك نفسه لمأخزته عن الاستمرار لأمر الله تعالى . وقيل : إن سهل بن عبد الله كان يكثر شرب الماء وقلة صبه على الأرض ، وكان يرى أن في الإكثار من شرب الماء ضعف النفس وإمالة الشهوات وكسر القوة .

ومن أفعال الصوفية الاحتياط في استبقاء الماء للوضوء . قيل : كان إبراهيم الخواص إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء وربما كان لا يشرب منها إلا القليل : يحفظ الماء للوضوء ، وقيل : إنه كان يخرج من مكة إلى الكوفة ولا يحتاج إلى التيمم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب ، وقيل : إذا رأيت الصوفي ليس معه ركوة أو كوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى .

وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهري جماعة من النساك وهم مجتمعون في دار فأرآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لأنه كان يقضى حاجته إذا خلا للموضع في وقت يريد تأديب نفسه .

وقيل : مات الخواص في جامع الرقي وسط الماء ، وذلك أنه كان به علة البطن وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخل مرة ومات فيه ، كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة ، وقيل : كان إبراهيم بن آدم به قيام ، فقام في ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة ، كل مرة يجدد الوضوء ويصلي ركعتين .

وقيل : إن بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح إلا في وقت البراز يراعى الآداب في الخلوات .

واتخاذ المتدبيل بعد الوضوء كرمه قزم وقالوا : إن الوضوء يوزن ، وأجهزه بعضهم ، ودليلهم ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو بصير ، قال أخبرنا أبو محمد ، قال أخبرنا أبو العباس ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا سفيان بن وكيع ، قال حدثنا عبد الله بن وهب عن زيد بن جباب عن أبي معاذ عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خرفة ينشف بها أعضائه بعد الوضوء ، وروى معاذ بن جبل قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه .

واستقصاء الصوفية في تطهير البواطن من بين الصفات الرديئة والأخلاق المذمومة ، لا الاستقصاء في طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم ، وتوضأ عمر رضي الله عنه من حرة نصرانية مع كون النصارى لا يجترئون على الخمر ، وأجرى الأمر على الظاهر وأصل الطهارة .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلطون على الأرض من غير مجادة ، ويمشون حفاة في الطرق ، وقد كانوا لا يحملون وقت التزم بينهم وبين التراب حائلا ، وقد كانوا يقتضرون على المجرى في الاستنجاء في بعض الأوقات ، وكان أمرهم في الطهارة الظاهرة على التام ، واستقصاءهم في الطهارة الباطنة ، وهكذا شغل الصوفية ، وقد يكون في بعض الأشخاص تشدد في الطهارة ويكون مستند ذلك روعة النفس ، فلما نسخ ثوبه تخرج ، ولا يزال يمانى بألمه من القمل والحقد والكبر والسجب والرياء والتفاخر ، ولعله ينكر على الشيخ لو داس الأرض حافيا مع وجود رخصة الشرع ، ولا ينكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه ، وكل ذلك من قلة العلم وترك التأديب . بصحة الصادقين من العلماء الراحمين ، وكانوا يكرهون كثرة الفلك في الاستبراء ، لأنه ربما يسترخى العرق ولا يسلك البول ويتولد منه القطر المفرد .

ومن حكايات المتصوفة في الوضوء والطهارات : أن أبا عمرو الوجاجي جاور بمكة ثلاثين سنة وكان لا يتنزه في الحرم ويخرج إلى الخلاء وأقل ذلك فرسخ .

وقيل : كان بعضهم على وجهه قرح لم يتدل الفلق عشرة سنة لأن الماء كان يضره ، وكان مع ذلك لا يدع تجديد

الوضوء عند كل فريضة .

وبعضهم زلفى عينه المالحملوا إليه للدأوى وبذلوا له مالا كثيرا ليأديه ، فقال للدأوى : يحتاج إلى ترك الوضوء أياما ويكون مستقيما على قضاءه فلم يفعل ذلك ، واختار ذهابه بصره على ترك الوضوء .

الباب السادس والثلاثون : في فضيلة الصلاة وكبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله تعالى جنه عدن وخلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها : تكلمى فقالت (قد أطلع المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون) ثلاثا .

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتاني جبرائيل فلوك الشمس حين زالت وصلى في الظهر .

واشتاق الصلاة قيل من الصلى وهو النار ، والخشبة المعروجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم يقوم ، وفي العيد اعوجاج لوجود نفسه الإمارة بالسوء ، وسبحات وجه الله الكريم التي لو كشف حجابها لأحرقت من أدركته ؛ يصيب بها المصل من وهج السطرة الإلهية والنظمة الربانية ما يزول به اعوجاجه ، بل يتحقق به مرآجه ؛ فالمصل كالمسطل بالنار ، ومن أصطلى بنار الصلاة وزان بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم إلا نحلة القسم .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة ، قال أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس بن محمد بن أبي العباس الخليلي ، قال أخبرنا أبو سعيد الفريزى ، قال أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد ، قال أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن ، قال أخبرنا أبو زكريا يحيى بن محمد المنبرى ، قال حدثنا جعفر بن أحمد بن الحافظ قال أخبرنا أحمد بن نعيم ، قال حدثنا آدم بن أبي إياس عن ابن سيمان عن الملا بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فإذا قال العبد : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : مجدى عبدي ؛ فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : مجدى عبدي ؛ فإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أئني على عبدي ، فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : فوض إلى عبدي ؛ فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ، فإذا قال : أهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله تعالى : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل .

فالأصلاة صلة بين الرب والعبد . وما كان صلة بينه وبين الله خلق البدان يكون عاشما لصلوة الربوية على العبودية . وقد ورد أن الله تعالى إذا تجمل لشيء خضع له ؛ ومن يتحقق بالصلة في الصلاة تلعب له طوابع التجلي يخضع له الفلاح الذين هم في صلاتهم خاشعون ، وابتغاء الخشوع ينفع الفلاح وقال الله تعالى (وأتم الصلاة لذكرى) وإذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع فيها النسيان . قال الله تعالى (لا تقر بها الصلاة وأتم سكرارى حتى تمنوا أنهم ملوك) فمن قال ولا يعلم ما يقول كيف يصل وقد نهاه الله عن ذلك ، فالسكران يقول الشيء لاجتماع عقل ، والناقل يصل لاجتماع عقل ؛ فهو كالسكران . وقيل في غرائب التفسير قوله تعالى (فأخضع لمليك إنك بالواد القدس طوى) قيل : لمليك ملك بامرأتك وعظمك ؛ فالاحتكام بنبي الله تعالى سكر في الصلاة .

وقيل : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء وينظرون بينا وشمالا ؛ فلما زلت (الذين هم في صلاتهم خاشعون) جعلوا وجوههم حيث يسجدون ، ومارقوا بعد ذلك أحد منهم ينظر إلى الأرض وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدي الرحمن ، فإذا انتفخ قال له الرب : إلى من تلتفت ؟ إلى من هو خير لك منى ؟ ابن آدم ، أقبل إلى فأنا خير لك من تلتفت إليه .

وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يبيت بلحيته في الصلاة فقال « لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » .
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا صليت فصل صلاة مودع » .

فالصلاة سائر إلى الله تعالى قبله يودع هواه ودنياه وكل شيء سواه . والصلاة في اللغة هي الدعاء ، فكان المصل يودع الله تعالى بجميع جوارحه ، فصارت أعضاؤه كلها السنة يدعوا بها ظاهرا وباطنا ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب والحيثيات في تملطات متضرع سائل محتاج ، فإذا دعا بكلية أجاهه مولاؤه (أدعوني أستجب لكم) وكان خالدا بالربيعي يقول : عجبت لهذا الآية (أدعوني أستجب لكم) أمرهم بالدعاء وعدم الإجابة ليس بينهما شرط ، والاستجابة والإجابة : هي نفوذ دعاء العبد ؛ فإن الداعي الصادق العالم بمن يدعوه بنوريته ، فتخرق الحجب وتقذف الدعوة بين يدي الله تعالى متقاضية الحاجة . وخص الله تعالى هذا الأمة بإزالة فائقة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء : ليكون أسرع إلى الإجابة ، وهي تعلم الله تعالى عبادته كيفية الدعاء . وفائقة الكتاب هي السبع المثاني والقرآن العظيم . قيل : سميت مثاني لأنها زلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة زلت منها فهم آخر ، بل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة يقرأها على الترداد مع طول الزمان فهم آخر ، وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها ، وتقذف لهم كل مرة درر بحارها . وقيل : سميت مثاني لأنها استثبتت من الرسل وهي سبع آيات .

وروت أم رومان قالت : رأي أبي بكر وأما تامل في الصلاة ، فزجر فزجرا كدت أن أنصرف عن صلاتي ، ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليكن أطرافه لا يتميل بميل اليهود ، فلو سكنون الأطراف من تمام الصلاة » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تمودوا بالله من خشوع التفائق » قيل : وما خشوع التفائق ؟ قال « خشوع البدن وتفائق القلب » .

أما تميل اليهود : قيل : كان موسى يعامل بني إسرائيل على ظاهر الأمور لقلة ما في باطنهم . فكان يهيئ الأمور ويضبطها ، ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليهم يحل التوراة بالذهب ، ووقعوا لله أعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد في صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج ، فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسيم الفضل ، وربما كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية ، فهم بالاستسلام ، ولقلب بها تشبه رامزاج ، فيضطرب القلب ويتمايل ، فرأى اليهود ظاهره فتأيلوا من غير حظ لباطنهم من ذلك ؛ ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكارا على أهل الوسوسة « هكذا خرجت عظمة الله من قلب بني إسرائيل حتى شهدت أبداهم وغابت قلوبهم ، لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه ، وإن الرجل على صلاته دائم ولا يكتب عشرين إذا كان قلبه ساهيا لاهيا » .

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة عماد الدين ، فمن ترك الصلاة فقد كفر » فبالصلاة تحقيق العبودية وأداء حق الربوبية ، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة . قال سهل بن عبد الله : يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكثير القرائن ، ويحتاج إلى النوافل لتكثير السنن ، ويحتاج إلى الآداب لتكثير النوافل .

ومن الآداب : ترك الدنيا ، والذي ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر : إن الرجل ليشتب عارضه في الإسلام وما أكل لله صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله فيها . وقد ورد في الأخبار إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم ، وقامت الملائكة من لندن منسكية إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه ، وإن المصل ليقترب عليه البر من شأن السماء إلى مفرق رأسه ، وينادي به مناد : لو علم المصل من يناجي ما انتفض ، أو ما انفتل .

وقد جمع الله تعالى المصلين في كل ركعة مافرق على أهل السموات ، ففقه ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله لارفعون من الركوع إلى يوم القيامة ، وهكذا في السجود والقيام والتعود ، والعبد للتبسط بتصف في ركوعه بصفة الرাকعين منهم ، وفي السجود بصفة الساجدين ، وفي كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم . وفي غير الفريضة ينبغي للصلي أن يبتك في ركوعه مثلثا بالركوع غير مهم الرفع منه ، فإن طرقة سآمة بحكم الجبلية استغفر منها ، ويستديم تلك الهيئة وتطلع أن بدوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بولن الهيئة ، وربما يترامى الراكع المحق أنه إن سبق منه في حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه مافوق الهيئة حقها ، فيكون هو الهيئة مستغرقا فيها مشغولا بها عن غير ما من الهيات ، فبذلك يتوفر حفظه من بركة كل هيئة ، فلأن السرعة التي يتقاضي بها الطبع لفسد باب الفتوح ، ويقف في مهاب التفجعات الإلهية حتى يتكامل حظ العبد ، فتتمى آثاره بحسن الاسترسال ويستغفر في مقعد الوصال .

رقل : في الصلاة أربع هيات وستة أذكار ؛ فالحيات الأربع : القيام والتعود والركوع والسجود . والأذكار الستة : التلاوة ، والتسبيح ، والحمد ، والاستغفار ، والدعاء ، والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام . فصارت عشرة كاملة تفرق هذه العشرة على عشرة صفوف من الملائكة : كل صف عشرة آلاف ؛ فيجتمع في الركعتين مايفرق على مائة ألف من الملائكة

الباب السابع والثلاثون : في وصف صلاة أهل القرب

ونذكر في هذا الوصف كيفية الصلاة بهبآتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال؛ أقصى ما تاتي إلى ههنا وعلينا على الوجه ، مع الإعراض عن نقل الأقوال في كل شيء من ذلك ، إذ في ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز المقصود ، فنقول وبالله التوفيق :

ينبغي للعبد أن يستد قبل دخوله بالوضوء ولا يوقع الوضوء في وقت الصلاة ؛ فذلك من المحافظة عليها . ويحتاج في معرفة الوقت إلى معرفة الزوال ونفاوته لأقدام لعلول النهار وقصره ، ويتميز الزوال بأن الظل مدام في الانتقاص فهو النصف الأول من النهار ، فإذا أخذ الظل في الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس ، وإذا عرف الزوال وأن الشمس على كقدم زول ؟ يعرف أول الوقت وآخره وقت العصر ، ويحتاج إلى معرفة المنازل ليعلم طالع الفجر ويعلم اوقات الليل ، وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب ، فإذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الرابعة ، ففي ذلك سر وحكمة ، وذلك لرافقه أعلم : أن العبد تشمت بباطنه وتفرق همه لما بلى به من المخالطة من الناس وقيامه بهما للمعاش ، أو سر جري برفع الجبلية ، أو صرف هم إلى أكل أو نوم بمقتضى العادة ، فإذا قدم السنة ينحذب بباطنه إلى الصلاة وينها للنجاسة ، ويذهب بالسنة الرابعة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فينصلح الباطن ويصير مستعدا للفريضة ، فالسنة مقدمة صالحة يستلزم بها الركعات وتطرق التفجعات ، ثم يحدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله ، ومن الذنوب عامة وعاسية ، فالعامة الكبائر والصناتر عا أوما إليه الشرع ونفاق به الكتاب والسنة ، والخاصة . ذنوب حال الشخص ، فكل عبد على قدر صفاء حاله لذنوب تلام حاله ويمر بها صاحبها . وقيل : حسنات الأبرار سيئات المفترين ، ثم لا يصل إلى الجماعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفضل صلاة الجماعة صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، ثم يستقبل القبلة بظواهره والحضرة الإلهية بباطنه وقرأ (قل أعوذ ب الله الناس) وقرأ في نفسه آية التوجه ، وهذا التوجه قبل الصلاة والاستفتاح قبل الصلاة لوجه الظاهر بانصرافه إلى القبلة وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة ، ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث تكون كماء حذو منكبيه وإلهامه عند تحمته أدنيه ودهوس الأصابع مع الأذنين ويضم الأصابع ، وإن نشرها جاز ، والضم أولى ، فإنه قيل : النشر نشر البك لنشر الأصابع ، ويكبر ، ولا يدخل بين ياه أكبر ، وراه ألفا ، ويجزم أكبر ، ويجمل الله في الله ، ولا يبالغ في

ضم الهاء من « الله » ولا يتبدئ بالتكبير إلا إذا استقرت اليدين جنو المنكبين ، ويسلها مع التكبير من غير تفنن ؛ فالقار إذا سكن القلب تشكك به الجوارح وتأيدت بالاول والاصوب ، ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلي الصلاة بعينها .

وحكى عن الجنب أنه قال : لكل شيء صفوة ، وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى . وإنما كانت التكبيرة صفوة لأنها موضع النية وأول الصلاة .

قال أبو نصر السراج : سمعت ابن سالم يقول : النية باقية من الله ، والآيات التي تدخل في صلاة العبد بعد النية من المدد ، ونصيب المدد وإن كثر لا يوازن بالنية التي هي لله بالله وإن قل .

وسئل أبو سعيد الخزاز : كيف الدخول في الصلاة ؟ فقال : هو أن تقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يدي الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت متناهية وقدم بين يدي من أنت واقف فإله الملك العظيم .

وقيل لبعض المارفين : كيف تكبر التكبيرة الأولى ؟ فقال : ينبغي إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك في الله : التعظيم مع الآلف ، والهيبة مع اللام ، والرافقة والتقرب مع الهاء . واعلم أذن من الناس من إذا قال الله أكبر غاب في مطالعة العظمة والكبرياء ، وامتلا بباطنه نورا ، وصار الكون بأسره في فضاء شرح صدره كحدلة بأرض فلاة ، ثم تلقى الحردة ، فاستغنى عن الوسوسة وحديث النفس ، وما يتخيل في الباطن من الكون الذي صار بمثابة الحردة فألغيت زواجر الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد ؟ وقد تراحم مطالعة العظمة والغبوبة في ذلك كون النية ، غير أنه لئلا يطفئ الحال ينقص الروح ، مطالعة العظمة والقلب يتميز بالنية ، فتكون النية موجودة بألف صفاتها مندرجة في نور العظمة اندراج الكواكب في ضوء الشمس ، ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويجعلها بين السرة والصدر ، واليمنى لكرامتها تجمل فوق اليسرى ، ويمد المصافحة والوسطى على الساعد ، ويقبض بالثلاثة البواقي اليسرى من الطرفين ، وقد فسر أمير المؤمنين على رضي الله عنه قوله تعالى (فصل ربك وانحر) قال : (هو وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر ، وذلك أن تحت الصدر عرفا يقال له الناحر : أي ضع يدك على الناحر . وقال بعضهم (وانحر) أي استقبل القبلة بنحرك ، وفي ذلك سر خفي يكشف به من وراء أستار الغيب ، وذلك أن الله تعالى بطيف حكمته خلق الآدمي وعرفه وكرمه وجعله على نظره ومورد حبه ونجته ما في أرضه وسماؤه وحائيا وجسائيا أرضيا وسماويا ، منتصب القائمة مرتفع الهيئة ، فنفسه الأعلى من حد الفؤاد مستودع أسرار السموات ، ونصفه الأسفل مستودع أسرار الأرض ، فحل نفسه ومركزها النصف الأسفل ، وحل روحه الروحاني والقلب النصف الأعلى ؛ لجواذب الروح مع جواذب النفس بقطار دان وبحار بان ، وباعتبار قطار دما وتذاهما تكون لمة الملك ولة الشيطان ، ووقت الصلاة بكثرة التقارود لوجود التجاذب بين الإيمان والطبع ، فيكشف المصلي الذي صار قلبه سماويا مترددا بين الفناء والبقاء لجواذب النفس متصاعدة من مركزها .

وللجوارح ونصرتها وحركتها مع معاني الباطن ارتباط وموازنة ؛ فوضع اليمنى على الشمال حصر النفس ومنع من صعود جواذبها ، وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة وزوال حديث النفس في الصلاة ، ثم إذا استولت جواذب الروح وغلبت من الفرق إلى القدم - عند كمال الانس وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان المشاهدة - نصير النفس مقهورة ذليلة ، ويستتير مركزها بنور الروح ، وتتقطع حينئذ جواذب النفس ؛ وعلى قدر استقارة مركز النفس يزول كل العبادة ، ويستغنى حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جواذبها بوضع اليدين على الشمال فيسبل حينئذ ، ولعل لذلك - والله أعلم - ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى ميلا ، وهو مذهب مالك رحمه الله ، ثم يقرأ (وجهت وجهي) الآية ، وهذا التوجه لإنشاء توجه قلبه ، والذي قبل الصلاة لوجه قلبه ، ثم يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك أنت ربّي وأنا عبدك ،

ظلت نفسى واعترفت بذنبي فأغفر لى ذنوبي جميعا إله لا يغير الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يبدى لأحسنا إلا أنت، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لييك وسعديك فخير كله بيدك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأووب إليك. ويطلق رأسه في قيامه ويكون نظره إلى موضع السجود، ويكمل القيام بانصباب القنامة ونزع سبير الانطواء عن الركبتين والحواسر ومعاطف البدن، ويقف كأنه ناظر بجميع جسده إلى الأرض؛ فهذا من خشوع سائر الأجزاء، ويتكون الجسد يتكون القلب من الخشوع؛ ويرواح بين القدمين بمقدار أربع أصابع؛ فإن ضم الركبتين هو الصنف المنهى عنه، ولا يرفع إحدى الرجلين فإنه الصنف المنهى عنه؛ يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصنف والصنف، وإذا كان الصنف منهيته في زيادة الاعتدال على إحدى الرجلين دون الأخرى ممن من الصنف؛ فالأولى رعاية الاعتدال في الاعتدال على الرجلين جميعا ويكره اشتغال الصباء؛ وهو أن يخرج يده من قبل صدره. ويحتمل السدل؛ وهو أن يرخي أطراف الثوب إلى الأرض، وفيه معنى الخلاء ومقول: هو الذي يلتف بالثوب، ويجعل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك. وفي معناه ما إذا جعل يديه داخل القميص. ويحتمل الكف؛ وهو أن يرفع ثيابه يديه عند السجود، ويكره الاختصار؛ وهو أن يجعل يده على الخاصرة ويكره الصلب؛ وهو وضع اليدين جميعا على الخصرين وتجاه المضدين؛ فإذا وقف في الصلاة على الهيئة التي ذكرناها مجتمبا للسكره فقد تم القيام كله، فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرناه، ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقولها في كل ركعة أمام القراءة، ويقرأ فاتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم ومراعاة بين القلب واللسان بحفظ وافر من الوصلة والدنو والهيئة والخشوع والتظيم والوقار والمشاورة والمناجاة، وإن قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها إذا كان إماما في السكينة الثانية، اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، وتقنى من الخطايا كما تقنى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد، وحسن، وإن قالها في الركعة الأولى لحسن. وروى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال ذلك. وإن كان منفردا يقولها قبل القراءة، ويعلم العبد أن تلاوته نطق اللسان ومعناها نطق القلب؛ وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه ولسانه يعبر عما في قلبه، ولو أمكن التكلم لفهم من يكلمه من غير لسان فعل، ولكن حيث تمذر الإلفام إلا بالكلام جعل اللسان ترجمانا؛ فإذا قال باللسان من غير مراعاة القلب فاللسان ترجمانا ولا القارئ متكلما فأصدا لإسما الله حاجته ولا مستمعا إلى الله فأما عنه سبحانه ما مخاطبه، وما عنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقر، فينبغي أن يكون متكلما مناجيا، أو مستمعا راعيا؛ فأقل مراتب أهل الخصوص في الصلاة الجمع بين القلب واللسان في التلاوة ووراء ذلك أحوال للحرص يطول شرحها.

قال بعضهم: ما دخلت في صلاة قط فأمن فيها غير ما أقول. وقيل لما من عبد الله: هل تجد في الصلاة شيئا من أمور الدنيا؟ قال: لأن تختلف على الألسنة أحب إلى من أجد في الصلاة ما تهجدون.

وقيل لبعضهم: هل تجد نفسك في الصلاة بشيء من أمور الدنيا؟ قال: لا في الصلاة ولا في غيرها.

ومن الناس من إذا أقبل على الله في صلاته يتحقق بمعنى الإجابة لأن الله تعالى قدّم الإجابة وقال: ﴿مستجيبين إليه واستجوابهم وأقربهم الصلاة﴾ فينبغي إلى الله تعالى ويتقرب إلى الله تعالى بالتبصر عما سواه، ويقوم الصلاة بصدر مفرح بالإسلام، وقلب منفتح بنور الإنعام؛ فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعا بقلبه، فتقع الكلمة في فضاء قلب ليس فيه غيرها، فيتملكها القلب بحسن الفهم ولذيق نعمة الإصغاء، ويشرقها بجلاوة الاستماع وكالالوعى، ويدرك لطيف منهاها وشريف لحواها معاني تطلق عن تفصيل الذكر وتشكل بحفى الفكر، ويصور الظاهر من معاني القرآن قوت النفس؛ فالتفلس الطمئة متنوعة بمعاني القرآن عن حديثها لتكونها بمعاني ظاهرية متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة، تقرب مناسبتها من النفس السكونية لإقامة رسم الحكمة ومعاني القرآن الباطنة التي يكشفها من الملكوت قوت القلب، وتخلص الروح المقدس إلى أفعال سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم، وبمثل هذه المطالعة يكون

كال استخراق في الحج الأضواء ، كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم في مسجد البصرة ، فوقعت أسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق ، وهو واقف في الصلاة لم يعلم بذلك .

ثم إذا أراد الركوع بفصل بين القراءة والركوع ، ثم ركع منطوي القامة والنصف الأسفل بماله في القيام من غير انطواء الركبتين ، ويجافي مرفقيه عن جنبه ، ويمد عنقه مع ظهره ، ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الأصابع . وروى مصعب بن سعد قال صلى إلى جنب سعد بن مالك ، لجلست يدي بين ركبتي وبين فخذي وطبقتهما ، فضرب يدي وقال : احرب بكفك على ركبتيك وقال : يا بني إما كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب ، ويقول « سبحان رب العظيم » ثلاثا وهو أدنى السكال ، والسكال أن يقول إحدى عشرة ، وما يأتي به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع ، ومن غير أن يمزج آخر ذلك الرفع ، ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع ، ويكون في ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود ، وإنما ينظر إلى موضع سجوده في قيامه ويقول بعد التسبيح ، اللهم لك ركعت ولك خشعت ولك أمنت ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري وعظمي وعنى وعصي ، ويكون قلبه في الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والإحسان ، ثم يرفع رأسه قائلا : سمع الله لمن حمده عالما بقلبه ما يقول فإذا استوى قائما بحمده ويقول : ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، ثم يقول : أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجند ، فإن أطال في النافذة القيام بعد الرفع من الركوع فليقله ، لرقى الحمد ، مكررا ذلك مره شاة . فلما في الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحمد زيادة بينة ، ويقنع في الرفع من الركوع بنهاج الاعتدال بإقامة الصلب : ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا ينظر الله إلى من لا يقم صلبه بين الركوع والسجود .

ثم هو ساجدا ويكون في هويته مكبرا مستقيظا حاضرا عاشقا عالما بما جرى فيه وإليه وله ، فمن الساجدين من يكشف أنه يهوى إلى تخوم الأرضين متغنيا في أجزاء الملك لا امتلاء قلبه من الحياء واستشعار روحه عظيم الكبرياء ، كما ورد أن جبرائيل عليه السلام تسر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى ، ومن الساجدين من يكشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان ويسرح قلبه في فضاء الكشف والبيان ، فهو يدون هويته أطباق السموات وتمسح بقوة شهود تماثيل السموات ويسجد على طرف وداء العظمة وذلك أقصى ما يقف إلى طائر الهمة البشرية وكفى بالوصول إليه القوي الإنسانية ، وتتفاوت الأنبياء والأولياء في مراتب العظمة واستشعار كنهها لكل منهم على قدره حظ من ذلك ، وفوق كل ذي علم عليم . ومن الساجدين من يتسرع وعاءه ، وينتشر ضياؤه ، ويغشى بالصنفين ويبدط الجناحين ، فيتواضع بقلبه لإجلالا ، ويرفع بروحه لإكراما وإفضالا ، فيجتمع له الأنس والهوية والحضور والغبية والقرار والقرار ، بالإسراء والجهاز ، فيكون في سجوده ، ساجدا في بحر شهوده ، لم يتخلف منه عن السجود شرة كما قال سيد البشر في سجوده « سجد لك سوادى وخيال » « والله يسجد من السموات والأرض طوعا وكرها » الطوع لله والقلب ما فيها من الأملية ، والكسرة من النفس لما فيها من الاجنبية .

ويقول في سجوده : « سبحان رب الأعلى » ثلاثا إلى العشر الذي هو السكال ، ويكون في السجود مقترح العينين لاهما يسجدان ، وفي الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأذنيه ، ويكون ناظرا نحو أرونة أنفه في السجود ، فهو أبلغ في الخشوع للساجد ، ويأشرك بكفيه المصل ، ولا يلفهما في الثوب ، ويكون رأسه بين كفيه ، ويداه حذو منكبيه غير متيامن ومتياسرهما ، ويقول بعد التسبيح ، اللهم لك سجدت ولك أمنت ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سميه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين ، وروى أمير المؤمنين رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك . وإن قال يسبح قدوس رب للملائكة والروح ، لحسن . وروى عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك . ويجافي مرفقيه عن جنبه

ويوجه أصابعه في السجود نحو القبلة ويضع أصابع كفيه مع الإبهام ، ولا يفرش ذراعيه على الأرض ، ثم يرفع رأسه مكبرا ، ويجلس على رجله اليسرى وينصب الجني موجهها بالأصابع إلى القبلة ، ويضع البدن على الفخذين من غير تكلف صهما ونفر بينهما ، ويقول : « وب اغفر لي وارحني واهدني واجبرني وعافني وأعف عني ، ولا يبطل هذه الجلسة في الفريضة ؛ أما في النافلة فلا بأس مهما أطل ، فأثلا « وب اغفر وارحم ، مكررا ذلك ، ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا ، ويكره الإقامة في العمود ، وهو هنا : يضع يديه على غيبه .

ثم إذا أراد النهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة ، ويضع في بقية الركعات هكذا ، ثم يقشده . وفي الصلاة سر المراج : وهو مراج القلوب ، والتشهد مقر الوصول بد قطع مسافات الهيئات على تدرج طبقات السموات . والتحيات سلام على رب البريات ، فليدعن لما يقول ، ويتأدب مع من يقول ، ويدرك كيف يقول ، ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويمثله بين يديه ، ويسلم على عباد الله الصالحين ؛ فلا يبق عبد في السماء ولا في الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصة الفطرية ، ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا للمسبحة ، ويرفع المسبحة في الشهادة في « لا إله إلا الله » لا في كلمة التنى . ولا يرفعها منتصب بل مائلة برأسها إلى الفخذ منظوبة ؛ فهذه هيئة خشوع المسبحة ودليل سراية خشوع القلب إليها .

ويدعو في آخر صلاته لنفسه وللؤمنين . وإن كان إماما يفتي أن لا ينفرد بالدعاء ، بل يدعو لنفسه ولن وراه ؛ فإن الإمام المتيقظ في الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراء أصحاب الخواج ؛ يسألهم ويمرض حاجتهم ، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا ، وهذا وصفهم الله تعالى في كلامه بقوله سبحانه (كأنهم بذيان مرصوص) .

وفي وصف هذه الأمة في الكتب السالفة : صفهم في صلاتهم كصفهم في قتالهم .

وحدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى (ملا) قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب الماليني ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الواعظ ؛ قال أخبرنا أبو محمد عبادة بن أحمد السرخسي ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى بن عمر بن الباس السمرقندي ، قال أخبرنا أبو محمد عبادة بن عبد الرحمن الفارسي ، قال أخبرنا مجاهد بن موسى ، قال حدثنا من هو ابن عيسى : أنه سأل كعب الأحبار : كيف تجد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ؟ قال : تجده : « محمد بن عبادة ، ويولد بمكة ويهاجر لطيبة ، ويكون ملكا بالشام ، وليس بفحاش ولا صخاب في الأسواق ، ولا يكاثر بالسبيبة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، أمته الحمادون ؛ يمدحون الله في كل سر ، ويكبرون الله على كل نجد ، يوشنون أطرافهم ويأترون في أوساطهم ، يصفون في صلاتهم كايصفون في قتالهم ، دعوهم في مساجدكم كدوى التحل ، يسمع مناديتهم في جو السماء » .

فالإمام في الصلاة مقدمة الصف في محاربة الشيطان ، فهو أول المصايين بالمشروع والآيات بر ظائف الأدب ظاهرها وباطنها ، والمصلون المتيقظون كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع براطهم وتتناصرون وتتعاين ، وتسرى من البعض إلى البعض أنوار وبركات ، بل جميع المسلمين المصلين في أقطار الأرض بينهم تماخوذ وتناصر بحسب القلوب ونسب الإسلام ورابطة الإيمان ؛ بل يمدح الله تعالى باللائكة الكرام كما أمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم باللائكة المسؤمين ؛ لحاجتهم إلى محاربة الشيطان أمس من حاجتهم إلى محاربة الكفار ، ولهذا كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، فتداركهم الأملاك ، بل بأنفسهم الصادقة تتماثل الأنلاك .

فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على بيته ، وينوي مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على اللائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمنات الجن ، ويعمل غده ميئانا لمن على بيته بالواء عنه ، ويفصل بين هذا السلام والسلام من يساره ، فقد ورد النبي عن المواصلة ، والمواصلة خمس : الثنآن شخص بالإمام ؛ هو أن لا يوصل القراءة بالتكبير ، والركوع بالقراءة . والثنآن على المأموم ؛ وهو أن لا يوصل تكبيره بالإحرام بتكبيره الإمام . ولا تسليمه بتسليمه . وواحدة على الإمام والمأمومين ؛ وهو أن لا يوصل تسليم الفرض بتعليم النفل . ويجزم التسليم ولا يمدد ، ثم يدعو بعد التسليم بما

يشاء من أمره وديان ، ويدعو قبل التسليم أيضا في صلب الصلاة فإنه يستجاب . ومن أقام الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة ، وكل المقامات والأحوال بذمتها الصلوات الخمس في جماعة ، وهي سر للدين ، وكفارة للمؤمن ، وتمحيص الخطايا : على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ضياء الدين أبو التيجيب السهروردى رحمه الله إجازة ، قال أخبرنا أبو عمرو أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة ، قال أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا ، قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن ساعد ، قال حدثنا الحسين بن الحسين المروزي ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا يحيى بن عبد الله . قال سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلوات الخمس كفارات للخطايا ، وأقرموا إن شئتم ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

الباب الثامن والثلاثون : في ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصل : أن لا يكون مشغول القلب بشيء قل أو كثر ، لأن الأكياس لم يرضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما همروا ، لأن الدنيا وأشغالها لما كانت شاغلة للقلب فوضوها غير على عمل المناجاة ، ووجهة أو وطن القربات ، وإذعانا بالباطن رب البريات ، لأن حضور الصلاة بالظاهر إذعان للظاهر : وفراغ القلب في الصلاة مما سوى الله تعالى إذعان للباطن ، فلهذا حضور الظاهر وتخليق الباطن حتى لا يحتل إذعائهم فتتخرم عبوديتهم ، فيجذب أن يكون باطنه مرتهنا بشيء ويدخل الصلاة .

وقيل : من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ، ولهذا روي : إذا حضر المشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء ، ولا يصل وهو حافق بطالمة البول ، ولا حازق بطالمة الفالط . والحرق أيضا : ضيق الحلق ، ولا يصل أيضا وخفه ضيق قلبه ، فقد قيل : لا رأى لحازق ، قيل الذي يكون معه ضيق . وفي الجملة ليس من الأدب أن يصل وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التي ذكرناها ، والاهتمام المفرط ، والغضب : وفي الخبر : لا يدخل أحدكم في الصلاة وهو مقطب ، ولا يصلين أحدكم وهو غضبان ، فلا يبغي العبد أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الهيات .

وأحسن لبسة المصل سكون الأطراف وعدم الالتفات والإطراق ووضع اليدين على الشمال ، فلأحسنها من هيئة عبد . ذليل واقف بين يدي ملك عزيز . وفي رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جازة : وأرباب المزمة يتركون الحركة في الصلاة جملة : وقد حركت يدي في السلام وعندى شخص من الصالحين ، فلما انصرف من الصلاة أنكر على وقال : عندنا إن العبد إذا وقف في الصلاة ينبغي أن يبقى جمادا جمدا لا يتحرك منه شيء . وقد جاء في الخبر : سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان : الرفاع ، والتهامس ، والوسوسة ، والتثاؤب ، والحكاك ، والالتفات ، والتبث بالغي . من الشيطان أيضا . وقيل : السهر والشك .

وقد روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن الخشوع في الصلاة : أن لا يعرف المصل من على عينه وشماله .

وقتل عن سفیان أنه قال : من لم ينسج فسدت صلاته . وروي عن معاذ بن جبل أشد من ذلك قال : من عرف من عن يمينه وشماله في الصلاة متممدا فلا صلاة له .

وقال بعض العلماء : من قرأ كلمة مكتوبة في حائط أو بساط في صلاته فصلاته باطلة . قال بعضهم : لأن ذلك عدوه عملا . وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ والذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ قيل : هو سكون الأطراف والطمانينة .

قال بعضهم : إذا كبرت التكبير الأول فاعلم أن الله ناظر إلى شخصتك عالم بما في ضميرك ، ومثل في صلاتك الجنة : عن يمينك والنار عن شمالك ، ولما ذكرنا أن تمثيل الجنة والنار لأن القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه

الوسواس ، فيكون هذا التمثيل تدابيرا للقلب لنفخ الوسوسة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي (إجازة) ، قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر ابن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت أبا الحسين الفارسي يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : قال سهل : من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان ؛ فأما من يأمر بالله صفو اليقين ونور المعرفة فيستغنى بشاهد عن تمثيل مشاهدة . قال أبو سعيد الخزاز ؛ إذا ركع فالأدب في ركوعه أن ينتصب ويدنو ويتدل في ركوعه حتى لا يلقى منه مفصل إلا وهو منتصب نحو البرش العظيم ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم من الله ويصغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء ، وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك . وقال أيضا : ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به .

قال السراج : إذا أخذ العبد في التلاوة فالأدب في ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى ، أو كأنه يقرأ على الله تعالى . وقال السراج أيضا : من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ونفي كل شيء غير الله تعالى ؛ فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة ، فيكون مع النفس والمقل الذين دخلوا في الصلاة ههما ، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب ، فكأنهم أبدقوا الصلاة ؛ فهذا هو أدب الصلاة .

وقيل : كان بعضهم لا ينهبا له حفظ المذموم كالاستغفر الله ، وكان يجلس واحد من أصحابه يعدد عليه كم ركعة صلى وقيل : للصلاة أربع شعب : حضور القلب في الحراب ، وشهود العقل عند الملك الوهاب ، وخشوع القلب بلا إرباب وخضوع الأركان بلا أرتقاب ، لأن عند حضور القلب ورفع الحجاب ، وعند شهود العقل ورفع العتاب ، وعند حضور النفس فتح الأبواب ، وعند خضوع الأركان وجود الثواب ؛ فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه ، ومن أتاهم بلا شهود العقل فهو مصل ساه ، ومن أتاهم بلا خضوع النفس فهو مصل خاطي ، ومن أتاهم بلا خشوع الأركان فهو مصل جاف ، ومن أتاهم كما وصف فهو مصل واد .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة مقلبا على قلبه وسمعه وبصره أنصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الله ليغفر بفصل الوجه غطية أصابها ، وبفصل رجليه خطيئة أصابها ، حتى يدخل في صلاته وليس عليه وزر .

وذكرت السرفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أي السرقة أقيح ؟ فقالوا : الله ورسوله أمل ؛ فقال : إن أقيح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته ، قالوا : كيف يسرق الرجل من صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها ، وروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قدم للإمامة فقال لأصحابه ، فلما أجلس عليه كبر ففتش عليه فقدموا إماما آخر ، فلما أفاق سئل فقال : لما قلنا ستوا هتفت بهاتف ؛ هل استويت أنت مع الله قط .

وقال عليه السلام : إن العبد إذا أحسن الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومراقبتها قالت : حفظك الله كما حفظتي ثم صعدت ولما نور حتى تنقش إلى السماء وحتى تصل إلى الله فتتفجع لمصاحبها ، وإذا أضاعها قالت : ضيعك الله كما ضيعتني ثم صعدت ولما ظلة حتى تنقش إلى أبواب السماء فتتلق دونها ، ثم تلف كأيك الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها .

وقال أبو سليمان الناري : إذا وقف العبد في الصلاة يقول الله تعالى : أرفعوا الحجب فيا بيني وبين عبي ، فإذا التفت يقول الله : ارخوا فيا بيني وبينه واخلوا عبي وما اختار نفسه . وقال أبو بكر الوراق : ربما أصلى ركعتين فأبصر منهما وأنا أستحي من الله حياء رجل المصروف من الزنا قوله هذا : لعظم الأدب عنده ، ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حفظه من القرب .

وقيل لموسى بن جعفر : إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمجرم بين يديك ، قال : إن الذي أحصل له أقرب إلى من الذي يمشى بين يدي . وقيل : كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يعرف من تغير لونه ، فيقال له في ذلك فيقول : أندرون بين يدي من أريد أن أقف ؟

وروى عمار بن ياسر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يكتب العبد من صلاة إلا ما يقتل . . . وقد ورد في لفظ آخر منك من يصلي الصلاة كاملة ، ومنكم من يصلي النصف والثالث والرابع والخمس حتى يبلغ العشر ، قال الخواص : ينبغي للرجل أن ينوي نوافله لتقصان فرائضه ، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شيء ، بلغنا أن الله لا يقبل نافله حتى تؤدي فريضة ، يقول الله تعالى : مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدية قبل قضاء الدين . وقال أيضا : انقطع الخلق عن الله تعالى بمصلتين ، إحداهما : أنهم طلبوا التواضع وضيعوا الفرائض . والثانية : أنهم عملوا أعمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها ، وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة الحق ، وفتح العين في الصلاة أولى من تضييع العين إلا أن يشتت همه بتفريق النظر فيمنع العين للاستعانة على الخشوع ، وإن تائب في الصلاة بضم شفتيه بقدر الإمكان ولا يبرق ذقنه بصدرة ولا يراحم في الصلاة غيظه ، قيل : ذهب الزحوم بصلاة المزاحم ، وقيل : من ترك الصف الأول مخافة أن يضيق على أهله قام في الثاني أعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

وقيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل . وروى عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل ، حتى كان يسمع في بعض سكك المدينة .

وسئل الجنيد : ما فريضة الصلاة ؟ قال : قطع الملاقاة ، وجمع الميم ، والحضور بين يدي الله ، وقال الحسن : ما ذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك ؟

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء فقال : إذا دخلت الصلاة فهبلى من قلبك الخشوع ، ومن يدلك الخشوع ومن عينك الدموع ، فإني قريب .

وقال أبو الخير الأنطع : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله أوصني ، فقال يا أبا الخير عليك بالصلاة فإني استوصيت ربي ، فأوصاني بالصلاة وقال لي : إن أقرب ما كون منك وأنت تعالى ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركتان في تفكير خير من قيام ليلة . وقيل : إن محمد بن يوسف الفريغاني رأى حاتم الأصم واقفا يمشى بالخشية ، وأدخل الحمية ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالانواع ، وأقعد للتشهد بالتمام ، وأسلم على السنة ، وأسلمها إلى ربي ، وأحفظها أيام حياتي ، وأرجع بالوم على نفسي ، وأخاف أن لا تقبل مني ، وأرجو أن تقبل مني وأنا بين الخوف والرجاء ، وأشكر من عني ، وأعلمها من سألني ، وأحمد ربي إذا هداني ، فقال محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظا ، وقوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) قيل : من حب الدنيا ، وقيل : من الاهتمام ، وقال عليه السلام : من صلى ركتين ولم يحدث نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وقال أيضا : إن الصلاة تمسكك وتراضع وتضرع وتادوم وترفع يديك وتقول : اللهم اللهم فمن لا يفعل ذلك فهو خاسر . أي ناقصة .

وقد ورد أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان في أقطار الأرض خوفا منه لأنه تائب للدخول على الملك فإذا كبر حجب عنه إبليس ، قيل : يضرب بيته ويتهى سراق لا ينظر إليه ، وواجهه الجبار بروجه ، فإذا قال : الله أكبر ، أطلع الملك في قلبه فإذا لم يكن في قلبه أكبر من الله تعالى يقول صدقت ، الله في قلبك كما تقول ، وتشمع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ، ويكشف له بذلك الثبوت بملكوت السموات والأرض ، ويكتب له حشر ذلك

التور حسنة ، إن الجاهل النافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين كما يمتوش الذباب على نقطة العسل ؛ فإذا كبر أطلع الله على قلبه ، فإذا كان شئ . في قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له : كذبت ، ليس الله تعالى أكبر في قلبك كما تقول ؛ فيثور من قلبه دغمان يلحق بدمان السماء ، فيكون حجاباً لقلبه عن الملكوت ؛ فيزداد ذلك الحجاب صلابة ، ويلتقم الشيطان قلبه ، فلا يزال ينفض فيه ويفث ويوسوس إليه ويرين حتى ينصرف من صلاته ولا يقبل ما كان فيه .

وفي الخبر : لو لا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء ، والقلوب الصافية التي كل أدها لسكال أدب قوالها تصير سماوية تدخل بالتكبير في السماء كما تدخل في الصلاة ، وانه تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين فالتلب السباوى لأسبيل الشيطان إليه ، فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لا تنقطع بالتحسن بالسماء كأنقطاع تصرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب بترج بالتقريب ، وتخرج في طبقات السموات ، وفي كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شيء من ظلة النفس ؛ ويقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش ؛ فعند ذلك يذهب بالسكية هاجس النفس بساطع نور العرش ، وتندرج ظلمات النفس في نور القلب اندراج الليل في النهار ، وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب .

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسير من كثير وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكل من ذكرنا ؛ وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى ؛ وإذا حصل الذكر فأى حاجة إلى الصلاة وسلوكها طرقاً من الضلال ، وركنوا إلى أباطيل الخيال ؛ وعمره الرسوم والأحكام ، ورفضوا الحلال والحرام ، وقوم آخرون سلكوا في ذلك طريقاً أدهم إلى نقصان الحال ، حيث سلوا من الضلال ، لأنهم اعترفوا بالفراغ من أنكره وافضل التواضع ، واعترفوا بيسير رواج الحال ، وأعملوا فضل الأعمال ، ولم يعلموا أن الله في كل هيئة من الميئات وكل حركة من الحركات أسراراً وحكماً لا توجد في شيء من الأذكار ؛ فالأحوال والأعمال روح وحيات ، ومادام العبد في دار الدنيا إغراعه عن الأعمال عين الغفاني فالأعمال تركو بالأحوال ، والأحوال تنمو بالأعمال .

الباب التاسع والثلاثون : في فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الصبر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر وقيل : مافي عمل ابن آدم شيء إلا ويذهب برد المظالم إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص ويقول الله تعالى يوم القيامة : هذا لي ، فلا ينقص أحد منه شيئاً . وفي الخبر : « الصوم لي وأنا أجزي به » . قيل : « أضافه إلى نفسه ؛ لأن فيه خلقاً من أخلاق الصدقة ، وأيضاً لأنه من أعمال البر من قبيل التروك لا يطلع عليه أحد إلا الله . وقيل في تفسيره قوله تعالى « الصائمون » الصائمون ، لأنهم ساءوا إلى الله تعالى بجموعهم وعظمتهم ، وقيل في قوله تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » هم الصائمون ، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم ويغري الصائم إفراغاً ومجازفة به مجازفة ، وقيل : « أحد الوجوه في قوله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » كان عملهم الصوم .

وقال يحيى بن معاذ : إذا ابتلى المرء بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له ومن ابتلى بحرص الأكل فقد أحرق بنار الشهوة ، وفي نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها في كسف الشيطان متملق بها ، فإذا جوع بطنه وأخذ حلقه وراض نفسه يبس كل عضو وأحرق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله ، وإذا أشبع بطنه وترك حلقه في لذائم الشهوات فقد رطب أعضائه وأمكن الشيطان . والشبع نهر في النفس ترده الشيطان ، والجوع نهر في الروح ترده الملائكة ، وينهزم الشيطان من جامع نايم ، فكيف إذا كان قائماً ، وبعاق الشيطان شعباناً قائماً فكيف إذا كان قائماً ، فقلب المرید الصادق يصرخ إلى تعالى من طلب النفس الطوام والشراب .

دخل رجل إلى العليالي وهو يأكل خبزا يابساً قد به الماء مع ملح جريش ، فقال له : كيف تشتهي هذا ؟ قال :

أدعه حتى أشتبه ، وقيل : من أسرف في مطعمه ومشربه يجعل الصغار والنمل إليه في دنياه قبل آخرته ، وقال بعضهم : الباب العظيم الذي يدخل منه إلى الله تعالى قطع الغذاء ، وقال بشر : إن الجوع يصنع النؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق ، وقال ذو النون : ما أكلت حتى شبع ، ولا شربت حتى رويت إلا عصيت الله وأهملت بمعصية ، وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان يأتي علينا الشهر ونصف شهر ما تدخل بيتنا مارا لمصباح ولا نيرة ، قال : قلت سبحان الله ؛ فبأي شيء كنتم تعيشون ؟ قالت : بالقر واللؤلؤ وكان لنا جيران من الأنصار جرام الله خيرا كانت لهم مناشغ ، فرميا وأسونا بشيء ، وروى أن حفصة بنت عمر رضي الله عنها قالت لا يبا : إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك ولبست ثيابا ألين من ثيابك ؛ فقال : إني أعاصمك إلى نفسك ؛ أم يكن من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ؟ يقول مرارا ؛ فيكف ؛ فقال . قد أخبرتك والله لا شاركنه في عيشه الشديد لعل أصيب عيشة الرعا .

وقال بعضهم : ما نخلت لسمر دقيقا إلا وأنا له عاص .

قالت عائشة رضي الله عنها : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خير بر حتى مضى لسبيله . قالت عائشة رضي الله عنها : أدبوا فرج باب الملكوت يفتح لكم قالوا : كيف بدينم ؟ قالت : بالجوع والعطش والظما . وقيل : ظهر إبليس لبيح بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق ، فقال : ما هذه ؟ قال : الشهوات التي أصيب بها ابن آدم ؛ قال : هل تجدني فيها شهوة ؟ قال : لا ، غير أنك شئت ليل ففتنك عن الصلاة والذكر ؛ فقال : لا جرم أني لأشبع أبدا . قال إبليس : لا جرم أني لأنصع أحدا أبدا .

وقال شقيق : العبادة حرفة وحاشيتها الخلة وآلاتها الجوع .

وقال لقمان لابنه : إذا كنت المدة نامة الفكرة وغرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال الحسن : لا يجتمعوا بين الأدميين فإنه من طعام للنافقين . وقال بعضهم : أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته أو ان الأغذية .

فيكره للريد أن يوال في الإفطار أكثر من أربعة أيام فإن النفس عند ذلك تركز إلى العادة وتنعس بالشهوة . وقيل : الدنيا بطونك فقل قدر زهدك في بطونك زهدك في الدنيا .

وقال عليه السلام ما لأدنى وعاء شرا من بطن ، حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه ، فإن كان لأعانة فذلك طعامه وملك لشرا به وملك لنفسه .

وقال فتح المرحلي . صحبت ثلاثين شيخا كل يومين عند مفارقتي إياه يترك عشرة الأحداث وقلة الأكل .

الباب الأربعون : في اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من المشايخ الصوفية كانوا يدعون الصوم في السفر والحضر على الدوام حتى لمحقوا بالله تعالى . وكان عبد الله بن جابر قد صام ثينما وخمسين سنة لا يفطر في السفر والحضر ، لجهد به أصحابه يوما فأفطر ، فاعتل من ذلك أياما . فلذا رأى المريد صلاح قابه في دوام الصوم فليصم دائما وليدع الإفطار جانبا ؛ فهو عن حسن له على ما يريد .

روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صام الدهر ضيق عليه جهنم هكذا وعند تسعين . أي لم يكن له فيها موضع .

وكرهه قوم صرم الدهر ، وقد ورد في ذلك ما رواه أبو قتادة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بمن صام الدهر ؟ قال : لا صام ولا أفطر ، وأول قوم أن صرم الدهر : هو أن لا يفطر العبدن وأيام التشريق فهو الذي يكره ، وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وممنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وقد ورد : أفضل الصيام صوم أخى داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما ، واستحسن ذلك قوم من الصالحين ليكون بين حال الصبر وحال الشكر .

وممنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما أو يصوم يوما ويفطر يومين .

وممنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة . وقيل : كان سهل بن عبد الله يأكل في كل خمسة عشر يوما مرة وفي رمضان يأكل أكلة واحدة ، وكان يفطر بالماء القراح اللينة .

وحكى عن الجنبدي أنه كان يصوم على الدوام ، فإذا دخل عليه إخوانه أفطر معهم ويقول : ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم ، غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم ، فقد يكون الداعي إلى ذلك شره النفس لآنية الموافقة ، وتخليص التية لحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب . وسمعت شيخنا يقول : لى سنين ما أكلت شيئا يشبهه نفس ابتداء واستدعاء ، بل يقيم إلى الشيء فأراه من فضل الله ولعمته وقوله فأوافق الحق في فعله : وذكر أنه في ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر من عاداته تقديم الطعام إليه . قال : فتحت باب البيت الذى فيه الطعام وأخذت رمانة لأكلها . فدخلت السور وأخذت دجاجة كانت هناك ، فقلت : هذا عقوبة لى على نصرتى فى أخذ الرمانة . ورأيت الشيخ أبى السعود رحمه الله يتناول الطعام فى اليوم مرات ، أى وقت أحضر الطعام أكل منه . ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق ، لأن حاله مع الله كان تركا لا اختيارا فى ما كوله وملبوسه وجميع تصرفاته ، وكان حاله الروقف مع فعل الحق ، وقد كان له فى ذلك بداية يرميها ، حتى تقل أنه كان يبقى أياما لا يأكل ولا يعلم أحدا به ولا يتصرف هو لنفسه ولا يتسبب إلى تناول شيء . وينظر فعل الحق لسياقه الرزق إليه ، ولم يشر أحد بمجاله مدة من الزمان . ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلاميذ ، وكانوا يتكفون الأطعمة ويأتون بها إليه وهو يرى فى ذلك فضل الحق والموافقة ، سمعته يقول أصبح كل يوم وأحب ما لى الصوم ، وينقض الحق على محبى الصوم بفعله ، فأوافق الحق فى فعله .

وحكى عن بعض الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة ، وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا زمره من . وقال أبو نصر السراج : أكره قوم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوعا ، واستحسنه آخرون لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع وأن لا يتمتع برؤية الصوم ، ووقع لى أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم ، فقد تمتع برؤية عدم تمتع برؤية الصوم ، وهذا يتسلسل ، والأليق بموافقة العلم إضاء الصوم . قال الله تعالى (ولا تبطلوا أعمالكم) ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يمارضون ، والصدق محمود ليه كيف كان ، والصادق خفارة صدقه كيف تقاب . وقال بعضهم : إذا رأيت الصوفى يصوم صوم التطوع فأنهم فإنه قد اجتمع منه شيء من الدنيا . وقيل : إذا كان جماعة متوافقين أشكالا وفيهم مرید يمشونه على الصيام فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره ويتكفون له رفقا به ولا يحملوا حاله على حالهم ، وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لإفطاره إلا من يأمره الشيخ بفطر ذلك .

وقيل : إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه حتى ينظر الشاب إليه فيتأدب به ويصوم بصيامه . وحكى عن أبى الحسن المسمى أنه كان يصوم الدهر وكان مقبلا بالبرصة ، وكان لا يأكل الخبز إلا ليلية الجمعة ، وكان قوته فى كل شهر أربع دوايق يعمل بيده حبال القف ويبيعها . وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول : لا أسلم عليه إلا لأن يفطر ويأكل . وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له فى ذلك لأنه كان مشهورا بين الناس .

وقال بعضهم : ما أخلص الله عبد قط إلا أحب أن يكون فى جب لا يعرف . ومن أكل فضلان الطعام أخرج فضلا من الكلام . وقيل : أقام أبو الحسن التنيسى بالحرم مع أصحابه سبعة أيام لم يأكلوا ، وخرج بعض أصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ ، فأخذه وأكله ، فرأه إنسان تابع آره وجاء برفق فوضعه بين يدى القوم ، فقال الشيخ : من جنى شكم هذا جناية ؟ فقال الرجل : أنا وجدت قشر بطيخ فأكلته ، فقال كن أنت مع جنايتك ورفقتك ، فقال أنا تاب من جنايتى .

فقال : لا كلام بعد التوبة ، وكثرا يستحبون صيام أيام البيض ، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .
 وروى أن آدم عليه السلام لما أمط إلى الأرض اسود جسده من أثر المعصية ، فلما تاب الله عليه أسره أن يصوم أيام
 البيض ، فأبى ذلك جسده بكل يوم صامه حتى أبى جميع جسده بصيام أيام البيض .
 ويستحبون صوم المصيبة الأولى من شعبان وإفطار نصفه الأخير ، وإن واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به ،
 ولكن إن لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم أو يومين .
 وكان يكره بعضهم أن يصام رجب جميعه كرامة المضاماة برمضان . ويستحب صوم العشر من ذي الحجة والعشر من
 المحرم ، ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الأشهر الحرم ، وودق الخبر ؟ من صام ثلاثة أيام من شهر حرام :
 الخميس ، والجمعة ، والسبت بعد من التار سبعمائة عام .

الباب الحادي والأربعون : في آداب الصوم ومهامه

آداب الصوفية في الصوم : ضبط الظاهر والباطن وكف الجوارح عن الآثام ، كنع النفس عن الطعام ، ثم كف
 النفس عن الاهتمام بالآثام .
 سمعت أن بعض السالخين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون ، وكلما فتح عليهم قبل وقت الإفطار
 يخرجوه ، ولا يفطرون إلا على ما فتح لهم وقت الإفطار .
 وليس من الأدب أن يمسك المرء من المباح ويفطر بحرام الآثام .
 قال أبو البرداء : يا حنظلة نوما لا تكس ونفطرهم ، كيف يعيرون قيام الحق وصيامهم ! ولذرة من ذيقين وتقوى
 أفضل من أمثال الجبال من أعمال المفتقرين .
 ومن فضيلة الصوم وأدبه : أن يقلل الطعام عن الحد الذي كان يأكله وهو مفطر ، وإلا فإذا جمع الآلات بأكلة
 واحدة فقد أدرك بها ما فوّت ، ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الانساع ، وأخذهم من الطعام قدر
 الضرورة لهم أن الانتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة ، والنفس من طبعها
 لها إذا قهرت تهتم في شيء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحوالها ، فيصير الأكل النوم ضرورة ،
 والوقوف والفعل ضرورة ، وهذا باب كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى يحب رعايته واقتاده ولا ينقص بلم الضرورة
 وفائدتها وطولها ، إلا اعتبارها الله تعالى أن يقربه ويصطفيه ويريه ، ويتمتع في صومه من ملاحاة الأهل والمالسة ،
 فإن ذلك أثره للصوم .

ويستحسن استعمال السنة ، وهو أَدعى إلى إتمام الصوم لمعتين ، أحدهما : عود بركة السنة عليه ، والثاني : التقوية
 بالطعام على الصيام : وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تسحروا فإن في السحور بركة . .
 ويجعل الفطر عملا لسنة ، فإن لم يرتد تناول الطعام إلا بعد العشاء ويريد إحياء ما بين المشامين يفطر بالمال أو على
 أعداد من الزبيب أو تمر أو كل ثياب إن كانت النفس تنازع ، ليصفوه الوقت بين المشامين ، فإحياء ذلك له فضل
 كبير ، وإلا فيقتصر على الماء لأجل السنة .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ،
 قال أخبرنا أبو عمه الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا إسحق بن
 موسى الأنصاري ، قال حدثنا الربيع بن مسلم عن الأوزاعي عن قرّة عن الزهري عن أنس بن مالك عن أبي هريرة رضي الله
 عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه : قال الله عز وجل ، أحب عبادي إلى أعلمهم فطرا ،
 وقال عليه السلام : لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر ، والإفطار قبل الصلاة سنة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يفطر على جرعة من ماء أو مذقة من لبن أو تمرات ، وفي الخبر : كم صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ، قيل

هو الذي يجوع بالنهار ويفطر على الحرام ، وقيل : هو الذي يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالنية ، قال سفيان من اغتاب فسد صومه . وعن مجاهد : خصلتان تفسدان الصوم : النية والكذب . قال الشيخ أبو طالب للسكي : قرن انهما الاستماع إلى الباطل ؛ والقول بالإتيان بكل الحرام فقال (سمعوا من الكذب كالوإن السحبت) وورد في الخبر : أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تمسكاه ، فبشتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنه في الإفطار ؛ فأرسل إليهما فدعاهما وقال : قولوا لهما قيسا فيه ما أكلتا ، فقامتا إحداهما نصفه ذمعا عيطولها غريضا ، وقامت الأخرى مثل ذلك حتى ملأته فمجب الناس من ذلك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاتان صامتتان ماحلات لهما وأفطر تاعلى محرم الله عليهما ، وقال عليه الصلاة والسلام : إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ شاتمه فليقل إلى صائمه . وفي الخبر : إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته ، والصوفى الذى لا يرجع إلى معلوم ولا يدري متى يساق إليه الرزق ، فلذا ساق الله إليه الرزق تناوله بالآداب وهو دائم المراقبة لوقته ، وهو في إفطاره أفضل من الذى لمعلوم متى . فإن كان مع ذلك يصوم فقد أكل الفضل .

حكى عن رومى قال اجنوت في المهاجرة يبيض سبكه بغداد ، فعضت فتقدمت إلى باب دار فاستقيت ، فإذا جارية قد خرجت ومعهما كوز جديد ملآن من الماء البارد ، فلما أردت أن أتناول من بهما قالت : صوفى ويشرب بالنهار ، وضربت بالكوز على الأرض وانصرفت . قال رومى : فاستقيت من ذلك ونذرت أن لا أفطر أبدا . والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لمكان أن النفس إذا ألفت الصوم وتعوده اشتد عليها الإفطار ، وهكذا يتعودها الإفطار تكره الصوم ، فيرون الفضل في أن لا تترك النفس إلى عادة ، وراوان إفطار يوم وصوم يوم أشد على النفس .

ومن أدب الفقهاء : أن الواحد إذا كان بين جمع وفى محبة جماعة لا يصوم إلا بإذنهم ، وإنما كان ذلك لأن القلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم ، فإن صام بإذن الجميع وفتح عليهم بشىء لا يلزمهم اغتصاب الصائم ، ومع العلم بأن الجميع المفطرين يحتاجون إلى ذلك ، فإن الله تعالى يأتي الصائم برزقه إلا أن يكون الصائم يحتاج إلى الرزق لضعف حاله أو ضعف دينه لشيء خوته أو غير ذلك ، وهكذا الصائم لا يلبق أن يأخذ نصيبه فيدخره ، لأن ذلك من ضعف الحال فإن كان ضعيفا يمتدح بحاله وضعفه فيدخره ، والذي ذكرناه لأقوام هم على غير معلوم ، فأما الصوفى المقيمون فى رباط على معلوم فالأليق بحالهم الصيام ، ولا يلزمهم موافقة الجميع فى الإفطار ، وهذا يظهر فى جمع منهم لم معلوم يقدم لهم بالنهار ، فأما إذا كانوا على غير معلوم ، فقد قيل : مساعدة الصوم للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوم ، وأمر القوم مبناء على الصدق ، ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس ، فكل ما سمحت النية فيه من الصوم والإفطار والموافقة وترك الموافقة فهو الأفضل ، فأما من حيث السنة فنرى موافقه وجه إذا كان صائما وأفطر للموافقة ، وإن صام ولم يوافق فله وجه فأما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أن الفضل الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد الله ، قال أخبرنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن حدوده ، قال حدثنا عبد الله بن حماد ، قال حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثني عطاء بن خالد عن حماد بن حماد عن محمد بن محمد بن المنكدر ، عن أبي سعيد الخدرى قال : اصطلحت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه طائما ، فلما قدم إليهم قال رجل من القوم : إني صائم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعاكم أخرجكم وتكلم لكم ، ثم يقول إني صائم ، أفطر واقض يوما مكانه . وأما وجه من لا يوافق ، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكلوا وبللوا صائم ، فقال رسول الله : « تأكل رزقا وورق بلال إلى الجنة ، فإذا علم أن هناك قلبا يتأذى أفضلا يرجى من موافقة من يشتت موافقه يفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتعاميه ، فإن لم يجد هذا المعنى لا يبنى أن يتلبس عليه الشره وداهية النفس بالنية فليتم صومه ، وقد تكون الإجابة لناحية

النفس لا قضاء حق أخيه .

ومن أحسن آداب الفقير الطالب : أنه إذا أظفر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيراً عن هيئته ونفسه متباعدة عن أداء وظائف العبادة ، فيعالج مزاج القلب المتغير بإذعاب التنوير عنه ويذيب الطعام بركات يصلها أو بآيات يتلوها أو بأذكار واستغفار يأتي به ، فقد ورد في الخبر : أديبوا طعامكم بالذكر ، ومن مهام آداب الصوم كتابتهما مهما أمكن إلا أن يكون متمكناً من الإخلاص فلا يزال ظهر أم بطن .

الباب الثالث والأربعون : في ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفي بحسن نيته وصحة مقصده ووفور عله وإتيانه بآدابه تصير عاداته عبادة ، والصوفي موهوب وقته لله وحياته لله ، كما قال الله تعالى لنبيه آمراً له (قل إن صلاتي وسكوتي وعيادي وعماقي لله رب العالمين) فتدخل على الصوفي أمور العادة لموضع حاجته وضرورة بشرته ، ويحذف ببادته نوريقته وحسن نيته ، فتتوارى العادات وتشكل بالعبادات ؛ ولهذا ورد : نرم العالم عبادة ونفسه تسبيح ، هذا مع كون التزم عين التفلة ، ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة ، فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاشتغاله على المصالح الدينية والدنيوية وتلحاق أثره بالقلب والقلب ، وبه قوام البدن لإجراء سنة الله تعالى بذلك ، والقلب مركب القلب وبهما عمارة الدنيا والآخرة ، وقد ورد : أرض الجنة قيمان نباتها التسبيح والتقديس ، والقلب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة ، وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين ، والله تعالى ركب الآدمي لطيف حكمت من أخص جواهر الجسائيات والروحانيات ، وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسموات جعل عالم الشهادة ومافيها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمي . قال الله تعالى (خلق لكم ما في الأرض جميعاً) فكلون الطبايع وهي الحرارة والرطوبة والبرودة واليوسة وتكون بواسطتها النبات ، وجعل النبات قواماً للحيوانات وجعل الحيوانات مسخرة للآدمي يستعين بها على أمر ما شق له قوام بدنه ، فالطعام يصل إلى المعدة ، وفي المعدة طباع أربع ، وفي الطبايع طباع أربعة ، فلماذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام ، فتأخذ الحرارة البرودة والرطوبة لليوسة ، فيعتدل المزاج ويأمن من الأوجاع . وإذا أراد الله تعالى إغناء قلب وتخريب بنية : أخذت كل طبيعة بجنسها من المأكول ، فتميل الطبايع ويضطرب المزاج ويسقم البدن (ذلك تقدير العزيز العليم) روى عن وهب بن منبه قال : وجدت في التوراة صفة آدم عليه السلام : إني خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء : من رطب ، وبليس ، وبارد ، وسخن ؛ وذلك لأنني خلقت من التراب وهو بابس ، ورطوبته من الماء وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ، وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق من ملاك الجسم يأخذ من قوامه ، فلا يقوم الجسم إلا بهن ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى ، منهن المرأة السوداء ، والمرأة الصغراء والدم والبلغم . ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض ، فجعلت مسكن اليوسة في المرأة السوداء ، ومسكن الرطوبة في المرأة الصغراء ، ومسكن الحرارة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، فأما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التي جعلتها ملاك وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربما لا يزيد ولا ينقص : كلت محمته واعتدلت بيقته ، فإن زادت منهن واحدة علين من منهن ومالت بهن ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهن ويهجر عن مقاديرهن .

فإن الأمور في الطعام أن يكون حلالاً ، وكل ما لا يذمه الشرع حلال وخصه ورحمة من أقدامه ، ولولا رخصة الشرع كبر الأمر وأناب طلب الحلال .

ومن أدب الصوفية : رؤية النعم على النعمة ، وأن يبتدئ بنسل اليد قبل الطعام : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرزق قبل الطعام ينفي الفقر ، ولأنه كان موجبا لنفي الفقر لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالأدب ،

وذلك من شكر النعمة ، والشكر يستوجب المزيد ؛ فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة مذهبا للقر .

وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحب أن يكثر خيريته فليترضا إذا حضر غذاه ثم يسمي الله تعالى ؛ فقله تعالى (ولأنأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) تفسيره تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان .

واختلف الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله في وجوب ذلك . وفهم الصوفي من ذلك بعد التيام بظاهر التفسير : أن لا يأكل الطعام إلا مقرونا بالذكر ؛ فترفع ريقه وأدبه ، ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من إقامة النفس ومتابعة هواها ، ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترباته .

وردت عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي فأكله بقمطين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما إنه لو كان يسمى الله لكناكم ؛ فإذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله ؛ فإن نسي أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أولا وآخره .

ويستحب أن يقول في أول لقمة : بسم الله ، وفي الثانية : بسم الله الرحمن ، وفي الثالثة : بسم ، ويشرب الماء بثلاثة أنفاس ، يقول في أول نفس : الحمد لله ، وإذا شرب ، وفي الثانية : الحمد لله رب العالمين ، وفي الثالثة : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، وكان أن للدمع طباعا يتقدر كذا ذكرناه بموافقة طباع الطعام ، فلقب أيضا مزاج وطباع لأرباب التفقد والراعى واليقظة ، ويعرف أعراف مزاج القلب من اللقمة المتسالة : تارة تحدث من اللقمة حرارة العيش بالتهوض إلى الفضول ، وتارة تحدث في القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت ، وتارة تحدث رطوبة السهو والتغلة وتارة ببوسة الهم والحزن بسبب الحفظ والمعالجة ، فهذه كلها عوارض تنفطن لها الشيقط ، ويرى يتغير القلب بهذه العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال ، والاعتدال كما هو مهم طلبة القلب فقلب أم وأول . وتطرق الانحراف إلى القلب أربع منه إلى القلب . ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القلب ، واسم الله تعالى دواء نافع بحرب ينقي الأسود ويذهب الباء ويحلب الشفاء .

حكى أن الشيخ أبابعد محمد الغزالي لما رجع إلى طوس وصف له في بعض القرى عبد صالح . فقصه من آثاره ، وصادفه وهو في صحراء له يذخر الخطة في الأرض ، فلما رأى الشيخ عبدا جاء إليه وأقبل عليه ، فجاء رجل من أصحابه يطلب منه البذر لينوب عن الشيخ في ذلك وقتا شغفاله بالزراعة ، فامتنع ولم يعطه البذر ، فسأله الغزالي عن سبب امتناعه . فقال : لأنني أبذر هذا البذر بقلب حاضر ولسان ذاكر ، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا ، فلا أحب أن أسله إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر .

وكان بعض الفقهاء عند الأكل يشرع في تلاوة سورة من القرآن ، يحضر الوقت بذلك حتى تنفجر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ولا يقبض الطعام مكرهه ويتغير مزاج القلب .

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي يقول : أنا أكل وأنا أصلي ، يشير إلى حضور القلب في الطعام ، وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله ، لئلا يتفرق همه وقت الأكل ، ويرى للذكر وحضور القلب في الأكل أركبا كبيرا لإسمه الإجمال .

ومن الذكر عند الأكل الفكر فيما مضى الله تعالى من الاستنان المعينة على الأكل فنها الكسرة ومنها القاطعة ومنها الطائفة ، وما جعل الله تعالى من الماء الحلو في الفم حتى لا يتغير الذوق ، كما جعل ماء العين مالحا لما كان شحا حتى لا يفسد ، وكيف جعل التداءة تنسج من أرجاء اللسان والقم ليعين ذلك على المضغ والسوغ ، وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصسه ويجزئها متعلقا مددها بالكبد ، والكبد بمثابة النار ، والمعدة بمثابة القدر وعلى قدر فساد الكبد تمتل الهاضمة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولا يصل إلى كل عضو نصيبه ، وهكذا تأخير الأعضاء كلها من الكبد والحلح والكيكيتين يطول شرح ذلك ؛ فمن أراد الاعتبار فليطالع تشریح الأعضاء ، ليرى العجب من قدرة

الله تعالى : من تهاشد الأعضاء وتهاوتها ، وتعلق بعضها ببعض في إصلاح الغذاء ، واستجذاب التوفيق منه للأعضاء وانقسامه إلى اللحم والنخلة والبن لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا عالما سائغا للشاربين ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين ؛ فالتفكر في ذلك وقت الطعام وتتميز لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر .

وما يذهب أدواء الطعام المنير لزاج القلب : أن يدعو في أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عونا على الطاعة ويكون من دعائه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . وما رزقنا بما تحب اجعله عونا لنا على ما تحب ، وما زويت عنا ما تحب اجعله فرانا لنا فيما تحب .

الباب الثالث والأربعون : في آداب الأكل

فإن ذلك أن يبتدئ بالمحلى ويحتم به : روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضى الله عنه : يا على ، أبدا طعامك بالمحلى واختم بالمحلى ؛ فإن المحلى شفا من سبعين داء ، منها : الجنون ، والجذام ، والبرص ، ووجع البطن ووجع الأضراس .

وروى عائشة رضى الله عنها قالت : لدغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في إبهامه من رجله اليسرى لدغة ، فقال : « على بذلك الأبيص الذى يكون في الصجين ، فجئت بالمحلى فوضعه في كفه ثم لمعن منه ثلاث لمعات ، ثم وضع يديه على اللدغة فسكت عنه .

ويستحب الاجتماع على الطعام ، وهو سنة الصوفية في الربط وغيرها : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثر عليه الأذى » وروى أنه قيل : يا رسول الله : إنا نأكل ولا نتسبح قال : « لعلكم تفرقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه .

ومن عادة الصوفية : الأكل على السفر ، وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن المقرئ بإسناده إلى ابن ماجه الحافظ القزويني ، قال أخبرنا محمد بن المنذر ، قال حدثنا معاذ بن هشام ، قال حدثنا أبي عن يونس بن الفرات عن قتادة عن أنس بن مالك قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة . قال : فعلام كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

ويصغر القمة ويجود الأكل بالمضغ ، وينظر بين يديه ولا يطالع وجوه الأكلين ، ويقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى ، ويجلس جلسة التواضع غير مشكوك ولا متمزز : نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل الرجل متكئا . وروى أنه أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة ، فجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه يأكل فقال أعرابي : ما هذه الجلسة يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلقني عبدا ولم يجعلني جبارا أعيداء ولا يبتدئ بالطعام حتى يبدأ القدم أو الشيخ : روى حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يضع أحدا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكل باليمين .

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لياكل أحدكم يمينه ، وليشرب يمينه ، وليأخذ يمينه وليعط يمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله ويعطي بشماله .

وإن كان المأكول تمرا أو ماله عجم لا يجمع من ذلك ما يرى ولا يؤكل على طبق ولا في كفه ، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه .

ولا يأكل من ذروة الشريد : روى عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وخذوا وسطه فإن البركة تنزل في وسطه .

ولا يمسب الطعام : روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : ما غاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما فاط ، إن اشتهاه أكله ولا تركه .

وإذا سقطت اللقمة بأكلها فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، إذا سقطت لقمة أحدكم فليطمعها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان .

ويلاحظ أصحابه ، فقد روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، إذا أكل أحدكم الطعام فليمتص أصابعه ، فإنه لا يدري في أى طعامه تكون البركة .

وهكذا أمر عليه السلام بإسالات القصعة : وهو مسحها من الطعام . قال أنس رضى الله عنه : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسالات القصعة .

ولا ينفخ في الطعام ، فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، النفخ في الطعام يذهب بالبركة ، وروى عبدالله بن عباس أنه قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ في طعام ولا في شراب ولا ينفس في الإناء فليس من الأدب ذلك .

والحل والبقل على السفرة من السنة . قيل : إن الملائكة تحضر المساعدة إذا كان عليها قُل . روت أم سعد رضى الله عنها قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها وأنا عندما فقال : هل من غداء ؟ فقالت : صدنا خبز وتمر وخل ، فقال عليه السلام « نعم الإدام الخُل اللهم بارك في الخُل فإنه كان إدام الأنبياء قبل ، ولم يقفر بيت فيه خُل » .

ولا يصمت على الطعام فهو من سيرة الأعاجم ، ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين ففيه نهي ، ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجميع ، فقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، إذا وضعت المائدة فلا تقوم رجل حتى ترفع المائدة ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم ، وليتمل ، فإن الرجل يتجمل جلسيه فيقبض يده ، وعسى أن يكون له في الطعام حاجة .

وإذا وضع الخبز لا ينتظر غيره ، فقد روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا الخبز ، فإن الله تعالى ينزل لكم بركات السماء والأرض والحديد والبقر وابن آدم .

ومن أحسن الأدب وأهمه أن لا يأكل إلا بعد الجوع ويمسك عن الطعام قبل الشبع ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماملاً أدى وعاء شرا من يده .

ومن عادة الصريفة : أن يلتم الخادم إذا لم يجلس مع القوم وهو سنة . روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، إذا جاء أحدكم خادم بطعام فإن لم يجلسه معه فليئاره أكلة أو أكتين ، فإنه ولي حره ودعائه .

وإذا فرغ من الطعام يحمد الله تعالى : روى أبو سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاما قال : الحمد لله الذى أطعنا وسقانا وجعلنا مسلمين ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من أكل طعاما فقال : الحمد لله الذى أطعنى هذا ووزقنى من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه .

ويتخلل ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخللوا فإنه نفاقة والنفاقة تدور إلى الإيمان والإيمان مع صاحبه في الجنة .

وينسل يديه ، فقد روى أبو هريرة قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من بات وفى يده غمر لم ينسل فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه .

ومن السنة غسل الأيدي في طست واحد : وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرعوا الطلوس وعالفوا الجيوس .

ويستحب مسح العين ببل اليد ، وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا برضائن فأشربوا أعينكم الماء . ولا تنفضوا أيديكم فإنها مراعوش الشياطين . قيل لأبي هريرة : في الرضوء وغيره ؟ قال نعم في الرضوء

وغيره ، وفي غسل اليد يأخذ الاثنان باليمين ، وفي الخلاه لا يزدرد ما يخرج بالخلال من الاسنان ، وأما ما يلوكة باللسان فلا بأس به ، ويجتنب التصنع في أكل الطعام ، ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردا ، فإن الرياء يدخل على العبد في كل شيء .

وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يئن عليه ، قيل له تعلم به بأسا ؟ قال : نعم ، رأيته يتصنع في الأكل ، ومن تصنع في الأكل لا يؤمن به عليه التصنع في العمل .

وإن كان الطعام حلالا قليلا : الحمد لله الذي نعمته تم الصالحات وتنزل البركات . اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، اللهم أطعمنا واستعملنا صالحا . وإن كان شبة يقول : الحمد لله على كل حال ، اللهم صل على محمد ولا تجعله عوناً على معصيتك ، وليكثر الاستغفار والحزن ، ويبكي على أكل الشبهة ولا يضحك ، فليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولا يلاف قریش .

ومجتنب الدخول على قوم في وقت أكلهم ، فقد ورد : من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما . ومحمدنا أمضا آخر ، دخل سارقا دخرج مغيرا ، إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقتهم .

ويستحب أن يخرج الرجل من ضيفه إلى باب الدار ، ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار ، ومجتنب المضيف التكلف إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق ، ولا يفعل ذلك حياء وتكلفا .

وإذا أكل عند قوم طعاما قليلا عند فراغه إن كان بعد المغرب ، أفضل عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وسلت عليكم الملائكة ، وروى أيضا : عليكم صلاة قوم أراهم ليسوا بأئمين ولا نجار يصلون بالليل ويصومون بالنهار ، كال بعض الصحابة يقول ذلك .

ومن الأدب : أن لا يستخفر ما يقدم له من طعام ، وكان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما بدرى أبهم أعظم وزوا ، الذي يستخفر ما يقدم إليه ، أو الذي يستخفر ما عنده أن يقدمه .

ويكره أكل طعام المباحة وما تكلف للأعراس والتمازي . فما عمل للتواضع لا يؤكل ، وما عمل لأهل العزاء لا بأس به وما يجري مجراه .

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط إليه في التصرف في شيء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذن ، قال الله تعالى ﴿أو صدقكم﴾ قيل : دخل قوم على سفيان الثوري فلم يجدوه ، ففتحو الباب وأزولوا السفرة وأكلوا ، فدخل سفيان ففرح وقال : ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا .

ومن دعى إلى طعام فالإجابة من السنة ، وأؤكد ذلك الوليمة ، وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا أو ذلك خطأ ، وإن عمل ذلك فصنعا ورياء فهو أقل من التكبر . روى أن الحسن بن علي سر بقرم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق وقد نزلوا كسرا على الأرض وهو على بقلته ؛ فلما مرهم سلم عليهم فردوا عليه السلام وقالوا : هلم الغذاء يا ابن رسول الله ، فقال لهم إن الله لا يحب المتكبرين ، ثم لم يروك فقول عن دابته وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل ، ثم سلم عليهم وركب .

وكان يقال : الأكل مع الإعران أفضل من الأكل مع العيال .

روى أن هرون الرشيد دعا بأصحابه الضرير وأمر أن يقدم له طعام ، فلما أكل صلب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال : يا أبا معاوية ، تدرى من صلب على يدك ؟ قال لا . قال أمير المؤمنين ، قال يا أمير المؤمنين ، إنما أكرمت العلم وأبنته فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم .

الباب الرابع والأربعون : في ذكر أدبهم في اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس وضروبتها لدفع الحر والبرد ، كما أن الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع ، وكان

الله من غير طائفة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزادات والشهوات ، فهكذا في لباس تنفق فيه ، ولطائف أمورية متنوعة ومآرب مختلفة ؛ فالصوفى يرد النفس في لباس إلى متابعة صريح العلم . قيل لبعض الصوفية : ثوبك مرقى ، قال : ولكنه من وجه حلال ، وقيل له وهو وسخ ، قال : ولكنه طاهر ؛ فخطر الصادق في ثوبه أن يكون من وجه حلال ، لأنه ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، أى لا فریضة ولا نافلة ، ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا ؛ لأن طهارة الثوب شرط في صحة الصلاة ، وماعدا هذين النظرين فنظره في كونه يدفع الحر والبرد لأن ذلك مصلحة للنفس ، وبعد ذلك مادمع النفس إليه فكله فضول وزيادة ونظر إلى الخلق ، والصادق لا يلبس إلا بلبس أن يلبس الثوب إلا لله : وهو ستر العورة ، أو لنفسه لنفخ الحر والبرد .

وحكى أن سفیان الثوري رضى الله عنه خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقبوبا ، فقيل له : لم يلدك بذلك . فهم أن يعلمه وينيره ، ثم تركه وقال : حيث لبست ثوبت أتى الله به ، والآن لم أعيره إلا لنظر الخلق فلا انتفض النية الأولى بهذه .

والصوفية خصوا بطهارة الأخلاق ، ومارزقوا طهارة الأخلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعداد الذى هياه الله تعالى لنفوسهم ، وفي طهارة الأخلاق وتعدادها تناسب واقع لوجود تناسب هيئة النفس ، وتناسب هيئة النفس هو المشار إليه بقوله تعالى ﴿ فإذا سويتم أنفسكم فاقبضوا فيها من روحى ﴾ فالتناسب هو القسوة ، فمن المناسب أن يكون لباسهم منسكلا لطعامهم ، وطعامهم منسكلا لكلامهم ، وكلامهم منسكلا لثأبهم ؛ لأن التناسب الواقع في النفس مقيد بالمال واقتنابه والتمثال في الأحوال يحكم به العلم ؛ ومتصوفة الزمان ملتزمون بشئ من التناسب مع مزج الهوى . وماعندهم من التطلع إلى التناسب وشرح حال سلفهم في وجود التناسب .

قال أبو سليمان النراقى : يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم ، وشهوته في بطنه بخمسة دراهم ؛ أنكرك ذلك لعدم التناسب ؛ فمن خشن ثوبه يفتنى أن يكون مأكوله من جنسه ، وإذا اختلف الثوب واللباس كدل على وجود انحراف لوجود هوى كامن في أحد الطرفين ، إما في طرف الثوب لموضع نظر الخلق ، وإما في طرف المأكول لغرط الشره ؛ وكلا الوصفين مريض يحتاج إلى المداواة ليمود إلى حد الاعتدال .

لبس أبو سليمان النراقى ثوبا غسिला ، فقال له أحد : لو لبست ثوبا أجود من هذا ؟ فقال : ليت قلبى في القلوب مثل قبيص في الثياب فكان الفقراء يلبسون المرقع ، وربما كانوا يأخذون الحرق من المزابل ويرقمون بها وجوههم ، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح ، وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه ؛ فكانت وقائعهم من المزابل ، كانت لقهم من الأبواب .

وكان أبو عبد الله الرفاعى مثارا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة ، وكان إذا حضر الفقراء طعام لا يأكل معهم فيقال له في ذلك ؛ فيقول : أنتم تأكلون بحق التوكل . وأنا أكل بحق المسكنة . ثم يخرج بين المشاهدين يطلب الكسر من الأبواب ، وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منه .

حكى أن جماعة من أصحاب المرقسات دخلوا على بشر بن الحارث فقال لهم : يا قوم ، اتقوا الله ولا تظهروا هذا الذى أنتم تعرفون به تركتموه ، فسكروا لهم ، فقال له غلام منهم : الحمد لله الذى جعلنا من يعرف به ويكرم له ، والله ليظهرن هذا الذى حتى يكون الدين كله لله ، فقال له بشر : أحسنت يا غلام ، مثلك من يلبس المرقمة ، فكان أحدهم يلقى زمانه لا يطوى له ثوب ولا يملك غير ثوبه الذى عليه .

وروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه لبس قبيبا اشتراه بثلاثة دراهم ثم قطع كفه من دوس أصابعه ، وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب : إن أردت أن تلقى صاحبك فقم قبيصا واخصف أذنك وقصر أملك وكل دون الشيع وحكى عن الجريرى قال : كان في جامع بغداد رجل لا تكاد تجده إلا في ثوب واحد في الشتاء والصيف ، فسل

عن ذلك ؟ فقال : قد كنت وامت بكثرة لبس الثياب ، فأريت ليلة فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة ، فأريت جماعة من أصحابنا من الفقهاء على مائدة ، فأريت أن أجلس معهم فإذا جماعة من الملائكة أخذوا يدي وأقاموني وقالوا لهؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قيصان فلا تجلس معهم ، فأنقذت ونذرت أن لا ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله تعالى .

وقيل : مات أبو يزيد ولم يترك إلا قصيصه الذي كان عليه وكان عارية ، فردوه إلى صاحبه .

وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا : أنه بقي زمانا لا يلبس الثوب إلا مستنجرا ، حتى إنه لم يلبس على ذلك نفسه شيئا .

وقال أبو حفص الحداد : إذا رأيت وحشة الفقير في ثوبه فلا ترجو خيره .

وقيل : مات ابن الكزني وكان أستاذا جليدا وعليه مرقمة . قيل : كان وزن فردكم له وخمار يسه ثلاثة عشر رطلا فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن ، وقد يكون جمع من الصالحين يتكفون لبس غير المرقع وزى الفقراء ، ويكون ينهم في ذلك ستر الحال أو خوف عدم التوضؤ بواجب حق المرقمة .

وقيل : كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرش فيه الرمل لعله كان ينام عليه بلا وطاء . وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجمعوا بينهم وبين التراب حافلا . ويكون لبس أى حفص الناعم يعلم ونية يلقى الله آمال بصحتها ، وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم في ذلك ، فلا يمرض عليهم ، غير أن لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من الدنيا وزهرتها وبهجتها . وقد ورد : من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة .

وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بمناه بصير بصفات نفسه متفقد خفي شهوات النفس باقى الله تعالى بحسن إثنية في ذلك ، فلهن الثبة في ذلك وجوه متعددة يطول شرحها . ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب يهينه لاختشوته ولا لثبوتته ، بل يلبس ما يدخله الخشوع عليه فيكون بحكم الوقت ، وهذا حسن . وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه ، فإن رأى لنفسه شرما وشهوة خفية أو جليلة في الثوب الذى أدخله الله عليه بجزه ، إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار فعند ذلك لا يسه إلا أن يلبس الثوب الذى ساقه الله إليه . وقد كان شيخنا أبو التجيب السهروردى رحمه الله لا يتقيد بهيمة من الملبوس ، بل كان يلبس ما يتفق من غير تمعد تكلف واختيار ، وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنائير ولبس النمامة بدائقي . وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويطلب لبس . وكان الشيخ على بن الحسين يلبس لبس فقراء السواد . وكان أبو بكر الفراء يرتجمان يلبس فروا خشنا كآحاد العوام . ولكل في لبسه وميئته نية سالحة . وشرح تفاوت الأقوام في ذلك يطول .

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار ، وقد يساق إليه الثوب الناعم فيلبسه ، وكان يقال له : ربما يسبق إلى بواطن بعض الناس الإنكار عليك في لبسك هذا الثوب أفيقول : لا ، في إلا أحد رجلين : رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع ، فنقول له : هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه ؟ فيقول : لا . ورجل يطالبنا بحقائق النعم من أرباب الزينة ، فنقول له : هل ترى لنا فيها لبسنا اختيارا أو ترى صدنا فيه شهوة ؟ فيقول : لا . وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن ، ولكن يجب أن يختار الله له هيئة مخصوصة ، فيكثر اللبأ إلى الله والافتقار إليه ، ويسأله أن يريه أحب الزى إلى الله تعالى وأسلمه لديه ودنياه لكونه غير صاحب غرض وهوى فيزى بهيمة ! فآفة تعالى يفتح عليه ويعرفه زيا مخصوصا ، فيلتزم بذلك الزى فيكون لبسه بالله ويكون هذا أتم وأكمل ممن يكون لبسه لله .

ومن الناس من يتوفر حظ من العلم وينبسط بما بسطه الله ، فيلبس الثوب عن علم وإيقان ولا يبالى بما لبسه ، ناعما لبس أو خشنا ، وربما لبس ناعما ونفسه فيه اختيار وحظ ، وذلك الحظ فيه يكون مكفرا له مردودا عليه موهوبا له

برأفته الله تعالى في إرادته نفسه ، ويكون هذا الشخص تام التزكية تام الطهارة محبوبا مراديا يسارع الله تعالى إلى مراده وحمايه ؛ غير أن ههنا مزية قسم الكبير من المدعين .

حكى عن يحيى بن معاذ الرازي أنه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره ، ثم صار في آخر عمره يلبس الناعم ؛ فقيل لأبي يزيد ذلك ؛ فقال : مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التحف .

ومن الناس من يسبق إليه علم ما سوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه عهودا فيه . وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) .

ولبس الخشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد والأبعد من الآفات : قال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه ، فرأيت قيصة وسخا فقلت لأمراءه قاطمة : اغسلوا ثياب أمير المؤمنين ؛ فقالت : نفعل إن شاء الله ، قال : ثم عدته فإذا القميص على حاله ، فقلت : يا قاطمة ، ألم أترككم أن تغسلوا ما له قيصة غير هذا . وقال سالم : كان عمر بن عبد العزيز من ألين الناس لباسا من قبل أن يلبس عليه بالملامة ، فللبس عليه بالخلافة ضرب رأسه بين ركبيه وبكى ، ثم دعا بأطوار له رثة فلبسها .

وقيل : لما مات أبو الفراء وجد في ثوبه أربعون رقعة وكان عطاءه أربعة آلاف .

وقال يزيد بن وهب ؛ لبس عن أبي طالب قيصارا زيا ، وكان إذا مده كله بلغ أطراف أصابعه ، فمابه الخوارج بذلك ، فقال : أتلبس على لباس هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى به المسلم .

وقيل : كان عمر رضي الله عنه إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالردية وقال : دعوا هذه البراقات للنساء . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : نوروا قلوبكم بلباس الصوف فإنه مذكاة في الدنيا ونور في الآخرة ، وإياكم أن تفسدوا دينكم بجمد الناس وثنائهم ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتذى ثوبين ، فلما نظر إليهما أعجبه حسنها فسجدته تعالى ، فقيل له في ذلك فقال : خشيت أن يمرض عني في فتراضت له ، لا جرم لا يبيتان في منزل لما تحرفت المقت من الله تعالى من أجلهما ، فأخرجهما فدفعهما إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له ثوبان مخصوصتان . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الصوف واحتذى الخوص وأكل مع العبيد .

وإذا كانت النفس محل الآفات فالعرف على دوائها وخفي شهواتها وكامن هواها عسر جدا ، فالأليق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط وترك ما يرب إلى ما لا يرب ، ولا يجوز للعبد الدخول في السعة إلا بعد إتقان علم السعة تزكية النفس ، وذلك إذا غابت النفس بغية هواها المتبع وتخلصت التية وتسد التصرف بعلم صريح واضح ، والزمجة أنوار مركبتها وبراعنها لا يرون النزول إلى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد في الدنيا واللباس الناعم من الدنيا . وقد قيل : من رق ثوبه رقد دينه . وقد يرخص في ذلك لمن لا يلازم بالزهد ويقف على رخصة الشرع . وروى عطفة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ولده حسنا ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : إن الله جميل يحب الجمال ، فتكون هذه الرخصة في حق من يلبسه لاهوى نفسه في ذلك غير مفتخر به ومغتال ؛ فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا أو التكاثر بها فقد ورد فيه وعيد ؛ روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا زرة المؤمن إلى نصف الساق لا حرج عليه فيها بينه وبين الكميين وما كان أسفل من الكميين فهو في النار من جرأ زره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فينظر رجل من كان قلبكم يقبض في ردائه إذ أعجبه ثيابه فغضب الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، والأحوال تختلف ، ومن صح حاله بصحة عليه صحت نيته في ما كوله وملبوسه وسائر تصاريفه ، وفي كل الأحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى ، وبقدرك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى .

الباب الخامس والأربعون : في فضل قيام الليل

قال الله تعالى (إذ ينشئكم الله من السماء ماء ليظهركم به بذنبكم وجز الشيطان)
 نزل هذه الآية في المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كتيب من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب ، وسبقهم
 المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبهم عليها ، وأصبح المسلمون بين محدث وجنب وأصابع الظمأ ، فوسوس لهم
 الشيطان أنكم تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محذرين ومجبنين
 فكيف ترجون الظفر عليهم ، فأمر الله تعالى مطرا من السماء سبال منه الوادي فشرب المسلمون منه واعتسلوا
 وتوضأوا وسقوا الدواب وملأوا الأسقية ولبد الأرض حتى ثبت به الأقدام . قال الله تعالى (ويثبت به الأقدام) . إذ
 يوحى ذلك إلى الملائكة أني معكم) آدم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين ، ولكل آية من القرآن ظهور
 وبطن وحد ومطلع والله تعالى كاجل الناس رحمة وأمنة للصحابة خاصة في تلك الواقعة والحادثة فهو رحمة تميم
 المؤمنين ، والناس قسم صالح من الأنعام العاجلة للردين ، وهو أمنة لقلوبهم عن منازعات النفس ، لأن النفس
 بالنوم تستريح ولا تنسكو الكلال والتعب ، إذ في شكائتها وتمتعها تكذب بالقلب ، وباستراحها بالنوم بشرط العلم والاعتدال
 راحة القلب لما بين القلب والنفس من المواطأة عند طمأنيتها للردين السالكين ، فقد قيل : ينبغي أن يكون لك
 الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد فيكون ثمان ساعات : للنوم ساعتين من ذلك يجعلهما المرید بالنهار ، وست
 ساعات بالليل ، ويزيد في أحدهما ونقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره في الشتاء والصيف ، وقد يكون
 بحسن الإرادة وصديق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث ، ولا يضر ذلك إذا صار بالتدرج عادة ، وقد يحمل مثل
 السهر وقلة النوم وجود الروح والأنس ، فإن النوم طبعه بارد ورطب ينفع للجسد والدماع ويسكن من الحرارة
 واللبس الحادث في المزاج ، فإن نقص عن الثلث يضر الدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم ، فإذا ناب عن النوم دموع
 والقلب وأنه لا يضر نقصانه ، لأن طبيعة الروح والأنس باردة ورطبة كطبيعة النوم . وقد تقصر مدة طول الليل
 بوجود الروح ، فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصة ، كما يقال : سنة الفحل سنة ، وسنة المجرسة ، فيقصر
 الليل لأهل الروح .

نقل عن علي بن بكار أنه قال منذ أربعين سنة ما أحرقتي إلا طلوع الفجر .

وقيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ما راعيتي قط يربنى وجهه ثم ينصرف وما تأملت .

وقال أبو سليمان الناري : أهل الليل في ليالهم أشد لذة من أهل اللغو في لغوهم .

وقال بعضهم : ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التلذذ في قلوبهم بالليل من حلوة المناجاة
 لحلاوة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل .

وقال بعض المارفين : إن الله تعالى يطلع على قلوب المستقيمين في الأصهار فيملؤها نورا ، فرد الفوائد على قلوبهم
 فاستبشروا ، ثم تنشر من قلوبهم الفوائد إلى قلوب المنافقين .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى في بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه : إن لي عبادا يحبون وأحبه ، ويشتاقون إلى
 وأشتاق إليهم ، ويذكرونني وأذكروني وينظرونني وأناظر إليهم ، فإن حدثت طريقتهم أحببتك وإن عدلت عن
 ذلك متكئة . قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ، ويحتنون إلى غروب
 الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلل كل حبيب بحميه نصبوا لي أقدامهم
 واقترشوا لي وجوههم وتناجز بكلاي وتملقوا إلى بانامى ، فين صارخ وبكاء ، وبين متأوه وبشاك ، يبني
 ما يتحلمون من أجل ، وبسمى ما يشكون من حبي ، أول ما أعطهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني
 كما أخبر عنهم ، والثاني : لو كانت السموات السبع والأرضون نوما فيهما في موازينهم لاستقلتنا لهم . والثالث : أقبل

يرجى عليهم أن يرى من أقبالك برجى عليه ، أي لم أحد ما يريد أن أعطيه ؟ فالصديق المريد إذا خلا في قلبه بمناجاة ربه انتشرت أنوار إلهه على جميع أجزاء نهاره ويصير نهاره في حياة إلهه ، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار ، فتكثر حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المتجمعة من الليل ، ويصير قلبه في قبة من قباب الحق مسددا حركاته موفرة سكانته .

وقد ورد من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ، ويجوز أن يكون للمعنيين : أحدهما أن للشكاة تستقيم بالمصباح ، فإذا صار سراج اليقين في القلب تزهت بكثرة زيت العمل بالليل ، فيزداد المصباح إشراقا وتكتسب مشكاة القالب نوراً وضياء .

كان يقول سهل بن عبد الله : اليقين ناز ، والإقرار قنبلة ، والعمل زيت . وقد قال الله تعالى ﴿ سبِّحْ فِي وَجْهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ وقال تعالى ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ فنور اليقين من نور الله في رجاة القلب يزداد ضياء بزيت العمل ، فتبقى رجاة القلب كالسكوب الذي تنعكس أنوار الرجاة على مشكاة القالب ، وأيضاً يبين القلب بنار النور ، ويسرى ليله إلى القالب فيلين القالب للين القلب ، فيتشابهان لوجود اللين الذي هما ، قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ تَلَيَّنَ الْجَوْدُومُ وَتَلَوَّيْهِمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وصف الجلود باللين كأوصف القلوب باللين ، فإذا امتلأ القلب بالنور ، ولان القالب بما يسرى فيه من الأنس والسرور يندرج الزمان والمكان في نور القلب ، ويندرج في الكلام والآيات والصور وتشرق الأرض أرض القالب بنور دها ، إذ يصير القلب سماً والقالب أرضاً ، وليلة تلاوة كلام الله في عمل المناجاة تستر كون الكائنات والكلام لم يجد بكونه يوجب عن سائر الوجود في مزاحة صفو الشهود ، فلا يبقى حينئذ للنفوس حديث ، ولا يسمع لها جرس حسيس ، وفي مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحة إلى خاتمة من غير وسوسة وحديث نفس ، وذلك هو الفضل العظيم . والوجه الثاني : لقوله عليه السلام « من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار منناه : أن وجوه أموره التي يتوجه إليها تحسن وتتداركها المعونة من الله الكريم في تصاريفه ، ويكون معناه في مصدره ومورده ، فيحسن وجهه مقاصده وأفعاله ، وينتظم في سلك السداد مسددا أقواله ، لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب .

الباب السادس والأربعون : في ذكر الأسباب للمعينة على قيام الليل وأدب النوم

فإن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الرضوء ، ويقعد مستقبل القبلة منتظراً مجيء الليل وصلاة المغرب ، مقبياً في ذلك على أنواع الأذكار ، ومن أولاهما التسبيح والاستغفار . قال الله تعالى لنبيه ﴿ واسْتَغْفِرْ لِنَفْسِكَ ﴾ وسبح محمد بذلك المعنى والإبكار . ومن ذلك أن يواصل بين المشايخ بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر ، وأفضل ذلك الصلاة ، فإنه إذا واصل بين المشايخ ينقل عن باطنه آثار الكدور والحادثة في أوقات النهار من رؤية الخلق وعظائمهم وسماع كلامهم ، فإن ذلك كله له أثر وخدش في القلوب ، حتى النظر إليهم يعقب كدراً في القلب يدركهم برزق صفاء القلب ، فيكون أثر النظر إلى الخلق البصيرة كالقذى في العين البصر ، وبالمواصلة بين المشايخ يرجى ذهاب ذلك الأثر . ومن ذلك : ترك الحديث بعد العشاء الآخرة ، فإن الحديث في ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث في القلب من مواصلة العشاء ويقيد عن قيام الليل ، سيما إذا كان عربياً عن قطة القلب . ثم تجديد الرضوء بعد العشاء الآخرة أيضاً معين على قيام الليل .

حتى في بعض الفقهاء عن شيخ له بخراسان أنه كان يغتسل في الليل ثلاث مرات : مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة في أثناء الليل بعد الانتهاء من النوم ، ومرة قبل الصبح ، فلو روضه والناسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر في تيسير قيام الليل . ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة حتى يغيب النوم ، فإن التعود على ذلك يبين على سرعة الانبابة ، إلا أن يكون واقفاً من نفسه وعادته فيعمل للنوم ويستجلبه ليقوم في وقت المعهود ، وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذي يصلح للمريدين والطلالين ، وبهذا وصف المجهزون ، قيل : نومهم نوم الفرق ، وأكلهم أكل المرضى ،

وكلامهم ضرورة ؛ فمن نام عن غلة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل ، وإنما النفس إذا طمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه ، وإذا أزعجت بصدق الزعامة لأسترسل في الاستمرار ، وهذا الزعاج في النفس يصدق الزعامة هو التجاني الذي قال الله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) لأن المهم بقيام الليل وصدق الزعامة يجعل بين الجنب والجنب نبواً وتجاافياً . وقد قيل : لنفس نظران : فطر إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية ، ونظر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحية ، فأرباب الزعامة تجافى جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الروحية ؛ فأعطوا النفوس حقها من النوم ومنموها حظها ، فالنفس بما فيها مركوز من الرأية والجدادية تسب وتسجل وتسند النوم ، قال الله تعالى (هو الذي خلقكم من تراب) واللاذي بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له . والرسوب صفة التراب والكسل والتقاعد والتألم بسبب ذلك طبيعة في الإنسان ؛ فأرباب المهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم في قوله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً) حتى قال (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) حكم هؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم ؛ فهم لموضع علمهم أن يحرقوا النفوس عن مقار طيبستها وقرعها بالنظر إلى الذات الروحية إلى ذرى حقيقتها ؛ فتجافى جنوبهم عن المضاجع وخرجوا من صفة النافل المأكع .

ومن ذلك : أن يغير العادة ؛ فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة ، وإن كان ذا وطاء يترك الوطاء . وقد كان بعضهم يقول : لأن أرى في بيتي شيطاناً أحب إلي من أن أرى وسادة فإنها تدعوني إلى النوم ؛ ولتغيير العادة في الوسادة والنظام والوطاء تأثير في ذلك ، ومن ترك شيئاً من ذلك رافقه عالم بليته وعجزته يشبهه على ذلك يتيسر مرام ، ومن ذلك خفة المعدة من الطعام ، ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقتطع الباطن أعان على قيام الليل ؛ لأن بالذكر يذهب داؤه ؛ فإن وجد الطعام ثقلاً على المعدة يثبني أن يعلم أن فعله على القلب أكثر ، فلا ينام حتى يذهب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار . قال بعضهم : لأن أنقص من عشائي لقمة أحب إلي من أن أقوم ليلة .

والأحوط أن يترك النوم فإنه لا يدري ماذا يحدث ، ويعد طهوره وسوا كتمده ، ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة ، وإن لم ينع على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ ، فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق ، والمريد المتأمل إذا نام في الفراش مع الزوجة ينتفض وضوءه باللس ، ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة مالم يسترسل في التناذر النفس باللس ولا يعدم بقطعة القلب ؛ فأما إذا استرسل في الالتذاذ وغفل فتنهجب الروح أيضاً لمكان صلاحته .

ومن الطهارة التي تثمر صدق الرقيا : طهارة الباطن عن خدش الهوى وكدورة عجة الدنيا ، وانتزعه عن انجساس النمل والحقد والحسد ، وقد ورد من أرى إلى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يعتقد على أحد غفر له ما جرمه ، وإذا طهرت النفس عن الرذائل : انجلبت مرآة القلب وقابل اللوح المحفوظ في النوم . وانتعشت فيه عجائب الغيب وغرائب الإنبياء ؛ فمن الصديقين من يكون له في منامه مكالمة ومحادثة ؛ فيأمر الله تعالى وينهاه فيفهمه في المنام ، يعرفه ، ويكون موضع ما ينتج له في نومه من الأمر والى كالأمر والنهي الظاهر : يعي الله تعالى إن أخل بهما ، بل تكون هذه الأوامر أكد وأعظم وقفاً ، لأن الخلافات للظاهرة تمحوها التوبة ، والثواب من الذنب كن لا ذنب له ؛ وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى ، فإذا أخل بها يخشى أن يتقطع عليه طريق الإرادة ، ويكون في ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام الفتى ، فإن أهمل العبد في بعض الأحيان بكسل وتثور عزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث : يمسح أعضائه بالماء مسحاً حتى يفرج بهذا القدر عن زمرة الغافلين حيث تقاسد عن فعل التيقظين ، وهكذا إذا كسل عن القيام عقيب الانتباه يجتهد أن يستاك ويمسح أعضائه بالماء مسحاً ، حتى يفرج في قلبه وانتباهاته عن زمرة الغافلين ؛ ففي ذلك فضل كثير لمن كثرت نومه وقيل قيامه ؛ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستاك في كل ليلة مراراً عند كل نوم وعند الانتباه منه .

ويستقبل القبلة في ثوبه وهو على نوعين فلأما على جنبه الأيمن كاللحمود وإما على ظهره مستقبلاً القبلة كالبيت المنسجي ، ويقول : يا الله اللهم وضعت جنبي وبك أرفهه ، اللهم إن أسكت نفسي أغفر لها وارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم إنى أسألت نفسي إليك ووجهي إليك وقوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ورجة منك ورجة إليك لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت اللهم فني عذابك يوم تبث عبادك ، الحمد لله الذي حكم فقهر ، الحمد لله الذي بطن لحير ، الحمد لله الذي ملك فقدر ، الحمد لله الذي هو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير اللهم إن أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشتر عبادك وشتر الشيطان وشركه وبقراءات خمس آيات من البقرة : الأربع من الأول والآية الخامسة ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ وآية الكرسي و ﴿ آمن الرسول ﴾ و ﴿ إن ربكم الله ﴾ و ﴿ قل ادعوا الله ﴾ وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، والمعوذتين ، وينفذ بين في يديه ويمسح بهما وجهه وجسده ، وإن أضاف إلى ماقرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها لحسن ، ويقول : اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك ، واستعملني بأحب الأعمال إليك التي تقر بربك إليك زلي وتبديقني من سخطك ببدأ ، أسألك فتعطيني ، وأسألك فتغفر لي ، وأدعوك فستجيبني ، اللهم لا تؤمنى منكرك ، ولا تؤمنى غيرك ، ولا ترفع عني سترك ، ولا تنسى ذكرك ، ولا تهملني من الصالحين ، ورد أن من قال هذه الكلمات بمسأله تعالى إليه ثلاثة أملاك يرفعونه للصلاة ، فإن صلى ودعا أنواعاً على دعائه ، وإن لم يقرأ بعدت الأملاك في الهواء وكتب له ثواب عبادتهم ، ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاثاً وثلاثين ، ويتم الحائفة بلاله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الباب السابع والأربعون : في أدب الانتباه من الثوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤذن من أذان المغرب يصل ركعتين بين الأذان والإقامة ، وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين في البيت يصلونهما قبل الخروج إلى الجماعة كيلاً يظن الناس أنهم سنة مرتبة فيقتدى بهم ، فلما منهم أنها سنة مؤكدة ، وإذا صلى المغرب يصل ركعتي السنة بعد المغرب يعجل بهما ^(١) فإيهما برهان مع الفريضة ، يقرأ بهما قبل يأبها الكافرون وقل هو الله أحد ، ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكائين ، فيقول : مرحباً بملائكة الليل ، مرحباً بالملكين الكريمين الكائين ، اكتبوا في صحيفتي أني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، والصراف والميزان حق ، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتي إليها . اللهم احططها بوزري واغفر بها ذنبي ، وقفل بها ميزاني ، وأوجب لي بها أمانتي ، وتجاوز عني يا أرحم الراحمين . فإن واصل بين المشادين في مسجد جماعته : يكون جامعاً بين الاعتساف ومواصلة المشادين ، وإن رأى الصراف إلى منزله وأن المواصلة بين المشادين في بيته أسلم لدينه وأقرب إلى الإخلاص وأجمع لهم فليقبل . وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال : هي الصلاة بين المشادين ، وقال عليه السلام : عليكم بالصلاة بين المشادين فلما تذهب بملاحة النهار وتذهب آخره ، ويجعل من الصلاة بين المشادين ركعتين بسورة البروج والطارق ، ثم ركعتين بعد ركعتين : يقرأ في الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة والآيتين ﴿ وللمسلم إله واحد ﴾ إلى آخر الآيتين ، وخمس عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وفي الثانية آية الكرسي و ﴿ آمن الرسول ﴾ وخمس عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ويقرأ في الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر والرافعة ، ويصل بعد ذلك ماشاء ، فإن أراد أن يقرأ شيئاً من حزه في هذا الوقت في الصلاة أو غيظاً ، وإن شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الإخلاص

والفائقة ، ولو واصل بين المشامين بركعتين يطيلهما لحسن ، وفي هاتين الركعتين يطيل القيام تالبا للقرآن حزبه أو مكررا آية فيها الدعاء والتلاوة ، مثل أن يقرأ مكررا (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) أو آية أخرى في مقامها ، فيكون جامعا بين التلاوة والصلاة والدعاء

ففي ذلك جمع اللهم وظفر بالفضل ، ثم يصلي قبل العشاء أربعاً بعد ركعتين ، ثم ينصرف إلى منزله أو موضع خلوته فيصلي أربعاً أخرى . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعاً ، ويقرأ في هذه الأربع سورة لقمان ويس وحم الدعاء وببارك الملك ، وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسي وآمن الرسول وأول سورة الحديد وأخر سورة الحشر ، ويصلي بعد الأربع إحدى عشرة ركعة يقرأ فيها ثلثمائة آية من القرآن من (والسماء الطارق) إلى آخر القرآن ثلثمائة آية ، هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله ، وإن أراد قرأ هذا القدر في أقل من هذا العدد من الركعات ، وإن قرأ من سورة الملك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم ، وإن لم يحفظ القرآن يقرأ في كل ركعة خمس مرات (قل هو الله أحد) إلى عشر مرات إلى أكثر ، ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجد إلا أن يكون واقفاً من نفسه في عاتقها بالانتباه للتهجد ؛ فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجد حينئذ أفضل . وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتجهّد يصلي ركعة يشفع بها وتره ، ثم يتقل ماشاء ويوتر في آخر ذلك ، وإذا كان الوتر من أول الليل يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما إذا زلزلت وأهلاكم ، وقيل : فعمل الركعتين قاعدا بمنزلة الركعة قائما يشفع له الوتر ، حتى إذا أراد التهجد يأتي به ويوتر في آخر تهجده ، ونية هاتين الركعتين نية النفل لا غير ذلك ، وكثيراً ما رأيت الناس يتفاحضون في كيفية نيتيهما ، وإن قرأ في كل ليلة للمسبحات وأضاف إليها سورة الأعلى فتصير سبعاً ، فقد كان العلماء يقرءون هذه السور ويترقبون بركتها .

فلذا استيفظ من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله ويصرف فكره إلى أمرائه قبل أن يحول الفكر في شيء سوى الله ، ويشتمل اللسان بالذكر ، فالصادق كالطفل السكف بالشئ إذا نام ينام على محبة الشئ . وإذا انتبه يطلب ذلك الشئ الذي كان كائناً به ، وعلى حسب هذا السكف والشغل يكون الموت والقيام إلى الحشر ، فليظنر وليتبر عند انتباهه من النوم : ما هم ؟ فله هكذا يكون عند القيام من القبر : إن كان همه الله فهو هو ، وإلا فهمه غير الله . والبد إذا انتبه من النوم بباطنه عائد إلى طهارة الفطرة ، فلا يدع الباطن يتغير بتغير ذكر الله تعالى حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذي انتبه عليه ويكون قافاً إلى وجه بياضه خروفاً من ذكر الأغيار ، ومهما وفي الباطن بهذا المعيار فقد اتقن طريق الأنوار وطرقت الصفحات الإلهية ، لجدير أن تصب إليه أقسام الليل انصباباً ، ويصير جناب القرب له موهلاً ومأبياً ، ويقول باللسان : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النسور . ويقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران ، ثم يقصد الماء الطهور . قال الله تعالى (ونزلنا عليكم من السماء ماء ليطهركم به) وقال عز وجل (أنزل من السماء ماء فصالح آودية بقدرها) قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : الماء القرآن ، والأودية القلوب ، فسالق بقدرها واحتلمت ماوسمت ، والماء مطهر والقرآن مطهر ، والقرآن بالظهور أجدر ، فالماء يرقم غيره مقامه ، والقرآن والعلم لا يتوهم غيرهما مقامهما ولا يستمدحهما ، فالماء الطهور يظهر الظاهر ، والعلم والقرآن يظهران الباطن ويذهبان رجس الشيطان ، فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع ، وجدير أن يكون من رجس الشيطان لما فيه من الغفلة عن الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الأرض ، فكانت القبضة جادة للأرض والجلدة ظاهراً بشرة وباطناً أدمة قال الله تعالى (إن عاقب بشرنا من طين) فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته والأدمة عبارة عن باطنه وأديمته ، والأديمه يجمع الأخلاق الحميدة ، وكان التراب موطئاً أقدم لإيلس ، ومن ذلك اكتسب طلبة ، وصارت تلك الظلمة معجونة في طينة الآدمي ، ومنها الصفات المذمومة والأخلاق الرديئة . ومنها الغفلة والسهو ، فلذا استعمل الماء وقرأ القرآن في المطهرين جميعاً ، ويذهب عنه رجس الشيطان وأثر وطأته ، ويحكم به بالعالم والخروج من حيز الجهل ، فاستعمل الطهور أمر شرعي له تأثير في تنوير القلب ليزا التوهم الذي هو الحكم العليسي

الذى له تأثير في تكدير القلب ، فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ، ولهذا رأى بعض العلماء الضوء ممانعت النار، وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من الفقهية في الصلاة حيث رأها حكا طبيعيا جالبا للإثم ، والإثم رجز من الشيطان ، والماء يذهب رجز الشيطان ، حتى كان بعضهم يتوضأ من النية والكذب وعند الغضب لظهور النفس وتصرف الشيطان في هذه المواطن . ولأن الملتحفظ المراعى المراقب الخجاسب - كلما انطلقت النفس في مباح من كلام أو مسأكة إلى مخالطة الناس أو غير ذلك مما هو معرضة لتحليل عقدة العزيمة كالخوض فيها لا يعنى قولا وفعلًا غلب ذلك بتجديد الوضوء - لثبت القلب على طهارته ونزاهته ، ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذى لا يزال يخف حركته يجلو البصر (وما يحلقها إلا المألون) فتفكر فيما نهيتك عليه تجدد بركته وأثره .

ولواغسل عند هذه المتجددات والموارض والانتباه من النوم ، اسكان أزيد في توريق قلبه ، ولكان الأجدر أن البدن يقتل لكل فريضة بأذلا بجهوده في الاستعداد لما جاءه الله ، ويجدد غسل الباطن بصدق الإنابة وقد قال الله تعالى ﴿ مَبِينٌ إِلَيْهِ وَاقْتُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ قدم الإنابة للدخول في الصلاة ، ولكن من رحمة الله وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج وعوض بالوضوء عن الغسل ، وجوز أداء مفترضات وضوء واحد دفعا للرجح عن عظام الأثمة ، وللخواص وأهل العزيمة مطالبات من مواطنهم تحكم عليهم بالأولى وتلجهم إلى سلوك طريق الأعلى ، فإذا قام إلى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ، ويقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله عشر مرات ويقول : الله أكبر ذوالملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة ، اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قديم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ومنك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق ، والنبون حق وعهدك عليه السلام حق ؛ اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وبك خاصمت وإليك حاسمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ، اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكها أنت وليها ومولاها ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، أسألك مسألة البائس المسكين ، وأدعوك دعاء العقيير الدليل ، فلا تجعللى بدعا لك رب شقيا وكن فى رءوفا رحيا يا خير المؤمنين وأكرم الملطين ثم يصل ركعتين تحية الطهارة : يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة (ولو أهم إذ ظلموا أنفسهم) الآية ، وفى الثانية ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ ويستغفر بعد الركعتين مرات ، ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد ، يقرأ فيها بآية الكرسي وآمن الرسول وإن أراد غير ذلك ، ثم يصل ركعتين طويلتين : هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتشهد هكذا . ثم يصل ركعتين طويلتين أقصر من الأوليين ، وهكذا يتدرج إلى أن يصل اثنتى عشرة ركعة أو ثمان ركعات ، أو يزيد على ذلك ، فإن فى ذلك فضلا كثيرا . والله أعلم .

الباب الثامن والأربعون : فى تقسيم قيام الليل

قال الله تعالى (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقيل فى تفسير قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) كان عملهم قيام الليل .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (استعينوا بالصبر والصلاة) : استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصاربة العدو وفى الخبر : عليكم قيام الليل فإنه مرضاة لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنها عن الإمام وملائكة اللوز ومذهب كيد الشيطان ومطرقة للداد عن الجسد .

وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله ، حتى تقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون العتادة

بوضوء الشتاء : منهم سعيد بن المسيب ، وفضيل بن عياض ، وهيب بن اعرات ، وأوسليان الداراني ، وعلي بن بكار وجيب المصمى ، وكهس بن النبال ، وأبو حازم ، وعمد بن النكدر ، وأبو حنيفة رحمه الله تعالى ، وغيرهم عديم وسام بأناهم الشيخ أبو طالب السكي في كتابه قوت القلوب ، فن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثه أو ثلثه . وأقل الاستجاب سدس الليل ، فلما أن يتم ثلث الليل الأول ويقوم نصفه ويتم سدس الآخر ، أو يتم النصف الأول ويقوم ثلثه ، أو يتم السدس .

روى أن حارث عليه السلام قال : يارب إني أحب أن أنمى عليك ، فأى وقت أقوم ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يادادود لا تتم أول الليل ولا آخره ، فإيه من قام أوله تام آخره ، ومن قام آخره تام أوله . ولكن قم وسط الليل حتى تغلظ في وأغسل بك ، وارفع إلى حوائجك .

ويكون القيام بين نومتين ، وإلا فيغالب النفس من أول الليل ويقتل ، فإذا غلبه النوم بنام ، فإذا انتبه يتوضأ فيكون له قمرتان ونومتان ، ويكون ذلك من أفضل ما يفعله ، ولا يصلى وعنده زم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يحفل ما يقول ، وقد ورد : لا تسكبوا الليل .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلاة تصلى من الليل ، فإذا غلبها النوم تملكت بجمل ، فنبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ليس أحدكم من قليل ما تيسر ، فإذا غلبه النوم فليتم ، وقال عليه السلام : لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يقلبه ، ولا يعضن إلى نفسه كعبادة الله .

ولا يلبق بالطالب ولا يبنى له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا أن يكون قد سبق له في الليل قيام طويل فيعذر في ذلك ، على أنه إذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام الليل سبق في الليل يكون أفضل من قيام طويل ، ثم التزم إلى بعد طلوع الفجر ، فإذا استيقظ قبل الفجر بكثر الاستغفار والتسبيح ويستتم تلك الساعة ، وكما يصلى بالليل مجلس قليلا بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ويصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجد بذلك ترويحاً وقوة على القيام . وقد كان بعض الصالحين يقول : هي أول نومة ، فإن انتهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أله الله عني . وحكى لي بعض الفقهاء عن شيخ له أنه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل ، وأكلة واحدة اليوم واليلة .

وقد جاء في الخبر : نعم من الليل ولو قدر حلب شاة ، وقيل : يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين . وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ تَوَتَّى لَكَ مِنْ تَشَاءِ وَتَزَعِ لَكَ مِنْ تَشَاءِ ﴾ هو قيام الليل ومن حرم قيام الليل كسلا وفقرنا في العزيمة أوتواونا به لفلة الاعتدال بذلك أو اغترار بحاله ، فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير ، وقد يكون من أرباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب ويجد من دعة القرب بما يغتر عليه داعية الشوق ويرى أن القيام وقوف في مقام الشوق ، وهذا يلفظ فيه ويهيك به خلق من المذنبين ، والذى له ذلك يبنى أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر ، والإنسان معرض للتقصير والتخلف والشبهة ، والحالة أجل من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما استغنى عن قيام الليل ، قام حتى تورمت قدماه . وقد يقول بعض من يحتاج في ذلك : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك قسراً ، فنقول : ما بالنا لا نتبع تشريعه ، وهذه دقيقة ، فنعلم أن رغبة الفضيلة في ترك القيام وادعاء الإيواء إلى جناب القرب واستواء النوم واليقظة : امتلاء وابتلاء حال ، وهو عقيد بالخال وتحكيم للحال وتحكم من الحال في البد ، والأفواء لا يتحكم فيهم الحال ويصرفون الحال في صور الأعمال ، فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيهم ، فليعلم ذلك فإننا رأينا من الأصحاب من كان في ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى أن ذلك وقوف وقصور .

قيل للحسن : يا أبا سعيد إني أبيت معاف وأحب قيام الليل وأعد طهوري ، فما بالي لأقوم ؟ قال : ذنوبك قيدتك ، فليحذر العبد في نهاره ذنوباً تعيده في ليله .

وقال الثوري رحمه الله : حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنوب أذنبت ، فقيل له : ما كان الذنب ؟ قال : رأيت

رجلا بكاء ؛ فقلت في نفسي : هذا مرأى .

وقال بعضهم : دخلت على كرز بن مرة وهو يبكي ، فقلت : ما بالك أتاك لنى بعض أمك ؟ فقال : أشد فقلت : وجع يؤلمك ؟ قال : أشد . فقلت : وما ذاك ؟ قال : أبى منلق وسرى مسبل ولم أقرأ حزى البارحة وما ذاك إلا يذنب أحدثته .

وقال بعضهم : الاحتلام عقوبة ، وهذا صحيح ، لأن المراضى المتخلف بحسن تحفظه ومله بحاله ؛ يقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام ، ولا يتطرق الاحتلام إلا على جاهل بحاله أو مهمل حكمه وأدب حاله . ومن كل تحفظه ورعايته وقيامه بأدب حاله قد يكون من ذنبه للوجب للاحتلام : وضع الرأس على الوسادة إذا كان ذا عزبة في ترك الوسادة وقد يتمهد للنوم . ووضع الرأس على الوسادة بحسن التية بمن لا يكون ذلك ذنبه وله فيه نية اللون على القيام ، وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة إلى بعض الناس ، فإذا كان هذا التقدر يصلح أن يكون ذنبا جاليا للاحتلام فليس على هذا ذنوب الأحوال فلها تخصص بأربابها ويعرفها أصحابها ، وقد يرتفق بأنواع الرفق من الفراش الوطنى والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام وغيره على فعله إذا كان عالما بذانية يعرف مداخل الأمور وعوارجها . وكمن نائم يسبق القائم لو فور عليه وحسن نيته ، وفي الخبر : إذا نام العبد عند الشيطان على رأسه ثلاث عقد ، فإن قد وذكر الله تعالى انحلت عقدة وإن توحا انحلت عقدة أخرى ، وإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها فأصبح شيطنا طيب النفس ، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس .

وفي خبر آخر : إن من نام حتى يصبح بال الشيطان في أذنه ، والذي يخل بقيام الليل : كثرة الاهتمام بأمر الدنيا ، وكثرة أشغال الدنيا ، وإلغاب الجوارح ، والامتلاء من الطعام ، وكثرة الحديث ، والغفلة ، وإعمال القيلولة . والموفق من يبتنى وقته ويعرف حاه ودواؤه ولا يهمل فيهمل .

الباب التاسع والاربعون : في استقبال النهار والادب فيه والعمل

قال الله تعالى (وأقم الصلاة طرفي النهار) أجمع المفسرون على أن أحد الطرفين أرادة الفجر وأمر به الصلاة الفجر . واختلفوا في الطرف الآخر ، قال قوم : أرادة المغرب . وقال آخرون : صلاة العشاء . وقال قوم : صلاة العجر والظهور طرف . وصلاة العصر والمغرب طرف (وزلفا من الليل) صلاة العشاء ، ثم إن الله تعالى أخبر عن عظام بركة الصلاة وشرف قائمتها وبميرتها وقال (إن الحسنات يذهبن السيئات) أى الصلوات الحسن يذهبن الخطيئات . وروى أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري كان يبيع الفخر ، فأنت امرأة تبتاع فخرا ، فقال لها : إن هذا الفخر ليس بمجد ، وفي البيت أجود منه ، فهل لك فيه رغبة ؟ قالت : نعم ، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له : اتق الله ، فتركها وتندم ، ثم أتى النبي عليه السلام وقال : يا رسول الله ، ما تقول في رجل ، أورد امرأة عن نفسها ولم يقم شيء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركبها غير أنه لم يجمعهما ؟ قال عمر بن الخطاب : لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ؟ ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيئا وقال : أنتظر أمروني ، وحضرت صلاة العصر وصلى النبي عليه الصلاة والسلام العصر ، فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : وأين أبو اليسر ؟ فقال لها أنا يا رسول الله . قال : شهدت معنا هذه الصلاة ؟ قال : نعم . قال واذبح فيها كفارة لما عملت ، فقال عمر : يا رسول الله هذه خاصة أو لنا عامة ؟ فقال : بل للناس عامة ، فيستمد العبد لعلة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر ، ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا في أول الليل ، ثم يؤذن إن لم يكن أجناب المؤذن ، ثم يصلي ركعتي الفجر : يقرأ في الأولى بعد الفاتحة (قل يا أيها الكافرون) وفي الثانية (قل هو الله أحد) وإن أراد قرأ في الأولى (قلوا أنبأنا به وما أنزل . . الآية) في سورة البقرة . وفي الأخرى (ربنا أنبأ بما أنزلت واتبعنا الرسول . .) ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما يتيسر له من العدد ، وإن اقتصر على كلمة : استغفر الله لتنتهي ، سبحان الله بحمده ربى : أى بالمقصود من التسبيح

والاستغفار . ثم يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شمل وتلم بها شعثي وترد بها الفتن عنى وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائي وترفع بها شهادتي وتركب بها غيبي وتبيض بها وجهي وتلقني بها رشدی وتقصي بها من كل سوء اللهم أعطني إيماناً صادقاً وبقيناً ليس بعده كفر ، ورحمةً نال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء ، اللهم إني أنزل بك حاجتي وإن قصر رأيي وضعف علمي وأفقرت إلى رحمتك ، وأسألك يا قاضي الأمور وباشي الصدور ، كأن تجير بين البجور - أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور ، اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف فيه علمي ولم تبلغه نيتي وأمنتني - من خير وعدته أحداً من عبادك أو خير أنت عليه أحداً من خلقك - فأنا راغب إليك فيه وأسألك إياه يا رب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهدين غير ضالين ولا مضلين ، حرباً لأعدائك وسليماً لأوليائك ، نحب بحبك الناس ونمادى بمدونتك من عافاك من خلقك . اللهم هذا الدعاء من ومنك الإجابة ، وهذا الحمد وعليك التكلان ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ذي الجلال والإكرام والشهد ، أسألك الأمان يوم الغيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين والشهود والركع السجود والمؤمنين بالهدى ، إنك رحيم ودود ، وأنت تفعل ما تريد ، سبحان من تعطف بالبر وقال به ، سبحان من ليس الحميد وتكبر به ، سبحان الذي لا يبغي التسبيح إلا له ، سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي الجود الكريم ، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه ، اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في قبري ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شمعي ، ونوراً في بشري ، ونوراً في فلي ونوراً في دمي ، ونوراً في عظامي ونوراً من بين يدي ، ونوراً من خلفي ، ونوراً من يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوق ، ونوراً من تحتي . اللهم زدني نوراً وأعطني نوراً ، واجعل لي نوراً . ولهذا الدعاء أثر كبير . وما رأيت أحداً حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة ، وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضاً يحفظه والمحافظة عليه ، متقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرؤهم بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ، ثم يقصد المسجد للصلاة في الجماعة ويقول عند خروجه من منزله ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ ويقول في الطريق : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق منشاى هذا إليك فإني أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء خطيئتك وإبتناء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار وأن تنفخ لي ذنوبي إنه لا ينفخ الذنوب إلا أنت ، وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضى صلاته .

وإذا دخل المسجد أو أدخل محبته الصلاة يقول : بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ، ويقدم رجله اليمنى في الدخول ويسرى في الخروج من المسجد أو السجادة ، فسجادة الصوف بمنزلة البيت والمسجد ، ثم يصلي صلاة الصبح في جماعة : فإذا سلم يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده صدق وعده ولا يضره عبده وأعرض عبده وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن ، لا إله إلا الله ولا تميد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، ويقول : هو الله الذي لا اله إلا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسماً إلى آخرها ، فإذا فرغ منها يقول : اللهم صل على محمد عبدك ونيبك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد صلاة تكون له رضاء ولحقة أداء ، وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذي وعدته ، واجزه عنا ما هو أمله ، واجزه عنا أفضل ما جازيت نبياً عن أمته ، وصل على جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . اللهم صل على محمد في الأولين ، وصل على محمد في الآخرين ، وصل على محمد في يوم الدين ، اللهم صل على روح محمد في الأرواح ، وصل على جسد محمد في الأجساد ، واجعل شرائف صلواتك ونوايا بركانك ورافقتك

ورحمتك وتحننك ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك ، اللهم أنت السلام ومنك السلام واليك يعود السلام
لحيننا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام . اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره
ولا أمالك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت حزيننا بعمل ، فلا تقهر أقر مني ، اللهم لا تشمت بي
عدوي ولا تسيء لي صديقي ، ولا تجعل مصيبتني في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ، ولا تسلط علي من لا يحسنني ،
اللهم هذا خلق جديد فافتحه علي بطاعتك واخته لي بمغفرتك ورضوانك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها
وضعتها ، وما علمت فيه من سيئة فاغفر لي ذلك غفور رحيم ودود ، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله
عليه وسلم نبياً ، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه ، وأعوذ بك من شر
طوارق الليل والنهار ومن بقتات الأمور ونجاة الأقدار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاتاً يطرق منك بخير
يارحمنا الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وأعوذ بك أن أزل أو أزل أو أضل أو أضل أو أضل أو أضل أو أضل أو أضل
علي ، عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماءك وعظمت نعماتك ، أعوذ بك من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها
وما ينزل من السماء وما يمرج فيها ، أعوذ بك من حدة الحر من شدته الطمع وسورة الغضب وسنة الغفلة وتماطلي
الكلفة ، اللهم إني أعوذ بك من مباحاة للكافرين ، والإضرار على اللعين ، وأن أضل ظالمًا أو أضل مظلوماً ، وأن
أقول في العلم بغير علم ، أو أعمل في الدين بغير يقين ، أعوذ بك أن أشرك بك وأأعلم وأستغفرك لما لا أعلم ، أعوذ
بغفوك من عقابك وأعوذ برضائك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم
أنت رب لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وابن عبدك وأنا على عبدك وعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر
ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي ، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت اللهم اجعل أول يومنا هذا
صلاحاً وآخره نجاحاً وأوسطه فلاحاً ، اللهم اجعل أول فرجة وأوسطه نعمة وآخره تركة ، أصبنا وأصبح الملك لله
والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيها لله الواحد القهار ، أصبنا على فطرة
الإسلام وكله الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أئمتنا إبراهيم حنيفاً مسلمواً كان من المشركين ،
اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الخالق المحدث المبدع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام ، أنت الأحد
الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، يا حي يا قيوم ، يا حي حين لا حي في ديمرمة ملكه وقبائه ، يا حي
عبي للوقى ، يا حي يميت الأحياء ووارث الأراض السياء ، اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله
لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الأجل الأغر الأكرم الذي إذا
دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت ، يا نور النور يا مدير الأمور يا عالم ما في الصدور ، يا سميع يا قريب يا مجيب الدعاء
يا لطيفاً لما يشاء ، بارهوف يا رحيم يا كبير يا عظيم بالله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام ، الهاء لا إله إلا هو الحي القيوم
وعنت الوجوه يا حي القيوم ، يا حي وله كل شيء وإله واحد لا إله إلا أنت ، اللهم إني أسألك باسمك بالله بالله بالله
الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، فتعال الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم أنت الأول والآخر
والظاهر والباطن وسعت كل شيء ورحمة وعلم ، كهيمص حم عسق الرحمن إن يا واحد يا قهار يا عزيز يا جبار ، يا أحد
يا صمد يا ودود يا غفور ، وهو الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، لا إله إلا أنت سبحانك
إني كنت من الظالمين ، اللهم إني أعوذ باسمك المكنون المغزون المنزل السلام المطهر الطاهر القدوس المقدس ، يا دهر
يا دهور يا دجهار يا دبدب يا زول يا بزل يا بزل يا بزل يا بزل يا بزل يا بزل يا بزل يا بزل يا بزل يا بزل يا بزل يا بزل
لا يعلم ما هو إلا هو ، يا كان يا كين يا روح يا كائن قبل كل كون ، يا كائن بعد كل كون ، يا مكنون لكل كون ، آمين
شراهما أدنأى أسبوت ، يا مجلي عظام الأمور (فإن تولوا قتل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش
العظيم) (ليس كنه شيء وهو أسمى البصير) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل
إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حديد مجيد ، اللهم إني أعوذ بك من

علم لا يتبع وقاب لا يتبع ودعاه لا يسمع ، اللهم إني أعوذ بك من فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة الحيا والميت ، اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت وشر ما لم أعلم ، وأعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلي ؛ اللهم إني أعوذ بك من القسوة والفغلة والذل والمسكة ، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والتفارق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمة والوباء ، وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسائر الأقسام ، اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتي ومن تحوّل عقابتي ومن جأفة نعمتي ومن جميع بختي ، اللهم إني أسألك الصلاة على محمد وعلى آل محمد وأسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك عمالك عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأستعيذك بمواسمك منته عبادك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عقابته شدة رحمتك بأرحم الراحمين ، يا حي يا قيوم رحمتك أستغني لا تكلي أن نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله يا نور السموات والأرض يا باهل السموات والأرض ، يا ماحد السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، يا صرّخ لتستصرخين ، يا غوث المستغيثين ، يا منتهى رغبة الراغبين والفرج عن المكر وبين المروغ عن المغموين ومجيب دعوة المضطرين وكائنات السوء وأرحم الراحمين وإله العالمين ، مغرور بك كل حاجة يا أرحم الراحمين ، اللهم استر عورائي وآمن روعائي وأقلى عثراتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي . اللهم إني ضيف فقو في رضاك ضعف ، وغد إلى الخير بناصتي ، واجعل الإسلام منتهى رضائي ، اللهم إني ضيف فقو ، اللهم إني ذليل فأعزني ، اللهم إني فقير فأغني رحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتي فأقبل مذنبي ، وتعلم حاجتي فأعطني - ولى ، وتعلم ما في نفسي فأغفر لي ذنوبي ، اللهم إني أسألك إيماناً بياسر قلبي ، وبتقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتب لي ، والرضا بما قسمت لي يا ذا الجلال والإكرام .

اللهم باهـدئ المضلين وبأرحم المذنبين ومغـيـل عـشـرة العارين ، أرحم عبـدك ذا الخطـر العظيم والمـسـلين كلهم ، آمين ،
واجـدنا مع الأحياء المـزـوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدـيقين والشهداء والأصـالحين ، آمين يا رب العالمين ،
اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات ، تلقى الروح بأمرك على من نشاء من عبـادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب
ذا الطول لا إله إلا أنت الوكيل وإليك المصير ، يامن لا يشفع شأنه عن شأن ولا يشفعه سمع عن سمع ، ولا تشبه عليه
الأصوات ، وبامن لا تلهو السائل ولا تختلـف عليه الأنـاث ، ويامن لا يزيـم بإلحاح المـجـتـنـب . أخفى برء عفوكم وحلاوة
رحمتك ؛ اللهم إني أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعـلا متقبلا . أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم ،
وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ، ولعينا لا ينفد ، وقرة عين الأبد ،
ومرافقة نبيك محمد ، وأسألك حبك وحب من أحبك ، وحب عمل يقرب إلى حبك . اللهم بملكك الغيب وقدرتك
على خلقك ، أحيى ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفى ما كانت الوفاة خيرا لي ، أسألك خشتينك في الغيب والشهادة ،
وكفة العدل في الرضا والغضب ، والقصد في التقى والفقر ، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ، وأعوذ بك من
فراق مضره وفقته مذلته . اللهم أقسم لي من حيثنك ما تعول به بيني وبين مصيبتك ، ومن طاعتك ما يدخلي جنتك ،
ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا . اللهم أرزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الموعد حتى نجد لذة
ما نطلب وخوف ما منه نهرب ، اللهم ألبس وجوهنا منك الحياة وأملأ قلوبنا بك فرحا ، وأسكن في نفوسنا من
عظمتك هبة ، وذلل جوارحنا لحديثك ، واجعلك أحب إلينا مساوك ؛ واجعلنا أخشى لك من سواك ، نسألك تمام
النعمة بتمام التوبة ، ودوام العافية بدوام العصمة ، وأداء الشكر بحسن العيادة ، اللهم إني أسألك بركة الحياة وخير
الحياة ، وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة . وأسألك خيرا ما بينهما ، أحيى حياة السعداء ؛ حياة من تحب بقائه .
وتوفى وفاة الشهداء ؛ وفاة من تحب لقاءه ، يا خير الرازيين وأحسن التوابين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين

ورب العالمين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأرحم ماخلقت، واغفر ما قدرت وعليت ما رزقت وتبهم ما ألعمت وتقبل ما استعملت واحفظ ما استحفظت ولا تملك ما سترت فيه إلا لاله إلا أن لا، أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك من كل راحة بغير خدمتك ومن سرور بغير قربك، ومن كل فرح بغير عائلتك ومن كل شغل بغير معاملتك اللهم إلى أستغفرك من كل ذنب تبث إليك منه ثم عدت فيه، اللهم إلى أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به، اللهم إلى أستغفرك من كل نعمة ألعمت بها على قوتيوت بها على معصيتك، اللهم إلى أستغفرك من كل عمل عملته لك غفلة ما ليس لك، اللهم إلى أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفراجه وخواتمه، وأعوذ بك من جوامع الشر وفراجه وخواتمه، اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما هيئنا واحفظنا ما أجبنا، يا حافظ الحافظين، وبأذاكر الناكرين، وبأشكر الشاكرين، بذكرك ذكرنا، وبفضلك شكرنا، بإيغاث إيغاث، بامسئغاث إيغاث المستغيثين، لا تخلى إلى نفسى طرفة عين فأهلك، ولا إلى أحد من خلقك فاضع، إلا كلاني كلاله الوليد، ولا تخلى عني، وتولي بما تتولى به عبادك الصالحين، أنا عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك، جاري حركك، عدلي قضائك، نافذ في مشيتك؛ إن تعذب فأهل ذلك أما، وإن ترحم فأهل ذلك أنت، فأغفر اللهم يا مولاي يا الله يارب ما أنت له أهل ولا تغفر اللهم يارب يا الله ما أله أهل، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة؛ يا من لا تضل الذنوب ولا تنقص المغفرة، هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك، ياربنا أرزق علينا صبرا وتوقا مسلمين ترفي مسلما والحق بالصالحين، أنت ولينا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبأنا وإليك المصير ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا والصبرنا على القوم الكافرين، ربنا آتنا من لذكرك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا، ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارزقنا المؤمن على الطاعة، والعصمة من المعصية، وإفراغ الصبر في الخدمة، وإبذاع الشكر في النعمة، وأسألك حسن الخاتمة، وأسألك البقين وحسن المعرفة بك، وأسألك النجاة وحسن التوكل عليك، وأسألك الرضا وحسن التقبلك، وأسألك حسن المغفلك إليك، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمه محمد، اللهم أرحم أمه محمد، والله فرج عن أمه محمد فرجا جلا، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم، اللهم اغفر لي ولوالدي ولوالدي ولوالدي وأرحمهم كما ربياني صغيرا، واغفر لأهملنا رعاتنا، وأخواننا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات يا أرحم الراحمين يا خير الناسين .

ولما كان الدعاء من العبادة أحببنا أن نسوق من ذلك قصبا صالحا نرجو ركنه، وهذه الأدعية استخرجها الشيخ أبو طالب المسكي رحمة الله في كتابه، قوت القلوب، وعلى نقله كل الاعتقاد وفيه البركة، فليدع هذه الدعوت منفردا أو في الجماعة، إماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء .

الباب الخمسون : في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذي صلى فيه الفجر مستقبل القبلة ، إلا أن يرى انتقاله إلى روايته أسلم لديه ثلاثا يحتاج إلى حديث أو الثقات إلى شيء ؛ فإن السكون في هذا الوقت وترك السلامه أثر ظاهر بين جمده أهل الماملة وأرباب القلوب . وقد نذب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى الفواحي ، والآيتين : وللهم إله واحد ، وآية الكرسي والآيتين بعدها ، وأمن الرسول والآية قبلها ، وشهد الله ، وقال اللهم مالك الملك ، وإن ربك الله الذي خلق السموات والأرض - إلى - المحسنين ، ولقد جاءكم رسول إلى الآخر ، وقل ادعوا الله الآيتين ، وآخر الكهف من : إن الذين آمنوا . الخ وذا التوراة إذ ذهب مغاضبا - إلى - خير الوارئين فبجان الله حين تمسون وحين تصبحون وسبحان ربك إلى آخر السورة ، ولقد صدق الله ، وأول سورة الحديد - إلى - بذات الصدور ، وآخر سورة الحشر من (أولنا) ، ثم يسبح ثلاثا ثلاثين ، وهكذا يحمد مثله ، ويكر مثله ؛ رتبها

مائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فإذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظاً أو من المصنف ، أو يشتغل بأنواع الأذكار ، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس ، فإن التوم في هذا الوقت مكره وجداً ، فإن غلبه التوم فليقم في مصلاه قائماً مستقبل القبلة ، فإن لم يذهب التوم بالقيام يخط خطوات نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ، ولا يستدبر القبلة ، ففي إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والتوم ودوام الذكر في هذا الوقت : تركيز وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصي به الطالبين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر ، وهذا الوقت أول النهار - والنهار مظنة الأوقات - فإذا أحكم أمره بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه وتيقن أوقات النهار جميعاً على هذا البناء ؛ فإذا قرب طلوع الشمس يبتدئ بقراءة المسبحات العشر وهي من تعلم الحضر عليه السلام عليها إبراهيم التيمي وذكر أنه تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينال بالمداومة عليها جميع المتفرق في الأذكار والدعوات ، وهي عشرة أشياء : سبعة سبعة : الفاتحة ، والمعوذتان ، وقل هو الله أحد ، وقل يا أيها الكافرون ، وآية الكرسي ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، والصلاة على النبي وآله ، ويستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين وللمؤمنات ، ويقول سبأاً : اللهم افعل بعبادك ما تحب وأجلا للدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ، ولا تفعل بنا ما نأمن له أهل إنك غفور حلیم جواد كريم رؤوف رحيم .

وروى أن إبراهيم التيمي لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الحضر رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة . وقيل : إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم . وقيل : لمه كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة ، فإذا فرغ من المسبحات أقبل على التيسيع والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قد زرع روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لأن أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة العداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعشق أربع رقاب ، ثم يصلي ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه ، فقد نفل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي الركعتين ، وبهاتين الركعتين تبتين فائدة رعاية هذا الوقت ، وإذا صلى الركعتين يجمع ثم وحضور فهم وحسن تدر لما يقرأ بجد في باطنه أراً ونورا وروحاً وأناً إذا كان صادقاً ، والذي يجهل من البركة ثواب ممجول له على عمله هذا ، في الأولى آية الكرسي ، وفي الأخرى آمين الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية ، وتكون نيته فيها الشكر لله على نعمه في يومه وليلته ، ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيها في كل ركعة سورة ، وتكون صلواته هذه ليستعبد بالله تعالى من شر يومه وليلته ، ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول : أعوذ بملكك وكلتك التامة من شر السامة والحامة ، وأعوذ بملكك وكلتك التامة من شر عذابك وشر عبادك ، وأعوذ بملكك وكلتك التامة من شر ما يجري به الليل والنهار إن رب الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ويقول بعد الركعتين الأوليين . اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أمالك نفع ما أرجو ، وأصبحت مرتها بمل وأصبح أمرى بيد غيري فلا فتير أفقر مئى ، اللهم لا تضمت في عدوى ولا تسقى في صديق ، ولا تجعل مصيبتى في ديني ، ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي ، ولا تسلط على من لا يرعنى ، اللهم إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ، ثم يصلي ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمل في يومه وليلته ، وهذه الاستخارة تكون بمعنى السماء على الإطلاق ؛ وإلا فلا استخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصلها أمام كل أمر يريد ، ويقرأ هاتين الركعتين (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ، ويقول فيه : كل قول وعمل أريد في هذا اليوم أجعل فيه الخيرة ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ في الأولى سورة الواقعة وفي الأخرى سورة الأعلى ، ويقول بدها : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعل جلك أحب الأشياء إلى وخشيتك أخوف الأشياء عندي ، واقطع عني حاجات الدنيا بالقوى إلى فانك ، وإذا أقرت أعين أهل الدنيا بدينام فأقر عيني بعبادتك ، واجعل طاعتك في كل شيء يا أرحم الراحمين ،

ثم يصلي بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيئاً من حزيه من القرآن ، ثم بعد ذلك إن كان متفرغاً ليس له شغل في الدنيا يتنقل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى ، وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لغيره عليه فليضع حاجته ومهامه بعد أن يصلي ركعتين خروجه من المنزل ؛ وهكذا ينبغي أن يفعل أبداً لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلي ركعتين ليقيه الله سوء الخرج ، ولا يدخل البيت إلا ويصلي ركعتين ليقيه الله سوء المدخل بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها ؛ وإن لم يكن في البيت أحد يسلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين للمؤمنين . وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله في هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة ؛ فإن كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر ، وإلا فليصل ركعات يطؤها ويقرأ فيها القرآن ؛ فقد كان من الصالحين من يحتم القرآن في الصلاة بين اليوم والليله ، وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقوله هو الله أحد وبآيات التي في القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبأنا وإليك المصير ﴾ وأمثال هذه الآية يقرأ في كل ركعة منها إما مرة أو بكرها مها شاء ، ويقدر للطلاب أن يصلي بين الصلوات ذكرناهما بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة ، وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم والليله مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ، ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فإياه يبطل ولا يتعم بخدمة الله تعالى قال سهل بن عبد الله التستري : لا يكل شغل قلب عبد بالله التكريم وله في الدنيا حاجة .

فإذا ارتفعت الشمس وتصفى الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتصرف العصر بين الظهر والمغرب يصلي الضحى ؛ فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلاة الضحى إذا مضت الفصال ، وهو أن ينام الفصيل فم ظل أمه عند حوز الشمس . وقيل الضحى إذا خضعت الأقدام بحمار الشمس ؛ وأقل صلاة الضحى ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ، ويجعل نفسه دعاء بعد كل ركعتين ، ويسبح ويستغفر ؛ ثم بعد ذلك إن كان هناك حق يقضي مما ندب إليه من زيارة أو عيادة بمعنى فيه ، ولا يقديم الصلوة لله تعالى من غير فتور إما ظاهراً أو باطناً قلباً وقالباً ، وإلا فباطناً وترتيب ذلك : أنه يصلي مادام مقشراً ونفسه حية ، فإن سئم بوزن من الصلاة إلى التلاوة ؛ فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة ، فإن سئم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة ، فإن سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلزم قلبه المراقبة ، والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى إليه فما دام هذا العلم ملازماً لقلبه فهو مراقب ، والمراقبة عين الذكر وأفضلها ؛ فإن عجز عن ذلك أيضاً وتلكته الساسوس وزاحم في باطنه حديث النفس فليتم في النوم طرد حديث النفس وبه يقوى القلب ككثرة الكلام لأنه كلام من غير لسان فيحتز عن ذلك . قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصي حديث النفس ، والطلاب يريد أن يعتبر بباطنه كما يعتبر بظاهره ، فإنه بحديث النفس وما يتخيل له من ذكر ماضى ورأى وسمع كخص آخر في باطنه ، فيشيد الباطن بالمراقبة والوعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ، ويمكن للطلاب المجتهد أن يصلي من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى ، وأقل من ذلك عشرون ركعة يصلها خفيفة ، أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر .

والتوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال سفيان : كان يمجهم إذا فرغاً أن يناموا طلباً للسلامة ، وهذا التوم فيه فوائد : منها أنه يعين على قيام الليل ، ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب بلبية النهار والعمل فيه ، والنفس إذا استراحت عادت جديدة ، فبعد الانقباض من نوم النهار يتجدد الباطن نشاطاً آخر وشغفاً آخر كما كان في أول النهار ، فيكون الصادق في النهار تبارك ان يشتمها : بخدمة الله تعالى ، والهدوب في العمل . وينبغي أن يكون انقباضه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الضوء والطهارة قبل الاستواء ، بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذا كرا أو مسجاً أو تالياً : قال الله تعالى ﴿ وأتم الصلاة طرفي النهار ﴾ وقال ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ قيل : قبل طلوع الشمس : صلاة الصبح ، وقبل غروبها : صلاة العصر ﴿ ومن آناه الليل فسبح ﴾ أراد العشاء الأخيرة ﴿ وأطراف النهار ﴾ أراد

الظهر والمغرب ، لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار ، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب ، فصار الظهر آخر الطرف الأول ، والمغرب آخر الطرف الآخر ، فيستقبل الطرف الآخر بالقبلة والذكر كما استقبل الطرف الأول ، وقد عاد يوم النهار جديدا كما كان يوم الليل ، ويصلي في أول الزوال قبل السنة والفرص أربع ركعات بتسليم واحدة كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه صلاة الزوال قبل الظهر في أول أوقاتها ، ويحتاج أن يرعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفعل الوقت قبل المؤذن حين يذهب وقت الكراهية بالاستئراء ، فيشرع في صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة ، ثم يستعد لصلاة الظهر ، فإن وجد في بطنه كدرا من مخالطة أو جملة انفتحت يستنفر الله تعالى ويتضرع إليه ، ولا يشرع في صلاة الظهر ، إلا بعد أن يجد الباطن عائنا إلى حاله من الصفاء ، والذائقون حلالة المناجاة لا بد أن يجدوا صفو الألبس في الصلاة ، ويتكبدون بيسير من الاسترسال في المباح ، ويعير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر ، وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة والمخالسة مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة ، ولكن حسنت الأبرار سيئات المقربين ، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذهاب الكدر ، وحل العقد بصدق الإنابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى ودواء ما يحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولد : أن يكون في مجالسته غير راكن اللهم كل الركون ، بل يسترق القلب في ذلك فطرات إلى الله تعالى ، فتكون تلك النظرات كثرة لتلك المجالسة ، إلا أن يكون قوى الحال لا يحجبه الخلق عن الحق فلا ينعقد على بطنه عقدة ، فهو كما يدخل في الصلاة لا يجد ما يجد بطنه وقلبه ، لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة كان استرواح نفسه متفردا بروح قلبه ، لأنه مجالس وباطل وعين ظاهره ناظرة إلى الخلق وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية فلا ينعقد على بطنه عقدة ، وصلاة الزوال التي ذكرناها تحمل العقد وتبني الباطن لصلاة الظهر ، فيقرأ في صلاة الزوال بقدر سورة البقرة في النهار الطويل ، وفي القصير ما يتيسر من ذلك . قال الله تعالى : (وعدنا ونحن نظهرون) وهذا هو الإظهار ، فإن انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرد وقرأ الدعاء الذي بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر لحسن ، وكذلك ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دنا به إلى صلاة الفجر ، ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسي ويسبح ويمدح ويكبر ثلاثا وثلاثين مرة كإصغنا ، ولو قد فعل الآيات كلها التي ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضا كان ذلك خيرا كثيرا وفضلا عظيما .

ومن له همه ناهضة وعزيمة صادقة لا يستكثر شيئا لله تعالى ، ثم يحيي بين الظهر والعصر كما يحيي بين المشاءين على الترتيب الذي ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة ، ومن دام سهره ينام نومة خفيفة في النهار الطويل بين الظهر والعصر ، ولو أحيا بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيها ربع القرآن أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير ، وإن أراد أن يحيي هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك ، أو بششرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ، ويستاك قبل الزوال إن كان صائما ، وإن لم يكن صائما فأى وقت تغير فيه النعم ، وفي الحديث : السواك مطهرة للفم مرضاة للرب ، وعند الصيام إلى الفراض يستحب ، قيل : إن الصلاة بالسواك أفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا ، وقيل وخمسة ، وإن أراد أن يقرأ بين الصلوتين في صلاته عشرين ركعة في كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ في الركعة الأولى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار) ثم في الثانية (ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) ثم (ربنا لا تؤاخذنا ...) إل آخر السورة ، ثم (ربنا لا نرغ قلبنا ... الآية) ثم (ربنا إتنا سمعنا منا يداد الإيمان ... الآية) ثم (ربنا آتنا بما أزلت ...) ثم (أنت ولينا ما غفر لنا) ثم (فاطر السموات والأرض أنت ولي) ثم (ربنا إنا لك تعلم ما نخفي وما تعلمنا ... الآية) ثم (قل رب زدني علما) ثم (لا إله إلا أنت سبحانك) ثم (رب لا تدركني فردا) ثم (قل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ثم (ربنا هب لنا من أزواجنا) ثم (رب أدعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدعني برحمتك في عبادك الصالحين)

ثم (يعلم عائلة الأعيان وما تخفى الصدور) ثم (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ... الآية) من سورة الاحقاف، ثم (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .. الآية) ثم (ربنا عليك توكلنا) ثم (رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين وللمؤمنات ولا ترد الظالمين إلا جزاء) ثم (ربنا يصل فليقرأ هذه الآيات، وبالحفاظ على هذه الآيات في الصلاة مراعاة للقلب واللسان يوشك أن يرق إلى مقام الإحسان، ولورود فرد آية من هذه في ركعتين من الظهر أو العصر كان في جميع الوقت مناجيا لمولاه وداعيا ناليا ومصليا، والمردوب في العمل واستيعاب أجزاء النهار، بلذاذة وحلاوة من غير سآمة لا يوصح إلا بعد تركت نفسه بكامل التقوى والاستقصاء في الزهد في الدنيا وانتزع منه متابعة الهوى. ومتى بقي على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لا يدوم روحه في العمل، بل ينشط وقتا ويسأم وقتا، ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شيء من الهوى بنقصان تقوى أو عيبة دنيا وإذا صح في الزهد والتقوى، فإن ترك العمل بالجوارح لا يفتر عن العمل بالقلب، فمن دام دوام الروح واستحلاء الدروب في العمل فعليه بحسم مادة الهوى، والهوى روح النفس لا يزول ولكن تزول متابعته، والتي عليه السلام ما استماد من وجود الهوى، ولكن استماد من متابعته فقال «أعوذ بك من هوى متبع، ولم يستمد من وجود الشح فإنه طبيعة النفس، ولكن استماد من طاعته فقال «وشح مطاع» ودقائق متابعة الهوى تقيين على قدر صفاء القلب وعلو الحال، فقد يكون متبعا للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمهم أو النظر إليهم. وقد يتبع الهوى يتجاوز الاعتدال في التزم والأكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع، وهذا شغل من ليس له شغل إلا في الدنيا، ثم يصلي العبد قبل العصر أربع ركعات، فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكل ورائه، ولولا غفلة كان أفضل، فكل ذلك له أثر ظاهر في توير الباطن وتكبير الصلاة ويقرأ في الأربع قبل العصر: إذا زلزلت والباديات، وحافرة، والهاكم. ويصلي العصر ويجعل من قراءته في بعض الأيام: والسبأ ذات البروج. وصمت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أدن من الدمايل، ويقرأ بعد العصر ماذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك، فإذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقي وقت الأذكار والتلاوة، وأفضل من ذلك مجالسة من يرمده في الدنيا ويسدد كلامه عرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم المؤمنين، فإذا صح نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار، وإن عدمت هذه المجالسة وتعدرت فليتروح بالتنقل في أنواع الأذكار، وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه في أول النهار، ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء، وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر، وأجزاء المشايخ والصالحون، ويقول كلما خرج من منزله: بسم الله ماشاء الله، حسبي الله لا قوة إلا بالله، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتني، وليقرأ الفاتحة والمعوذتين، ولا بد أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو بمرة أو لقمة، فإن القليل بحسن التوبة كثير. وروى أن عائشة رضي الله عنها أعطت السائل عبة واحدة وقالت: إن فيها ثمانين ذر كثير. وجاء في الخبر «كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته، ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك، ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين، فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله، ويقول مائة مرة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومائة مرة: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله، ومائة مرة: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، ومائة مرة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، ومائة مرة: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة، ومائة مرة: ماشاء الله لا قوة إلا بالله. ورأيت بعض الفقهاء من المغرب

بمكة وله سبعة فيها ألف حبة في كيس له ، ذكر أن ورده أن يدبرها كل يوم اثنتي عشرة مرة بأنواع الذكر .
ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليرم واليلية . ونقل عن بعض التابعين . كان ورده من التسبيح
ثلاثين ألفا بين اليوم واليلية ، وليل مائة مرة بين اليوم واليلية هذا التسبيح : سبحان الله العلي الديان ، سبحان الله
شديد الأركان ، سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالهار ، سبحان من لا يشبهه شأن عن شأن ، سبحان الله الختان للثان ،
سبحان الله المسبح في كل مكان .

روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر ، فسمع في دمه الليل هذا التسبيح ، فقال : من الذي أسمع صوته ،
ولا أرى شخصه ؟ فقال : أنا ذلك من الملائكة موكل بهذا البحر ، أسمع الله تعالى بهذا التسبيح منذ خاتمت ؛ فقال :
ما سمعك ؟ فقال : مهلي يا ميل ؛ فقال : ما ثواب هذا التسبيح ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة
أو يرى له .

وروى أن عثمان رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى (لهم ما ليد السواوات والأرض)
فقال : سألتني عن شيء عظيم ما سألتني عنه غيرك ، هو : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة
إلا بالله عز وجل ، وأستغفر الله الأول . الآخر الظاهر الباطن ، له الملك وله الحمد ، ويدها خير وهو على كل شيء قدير .
من قالها عشرا حين يصبح وحين يمس أعطى ست خصال ؛ فأول خصلة : أن يحرس من إبليس وجنوده .
الثانية : أن يعطى قطارا من الأجر . الثالثة : يرفع له درجة في الجنة . الرابعة : يروجه الله من الحور العين .
الخامسة : اثنا عشر ملكا يستغفرون له . السادسة : يكون له من الأجر كمن حج واعتمر ، ويقول أيضا في هذا
الوقت في أول النهار : اللهم أنت خلقتني وأنت تطعمني وأنت تقيني وأنت تهيئني وأنت تهينني ، أنت رب
لارب سواك ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، ويقول : ماشاء الله لا قوة إلا بالله ، ماشاء الله كل نعمه من الله ،
ماشاء الله الخير كله بيد الله ، ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله ؛ ويقول : حسيب الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب
العرش العظيم .

ثم يستدل باستقبال الليل بالزحوة والطهارة ، وبقراءة المسببات قبل الغروب ، ويدم التسبيح والاستغفار ، بحيث
تغيب الشمس وهو في التسبيح والاستغفار ، وبقراءة الغروب أيضا : والشمس والليل والمموزتين ، ويستقبل الليل كما
استقبل النهار . قال الله تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) فكذا أن
الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل ؛ ينبغي أن يكون المبدئين الذكر والشكر يعقب أحدهما الآخر ، ولا يتخللها
شيء كما لا يتخلل بين الليل والنهار شيء ، والذكر جميعه أعمال القلب ، والشكر أعمال الجوارح . قال الله تعالى
(اعملوا آل داود شكرا) والله الموفق المعين .

الباب الحادي والخسون : في آداب المريدين مع الشيخ

أدب المريدين مع الشيخ عند الصوفية من مهام الآداب ؛ والقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم
وأصحابه ؛ وقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) .
روى عن عبد الله بن الزبير قال : قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني تميم ، فقال أبو بكر : أمر
القتضاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافا ؛ وقال عمر : ما أردت
خلافك ؛ فنهارا حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فأذن الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ... الآية) قال ابن عباس رضي الله عنهما
(لا تقدموا) لا تتكلموا بين يدي كلامه . وقال جابر : كان ناس يضحون قبل رسول الله ، فنهوا عن تقديم الأضيحة
على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : كان قوم يقولون : لو أنزل في كذا وكذا فكره الله ذلك . وقالت عائشة
رضي الله عنها : أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكلبي : لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون

هو الذي يأمرك به، وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمرأية الشيخ وأمره. وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة. وقيل (لا تقدموا) لانشوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى أبو الورداء قال: كنت أمشي أمام أبي بكر، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة». وقيل: «نزلتني أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلذا سأل الرسول عليه السلام عن شيء عاصوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى، فهو عن ذلك، وهكذا أدب المريد في مجلس الشيخ ينبغي أن يلزم السكوت ولا يقول شيئاً يحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة في ذلك، وشأن المريد في حضرة الشيخ كن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه، فتطعمه إلى الاستيعاب وما يورق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله، وتطعمه إلى القول برده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إجابات شيء لنفسه وذلك جنابة المريد.

وينبغي أن يكون تطعمه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ: على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال بالأسان في حضرة الشيخ بل يبادره بما يريد، لأن الشيخ يكون مستظلاً لطفه بالحق، وهو عند حضور الصادق يرفع قلبه إلى الله ويستطر ويستدق لهم، فيكون لسانه وقلبه في القول والتعلق مأخوذين إلى مهم الوقت فمن أحوال الطالب المحتاجين إلى ما يفتح به عليه: لأن الشيخ يعلم تطعم الطالب إلى قوله واعتداده بقوله، والقول كاليد فيقع في الأرض؛ فإذا كان اليد فاسداً لا ينبت، وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها؛ فالشيخ يقي بدر الكلام عن شوب الهوى، ويسلمه إلى الله، ويسأل الله للمعونة والهدى، ثم يقول، فيكون كلامه بالحق من الحق للحق، فالشيخ للبريد أمين الإلهام، كما أن جبريل أمين الوحي، فبما لا يخفى جبريل في الوحي لا يخفى الشيخ في الإلهام، وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى فالشيخ مقتدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر وأباطن، لا يتكلم بهوى النفس. وهوى النفس في القول بشيئين: أحدهما طلب استجلاء القلوب وصرف الوجوه إليه، ومما هذا من شأن الشيوخ. والثاني: ظهور النفس باستجلاء الكلام والمعجب، وذلك خيانة عند المحققين والشيخ فيما يجري على لسانه راقد النفس تشغله مطالعة نعم الحق في ذلك فأفاد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستجلاء والمعجب، فيكون الشيخ لما يجريه الحق سبيحاته وتعالى عليه مستمعاً كأحد المستمعين، وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلقي إليه، وكان يقول: أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم، فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال: إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كستمع لا يعلم حتى يسمع منه؟ فرجع إلى منزله فرأى ليلته في المنام. كان قائلاً يقول له: أليس القواص يفرص في البحر لطلب السم. ويجمع الصدق في غلاته، والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر، ويشارك في رؤية الدر من هو على الساحل، ففهم بالتمام إشارة الشيخ في ذلك.

فاحسن أدب المريد من الشيخ السكوت والحدود والجود حتى يبادره الشيخ بماله فيه من الصلاح قولاً وفعلًا. وقيل أيضاً في قوله تعالى (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله): لا تطعوا منزلة واد منزله، وهذا من محاسن الآداب وأمرها.

وينبغي للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ، بل يحب للشيخ كل منزلة عالية، ويتشبه للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب، وهذا يظهر جوهر المريد في حسن الإدارة، وهذا يمر في المريد: فأرادته للشيخ تطعمه فوق ما يمتنى لنفسه ويكون قائماً بأدب الإدارة. قال السري رحمه الله: حسن الأدب ترجمان العقل. وقال أبو عبد الله بن حنيفة: قال لي روم: يا بني اجعل عملك ملجأ وأدبك دقيقاً، وقيل: التصوف كله أدب؛ لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب، فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث

يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول . ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه قر وكان جمهوري الصوت ، فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته ، وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته ؛ فأمر الله تعالى الآية تأديبا له ولغيره .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الحروري ، قال أخبرنا أبو نصر التراقي قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا محمد بن المثنى ، قال حدثنا مؤمل بن إسحاق ، قال حدثنا نافع بن عمر بن جميل الجعفي ، قال حدثني حاسب بن أبي مليكة ، قال حدثني عبد الله ابن الزبير أن الأفرع بن حابس قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : استعمله على قومه ، فقال عمر : تستعمله يا رسول الله فتكلمنا عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى علت أصواتنا ؛ فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافا ، وقال عمر : ما أردت خلافا ؛ فأمر الله تعالى الآية ، فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لا يسمع كلامه حتى يستفهم .

وقيل : لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا كأخ السرا ؛ فهكذا ينبغي أن يكون المريد مع الشيخ . لا يبطئ برفع الصوت وكثرة الضحكة وكثرة الكلام إلا إذا بطله الشيخ ؛ فرفع الصوت تحية جليل الوفاق ؛ والوقار إذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول ، وقد ينزل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع المريد أن يشبع النظر إلى الشيخ . وقد كنت أحرم فيدخل على عبي وشيخي أبو التحيب المهرودي رحمه الله فيترشح جدي عرفا - وكنت أغني العرق لتخف الحى - فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ على ، ويكون في قدمه بركة وشفاء . وكنت ذات يوم في البيت غالبا وهناك متدبيل ومبه لي الشيخ وكان يتمم به ، فوقع قدمي على المنديل اتفاقا ، فألم باطن من ذلك وهالني الوطء بالقدم على منديل الشيخ ، وانبتت من باطني من الاحترام ما أرحر بركنه .

قال ابن عطاء في قوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم) زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحدا له ما فاقه من ترك الحرمة . وقال سبل في ذلك : لا تخاطبوه إلا مستفهمين . وقال أبو بكر بن طاهر : لا تبهوه بالخطاب ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة (ولا تنهروا له بالقول بكسر بعضكم لبعض) أي لا تفتظوا له في الخطاب ولا تادوه باسمه ؛ يا محمد ، يا أحمد ، كما ينادي بعضكم بعضا ، ولكن غفوه واحترموه وقولوا له : يائي الله يا رسول الله .

ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ ، وإذا سكن الوفاق القلب علم اللسان كيفية الخطاب . ولما كلفت النفوس بمحبة الأولاد والأزواج وتمسكت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهي تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها ؛ فإذا امتلأ القلب حرمة ووقارا تعلم اللسان البارة .

وروي : لما نزلت هذه الآية قد ثابت بن قيس في الطريق يبيك ، فربه عاصم بن عدي فقال : ما يبكيك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية تخوفت أن تكون نزلت في (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وأنا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أعاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار ، فعفى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتاً بالبكاء فأق أمراً به حيلة بذت عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال لها : إذا دخلت بيت فرسى فسدى على الضية بمحار فغضرتي بمحار حتى إذا خرجت عطفه وقال : لا أخرج حتى يتوفاني الله أوبرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتى عاصم النبي وأخبره بغيره قال : أذهب فادعه ، فجا عاصم إلى المكان الذي فيه رآه فلم يجده ، فجا إلى أهله فوجده في بيت الفرس ، فقال له : إن رسول الله يدعوك ؛ فقال : اكسر الضية ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا ثابت ؟ فقال : أنا صليت وأعاف أن تكون هذه الآية نزلت في فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما رضى أن تعيش سعيداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؛ فقال : قد نيت

ببشرى الله تعالى وربه له ولا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ، فأول الله تعالى ﴿ إن الذين يفتنون أصواتهم عند رسول الله ... ﴾ قال أنس : كنا نترقب إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا ؛ فلما كان يوم النجاة في حرب مسيلة رأى ثابت من المسلمين بعض الانتكاس وانهمزت طائفة منهم ؛ فقال : أف هؤلاء وما يصنعون ، ثم قال ثابت لسلام ابن حذيفة : ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ، ثم لبثنا ولم ير إلا قاتلان حتى قتلوا واستشهد ثابت كما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه درع ؛ فرآه رجل من الصحابة يدمونه في المنام فقال له : اعلم أن فلانا ورجل من المسلمين نزع درعي فذهب بها وهو في ناحية من المعسكر وعنده فرس يستن في طيله وقد وضع على درعي برمة ، فأتى عماله بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعي ، وأتت أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له : إن على ديننا حتى يقضى عني ، وفلان من عبيدي عتيق ، فأخبر الرجل عماله أفوجد الدرع والفرس على ما وصفه ، فاسترد الدرع ، وأخبر عماله أبا بكر بذلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته . قال مالك بن أنس رضي الله عنهما : لأعظم وصية أجيأت بعد موت صاحبها إلا هذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلم يتبر المرید الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله ، وأن الذي يعتمد مع الشيخ عرض مالوكان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام القوم واجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أي اختبر قلوبهم وأخلصها كما يتحتم للذهب بالنار فيخرج خالصه ، وكما أنا السانتر بجان القلب وتذبذب اللفظ لتأديب القلب ، فكذلك ينبغي أن يكون المرید مع الشيخ . قال أبو عثمان : الأدب عند الأكابر وفي مجالسة السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى والخير في الأولي والعقبى ، ألا ترى إلى قول الله تعالى ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ﴾ وما عليهم الله تعالى قوله سبحانه ﴿ إن الذين يتنادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ وكان هذا الحال من وفد بني تميم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوا : يا محمد ، اخرج إلينا فإن مدحتنا زين وذهننا شين ، قال : فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم مخرج إليهم وهو يقول ﴿ إنما ذلكم الله الذي ذمه شين ومدحتنا زين ، في قصة طويلة ، وكذا أتراها شاعروهم وخطيبهم ، فملهم حسان بن ثابت وشبان المهاجرين والانصار بالخطبة .

وفي هذا تأديب للريدني الدخول على الشيخ والإقدام عليه وترك الاستعجال وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته .

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير أو غير فقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع إلى خلوته ، وإذا جاء أحد من ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه ، فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير ، فأتته ما خطر للفقير إلى الشيخ ، فقال : الفقير رابططاً معه رابطة قوية وهو أهل وليس عنده أجنبية فنيكتني معه بموافقة القلوب يرتفع بها عن ملاقة الظاهر بهذا القدر ، وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر ، فني لم يوف بوجه من الظاهر استوحش ، فحق المرید عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ .

قيل لأبي منصور المغربي : كم صحبت أبا عثمان ؟ قال خدمته لاصحبته ، فالصحة مع الإخوان والأقران ، ومع المشايخ الخدمة .

وينبئ المرید أنه كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الحضر عليهما السلام كيف كان الحضر يفعل أشياء ينكرها موسى ، وإذا أخبره الحضر يسرها يرجع موسى عن إنكاره ، فأي ينكره المرید لقله عليه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فليشيخ في كل شيء علو بلسان العلم والحكمة .

سأل بعد أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد ، فأجابها الجنيد ، فمأرضه في ذلك أقوال الجنيد : فإن لم تؤمنوا لي فاعزلون . فقال بعض المشايخ : من لم يعظم حرمة من تأديب به بركة ذلك الأدب .

وقيل : من قال لأستاذه : لا ، لا يفلح أبدا .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح المروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا من عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تركوا ما ترككم ، وإذا حدثكم فخذوا عني ، فإنما ملك من كان قبلكم بكثرة مؤامهم واختلافهم على أنبيائهم » .

قال الجنيد رحمه الله : رأيت مع أبي حفص التيسابورى إنبانا كثير الصمت لا يتكلم ، فقلت لأصحابه : من هذا ؟ فقيل لى : هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخبرنا ، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ميسوخ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة .

وقال أبو يزيد البسطامى : صحبت أبا علي السندى فكنت أفتنه ما يقيم به فرضه ، وكان يملئ التوحيد والحقائق صرفا وقال أبو عثمان : صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث ، فطردنى وقال : لا تجلس عندى ، فلم أجعل مكافأتى له على كلامه أن أدلى ظهرى إليه ، فأنصرفت أمشى إلى خلف ووجهى مقابل له حتى غبت عنه واعتقدت أن أحفر لنفسى بئر أعلى بابيه وأزل وأقذفه ولا أخرج منه إلا يذنه ؛ فلما رأى ذلك منى قريبى وقبلى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله .

ومن أدهم الظاهرة : أن المرید لا يبسط مجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة ، فإن المرید من شأنه التبتل للخدمة ، وفى العبادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز ، ولا يتخلل ذلك السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد الجدير ، وهمة الشيخ تلك المرید عن الاسترسال فى السماع وتقيد . واستغراقه فى الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع .

ومن الأدب : أن لا يكتم على الشيخ شيئا من حاله ومواهب الحق عنده وما يظهر له من كرامة وإجابة ، ويكشف للشيخ من حاله ما يملك الله تعالى منه ، وما يستحق من كشفه يذكره إيماء وتقريضا ، فإن المرید من الطوى ضميره على شيء لا يكشفه للشيخ تصريحا أو تلميذا يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق ، وبالتأويل مع الشيخ تنحل العقدة وتزول . ومن الأدب : أن لا يدخل فى محبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتبذيره ، وأنه أقوم بالتأديب من غيره ، ومنى كان عند المرید تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو محبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستمد باطنه لسراية حال الشيخ إليه ، فإن المرید كلما يقن بفرد الشيخ بالشيخة عرف فضله وقويت محبته ، والمحبة والتألف هو الوسيلة بين المرید والشيخ ، وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال ، لأن المحبة نغلة التمازج ، والتعارف علامة الجنسية ، والجنسية جالبة المرید حال الشيخ أو بعض حاله .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سلمان ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا سلمان بن أحمد ، قال حدثنا أنس بن أسلم ، قال حدثنا عتبة بن رزين عن أبي أمامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه بغير أن لا يتخذ ولا يستأثر عليه ، فمن فعل ذلك فقد فهم حرره من حرى الإسلام » .

ومن الأدب : أن يراعى خطرات الشيخ فى جزئيات الأمور وكلياتها ، ولا يستحق كراهة الشيخ ليسير حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حله ومداراه . قال إمام بن شبين : كنا نصحب أبا عبد الله المغربى ونحن شبان يسافرون فى البرارى والقفلات ، وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة ، فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتغير عليه الشيخ نشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان .

ومن أدب المرید مع الشيخ : أن لا يستقل بوقالته وكشفه دون مراجعة الشيخ ، فإن الشيخ عليه أوسع وبابه

المتروح إلى الله أكبر ؛ فلن كان واقعة المريد من الله تعالى برفاقه الشيخ وبعضها له ، وما كان من عند الله يختلف . وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ، ويكتسب المريد عليها بصحة الواقع والكشوف ، فالمرید لله في واقعة يظهره كون إرادة في النفس فينتسب له كون الإرادة بالواقعة منما كان ذلك أو يقظة ، ولهذا سر عجيب ، ولا يقوم المريد باستكمال شأفة الكامن في النفس ، وإذا ذكره الشيخ فما في المريد من كون إرادة النفس مفقود في حق الشيخ ، فإن كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ ، وإن كان يزع واقعة إلى كون هو النفس تزول وتبرأ ساحة المريد ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة إروائه إلى جناب الحق وكمال معرفته .

ومن الأدب مع الشيخ : أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعمل بالإقدام على مكالمة الشيخ والمجوم عليه حتى يبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولإسراع كلامه وقوله متفرغ ، وكما أن للدعاء أوقانا وآدابا وشروطا لأنه مخاطبة الله تعالى ، فلقول مع الشيخ أيضا آداب وشروط ، لأن من معاملة الله تعالى ، ويسأل الله تعالى قبل السلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب ؛ وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيها أمر به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخاطبته فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) يعني أمام مناجاتكم . قال عبد الله بن عباس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كثروا حتى شقوا عليه وأحفره بالمسئلة فأدبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة يقول . كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجلس ، حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة ، فلما رأوا ذلك انتبهوا عن مناجاته ؛ فأما أهل العسرة فلاهم لم يجدوا شيئا ، وأما أهل اليسرة فيخلوا ومنهوا ، فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) وقيل : لما أمر الله تعالى بالصدقة لم ينجح رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على بن أبي طالب ، فقدم ديناراً فتصدق به . وقال علي : في كتاب الله آية ماعل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدى . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا علياً وقال : ما ترى في الصدقة كم تكون ، ديناراً ؟ قال علي : لا يطيقونه ، قال دكم ؟ قال علي : تكون حبة أو شعيمة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لرهيد ، ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ، ومأبه الحق عليه بالأمر بالصدقة ومأفيه من حسن الأدب وتقديد اللفظ والاحترام ما فسخ ، والفائدة باقية .

أخبرنا الشيخ الفقه أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا مطلب بن شعيب ، قال حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثنا ابن أبي عمير عن أبي بصير عن عباد بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليس منّا من لم يعمل كبيرنا ورسم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه ، فاحترام العلماء توفيق وهداية ، وإعمال ذلك خذلان وعقوق .

الباب الثاني والخمسون : في آداب الشيخ وما يعتمد عليه الأصحاب والتلامذة

أما الآداب : أن لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم ، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام بحجة للاستيعاب ؛ فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه المريد من المسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة ، يحذر أن يسكون ذلك ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى ، والنفس مجبولة على محبة إقبال الخلق والشهرة ، وفي الأحوال السلامة ؛ فإذا بلغ الكتاب أجله وتمسك العبد من سبيله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالإشارة والتعليم للمريد ، فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المصنف الوالد لولده بما ينفعه في دينه ودنياه ، وكل مريد ومسترشد سأل الله تعالى إليه راجع الله تعالى في معناه ويكثر العجا إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ، ولا يشك مع المريد بالسكلة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية للصراب من القول .

سمعت شيخنا أبا العجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول : لا تكلم أجدان الفقراء إلا في أحسن أوقانك ، وهذه وصية نافعة ، لأن الكلمة تقع في سمع المريء كالجبة تقع في الأرض ، وقد ذكرنا أن الجبة الفاسدة تهلك وتضيع ، وفساد جبة الكلام بالهوى ، وقطرة من الهوى تكدر بحران العلم ، فندالكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان ، وكما أن اللسان ترجان القلب يكون قلبه ترجان الحق عند العبد ، فيكون ناظرا إلى الله مصفيا إليه متلقيا ما يرد عليه مؤديا للأمانة فيه ، ثم ينبغي للشيخ أن يعتبر بحال المريء ويقتصر فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده ؛ فمن المريدين من يصلح للتعب المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ، ومن المريدين من يكون مستعدا حاليا للقرب وسلوك طريق المقرين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ، ولكل من الأبرار والمقرين مبادون بها فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له ، والمجرب أن الصحراوي يعلم الأراضي والقرسوس ويعلم كل غرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى للمرأة تعلم قطعا وما يتأتى منه من النزل ودقته وظلته ، ولا يعلم الشيخ حال المريء وما يصلح له .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح له ؛ ففهم من كان يأمره بالإفناق ومنهم من أمره بالإسك ، ومنهم من أمره بالكسب ، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة ؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد ، فأما في رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لأنه يعمد لإثبات الحجية وإيضاح المحجة يدعوا على الإخلاص ، ولا يخص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ : أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسميه فيه معاملة الخلق حتى يفرض على جلوته فائدة خلوته ، ولا تدعى نفسه قوة ظاهرا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كال حاله كان له قيام الليل وساعات يصلحها ويوم عليها وأوقات تخلو فيها ، فطبع البشر لا يستغنى عن السيادة قل ذلك أو كثر لطف ذلك أو كثف ، وكل من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب ، اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه ، واسترسل في المازجة والمخالطة ، وجعل نفسه مناعا للبطالين بقلته أوكل عنده ويرفق بوجوده منه ، فيقصده من ليس قصده الدين ولا يغيته سلوك طريق المتقين ، فافتتن واقتن ، وبقي في خبطة القصور ، ووقع في دائرة الفتور ، فما يستغنى الشيخ عن الاستعداد من الله تعالى والتضرع بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بقباله وقبله ، فيكون له في كل كلمة إلى الله الرجوع ، وفي كل حركة بين يدي الله الخضوع ، وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال في الكلام والمخالطة ، لقلة معرفتهم صفات النفس واغترافهم بيسير من الموهبة وقلة تأديهم بالسيوخ . كان الجنيدي رحمه الله يقول لأصحابه : لو دلت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوسي معكم ما جلست عندكم ، فإذا رأى الفضل في الخلوة يخلو ، وإذا رأى الفضل في الجلوة يجلس مع الأصحاب ، فتكون جلوته في حيازة خلوته ، وجلوته من بدا خلوته . وفي هذا سر : وذلك أن الأدي ذو تركيب مختلف فيه تضاد وتآزر على ما أسلفنا من كونه مترددا بين السفل والعلوى ، ولما فيه من التفتير له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ، ولهذا كان لكل عامل فترة واقفة قد تكون نارة في صورة العمل ونارة في عدم الروح في العمل وإن لم تكن في صورة العمل ، ففي وقت الفترة المريدين والسالكين تضيق واستروح النفس وركون إلى البطالة ، فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق فأطلع الخلق بقسم فترته ، وما ضاع قسم فترته كضياحه في حق المريدين ، فالمرء يمر بذهن الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإتيال على الله ، والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وعاص حالة بنفس مشربة ، أكثر من عود الفقيه بمجدة إرادته من فترته ، فيعود من الخلق إلى الخلوة منزوع الفتور ، بقلب متعطش وافر التور ، وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار ، قادمة بمجدة شغفها إلى دار القرار .

ومن وظيفة الشيخ : حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب ، والزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم

للشايخ واستعماله التواضع .

حكى الرقي قال : كنت بمصر وكنا في المسجد جماعة من الفقراء جلوسا ، فدخل الرقاق فقام عندنا طوية بركع ، فقلنا بفرغ الشيخ من صلاته ونقدم لسلام عليه ، فلما فرغ بناء إلينا وسلم علينا ، قلنا : نحن كنا أولى بهذا من الشيخ ، فقال : ما عذب الله قلبي بهذا قط ، يعني ما تعبدت بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ : النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم . قال بعضهم : إذا رأيت الفقير فألفه بالرفق ولا تلقه بالعلم ، فإن الرفق يؤنسك والعلم يوحشه ، فإذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد بمركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ : التحفظ على الأصحاب وقضاء حقوقهم في الصحة والمرض ، ولا يترك حقوقهم اعتيادا على إرادتهم وصدقهم . قال بعضهم : لا تضع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجبري قال : وافيت من الحج فابتدأت بالجند وسلمت عليه وقلت حتى لا يتنى . ثم أتيت منزلي ، فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجند خلفي ، فقلت : يا سيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتنى إلى هنا ، فقال لي : يا أبا محمد ، هذا حقه ، وذاك فضلك .

ومن آداب الشيوخ : أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفا في مراعاة النفس وقهرها واعتناصها في الدمية : أن يرفقوا به ويرفقوه على حد الرخصة ، ففي ذلك خير كثير ، وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حق ، ثم إذا ثبت وعاطل الفقراء وتدرج في لزوم الرخصة يتدرج بالرفق إلى أوطان الدمية .

قال أبو سعيد بن الأعرابي : كان شاب يعرف بآرام الصالح ، وكان لأبيه نعمة ، فأنقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد الغلاتي ، فربما كان يقع بيد أبي أحمد شيء من الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول : هذا خرج من الدنيا وقد تمود النعمة ، فيجب أن ترفق به وتؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ : التذرع من مال المريد وخدمته والارتفاق من جانبه وجه من الوجوه ، لأنه جاءه تعالى : فيجعل نعمه وإرشاده خالصا لوجه الله تعالى ، فما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات . وقد ورد ما صدق متصدق بصدقة أفضل من علم يثقه في الناس ، وقد قال الله تعالى أنبأنا على خلوص ما فوخرنا من الشوائب (إنما نطعمكم لوجه الله لا ليزيد منكم جزاء ولا شكورا) فلا يلينى للشيخ أن يطلب على صدقته جزاء إلا أن يظهر له في شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه ، أو صلاح يترامى للشيخ في حق المريد بذلك ، فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد مأمرة الغائبة من جانب الشيخ : قال الله تعالى (يؤسرك أجوركم ولا يسألكم أموالكم) إن يسألكموها فيحسبكم تبخا ويخرج أضغانكم) معنى يحسبكم : أي يجهدكم ويبلغ عليكم قال قتادة : علم الله تعالى أن في خروج المال إخراج الأضغان ، وهذا تأديب من الله الكريم والأدب أدب الله قال جعفر الخالدي : جاء رجل إلى الجند وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر ، فقال له الجند : لا تخرج من ذلك كله أحسب منه مقدار ما يكفيك ، وأخرج الفضل ، وتحتق بما حبست ، واجتهد في طلب الحلal لا تخرج كل ما عندك فلتسأمن عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبي عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملا ثبت ، وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشيء يركبه من الحال ما لا يتطالع به إلى المال ، لحينئذ يجوز له أن يفسح للمريد في الخروج من المال ، كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيوخ : إذا رأى من بعض المريدين مكروها ، أو علم من حاله أوجاجا ، أو أحسن منه بدعوى ، أو رأى أنه داخله عجب : أن لا يهرح له بالمكروه ، بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ، ويكشف عن وجه المذمة مجلا فتحصل بذلك القاعدة البكث ، فهذه أقرب إلى المداواة وأكثر أثارا لتألف القلوب ، وإذا رأى

من المريد تقصيراً في خدمة تديبه إليها : يحمل تقصيره ويعفو عنه ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين ، وإلى ذلك تذب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال : أخبرنا أبو الفتح الكروخي قراءة عليه ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا رشيد بن سعد عن أبي هلال الخولاني عن ابن عباس بن جليل الجعري عن عبد الله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ قال « كل يوم سبعين مرة » .

وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أحق الناس بإحياء سنته في كل ما أمر ونهى وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب : حفظ أسرار المريدين فيما يكشفون به ويعتصمون من أنواع اللبس ، فسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه ، ثم لا يحقر الشيخ في نفس المريد ما يجده في خلوة من كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق العادات ويعترفه أن الوقوف مع شيء من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد ، بل يسرفه أن هذه لعمدة تشكر ومن ورائها نعم لا تحصى ، ويسرفه أن شأن المريد طلب النعم لا النعمة حتى يبق سره محفوظاً عند نفسه وعند شيخه ، ولا يذيع سره ، فإذا إضاعه الأسرار من ضيق الصدر ، وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر يوصف به النسيان وضعف الغفول من الرجال ، وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوتين أحده ومغطة ، وكلتاها تكتشف إلى الفعل المختص بها ولولا أن الله تعالى وكل المغطة بإظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار ، فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضمها في مواضعها ، فيبطل حال الشيوخ عن إذاعة الأسرار لرزاقه عقولهم .

ويلبى المريدين أن يحفظ سره من به ، ففي ذلك محبة وسلامته وتأييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين في مورد ومصدرهم .

الباب الثالث والخمسون : في حقيقة الصحة وما فيها من الخير والشر

المتقنى الصحة وجود الجنسية ، وقد يدعى إليها أهم الأوصاف ، وقد يدعى إليها أخص الأوصاف ، فالدعاء بأهم الأوصاف : كميل جنس البشر بعضهم إلى بعض ، والدعاء بأخص الأوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ، ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض ، وكميل أهل للمعية بعضهم إلى بعض ، فإذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصحة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى ، فليبتعد الإنسان نفسه عند الميل إلى محبة شخص ، وينظر ما الذي يميل به إلى محبته ؟ ويرى أحوال من يميل إليه بميزان الشرع ، فإن رأى أحواله مسددة فليبتعد نفسه بحسن الحال ، فقد جعل الله تعالى مرآته بجلوة يلوح له في مرآة أخيه بحال حسن الحال ، وإن رأى أفعاله غير مسددة فيرجع إلى نفسه باللائمة والانهزام ، فقد لاح له في مرآة أخيه سوء حاله ، فبالجدير أن يفرغه كفراره من الأسد ، فإنها إذا اصطاحا ازدادا ظلمة وأعرابا جاءا ، ثم إذا علم من صاحبه الذي مال إليه حسن الحال وحكم نفسه بحسن الحال طالع ذلك في مرآة أخيه ، فليطمأن الميل بالأوصاف الأعم مركز في جبلته ، والميل بطريقة واقع ووله بحسب أحكام ، ولنفوس بسببه سكوت ووركون ، فيسلب الميل بالأوصاف الأعم جدوى الميل بالأوصاف لأخص ، ويعصرون المتصالحين استرواحات طبيعية وتلاذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحة لله إلا العلماء الزاهدون ، وقد يتفقد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما يتفقد بأهل الفساد ، ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذرهم ، وأهل الصلاح غر ملاحهم فإل إليهم بحسب الصلاحية ، ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية سالت بينهم وبين حقيقة الصحة لله ، فأكسب من طريقهم الفتور في الطلب والتخلف عن بلوغ الأرب ، فليبتعد الصادق لهذه الحقيقة وبأخذ من المسبة أصنى الأقسام ويرد منها ما يندف في وجهه المرام قال بعضهم هل رأيت شراً قط إلا من

تعرف ؛ ولهذا المعنى أنكسر طائفة من السلف الصالحة ورأوا الفضيلة في العزلة والوحدة كالإبراهيم بن آدم وداود الطائي وفضيل بن عياض وسليمان الخواص ، وحكى عنه أنه قيل له : جاء إبراهيم بن آدم أما لقاء ؟ قال : لأن ألقى سميا ضاريا أحب إلى من أن ألقى إبراهيم بن آدم ، قال : لأن إذا رأيته أحسن له كلامي وأظهر نفسي بإظهار أحسن أحوالها ، وفي ذلك الفتنة ، وهذا الكلام عالم بنفسه وأخلاقها ، وهذا واقع بين المتصالحين إلا من عصمه الله تعالى .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة ، قال أخبرنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد ، قال أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد ، قال أخبرنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطاطي ، قال أخبرنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق ، قال حدثنا سليمان بن الأشعث ، قال حدثنا عبادة بن مسleme عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي معصمة عن أبيه أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يشك أن يكون خير مال المسلم غنما يبيع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربّي ﴾ استظهر بالعزلة على نفسه . قيل : العزلة نوبان : فريضة وفضيلة ، فالفريضة العزلة عن الشر وأمله ، والفضيلة عزلة الفضول وأمله . ويجوز أن يقال : الخلوة غير العزلة ؛ فالخلوة من الأغيار ، والعزلة من النفس وما تدعو إليه أو ما يشغل عن الله ، فالخلوة كثيرة الوجود ، والعزلة قليلة الوجود .

قال أبو بكر الوراق : ما ظهرت المنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ، وما سلم إلا من جانب الخلطة : وقيل السلامة عشرة أجزاء ، تسعة في الصمت ، وواحد في العزلة ؛ قيل : الخلوة أصل . والخلطة عارض فيليزم الأصل ، ولا يخالط إلا بقدر الحاجة ، وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة ، وإذا خالط يلازم الصمت ، فإنه أصل والكلام عارض ، ولا يتكلم إلا بحجة ، فخطر الصعبة كثير يحتاج العبد فيه إلى من يدعّم ، والأخبار والآثار في التحذير عن الخلطة والصعبة كثيرة ، والكتب بها مشحونة وأجمع الأخبار في ذلك : ما أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح بإسناده السابق إلى أبي سليمان ، قال حدثنا مسلم بن سليمان النجاد ، قال حدثنا محمد بن يونس السكري ، قال حدثنا محمد بن منصور الجشمي ، قال حدثنا مسلم بن سالم ، قال حدثنا السري بن يحيى عن الحسن عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لياتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاق إلى شاق ومن جهر إلى جهر كالثعلب الذي يروغ » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا لم تتل للمعيشة إلا بما مضى الله ، فإذا كان ذلك الزمان حلت المزومة » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرنا بالتزوج ؟ قال : « إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبيه ، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده ، فإن لم يكن له زوجة وولاد فعلى يد قرابته » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله قال : « ويمر به بفسق المعيشة فينتكف ما لا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة » .

وقد رغب جمع من السلف في الصعبة والأخوة في الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذي أبدلك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت مائة في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألفت بينهم ﴾ وقد اختار الصعبة والأخوة في الله تعالى سعيد بن المسيب وعبد الله بن المبارك وغيرهما .

وقائدة الصعبة : أنها تفتح مسام الباطن ، وتكاسب الإنسانها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ، ويتصلب الباطن برزين العلم ، يتمكن الصدق بطرقه ويهرب الآفات ، ثم يتخلص منها بالإيمان ، ويقع بطريق الصعبة والأخوة والتأخذ والتعاون ، وتتقوى جنود القلب ، وتفسر الخ الأرواح بالتسام ، وتتقوى في التوجه إلى الرفيق الأعلى ، ويصير حالها في الشاهد كالصوت إذا اجتمعت خرقه الأجرام ، وإذا انفردت تصرفت عن بلوغ الغرام . ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن كثير بأخيه » .

وقال تعالى غيظا عن لاصديق له (فأثنا من شافعين هـ ولا صديق حميم) والحميم في الأصل الحميم ، إلا أنه أبدلت الهاء بالخاء لتقرب غزيرتها ، وإذا من حروف الخلق . والحميم : مأخوذ من الاهتمام : أي همهم بأمر أخيه ، فالإهتمام بهمهم الصديق حقيقة الصداقة .

وقال عمر : إذا رأى أحدكم ودًا من أخيه فليتمسك به فقلبا يصيب ذلك . وقد قال القائل :

وإذا صفاك من زمانك واحد هـ فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال : يا داود ، مالي أراك متنبذا وحده ؟ قال : إلهي ، فليت الخلق من أجلك فأوحى الله إليه : يا داود ، كن قظانا مرتادا لنفسك إخوانا وكل خدن لا يوافق على مسرتي فلا تصحبه فإنه عدو يقبى قلبك ويباعدك مني .

وقد ورد في الخبر : إن أحبك إلى الله الذين يألفون ويؤلفون فالأول من آلف مألوف ، وفي هذا دقيقة : وهي أنه ليس من اختيار العزلة والوحدة شيء يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون ألفا مألوفًا ، فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجليل ، وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة ويقينا وأوزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا ، وكان أوفر الناس حظا من هذا الوصف : الأنبياء ثم الأولياء ، وأتم الجميع في هذا : نبينا صلوات الله عليه ، وكل من كان من الأنبياء أتم ألفه كان أكثر تبعا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعا ، وقال : تتأخروا بتكثروا فإني مكثرت بكم الأمم يوم القيامة ، وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ، ومن كان هذا الوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ، ولهذا المعنى حجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة في أول أمره ، وكان يخجل في غار حراء ويتحنن الليالي ذوات العدد ، وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه ألفا مألوفًا ، وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلبا لهذه الفضيلة ، وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ما سلفنا في أول الباب : أن في الإنسان ميلا إلى الجنس بالوصف الأعم ، فلما علم الخلق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأعم لترقى المحم المالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح ، فإذا وفرا التصفية حضها اشترأبت الأرواح إلى جلوسها بالتألف الأصلي الأول ، وأعادها الله تعالى إلى الخلق وبخاطمتهم مصفاة ، واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح ، وظهرت صفة الجلية من الألفة المكملة ألفة مألوفة ، فصارت الألفة من أهم الأمور عند من يألف فيؤلف . ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذي غلط في ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصعبة وحقيقة العزلة ، فصارت العزلة مرغوبا فيها في وقتها ، والصعبة مرغوبا فيها في وقتها . قال : محمد بن الحنفية رحمه الله : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد في معاشرته بذا حتى يجعل الله له منته فراجا .

وكان بشر بن الحارث يقول : إذا قصر العبد في طاعة الله سلب الله تعالى من يؤنس ، فالأنيس ببيت الله الصادقين رفقا من ألفة تعالى ورواها لعبد مجبلا ، والأنيس قد يكون مفيدا كالمتشايخ وقد يكون مستفيدا كالمرءين ، فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس ، فإن كان قاصرا يؤنس الله بمن يتم حاله به ، وإن كان غير قاصر يقضي الله تعالى من يؤنس من المريدين ، وهذا الأنيس ليس فيه ميل بالوصف الأعم بل هو بالله ومن الله وفي الله .

ودروى عبدالله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هـ المتحابون في الله على عهود من باقته حمرًا ، في رأس العمود سبعون ألف غرة مشرفون على أهل الجنة يضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، فيقول أهل الجنة الطلونا بنا ننظر إلى المتحابين في الله عز وجل ، فإذا أشرفوا عليهم أعضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، عليهم ثياب سندس خضر ، مكتوب على جباههم : هؤلاء المتحابون في الله عز وجل . وقال أبو إدريس الخولاني لما ذ : إن أحبك إلى الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ، وجوهم كالقمر ليلة البدر : يفرح الناس ولا يفرعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قليل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : المتحابون في الله عز وجل . »

وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : حقت محبتي للمتحابين فيّ والقزوين فيّ والمتباعدين فيّ » .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة ، قال أخبرنا أحد بن الحسين بن خيرون ، قال أخبرنا أبو عبد الله أحد بن عبد الله الحمالي ، قال أخبرنا أبو القاسم عمر بن جعفر بن محمد بن سلام ، قال أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن إسحق الحرقي ، قال حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة ؟ قالوا : وما هو ؟ قال : إصلاح ذات البين ، وإياكم والبغضة فإنها هي الخالقة ، ويستأند إبراهيم الحرقي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أسامة عن عبيد الله بن الوليد عن عمران بن رباع قال : سمعت أبا مسلم يقول : سمعت أبا هريرة يقول الخبر : وفي الخبر تحذير عن البغضة : وهوان يجفوا المختل الناس مقتكهم وسوء ظن بهم ، وهذا خطأ ، وإنما يريد أن يغلومقتاً لنفسه وعلماً بما في نفسه من الآفات ، وحذراً على نفسه من نفسه ، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره ، فمن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد ، والإشارة بالخالقة ، يعني أن البغضة خالقة للدين . لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين الحق . »

وأخبرنا الشيخ أبو الفتح يستأند إلى إبراهيم الحرقي ، قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان وقال : « إن الله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج ، وإن من دعائه اللهم فكاك الفتن بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطغى النار ولا النار تذيب الثلج ، ألف بين قلوب عبادك الصالحين . »

وكيف لا تألف قلوب الصالحين وقد جدم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته الورق بقاب قوسين في وقت لا يسهه فيه شيء لطف حال الصالحين وجد في ذلك المقام العزيز وقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين ، وصحبهم لازمة ، وعزمهم في التواصل في الدنيا والآخرة جازمة .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو أن رجلاً صام النهار وقام الليل وتصدق وجاءه ولم يحب في الله ولم يفيض فيه مانعه ذلك .

أخبرنا رضي الدين أحد بن إسماعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن سمعاً ، قال أخبرنا أبو المظفر عن والده أبي القاسم القشيري قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت عبد الله بن الملم يقول : سمعت أبا بكر التستاني يقول : سمعوا مع الله ، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله ، لتوصلكم بركة محبتهم إلى محبة الله .

وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو التيجان إجازة . قال أخبرنا عمر بن أحمد الصغار النيسابوري إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي ، قال سمعت أبا نصر الأصفهاني يقول : سمعت أبا جعفر الخدادي يقول : سمعت علي بن سهل يقول : الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله ، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله .

وعدّه القائل نظماً على حقيقة جامعة لما في الصحة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله :

وحدة الإنسان خير • من جليس السوء عند

وجليس الخير خير • من قعود المرء وحده

الباب الرابع والخمسون : في أداء حقوق الصحة والأخوة في الله تعالى

قال الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وقال تعالى (وتواصوا بالحق وتواصوا بالبر) وقال في وصف أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للمبادء على آداب حقوق الصحة ؛ فمن اختار صحة وأخوة فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصحة ، فإنه يفتح على نفسه بذلك إما بآمن أبواب الجنة وإما بآمن أبواب النار ؛ فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خير أفهم باب من أبواب الجنة ، قال الله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقيل : إن أحد الآخرين في الله تعالى يقال له : ادخل الجنة ، فيسأل عن منزل أخيه ، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله ، فإن قيل له : لم يكن يعمل مثل عملك ، فيقول : إني كنت أعمل لي وله ، فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ، ويرفع أخوه إلى درجته . وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحة شرا ، فهو باب من أبواب النار ، قال الله تعالى (ويوم يمس الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ليتني ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) وإن كانت الآية وردت في قصة مشهورة ، ولكن الله تعالى به بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصحة والأخوة اتفاقا من غير نية في ذلك ، وثبت في أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار .

وقد قال عبادة بن عباس رضى الله عنه في كلام له : وهل يفسد الناس إلا الناس ؛ فالفساد بالصحة متوقع ، والصلاح متوقع ، ومما هذه سبيله كيف لا يمحذ في أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللبأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار وسؤال البركة والخبرة في ذلك وتقديم صلاة الاستخارة .

ثم إن اختيار الصحة والأخوة عمل ، وكل عمل يحتاج إلى التيقن وإلى حسن الخاتمة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الخبر الطويل : سعة يظلمهم الله تعالى . . فهم : اثنان تحابا في الله فعاشا على ذلك وما تآ عليه ، (إشارة إلى أن الأخوة والصحة من شرطها حسن الخاتمة حتى يكتب لها ثواب المؤاخاة ، ومن أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول .

قيل : ما حشد الشيطان متعاونين على بر حشده ، متأخين في الله متحابين فيه ، فإنه يجهد نفسه ويحث قبله على إفساد ما بينهما .

وكان الفضيل يقول : إذا وقعت النية ارتفعت الأخوة ، والأخوة في الله تعالى مواجهة ، قال الله (إخوانا على سر تقالين) ومتى أثمر أحدهما للأخر سوما أو كره منه شيئا ولم ينهه عليه حتى يزله أو يسبب إلى إزائه منه فسا واجهه ، بل استدبره .

قال الجنيد رحمه الله : ما تواخى اثنان في الله واستوحش أحدهما لإلالة في أحدهما . فالمراد في الله أصنى من الماء الزلال ، وما كان الله فاقه مطالب بالصفاء فيه وكل ماصفا دلم ، والأصل في دوام صفائه عدم الخالفة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمار أخاك ولا تمارحه ولا تعد موعدا فتخلفه .

قال أبو سعيد الخراساني : صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأنني كنت معهم على نفسى .

أخبرنا شيخنا أبو العتيق السمرودي بإجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال : سمعت عبد الله الداراني قال : سمعت أبا عمرو الدمشقي الرازي يقول سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل : على أى شرط أصحب الخلق ؟ فقال : إن لم تبرم فلا تؤذم ، وإن لم تبرم فلا تؤرم .

وهذا الإسناد قال أبو عبادة . لا تضيع حتى أخيك بما ينك وبينه من المودة والصداقة ، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقا لا يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه .

ومن حقوق الصحة : أنه إذا وقع فرقة رماينة لا يذكر أخاه إلا بخير . وقيل : كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها ما يكره ؛ فكان يقال له استجارا عن سألها فيقول : لا ينبغي للرجل أن

يقول في أمه إلا خيرا ، ففارقها وطلقها ، فاستخبر عن ذلك فقال : امرأة بعدت عني وليست مني في شيء كيف أذكرها ؟ وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى أنه سبحانه يظهر الجليل ويستر القبيح .

وإذا وجد من أحدهما ما يوجب التقاطع فهل ينفذه أولا ؟ اختلف القول في ذلك ، كان أبوذر يقول : إذا تغلب هما كان عليه أن ينفذه من حيث أحبته . وقال غيره لا ينفذ إلا بعد الصلوة ولكن ينفذ عمله ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ عَصْرَكَ قَالَ لِي بِرَىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل لِي بِرَىءٌ منك . وقيل : كان شاب يلزم مجلس أبي الدرداء وكان أبو الدرداء يميزه على غيره ، فاقبل الشاب بكبيرة من الكبار وانتهى إلى أبي الدرداء ما كان منه ، فقيل له : لو أبعدته ومجرتك ؟ فقال : سبحانه الله لا يترك الصاحب بشيء كان منه .

قيل : الصداقة لمة لكلمة اللبس . وقيل لحكيم مرة : أما أحب إليك ، أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقي ، وهذا الخلاف في المفارقة ظاهر أو باطنا . وأما الملازمة باطنا إذا وقعت المباعدة فظاهر اختلف باختلاف الأشخاص ، ولا يطلق القول فيه إطلاقا من غير تفصيل ، فمن الناس من كان نفيره رجوعا عن الله وظهور حكم سوء السابقة ، فيجب بفضله وموافقة الحق فيه . ومن الناس من كان نفيره عثرة حدثت وفرة وقت رجي هوده فلا ينبغي أن ينفذ ولكن ينفذ عمله في الحالة الحاضرة ، ويلتص بعين الرد منتظرا له الفرج والعود إلى أوطان الصلح ، فقد ورد : أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذي أتى بفاحشة قال : مه ، وزجرهم بقوله دولا تكونوا عونا للشيطان على أخيك .

وقال إبراهيم التيمي . لا تقطع أذاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه ، فإنه يركبه اليوم ويتركه غدا . وفي الخبر : اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيمته .

وروي أن عمر رضي الله عنه سأل عن أخ له كان أخاه فخرج إلى الشام ، فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال : ما فعل أخى ؟ فقال له : ذاك أخو الشيطان . قال له : مه ، قال له : إنه قارب الكبر حتى وقع في الخمر ، فقال : إذا أردت الخروج فأذن ، قال فكتب إليه ﴿حم ينزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ ثم عابه تحت ذلك وعذله ، فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ولصع عمر ، فتاب ورجع .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال : يا رسول الله ، أخيت رجلا فأما أطلبه ولا أراه ، فقال : يا عبداقه ، إذا أخيت أحدا فأسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله ، فإن كان مريضا عده ، وإن كان مشغولا أعته .

وكان يقول ابن عباس رضي الله عنهما : ما اختفى رجل إلى مجلسي فلانا من غير حاجة تكون له فعلت ما مكافأته في الدنيا .

وكان يقول سعيد بن العاص . للجليس على ثلاث : إذا نادى حجت به ، وإذا حدث أقبلت عليه ، وإذا جلس أوسعت له . وعلامة خلوص المحبة تعالى : أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان ، فإن ما كان معلولا يروى بزوَالِ عطته ، ومن لا يستند في خلته إلى علة يحكم بدوام خلته .

ومن شرط الحب في الله إظهار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا . قال الله تعالى ﴿يعجبون من هاجر لإيهام ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ فقله تعالى ﴿لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي لا يمسدون إخوانهم على ما لهم ، وهذا الوصفان بهما بكل صفو المحبة ، أحدهما انزعاج الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا . والثاني : الإيثار بالمقدور . وفي الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام والمرء على دين خليله ولا يرى لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه .

وكان يقول أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم خير مني . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كلهم يرى لي الفضل عليه ، ومن فضلتني على نفسه فهو خير مني .

ولبعضهم فلما : تذل لمن إن تذل له يرى ذاك الفضل لآله
وجانب صداقة من لم يزل على الأصداق يرى الفضل له

الباب الخامس والخمسون : في آداب الصلحة والأخوة

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء في الصلحة ، فقال : حفظ حرمان المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والصيحة للأصاغر ، وترك صيحة من ليس في طبقتهم ، وملازمة الإيثار ، وبجانبه الإذخار ، والمساونة في أمر الدين والدنيا .

فمن أدهم : التغافل عن زلل الإخوان ، والنصح فيما يجب فيه الصيحة ، وكنم عيب صاحبه ، وإطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رحم الله امرأ أهدى إلى عيبي . وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص عن ينه على عيوبه . قال جعفر بن برقان . قال لي ميمون بن مهران : قل لي في وجهي ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه ، فإن الصادق يجب من يصدقه ، والكاذب لا يجب الناصح . قال الله تعالى : (ولكن لا يحبون الناصحين) والصيحة ما كانت في السر .

ومن آداب الصلحة : القيام بخدمة الإخوان واحتفال الأذى منهم ، وبذلك يظهر جوهر الفقير . وروى أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمرورة ، فقال له العباس : قلت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمه بيده ، فقال : إذن لا يرد إليه مكانه غير يدك ، ولا يكون لك غير غلم عاتق عمر ، فأقامه على عاتقه وورده إلى موضعه .

ومن أدهم : أن لا يرون أنفسهم ملكا يحتضون به ، قال إبراهيم بن شيان : كنا لاصحب من يقول لعل . أخبرنا بذلك رضي الدين عن أبي المظفر عن والده أبي القاسم القشيري قال : سمعت أبا حامد الصوفي قال : سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك . وقال أحمد بن القلانسي : دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فأكرموني وبحلوني فقلت يوما لبعضهم : أين إزارى ؟ فسقطت من أعينهم .

وكان إبراهيم بن آدم إذا صحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء : أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه : أنا لا أقدر على هذا . فقال : أعجبني صدقتك وكان إبراهيم بن آدم ينظر البسائين ويعمل في الحصاد وينفق على أصحابه .

وكان من أخلاق السلف : أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة . قال الله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) أي مشاع فيه سواء .

ومن أدهم أنهم إذا استقلوا صاحباً يتهمون أنفسهم ويتسببون في إزالة ذلك من بواطنهم ، لأن لطواء الضمير على مثل ذلك للصاحب وليجة في الصلحة .

قال أبو بكر الكتاني : صحبني رجل وكان على قلبي ثقبلا ، فوجهته شيئا بنية أن يزول ثقبه من قلبي ، فلم يزل ، فظننت به يوما وقلت له : ضع رجلك على خسدي ، فأبى ، فقلت له : لا بد من ذلك ، ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني .

قال الرقي : قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية .

ومن أدهم : تقديم من يعرفون فضله والتوسمة له في المجلس والإيثار بالموضع روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة ، فجاءه قوم من البدرين ، فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم ، فاشتد ذلك عليهم فأمر الله تعالى (وإذا قيل انشروا

فانشروا... الآية)

وحكى أن على بن بندار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائراً قناشيا ، فقال له أبو عبد الله : تقدم ، فقال : بأى عذر ؟ فقال : بأنك لقيت الجنيد وما لقيته :

ومن أديهم : ترك صحبة من همه شيء من فضول الدنيا : قال الله تعالى ﴿ فأعرض عن تولي عن ذكرنا ولم يردلنا الحياة الدنيا ﴾ .

ومن أديهم : بذل الإنصاف للإخوان وترك مطالبة الإنصاف : قال أبو عثمان الجيرى : حق الصيحة أن توسع على أخيك من مالك ولا تطمع في ماله ، وتصفه من نفسك ولا تطلب منه الإنصاف ، وتكون تبعا له ولا تطمع أن يكون تبعا لك وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليه منك .

ومن أديهم في الصيحة : لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة : قال أبو على الروذبارى : الصولة على من فوقك قسوة ، وعلى من مثلك سوء أدب ، وعلى من دونك هجر .

ومن أديهم : أن لا يجبرى في كلامهم : لو كان كذا لم يكن كذا ولت كان كذا وعسى أن يكون كذا ، فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضا ،

ومن أديهم في الصيحة : حذر المفارقة والحرص على اللازمة ، قيل : صحب رجل رجلا ثم أراد المفارقة ، فاستأذن صاحبه فقال : بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فرقنا ، وإن كان فوقنا أيضا فلا تصحب لأنه مصحبنا أولا ، فقال الرجل : زال عن قلبي بية المفارقة .

ومن أديهم : التعطف على الأصغر . قيل : كان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصاد ويطلع الأصحاب ، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل ؟ فقالوا ليه : تعالوا ناكل فطورك دونه حتى يمود بعد هذا يسرع ؟ فافطروا وناموا ، فخرج إبراهيم فوجدهم نياما ، فقال : مساكين لهم لم يكن لهم طعام ، فمد إلى شيء من الدقيق ففجته ، فالتفتوا وهو ينفخ في النار واضمأ حاسنه على التراب ، فقالوا له في ذلك فقال : قلت لكم لم تجدوا فطورا فتمتم ، فقالوا : انظروا بأى شيء عامناه وبأى شيء يماثلنا .

ومن أديهم : أن لا يقولوا عند المساء إلى أين ؟ ولم ؟ وبأى سبب ؟ قال بعض العلماء : إذا قال الرجل لصاحبه : قم بنا ، فقال : إلى أين ؟ فلا تصحبه : وقال آخر : من قال لأخيه أعطني من مالك فقال : كم تريد ؟ فاقام بحق الإخاء وقد قال الشاعر :

لا يسألون أعوام حين يندبهم للثغالب على ما قال يرهانا
فانكر ذلك أبو حفص وقال : صير أصحابي مثل الخنايت يقدم لهم الألوان .

والفترة عندنا ترك التكاف وإحضار محضر : فإن التكاف ربما يؤثر مفارقة الضيف ، وترك التكاف يستوى مقامه وذمابه .

ومن أديهم في الصيحة : المداراة وترك الدامنة ، وتشبه المداراة الدامنة والفرق بينهما : أن المداراة ألزمت به صلاح أخيك فداريته لرجاه صلاحه واحتملت منه ما تكره . والمدامنة : ما قصد به شيئا من المردى من حظ أو إقامة جاه .

ومن أديهم في الصيحة : رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط : نقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعدوتهم ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكان بين المتقبض والمتبسط .

ومن أديهم : ستر عورات الإخوان : قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أحماكم نائما فكشف الرمح عنه ثوبه ؟ قالوا : نستره ونغطي ، فقال : بل تكشفون عورته . قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ قال : أحدهم يسمع في أخيه بالكلمة فيريد عليها ويشيعها بأعظم منها .

ومن أديهم : الاستغفار للإخوان بظهر التيب ، والاهتمام لهم مع الله تعالى في دفع المكروه عنهم .

حكى أن أخوين ابتلا أحدهما جوى فأظهر عليه أعماء فقال : إني ابتليت بهوى فإن شئت أن لا تعقد على محبتي لله فافعل ، فقال : ما كنت لأجل عقد إيمانك لأجل خطيئتك ، وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يمانيه الله تعالى من هواء ، وطوى أربعين يوما كلما يسأله عن هواء ، يقول : ما زال ، فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال ، فأكل وشرب .

ومن أديهم : أن لا يمجوا صاحبهم إلى المداراة ولا يجتوه إلى الاعتذار ولا يتكفوا للصاحب ما يشق عليه ، بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد صاحب على مراد أنفسهم . قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : شر الأصدقاء من أخرجك إلى مداراة أو أهلك إلى اعتذار أو تكلفت له .

وقال جعفر الصادق : أتمل إخواني على من يتكلم لي وأحفظ منه وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي ؛ فآداب الصلابة وحقوق الآخرة كثيرة ، والحكايات في ذلك بطول نقلها . وقد رأيت في كتاب الشيخ أبي طالب السكي رحمه الله من الحكايات في هذا المعنى شيئا كثيرا ، فقد أورد كتابه كل شيء حسن من ذلك وحاصل الجميع : أن البد يبغي له أن يكون مولاه ويريد كل ما يريد لمولاه لائقه ، وإذا صاحب شخصاً تكون صحبته إياه لله تعالى ، وإذا صحبه لله تعالى يمتد له في كل شيء يزيد عداقة زاني ، وكل من قام بحق الله تعالى يرزقه الله تعالى طناً بمعرفة النفس وعيوبها ، ويعرفه بحسن الأخلاق وحسن الآداب ، ويرزقه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه في ذلك كله ، ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيها يرجع إلى حقوق الحق ، وفيها يرجع إلى حقوق الخلق ، فكل تقصير يوجد من خبث النفس وعدم تركها بقاء صفاتها عليه ، فإن صحبته ظلمت بالإفراط طارة وبالاعتدال أخرى ، وتعلمت الواجب فيها يرجع إلى الحق والخلق ، والحكايات والمواظب والآداب وسماها لا يعمل في النفس زيادة تأخير ، ويظهر كثير يقابل فيه الماء من فوق فلا يمتك فيه ولا يمتنع فيه ، وإذا أخذت بالتقوى والوهد في الدنيا نسع منها ماء الحياة وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتفريق الله سبحانه وتعالى .

الباب السادس والخمسون : في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي ، قال أخبرنا الفريزي نور الهدى أبو طالب الريني ، قال أخبرنا كريمة الرومية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميني قال أخبرنا أبو عبد الله الفريزي ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخاري ، قال حدثنا عمر بن حفص ، قال حدثنا أبي ، قال حدثنا الأعمش ، قال حدثنا زيد بن وهب ، قال حدثنا عبد الله ، قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغاً مثل ذلك ، ثم يمسكه الله تعالى إليه ملكاً بأربع كلمات ، فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار » .

وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) أي حرز لا استقرارها فيه إلى بلوغ أمد ما ، ثم قال بعد ذكر تقلباته (ثم أنشأناه خلقاً آخر) قيل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه . وأعلم أن الكلام في الروح مصعب المرام والإمسك عن ذلك سبيل ذري الأحلام ، وقد عظم الله تعالى شأن الروح وأتمل على الخلق بقلة العلم حيث قال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وقد أخبرنا الله تعالى في كلامه عن إكرامه بني آدم فقال (ولقد كرمتني آدم) وروى : أنه لما خلق الله تعالى آدم وذرئته تالت الملائكة : يارب خلقتهم ما يكون ويشربون ويتكلمون ، فأعلم لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال : وعز وجلالي لأجعل ذرية من خلقت يدي كمن قلته كن فكان . فع هذه الكرامة واختياره سبحانه وتعالى إياهم على الملائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة

العلم ، وقال (ويستلوك عن الروح قل الروح من أمر ربي ... الآية) قال ابن عباس : قالت اليهود للنبي عليه السلام : أخبرنا ما الروح ؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ وإنما الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه شيء ، فلم يحجم ، فأنا جبرائيل هذه الآية ، وحيث أسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيتها يأنفذه تعالى ووحيه وهو صلوات الله عليه مدد العلم ويذوق الحكمة ، فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه لأجرم لما خاضت الأنفس الإنسانية المتطاعة إلى الفضول المنشوقة إلى العقول المتحركة بروضها إلى كل ما أمره بالسكون فيه ، والمقسورة بمرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه ، وأطلقت عنان النظر في مسارب الفكر ، وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت في التيه وتنوعت آرائها فيه ، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح . ولو لزمت النفوس حقها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى ؛ فأما أقويل من ليس متمسكا بالشرائع فنزله الكتاب عن ذكرها ، لأنها أقوال أبرزتها العقول التي ضلت عن الرشاد وطبعت على الفساد ، ولم يصحبا نور الاعتقاد ببركة متابعة الأنبياء ، فهم كما قال الله تعالى (كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) ، (وقالوا قلوبنا في أكنة ما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا ، وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا فأصر ، على الجهالات وحجبوا بالعقول عن اللأمول ، والنقل حجة تعالى يهدي به قوما ويضل به قوما آخرين ؛ فلم تنقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه .

وأما المستمسكون بالشرائع الذين تكلموا في الروح ؛ فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر ، وقوم منهم بلسان الدوق والوجد لا باستعمال الفكر ، حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضاً ، وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام .

وقد قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ، ولكن نجعل للمصادقين محلاً لأقوالهم وأفعالهم .

ويجوز أن يكون كلامهم في ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة ، حيث حرم تفسيره وجوز تأويله ، إذ لا يسمع القول في التفسير إلا نقل . وأما التأويل فتتمتع العقول إليه بالباع الطويل ، وهو ذكر ما تحتل الآيات من المعنى من غير القطع بذلك ، وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وجه ومحمل .

قال أبو عبد الله النابخي : الروح جسم يلطف عن الخس ويكبر عن اللس ولا يعبر عنه بأكثر من موجود ، وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم ؛ فكأنه عبر عنه .

وقال ابن عطاء الله : خلق الله الأرواح قبل الأجساد ، لقوله تعالى (ولقد خلقناكم) يعني الأرواح (ثم صورناكم) يعني الأجساد .

وقال بعضهم : الروح لطيف قائم في كَيْفٍ ، كالبحر جوهر لطيف قائم في كَيْفٍ . وفي هذا القول نظر . وقال بعضهم : الروح عبارة والقائم بالاشياء هو الحق ، وهذا فيه نظر أيضاً لأن يحمل على معنى الإحياء ؛ فقد قال بعضهم : الإحياء صفة الحي ، كالخلق صفة الخالق وقال (قل الروح من أمر ربي) وأمره كلامه ، وكلامه ليس بخلق ؛ أي صار الحي حياً بقوله : كن حياً ؛ وعلى هذا لا يكون الروح معنى في الجسد ، فمن الأقوال ما يدل على أن قوله يستفاد قدم الروح ، ومن الأقوال ما يدل على أنه يستفاد حدوثه .

ثم إن الناس مختلفون في الروح الذي سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال قوم : هو جبرائيل . ونقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، ولكل وجهه منه سبعون ألف لسان ، ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ، ويخلق من كل تسبيحة ملكاً يظهر مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أن الروح خلق من خالق الله صورهم على صورة بني آدم ، وما

زل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح .

وقال أبو صالح : الروح كهيئة الإنسان وليسوا بناس .

وقال بجاهد : الروح على صورة بني آدم لم أجد وأرجل وروس بأكلون الطعام وليسوا بملائكة . وقال سعيد ابن جبير : لم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش ، ولو شاء أن يبلغ السموات والأرضين السبع في لقمة عمل ، صورة خلقه على صورة الملائكة ، وصورة وجهه على صورة آدميين ، يقوم يوم القيامة من بين العرش والملائكة معه في صف واحد . وهو بمن يشفع لأهل التوحيد ، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستر من نور لحرق أهل السموات من نوره ، فهذه الأقاويل لا تكون إلا نقلاً وسماعاً بلنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وإذا كان الروح المشوّل عنه شيئاً من هذا المتقول فهو غير الروح الذي في الجسد ؛ فعلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعاً .

وقال بعضهم : الروح لطيفة تسمى من الله إلى أما كن معروفة لا يعرف عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره .

وقال بعضهم : الروح لم يخرج من دكنه لأنه لو خرج من دكنه كان عليه الذل . قيل : فمن أي شيء خرج ؟ قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة بخصا بسلامه وحياتها بكلامه ؛ فهي ممتدة من ذل دكنه . وسئل أبو سعيد الخزاز عن الروح : مخلوقة هي ؟ قال : نعم ، ولولا ذلك ما قربت الربوبية ، حيث قال عليه السلام : الروح هي التي قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة ، وبالروح ثبت العقل ، وبالروح قامت الحجة ؛ ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا لاجبة عليه ولا له ، وقيل : إنها جوهر مخلوق ولكنها ألقف المخلوقات وأصنى الجواهر وأنورها وبها ترمى الغيبات وبها يكون الكشف لأهل الحقائق ، وإذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الأدب ، ولذلك صارت الروح بين جهل واستنار وقايض ونازع ، وقيل : الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء ، وقيل الأرواح أقسام : أرواح تجول في البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ما يتحدث به في السماء عن أحوال آدميين وأرواح تحت العرش ، وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شامت على أقدارها من السعي إلى الله أيام الحياة .

وروى سعيد بن المسيب عن سليمان قال : أرواح المؤمنين تنهب في برزخ من الأرض حيث شامت بين السماء والأرض حتى يردّها إلى جسدّها .

وقيل : إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التفتوا وتحدّثوا وتساءلوا ، وكلّ الله بها ملائكة تمرض عليها أعمال الأحياء ، حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا : نعمتد إلى الله ظاهرها عنه ، فإنه لأحد أحب إليه العذر من الله تعالى . وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : تمرض الأعمال يوم الاثنين والحلّيس على الله ، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة ، فيفرحون بمسئلتهم وتزداد وجوههم يابسا وإشراقا ، فآخروا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم .

وفي خبر آخر : إن أعمالكم تمرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى ، فإن كان حسنا استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم أنتهم حتى تهديم كما هديتنا .

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد ، وليست بمعان وأعراض .

سئل الواسطي : لأي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحل المخلوق ؟ قال : لأنه خلق روحه أولا فوقع له محبة التمكن والاستقرار ، الا تراه يقول : كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد ، أي لم يكن روحا ولا جسداً وقال بعضهم : الروح خلق من نور العزة ، وإيليس من نار العزة ، ولهذا قال (خلقتني من نار وخلقته من طين) ولم يذكر أن النور خير من النار ، فقال بعضهم : قرآن الله تعالى العلم بالروح ، فهي لطافتها وبالدلم كما يتم البدن بالغذاء وهذا في علم الله ، لأن علم المخلوق قليل لا يبلغ ذلك .

والخيار عند أكثر متكلمي الإسلام : أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقاني للإنسان ، ولولت يدمهما ؛ وأن الروح هي الحياة بينما صار البدن بوجودها حيا ؛ وبالإعادة إليه في القيامة يصير حيا . وذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشبك بالأجسام الكثيفة اشتياكاً للواء بالعود الأخضر ، وهو اختيار أبو المعالي الجويني ، وكثير منهم مال إلى أنه عرض ؛ إلا أنه ردم عن ذلك الأخبار النافذة على أنه جسم ، لما ورد فيه من الوجود والهبوط والتردد في البرزخ ، لحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم ، لأن المرض لا يوصف بأوصاف ؛ إذ الوصف معنى والمعنى لا يتوهم بالمعنى . واختار بعضهم أنه عرض .

سئل ابن عباس رضي الله عنهما قيل : أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان ؟ فقال : أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان ، قيل له : فأين تذهب الجسوم إذا بليت . قال : فأين يذهب لهما إذا مرضت .

وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة وينسب إلى الإسلام : الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف وقال بعضهم : إنها إذا فارقت البدن تحمل معها الفترة الروحية بتوسط النطقية ، فتكون حيلة مطالعة للمعاني والمحسوسات ، لأن تجردها من هيئات البدن عند المفارقة غير ممكن ، وهي عند الموت شاعرة بالموت وبعد الموت ؛ متخيلة بنفسها مقبورة ، وتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة ، وتحس بالثوب والعقاب في القبر . وقال بعضهم : أسلم المغالات أن يقال : الروح شيء مخلوق أجرى الله تعالى المعاملة أن يحيي البدن مادام متصلاً به ، وأنه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد ، كما أن الجسد بمفارقته يذوق الموت ، فإن الكيفية والمادية يتعاضد العقل فيهما كما يتعاضد البصر في شعاع الشمس . ولما رأى المشككون أنه يقال لهم : الموجودات محصورة : قديم ، وجسم ، ووجود ، وعرض فالروح من أي هؤلاء ؟ فاختار قوم منهم أنه عرض . وقوم منهم أنه جسم لطيف كذا ذكرنا ، واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم ، فأحسن الإمساك عن القول فيما هذا سبيله . وكلام الشيخ أبي طالب المكي في كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد ، ومكذبا للنفس ، لأنه يذكر أن الروح تنحرك للغير ، ومن حركتها يظهر نور في القلب يراه الملك فيعلم الخير عند ذلك . وتنحرك للشر ، ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالإغواء .

وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير إلى الروح أقول : ما عذني في ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به ، إذ ميل في ذلك إلى السكون والإمساك فأقول والله أعلم : الروح الإنسان العلوي السجاري من عالم الأمر ، والروح الحيواني البشري من عالم الخلق ، والروح الحيواني البشري محل الروح العلوي ومورده . والروح الحيواني جسماني لطيف حامل لقوة الحس والحركة ، ينفص من القلب - أعني بالقلب هنا . المصنعة الحسية المعروفة بالشكل المرددة في الجانب الأيسر من الجسد ، وينشرف في تجاريف البرق الضواري ، وهذه الروح لساير الحيوانات ، ومنه يفيض قوى الحواس وهو الذي قواه به بإجراء سقائه بالغذاء غالباً . لا يتصرف ببلطيطه في اعتدال مزاج الأخطا ولورود الروح الإنسان العلوي على هذا الروح تجلس الروح الحيوانية بين أرواح الحيوانات ، ولا تكتسب صفة أخرى فصار نفساً محلاً لفظن والإلهام . قال الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) فتوسيتها برود الروح الإنسان عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات ، فتكون النفس تكون أمة تمل من الروح العلوي وصار تكون النفس التي هي الروح الحيواني من الأدنى من الروح العلوي في عالم الأمر ، كتنكون حواء من آدم في عالم الخلق ، وصار بينهما من التآلف والتماثل كما بين آدم وحواء ، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه قال الله تعالى (وجعل منها زوجاً ليسكن إليها) فبئس آدم إلى حواء ، وسكن الزوج الإنسان العلوي إلى الروح الحيواني وصيره نفساً ، وتكون من سكن الروح إلى النفس التلب ، وأعني بهذا القلب الطيف التي عليها المصنعة الحسية ، فلهذه الحسية من عالم الخلق ، وهذه الطيف من عالم الأمر ، وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر تكون القدرة من آدم وحواء في عالم الخلق ، ولولا المساكنة بين الزوجين الذين أحدهما النفس ما تكون القلب ، فمن القلب قلب

متطلع إلى الآب الذي هو الروح العلوي مبال إليه ، وهو القلب المؤيد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضي الله عنه قال : القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج برزخ فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب مربوط على غلانه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفوح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه مثل القلة بمذمة الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل الترحه بمذمة القبح والصيد ، فأى المسادين غلبت عليه حكمها ، والقلب المنكوس مبال إلى الآم التي هي النفس الأمارة بالسوء . ومن القلوب قلب مرتدد في ميله إليها ، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة ، والمقل جوهر الروح العلوي ولسانه والقلب عليه ، وتديره للقلب المؤيد والنفس الزكية الملمطة بتدبير الوالد الولد الباز ، والزوج للزوجة الصالحة ؛ وتديره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء بتدبير الوالد الولد العاني ، والزوج للزوجة السيئة ؛ فنكوس من وجه ومنجذب إلى تدبيرهما من وجه ؛ إذ لا بد له منهما .

وقول القائلين واختلافهم في محل العقل : فمن قائل إن محل الدماغ ، ومن قائل إن محل القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك ، واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد ، وانجذابه إلى البارئارة وإلى العاق أخرى والقلب والدماغ نسبة إلى الباز والمان ، فإذا رأى في تدبير العاق قبل مسكنة الدماغ ، وإذا رأى في تدبير الباز قبل مسكنة القلب ؛ فالروح العلوي يرم بالارتقاء إلى مولاة شرقا وحوا وتزها عن الأكوان ، ومن الأكوان القلب والنفس ؛ فإذا ارتقى الروح بمنزلة القلب إليه حتى الولد الخنثى الباز إلى الوالد ، وتحن النفس إلى القلب الذي هو الولد خنثى الرالبة الخنثى إلى ولدها ، وإذا حنت النفس ارتقت من الأرض وانزوت عرفت بها الضاربة في العالم السفلي والطوى هواها وانحسرت سانه وزهدت في الدنيا وتهاقت عن دار القرور وأنابت إلى دار الخلود ، وقد تجلله النفس التي هي الأم إلى الأرض بوضعها الجلي لتكوينها من الروح الحيواني المجنس ومستندة في ركونها إلى الطالع التي هي أركان العالم السفلي . قال الله تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب المنكوس بانجذاب الولد الميال إلى الرالبة المعرجة النافسة دون الوالد الكامل المستقيم ، وينجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده ، فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاة . وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة (ذلك تقدير العزيز العليم) .

وقد ورد في أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان : أين موضع العقل منك ؟ قال : القلب ؛ لأنه قالب الروح ، والروح قالب الحياة .

وقال أبو سعيد القرشي : الروح روحان روح الحياة وروح المات ؛ فإذا اجتماع العقل والجسم . وروح المات هي التي إذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتا ، وروح الحياة ما به مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرها . وقال بعضهم : الروح نسيم طيب يكون به الحياة ، والنفس دج حارة تكون منها الحركات المذمومة والفشوات ويقال : فلان حار الرأس وفي النصل الذي ذكرناه يقع التنبيه بمأهية النفس ، وإشارة المشايخ بمأهية النفس إلى ما يظهر من آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة ، وهي التي تعالج بحسن الرعاية إزالتها وتبديلها ، والأفعال الرديئة تزال والأخلاق الرديئة تبدل .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن اسمعيل القزويني ، قال أخبرنا إجازة أبو سعيد محمد بن أبي العباس الخليلي ، قال أخبرنا القاضي محمد بن سعيد الفرخزادى ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا الحسين بن محمد بن عبد الله السفيناني ، قال حدثنا محمد بن الحسن البجلي ، قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلي ، قال حدثنا صفوان بن صالح ، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن خزيمة عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية (قد أفلح من زكاهما) وقف ثم قال اللهم آتني بقى فقواها أنت وليها ومولاها وزكها أنت خير من زكها . .

وقيل : النفس لطيفة مودعة في الغالب ، منها الأخلاق والصفات المذمومة ، كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب ، منها الأخلاق والصفات الحميدة ، كما أن العين على الرؤية ، والأذن على السمع ، والأنف على الشم ، والتم على الذوق ، وهكذا النفس على الأوصاف المذمومة والروح على الأوصاف الحميدة ، وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين ، أحدهما الطيش ، والثاني الشر ، وطيشها من جهلها ، وشرها من حرصها ، وشبهت النفس في طبيعتها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب ، لا زال متحركة بجبهاتها ووضعها ، وشبهت في حرصها بالفرش الذي يلتصق بنفسه على حواف المصباح ولا يتقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذي فيه هلاكه ، فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر ، والصبر جوهر العقل ، والطيش صفة النفس ، وهواها وروحها لا ينليه إلا الصبر ، إذ العقل يسمع الهوى ، ومن الشر يظهر الطمع والحرص ، وهما القذان ظهرا في آدم حيث طمع في الخلود ، حرص على أكل الشجرة .

وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها ، لأنها مخلوقة من تراب ، ولها بحسب وصف ، وقيل وصف الضعف في الآدمي من التراب ، ووصف البخل فيه من العين ، ووصف الشهوة فيه من الخا المسنونة ، ووصف الجهل فيه من الصلصال . وقيل قوله (كالنخار) فهذا الوصف فيه شيء من الشيطنة لدخول النار في النخار ؛ فمن ذلك الخداع والحيل والحسد ؛ فمن عرف أصول النفس وجبلاتها عرف أن لا قدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفطرها ، فلا يتحقق العبد بالإسانية إلا بعد أن يدبر دواعي الحيوانية فيه بالعلم والعدل ، وهو رعاية طرق الإنفاق والتفريط ، ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيه والأخلاق المذمومة ، وكال إنسانيته يتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ، ثم تكشف له الأخلاق التي تنازع بها الربوبية من الكبر والمز وروية النفس والمحب وغير ذلك ، فيرى أن صرف العبودية في ترك المنازعة للربوبية ، والله تعالى ذكر النفس في كلامه التقديم بثلاثة أوصاف ؛ الطمأنينة . قال (يا أيها النفس المطمئنة) وسماها لومة ، قال (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) وسماها أمارة ، فقال (إن النفس لأمارة بالسوء) وهي نفس واحدة . ولها صفات متغايرة ، فلذا امتلأ القلب سكونة خلع على النفس خلع الطمأنينة ، لأن السكونية مزيد الإيمان ، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منع من حظ البقين ، وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب ، وفي ذلك طمأنينتها ؛ وإذا ارتفعت من مقام جبلاتها ودواعي طبيعتها متطلعة إلى مقام الطمأنينة فهي لومة ؛ لأنها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعليها بحمل الطمأنينة ثم اجتذبتها إلى محلها التي كانت فيه أمارة بالسوء ؛ وإذا أقامت في محلها لا ينشأها نور العلم والمعرفة ، فهي على ظلها أمارة بالسوء ؛ فالنفس والروح بتطاردان ؛ فتارة يملك القلب دواعي الروح ، وتارة يملكه دواعي النفس .

وأما السر فقد أشار القوم إليه . ووجدت في كلام القوم أن منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح . ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها وألطف . وقالوا : السر على الشاهدة ، والروح على الحبة ، والقلب على المعرفة ، والسر الذي وقمت إشارة القوم إليه غير مذكور في كتاب الله ، وإنما للذكور في كلام الله الروح والنفس ، وتوعد صفاتها والقلب والفؤاد والعقل ، وحيث لم نجد في كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ، وربما بالاختلاف في القوم فيه وأشار قوم إلى أنه دون الروح ، وقوم إلى أنه ألطف من الروح ؛ فنقول - والله أعلم - الذي سموه سرا ليس هو بشيء مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس ، وإنما لما صفت النفس وتوكت انطلق الروح من وثاق ظلة النفس ، فأخذ في المروج إلى أوطان القرب ، وانزح القلب عند ذلك عن منسقره متطلعا إلى الروح ؛ فاكسب وصفا زائدا على وصفه ، فأنعم على الواجدين ذلك الوصف حيث أراه أصنى من القلب فسموه سرا . ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه إلى الروح اكسب الروح صفات زائدة على عروجها وأنعم على الواجدين فسموه سرا ، والذي ذهبوا أنه ألطف من الروح : روح متصفة بوصف أخص بما عهدوه ، والذي سموه قبل الروح سرا : هو قلب انصف بوصف زائد غيبنا عهدوه ، وفي مثل هذا الترقى من الروح والقلب ترقى النفس إلى محل القلب ، وتتخلع من وصفها فتصير نفسها مطمئنة تزيد كثيرا من مرادات القلب من قبل إذ صار القلب يريد ما يريد

مولاه مبرها عن الحول والقوة والإرادة والاختيار، وعندها ذاق طعم صرف البودية حيث صار حرا عن إرادته واختياره .

وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة ، والبصيرة للروح بمثابة القلب ، والعقل للسان . وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له أقم فقم ، ثم قال له انطق فطق ، ثم قال له اصمت فصمت . فقال : وعزى وجللى وعظمى وكبرياى وسلطانى وجبروتى ما خلقت خلقا أحب إلى منك ولا أكرم على منك ، بك أعرف وبك أحمد ، وبك أطاع وبك أخذ وبك أعطى ، وإياك أعاتب ، ولك الثواب وعليك العقاب ، وما أكرمك بشئ أفضل من الصبر ، وقال عليه السلام : لا يمجىبكم إسلام رجل حتى تدلوا ما عقله . . وسألت عائشة رضى الله عنها التى صلى الله عليه وسلم قالت : قلت يا رسول الله : بأى شيء يتفاضل الناس ؟ قال : « بالعقل فى الدنيا والآخرة » قالت : أليس يجرى الناس بأعمالهم ؟ قال : « بأعاشه » ، وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر ما يعملون يجرى . وقال عليه السلام : إن الرجل لينطق إلى المسجد فيصلى وصلاته لاتمدل جناح بوضوء ، وإن الرجل لياقئ المسجد فيصل وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلا . قيل : وكيف يكون أحسنهما عقلا ؟ قال : « أروعهما عن عمار الله وأحرصهما على أسباب الخير وإن كان دونه فى العمل والتطوع » .

وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتا ، فإن الرجلين يستوى عليهما ويرهما وصومهما وصلتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب أحد .

وروى عن وهب بن منبه أنه قال : إنى أجد فى سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بده الدنيا إلى انقطاعها من العقل فى جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا .

واختلف الناس فى ماهية العقل ، والكلام فى ذلك يكثر ، ولا تؤثر نقل الأقاويل ، وليس ذلك من غرضنا ، فقال قوم : العقل من العلوم ؛ فإن أحوال من جميع العلوم لا يوصف بالعقل ، وليس العقل جميع العلوم ؛ فإن أحوال من منظم العلوم يوصف بالعقل . وقالوا : ليس من العلوم النظرية ، فإن من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل ؛ فهو إذن من العلوم الضرورية وليس هو جميعها ، فإن صاحب الحواس الخمسة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية .

وقال بعضهم : العقل ليس من أقسام العلوم ؛ لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الناهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلا ونحن نرى الماقل فى كثير من أوقاه ذاهلا وقالوا : هذا العقل صفة يتبها بهادرك العلوم ونقل عن الحارث بن أسد المحاسي وهو من أجل المشايخ أنه قال : العقل غريزة يتبها بهادرك العلوم ، وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى أول ذكر العقل ؛ أنه لسان الروح ؛ لأن الروح من أمر الله ، وهى المتتمعة للإمامة التى أبوت الحسرات الأرضى أن يحسمها ، ومنها يفيض نور العقل وفى نور العقل تتشكل العلوم ؛ فالعقل العلوم بمثابة ألواح المكتوب ، وهو بصفته منكوس متطلع إلى النفس تارة ومتنصب مستقيم تارة ، فمن كان العقل فيه منكوسا إلى النفس فرقة فى أجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاعتدال ، ومن انتصب العقل فيه واستقام : تأيد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب ، وامتد إلى المكرون ، ثم عرف الكون بالمكرون : مستوفيا أقسام المعرفة بالمكرون والكون ؛ فيكون هذا العقل عقل الهداية ؛ فسكا أحب الله إقباله فى أمره على إقباله عليه ، وما كرمه الله فى أمره على الإبداء عنه ، فلا يزال يتبع عجاب الله تعالى ويحتجب بمساخطه ، وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالاته على الرشد ونبيه عن النسي .

قال بعضهم : العقل على ضربين : ضرب يصبر به أمر دنیا ، وضرب يصبر به أمر آخرته ، وذكر أن العقل الأول من نور الروح ، والعقل الثانى من نور الهداية ؛ فالعقل الأول موجود فى عامة ولد آدم ، والعقل الثانى

موجود في الموحدين مفقود من المشركون .

وقيل : إنما سمى العقل عقلا لأن الجهل ظلة ، فإذا غلب الثور بصره في تلك الظلة زالت الظلة فأبصر فصار عقلا للجهل .

وقيل : عقل الإيمان مسكنه في القلب ومتعمه في الصدر بين عيني الفؤاد ، والذي ذكرناه من كون العقل لسان الروح - وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ، ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء في مواضعها ، وهذا العقل هو المستغنى بنور الشرع ؛ لأن انتصابه واعتداله عداة إلى الاستضاءة بنور الشرع ، ليكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل ، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التي هي الروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأيد البصيرة ، فالبصيرة تحيط بالعلوم التي يستوعبها العقل والتي يضيق عنها نطاق العقل ، لأنها تستمد من كلمات الله التي ينفذ البحر دون نفاذها ، والعقل ترجان تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطرا ، كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ، ولهذا المعنى من جدد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حتى يعلوم الكائنات التي هي الملك ، والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطمأن على الملكوت ، والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفة أرباب البصائر والمقولات دون الجامدين على مجرد العقول ، وقد قال بعضهم : إن العقل عقلان ، عقل للهداية مسكنه في القلب وذلك للؤمنين المؤمنين ومتعمه الصدر بين عيني الفؤاد ، والعقل الآخر مسكنه في الدماغ ومتعمه في الصدر بين عيني الفؤاد ، فبالأول يدبر أمر الآخرة ، وبالثاني يدبر أمر الدنيا ، والذي ذكرناه أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصيرة لا يبر الأمرين ، وإذا انفرد بامر واحد وهو أوضح وأبين . وقد ذكرنا في أول الباب من تدبير النفس الملمنة والأمانة ما يقبب الإنسان به على كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصيرة تارة ومنفردا بوصفه تارة . والله الملمهم للصواب ،

الباب السابع والخمسون : في معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها

أخبرنا شيخنا أبو العجيب السهروردي ، قال أخبرنا أبو الفتح المروزي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجرجاني ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال أخبرنا حنادة ، قال أخبرنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن للشيطان لغة بآدم وللبلقاء ، فأمانة الشيطان فلهامد بالشرو وكذب بالحق ، وأمانة الملك فلهامد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من أهل قلبه حمد الله ، ومن وجد الآخر فليست مؤذاه من الشيطان ، ثم قرأ (الشيطان يمدكم الفقر وأمركم بالنشأ) ، وإنما يتطلع إلى معرفة الممتن بتمييز الخواطر طالب مرشد يتشرف إلى ذلك تشرف المشطبان إلى الماء . لما سلم من وقع ذلك وخطر وفلاحه وصلاحه وفاداه ، ويكون ذلك عبدا إما بالخطوة بصفو اليقين ومنع المرقين ، وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم . ومن أخذ في طريق البراءة يشوف إلى ذلك بعض التشوف ، لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله الكريم ، ومن هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة الممتن ولا يتم بتمييز الخواطر ، ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد ، كما قال بعضهم : لى قلب إن عصيته عصيت الله ، وهذا حال عبد استقام قلبه ، واستقامة القلب لطمأنينة النفس ، وفي طمأنينة النفس يأس الشيطان ، لأن النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب ، وإذا تمكدر طمع الشيطان وقرب منه ، لأن صفاء القلب عنفون بالتذكر والرعاية ، ولذا كثر نور يتقيه الشيطان كاختفاء أحدا النار . وقد ورد في الخبر : الشيطان جائم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى تولى وغشى ، وإذا غفل التزم قلبه لحده ومناه ، وقال الله تعالى (ومن يمشى عن ذكر الرحمن نقض له شيطاناً فهو له قرين) وقال الله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسمع طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فبالنقوى وهو حال الصالح الكبر ، وبها يفتش

بأبه ، ولا يزال البعد يتق حتى يجمي الجوارح من المكارة ثم يجمعها من الفضول وما لا يعنيه ، فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ، ثم تقتل قراءه إلى باطنه ويظهر الباطن ويقيده عن المكارة ثم من الفضول ، حتى يتق حديث النفس . قال سهل بن عبد الله : أسوأ الناس حديث النفس ، ويرى الاصغاء إلى ما يتحدث به النفس ذنباً فينتقيه ، ويتعد القلب عند هذا الإتهام بالذكراة الكواكب في كبد السياه ، ويهيد القلب سماء يحفظها برينة كواكب الذكر ؛ فإذا صار كذلك بعد الشيطان ، ومثل هذا العبد يتد في حقه الخواطر الشيطانية لمساته ، ويكون له خواطر النفس ويحتاج إلى أن يتقها ويميزها بالعلم ، لأن منها خواطر لا يضر لمساؤها ، كمطالبات النفس بمجاهداتها ، وساجياتها تقسم إلى الحقوق والخطوط ، ويتمين التيق عند ذلك واتهام النفس بمطالبات الخطوط . قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أي فتبينوا ، وسبب نزول الآية الوليد بن عتبة حيث بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق فكذب عليهم ونسبهم إلى الكفر والمصيان ، حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتالهم ، ثم بعث خالداً إليهم فسمع أذان المغرب والعشاء ، ورأى ما يدل على كذب الوليد بن عتبة ؛ فأزول الله تعالى الآية في ذلك ؛ فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر ، وصار ذلك تنبيهاً من الله عياده على التثبت في الأمور . قال سهل في هذه الآية : الفاسق الكذاب ، والكذب صفة النفس لأنها تمل أشياء وتسل أشياء على غير حقائقها ، فتعين التثبت عند خاطرها ولقائها فيجعل البعد خاطر النفس نبأً يوجب التثبت ولا يستغزه الطبع ولا يستعجله الهوى ، فقد قال بعضهم : أدنى الأدب أن تتقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تتقف عند الشهية .

ومن الأدب عند الاشتياء ؛ إزالة الخاطر بمحرك النفس وعاقبتها وبارئها وقاطرها ؛ وإظهار الفقر والفاقة إليه ، والاعتراف بالجهل وطلب المعرفة الموقوتة منه ، فإنه إذا أتى بهذا الأدب يفتك ويمن ، ويتيقن له هل الخاطر لطلب حفظ أو طلب حق ؟ فإن كان للحق أمعاء ، وإن كان للحظ نفاة ، وهذا التوقف إذا لم يتيقن له الخاطر بظاهر العلم ؛ لأن الافتقار إلى باطن العلم عند فقدان الدليل في ظاهر العلم ، ثم من الناس من لا يسمه من سمته إلا الوقوف على الحق دون الخط وإن أمضى خاطر الخط يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب .

ومن الناس من يدخل في تناول الخط ويجمي خاطره بيزيد علمه من الله . وهو علم السعة لمعد ما دون له في السعة عالم بالإن ، فيمضي خاطر الخط ، والمراد بذلك على بصيرة من أمره يمجس به ذلك ويليق به عالم بزيادته وقصاه عالم بحاله حكم لعلم الحال ، وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد ؛ لأنه أمر عاص لمعد خاص ، وإذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس في مقام تخلصه من لمسات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك ، وتصير الخواطر الأربعة في حقه ثلاثاً ويهبط خاطر الشيطان إلا نادراً لضيق مكانه من النفس ؛ لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس ، واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاد إلى الأرض ، ومن ضايق النفس على التيق بين الحق والخط ضاقت نفسه وسقط عمل الشيطان إلا نادراً لدخول الابتلاء عليه ؛ ثم من المرادين المتعلقين بمقام التيق من إذا صار قلبه سماء مزينة بركبة كوكب الذكر ، يصير قلبه سماواً يترق ويرج بباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات ، وكلما ترقى تتضاءل النفس المظلمة وتبيد عنه خواطر ما حلق بمجاوز السموات بهر ووج بباطنه ، كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظواهره وقالبه ؛ فإذا استكمل العروج تقطعت عنه خواطر النفس لتسره بانوار التيق وبعدت عنه النفس وعند ذلك تقطعت عنه خواطر الحق أيضاً لأن الخاطر رسول والرسالة إلى من يبعد وهذا قريب . وهذا الذي وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم ، بل يعود فيهبوط إلى منازل مطالبات النفس وخواطرها فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك ، وذلك أن الخواطر تستمدع وجوداً . وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه ، وخاطر الحق انتفى لمكان القرب ، وخاطر النفس يبعد عنه لبعد النفس ، وخاطر الملك تخفف عنه كتخلف جبريل في ليلة المعراج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : لو نوت أنملة لا احترقت . قال عبد بن الرمدى : الحديث والمسلم إذا تحققت درجاتهم تخاف من حديث النفس ؛ فكأن الثيرة محفوفة من لقاء الشيطان كذلك عمل المسكافة أو المحادثة محفوفة من لقاء النفس وقتلتها وعروس بالحق والسكينة ؛ لأن السكينة

حجاب المتكلم والمحدث مع نفسه .

وسمعت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري بالبصرة يقول : الخواطر أربعة : خاطر من النفس ، وخاطر من الحق ، وخاطر من الشيطان ، وخاطر من الملك . فأما الذي من النفس : فيحس به من أرض القلب ، والذي من الحق : من فوق القلب ، والذي من الملك : عن بين القلب ، والذي من الشيطان : عن يسار القلب . والذي ذكره إنما يصح لعباد آذاب نفسه بالتقوى والزهد ، وتصفى وجوده ، واستقام ظاهره وباطنه ، فيكون قلبه كالمرآة الجلية : لا يابيه الشيطان من ناحية إلا ويبصره ، فإذا أسود القلب وعلاء الرين لا يبصر الشيطان .

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن العبد إذا أذنب تكب في قلبه : تكتة سوداء ، فإن نزع واستغفر وتاب عقل وإن عاد زيد فيه حتى تملو قلبه . قال الله تعالى ﴿ كل بل بران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ سمعت بعض العارفين يقول كلاماً دقيقاً كوشف به فقال : الحديث في باطن الإنسان . والحبال الذي يراه يباطنه ويخيل بين القلب وصفاء الذكر : هو من القلب وليس هو من النفس ، وهذا بخلاف ما يمتزج ، فسأله عن ذلك : فذكر أن بين القلب والنفس مناعة ومخادعات وتألما وتوددا ، وكلما انطلقت النفس في شيء بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدس ، فإذا عاد البعد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره وعمل مناجاته وعنده الله تعالى ، أقبل القلب بالمعابة للنفس ، وذكر النفس شيئاً من ضلالتها وقولها كاللائم للنفس والمعائب لها على ذلك ، فإذا كان الخاطر أول الفعل ومفتتحة فمررتهم أهم شأن العبد ، لأن الأعمال من الخواطر تنشأ ، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن العلم المقترض طلبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، هو علم الخواطر ، قال : لأنها أول الفعل ، وبفسادها فساد الفعل ، وهذا لعمرى لا يتوجه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب ذلك على كل مسلم ، وليس كل المسلمين يندم من التريفة ، والمعرفة ما يعرفون به ذلك ، ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر ، فمنها ما هو بذر السعادة ، ومنها ما هو بذر الشقاوة .

وسبب اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لا غاص لها : إحصاف الية ين ، وأوقلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقتها ، أو متابعة الهوى يخرم قواعد التقوى ، أو حجة الدنيا جامها وما لها وطلب الرفعة والمنازلة عند الناس . فن عزم من هذه الأربعة : يفرق بين لة الملك ولة الشيطان . ومن ابتلى بها : لا يملها ولا يطلبها ، وتكشف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض ، وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقدمهم بمعرفة النفي ومعرفة صفة الخصال لا تكاد تيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى .

وانفق المشايخ على أن من كان آكله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة .

وقال أبو علي الفارابي : من كان قومه معلوما لا يفرق بين الإلهام والوسوسة ، وهذا لا يصح على الإطلاق إلا قيده ، وذلك أن من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبده إذا سبق إليه في الأخذ منه والتفتت به ، ومثل هذا المعلوم لا يصح عن تمييز الخواطر إنما ذلك يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإشراق ، لأنه ينحجب لموضع اختياره ، والذي أشرقا إليه مسلخ من إرادته فلا يصحبه المعلوم .

وفرقت بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان ، وقالوا : إن النفس تطالب وتعلم ، فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها ، والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى ، إذ لا غرض له في تخصيص ، بل مراده الإغواء كيفما أمكنه . وتكلم الصيوخ في الخاطرين إذا كانوا من الحق أيما يتبع ؟ قال الجنيد : الخاطر الأول لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى التأمل ، وهذا شرط العلم . وقال ابن عطاء : الثاني أقوى لأنه ازداد قوة بالأول ، وقال أبو عبد الله ابن خفيف : هما سواء لأنهما من الحق فلا مزنة لاحدهما على الآخر .

قالوا : الواردات أعين من الخواطر ، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو مطالبة ، والواردات تكون تارة خواطر وتارة تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط .

وقيل : بنور التوحيد يقبل الحاطر من الله تعالى ، وبنور المعرفة يقبل من الملك ، وبنور الإيمان ينهى النفس ، وبنور الإسلام يرد على البدن . ومن قصر عن ذلك حقائق الزهد وتطلع إلى تمييز الحواطر بين الحاطر أولاً وبينان الشرع ، لما كان من ذلك نفلاً أوفر من فضله ، وما كان من ذلك حرماً أوسكروها بنفيه ؛ فإن استوى الحاطران في نظر العلم نفذ أثرهما إلى مخالفة هوى النفس ، فإن النفس قد يكون لها هوى كما في أحدهما ، والغالب من شأن النفس الانعراج والركون إلى البدن ، وقد يلم الحاطر بنشاط النفس والبدن يظن أنه ينهض القلب ، وقد يكون من القلب نفاق يسكنه إلى النفس ، ويقول بعضهم : متعشرين سنة ماسكن قلبي إلى نفس ساعة ، فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم ، فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراصون ، وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والآخرين من اليقين واليقظة والحال بهم من هذا القبيل ، وذلك لثمة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم .

ويبنى أن يعلم العبد فعلاته مما يبق عليه أثر من الهوى وإن دق وقل يبق عليه بحسب بقية من اشتباه الخواطر ، ثم قد يغلط في تمييز الخواطر من هو قليل العلم ، ولا يواخذ بذلك ما لم يكن عليه من الشرع مطالبة ، وقد لا يسامح بذلك بعض الفاضلين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء في التمييز ، ثم استعجلهم مع علمهم وقلة التثبت .

وذكر بعض العلماء أن لمة الملك ولة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح ، وأن النفس إذا تحركت اندح من جوهرها طلبة تسكن في القلب ممة سوء ، فينظر الشيطان إلى القلب فيقبل بالإغواء والوسوسة ، وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس ، أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي ، أو دعوى حركة أو سكون وهي آفة العقل وسعة القلب ، ولابد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة : أو غفلة ، أو طلب فضول ، ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه ، فإنما ترده بخلاف ما هو أوعى وفق منه . ومنها ما يكون نفعاً فنية إذا وردت بإحسان ، وذكر أن الروح إذا تحركت اندح من جوهرها نور وساطع يظهر من ذلك النور في القلب ممة عالية بأحد ممان ثلاثة : إما يفرض أمر به ، أو يفضل تدب إليه ، وإما يباح يعود صلاحه إليه ، وهذا الكلام يدل على أن حركة الروح والنفس هما الوجهان لليتين . وعندى واهة أعلم أن اللتين يتقدمان على حركة الروح والنفس ، لحركة الروح من لمة الملك ، والهمة المألقة من حركة الروح ، وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك . وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة ، وهي من شؤمة الشيطان . فإذا وردت اللتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من مطع كرم ومبل حكيم . وقد تكون هاتان اللتان متداوركتين وينمحي أثر أحدهما بالأخرى . والمتفطن السيقظ يفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار في ذاته باب أنس ، ويبقى أبداً متفقداً حاله مطالعاً آثار اللتين .

وذكر خاطر خامس : وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة ، يكون مع النفس والبدن لوجود التمييز وإبانت الحاجة على العبد ، ليدخل البدن في الشيء بوجود عقل ، إذ لو فقد العقل سقط المتاب والمتاب ، وقد يكون مع الملك والروح ليقوع الفعل مختاراً ويستوجب به الثواب .

وذكر خاطر سادس : وهو خاطر اليقين ، وهو روح الإيمان ومنزلة العلم ، ولا يبعد أن يقال : الحاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق وخواطر العقل أصله تارة من خاطر الملك ، وتارة من خاطر النفس ، وليس من العقل خاطر على الاستقلال ، لأن العقل كما ذكرنا غريزة يتهيا بها إدراك العلوم ويتهيأ بها الانجذاب إلى دواعي النفس تارة وإلى دواعي الملك تارة ، وإلى دواعي الروح تارة وإلى دواعي الشيطان تارة فعلى هذا لا يزيد الخواطر على أربعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر غير اللتين ، وهاتان اللتان هما الأصل ، والخواطران الآخران فرع عليهما ، لأن لمة الملك إذا حركت الروح واعتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة إلى حظائر القرب ، فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق ، وإذا تمحقت بالقرب بالتحقق بالفناء ، فتهبت الخواطر الربانية عند ذلك ، كما ذكرناه قبل لموضع قربه ، فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ، ولة الشيطان إذا حركت النفس هوى يجلبها إلى

مركزها من الغريزة والطبع ، فظهر منها حركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهما ، فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان ، فأصلها لثان وينتجان آخرين ، وغاير اليقين والقل متدرج فيما . والله أعلم .

الباب الثامن والخمسون : في شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك ، ووجود الاشتباه لا يمكن تشابههما في نفسها وبداخلهما ، فترامى للبعض الشيء حالا وترامى للبعض مقاما ، وكلا الرأيتين صحيح لوجود تشابههما بولابد من ذكر ضابط يفرق بينهما ، على أن اللفظ والمعبارة عنهما مشعر بالفرق : فالحال سمي حالاً لحزله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشيء بعينه حالا ثم يصير مقاما ، مثل أن يقبض من باطن العبد داعية المحاسبة ، ثم يزول الداعية بنقلة صفات النفس ثم تعود ثم يزول ، فلا يزال العبد حال المحاسبة يشاهد الحال ، ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم وينقلب حال المحاسبة وتظهر النفس وتنضبط وتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستره ومقامه ، فيصير في مقام محاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة ، ثم ينزله حال المراقبة ، فن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال ، ثم يحول حال المراقبة لتتأثر بالسور والغفلة في باطن العبد إلى أن يتفزع ضباب السور والغفلة ويتداركه الله عبده بالمعونة ، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ولا يستمر مقام المحاسبة قراؤه إلا بنازل حال المراقبة . ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستمرار ويظهر بالتجلى ، ثم يصير مقاما ويتخلص شيهه عن كسوف الاستنار ، ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء ، والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل بحرق شفاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة . وقد قال - ولله صلى الله عليه وسلم - اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي .

قال سهل بن عبد الله : القلب تجويفان ، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسو بداهة ، والتجويف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ، ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين ، وهو صقال لموضع خصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين ، ومنه تميزت الأشعة المحيطة بالمرئيات ، فهكذا تميزت من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات ، وهذه الحالة التي خرقت شفاف القلب ووصلت إلى سويدائه وهي حق اليقين : هي أسى البطايا وأعر الأحوال وأشرفها ، ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من التراب ، إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرا ، فالمشاهدة هي الأول والأصل ، يكون منها الفناء كالطين ، ثم البقاء فاللبن ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي أشرف الأحوال وهي محض موهبة لاكتساب سميت كل المواهب من التوازل بالعبد أحوالا ، لأنها غير مقدرة للعبد بكسبه ، فأطلقوا القول وتداركت السنة الشيوخ أن المقامات مكاسب ، والأحوال مواهب ، وعلى الترتيب الذي ذكرناه على كل ما مر ، إذ المكاسب مخوفة بالمواهب ، والمواهب مخوفة بالمكاسب ، فالأحوال مواجيد ، والمقامات طرق المواجيد ، ولكن في المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب ، وفي الأحوال بطل الكسب وظهرت المواهب ، فالأحوال مواهب علوية سبوية . والمقامات طرقها وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سلوني عن طرق السموات فإني أعرف بها من طرق الأرض : إشارة إلى المقامات والأحوال ، فطرق السموات الثوبة والزهد وغير ذلك من المقامات . فإني السالك لهذه الطرق يصير قلبه سبويا ، وهي طرق السموات ومبتذل الركبات ، وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سبوي . قال بعضهم الحال هو الذكر الخفي ، وهذا إشارة إلى شيء مما ذكرناه ، وسمعت المشايخ بالعراق يقولون : الحال مامن الله ، فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون : هذا مامن العبد ، فإذا لاح المرید شيء من المواهب والمواجيد قالوا : هذا مامن الله ، وسموه حالا إشارة منهم إلى أن الحال موهبة .

وقال بعض مشايخ خراسان : الأحوال موارث الأعمال .

وقال بعضهم : الأحوال كاللوق ، فإن بقي لحديث النفس ، وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك في بعض الأحوال فليها تطرق ثم تستلبها النفس ؛ فأما على الإطلاق فلا ، والأحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء .

وذبح بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت ، فأما إذا لم تدم فهي لوازم وطوالع وبرادر ، وهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال .

واختلف المشايخ في أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذي هو فيه قبل إحكام حكم مقامه . قال بعضهم : لا ينبغي أن ينتقل عن الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه .

وقال بعضهم : لا يكتل المقام الذي هو فيه إلا بعد تربيته إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالي إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه . والأولى أن يقال - والله أعلم - : الشخص في مقامه يعطى حالا من مقامه الأعلى الذي سوف يرتقى إليه ، فيوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ، ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقى ألا يرتقى ، فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات ، والأحوال مراهب ترقى إلى المقامات التي يمتزج فيها الكسب بالمربة ، ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب تربيته إليه ، فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بمراتب الأحوال ، فعلى ما ذكرناه يتضح تدخل المقامات : الأحوال حتى التوبة ، ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام ، وفي الزهد حال ومقام ، وفي التوكل حال ومقام ، وفي الرضا حال ومقام .

قال أبو عثمان الحيري : منذ أربعين سنة ما قأنى الله في حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالا ثم يصير مقاما ، والحاجة حال ومقام ، ولا يزال العبد يقترب بطروق حال التوبة حتى يتوب ، وطروق حال التوبة بالانزجار أولا قال بعضهم : الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى البقعة ، فإذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ . وقال بعضهم : الزجر ضياء في القلب يبصر به خطأ قصده . والزجر في مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه : زجر من طريق العلم ، وزجر من طريق النقل ، وزجر من طريق الإيمان ، فينال التائب حال الزجر ، وهي موهبة من الله تعالى تفوقه إلى التوبة ، ولا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يحوجه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما ، وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنزلة حال تربيته لئلا ترك الاشتغال بالدنيا وتفسح له الإقبال عليها ، فتتمحو أثر حاله بدلالة شدة التفتن وحرسها على الدنيا ورغبة العاجلة حتى تتداركه الموعنة من الله الكريم ، فيزهد ويستقر زهده . ويصير الزهد مقاما ، ولا يزال نازلة حال التوكل تفرغ باب قلبه حتى يتوكل ، وهكذا حال الرضا حتى يطمئن على لرضا ، ويصير ذلك مقاما ، وههنا لطيفة : وذلك أن مقام الرضا والتوكل يشبه ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع ، ولا يحكم ببقائه حال الرضا مع وجود داعية الطبع ، وذلك مثل كراهة يحدوها الراضى بحكم الطبع ، ولكن عليه بمقام الرضا بفرض حكم الطبع وظهور حكم الطبع في وجود الكراهية المضمورة بالعلم لا يخرجها عن مقام الرضا ، ولكن يفقد حال الرضا لأن الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع ، فيقال : كيف يكون صاحب مقام في الرضا ولا يكون صاحب حال فيه والحال مقدمة المقام والمقام أثبت ، نقول : لأن المقام لما كان مشروبا بكسب العبد احتمال وجود الطبع فيه ، والحال لما كانت موهبة من الله تزهت عن مزج الطبع لحال الرضا أشرف ، ومقام الرضا أمكن ، ولابد للمقامات من زائد الأحوال ، فلا مقام إلا بعد سابقة حال ، ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال .

وأما الأحوال فهما لا يصير مقاما ، وهما لا يصير مقاما ، والسر فيه ما ذكرناه : أن الكسب في المقام ظهر والموهبة بطنة ، وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن ، فلما كان في الأحوال الموهبة غالبية لم تقيد وصار الأحوال إلى ما لانهاية لها ، ولطف سنى الأحوال أن يصير مقاما ، ومقدورات الحق غير متناهية ، ومواهب غير متناهية ، ولهذا قال بعضهم : لو أعطيت روحانية عيسى ومكة موسى وخلة إبراهيم عليه السلام لطلبت ما وراء ذلك ، لأن مواهب الله

لا تنحصر ؛ وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء . ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما فيه من أمرا الحق تعالى ؛ لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه تبه على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستئزال بركة المزيد بقوله عليه السلام ، كل يوم لم أزد فيه علما فلا يورك في في صبيحة ذلك اليوم . . وفي دعائه صلى الله عليه وسلم ، اللهم مانصر عنه رأيي وضعف فيه عملي ولم تلهني وأمني من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطي أحدنا من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك ليا .

فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر ، والأحوال مواهب وهي متصلة بكلمات الله التي ينفد البحر دون نفاذها وتنفذ أعداد الرمال دون أعدادها . والله النعم المعطي .

الباب التاسع والخمسون : في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو التيجيب السهرودي رحمه الله ، قال أخبرنا أبو منصور بن خيرون إجازة ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الجوهري إجازة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن صاعد . قال أخبرنا الحسين بن الحسن المروزي ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا المهيم ابن جميل ، قال أخبرنا كثير بن سليم الهذلي ، قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال . يا رسول الله ، إني رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم . ه أبن أنت من الاستغفار ؟ فإني استغفرت الله في اليوم واليلة مائة مرة ، وروى أبو هريرة رضى الله عنه في حديث آخر . فإني استغفرت الله وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة ، وروى أبو بردة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ه إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة .

وقال الله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) وقال الله عز وجل (إن الله يحب التوابين) وقال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) التوبة أصل كل مقام ، وقوام كل مقام ، ومفتاح كل حال ، وهي أول المقامات ، وهي بمثابة الأرض لبناء ؛ فمن لا أرض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له ؛ وإني يبلغ على وقدور وسعي وجهدي اعتبر المقامات والأحوال وثمرتها ، فرأيتها مجتمعا ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه ، فصارت مع الإيمان أربعة ، ثم رأيتها في إعادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة أطبايع الأربع التي جعلها الله تعالى لإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ، ومن تحقق بمقتضى هذه الأربع بلغ ملكوت السموات وبكاشف بالقدر والآيات ، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات يحظى بجميع الأحوال والمقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها نبيات وتأكدت ، فأخذ الثلاث بعد الإيمان : التوبة النصوح . والثاني : الزهد في الدنيا . والثالث : تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقلبية من غير فتور وقصور ، ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تضاءل وتوابعها ، وهي قوة الكلام ، وقوة الطعام ، وقوة المنام ، والاعتزال عن الناس . وانتفى العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستغنى المقامات وتستقيم الأحوال ، وبها صار الأبدال أبدالاً بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه . وتبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تدرج في صحة هذه ، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها ، أولها بعد الإيمان : التوبة ، وهي في مبدأ رحمتها تنفتح إلى أحوال وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ، ولا بد في ابتدائها من وجود زاجر ووجدان الزاجر حال ، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب ، وسال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤا .

قال رجل ليشر الحاق : مالي أراك مهموما ؛ قال : لأني ضال ومطلوب ، ضللت الطريق والمقصود وأنا مطلوب به ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطليت ، ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس لي منها خلاص إلا أن أزرع فأزجر وقال الأصمعي : رأيت أعرابيا بالبرية يشكك عينيه وهما يسيل منهما الماء ، فقلت له : ألا تمسح بعينيك ؟ فقال : لا ؛ لأن الطيب زجرني ، ولاخير فيمن لا يزرع .

فلما رآه في الباطن حال يهيم الله تعالى ، ولابد من وجودهما للتائب ؛ ثم بعد الانزعاج يجد العبد حال الانتباه . قال بعضهم : من لم يطالمة الطوارق انتبه . وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس : إذا ذكر نفسه افتقر ، وإذا ذكر ذنبه استغفر ، وإذا ذكر الدنيا اعتبر ، وإذا ذكر الآخرة استبشر ، وإذا ذكر المولى افشسر . وقال بعضهم : الانتباه أوائل دلالات الخير ، إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أده ذلك الانتباه إلى التيقظ ؛ فإذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشيد فيطلب ، وإذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبته ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ .

قال فارس : أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار . وقيل : التيقظ تبيان خط المسالك بعد مشاهدة سبيل النجاة . وقيل : إذا صحت اليقظة كان صاحبها في أوائل طريق التوبة .

وقيل : اليقظة طردة من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلهم على طلب التوبة ، فإذا تمت يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة ؛ فهذه أحوال ثلاثة تقدم التوبة ، ثم التوبة في استقامتها تحتاج إلى المحاسبة ، ولا تستقيم التوبة إلا بالمحاسبة . نقل عن أمير المؤمنين على رضي الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا وزنوا للمرء الأكبر على الله (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) فالمحاسبة بحفظ الأنفاس وضبط الحواس ورعاية الأوقات وإثبات المهمات ، ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم واليلة رحمة منه لعله سبحانه يهبده واستيلاء الغفلة عليه ، كي لا يستعبده الهوى . تسترقة الدنيا ؛ فالصلوات الخمس سلسلة تعجز النفس إلى مواطن اليهودية لإداء حق الربوبية ، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ، ويسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرباية ، ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار ؛ لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تسكت في القلب نكتة سوداء وتنفذ عليه عقدة ، ولتتفقد المحاسب يحيي الباطن للصلاة يضبط الجوارح ويحقق مقام المحاسبة ؛ فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى ، فلا تزال صلته منيرة تامة بنور وقته ، ووقته منورا معمورا بنور صلته .

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات في قرطاس ، ويدع بين كل صلاتين بيانا ، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خط خطأ ، وكلما تكلم أو تحرك فيها لا يمتنع نقط نقطة ، ليمتد ذنوبه وحركاته فيها لا يمتنع لتضييق المحاسبة بجاري الشيطان والنفس الأماره بالسوء لموضع صدقة في حسن الافتقار وحرصه على تحقيق مقام العباد ، وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة .

قال الجنيد : من حسنت رعايته دامت ولايته . وسئل الواسطي : أي الأعمال أفضل ؟ قال : مراعاة السر ، والمحاسبة في الظاهر ، والمراقبة في الباطن ، ويكمل أحدهما بالآخر ، وهما تستقيم التوبة . والمراقبة والرعاية حالان شريفان ويصيران مقامين شريفيين يصحان بصحة مقام التوبة ، وتستقيم التوبة على السكال بهما ؛ فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة .

أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف أبي بكر الشيرازي قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت الحسن الفارسي يقول : سمعت الجرجيري يقول : أمرنا هنا بين علي فصلين : وهما أن تراق نفسك المراقبة لله تعالى ، ويكون الله على ظاهرك قائما وقال المرتضى : المراقبة مراعاة السر للملاحظة الحق في كل لحظة ولطفة . قال تعالى (أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وهذا هو علم القيام ، وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والتقضاء : وهما أن يعلم بميزان حاله في بينه وبين الله ، وكل هذا ملازم لصحة التوبة ، وصحة التوبة ملازم لها ، لأن الخواطر مقدمات الذنائب ، والمزائم مقدمات الأعمال ، لأن الخواطر تحقق إرادة القلب ، والقلب أمير الجوارح ، ولا تتحرك الجوارح إلا بتحرك القلب ؛ لإرادة وبالمراقبة حسم مواد الخواطر الرديشة ، فصارت من تمام المراقبة التوبة ، لأن من حسم الخواطر كسب مؤونة الجوارح ، لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة المكروه من القلب ، وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلي قال : سمعت أبا عثمان المغربي يقول : أفضل ما يلزم الإنسان في هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالملم ، وإذا صحت التوبة صحت الإجابة .

قال إبراهيم بن آدم إذا صدق العبد في توبته صار منيباً ، لأن الإجابة تأتي درجة التوبة .

وقال أبو سعيد القرشي : التائب الراجع عن كل شيء يغفره الله إلى الله .

قال بعضهم : الإجابة الرجوع منه إليه لا من شيء غيره ، فنرجع من غيره إليه ضيق أحد طرفي الإجابة ، والمنيب على الحقيقة : من لم يكن له مرجع سواه ، فيرجع إليه من رجوعه ، ثم يرجع من رجوع رجوعه ، فيبقى شبحاً لا وصف له تأمينا بين يدي الحق مستقر تاني عين الجمع ومخالفة النفس وروية عيوب الأفعال والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة .

قال أبو سليمان : ما استحسن من نفسي عملاً فأحسبه ، وقال أبو عبد الله السجزي : من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته ، إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانياً ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق في حاله وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال . وروية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإجابة وهو في تحقيق مقام التوبة . ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة ، ولا يصدق العبد في المجاهدة إلا بوجود الصبر .

وروي فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المجاهد من جاهد نفسه ، ولا يهزم ذلك إلا بالصبر ، وأفضل الصبر الصبر على الله بكونك الملم عليه ، وصدق المراقبة بالقلب ، وجسم مواد الحواطر . والصبر ينقسم إلى فرض وفصل ، فالفضل كالصبر على أداء المفترضات ، والصبر عن المحرمات .

ومن الصبر الذي هو فضل : الصبر على الفقر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، وكنان للمصاب والآوجاع ، وترك الشكوى ، والصبر على إخفاء الفقر ، والصبر على كتم المنع والكرامات وروية العبر والآيات .

وجوه الصبر فرضاً وفضلاً كثيرة ، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأنقسام من الصبر ، ويتيقن عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفي الحواطر ، فإذا حقيق الصبر كائناً في التوبة كيتوبة المراقبة التوبة ، والصبر من أعز مقامات الموقنين ، وهو داخل في حقيقة التوبة .

قال بعض العلماء : أي شيء أفضل من الصبر . وقد ذكرناه تعالى في كلامه في نيف وتسعين موضعاً ، وما ذكر شيئاً بهذا العدد وصحة التوبة تحتوي على مقام الصبر مع شرفه .

ومن الصبر : الصبر على النعمة : وهو أن لا يصر فيها في مصيبة الله تعالى ، وهذا أيضاً داخل في صحة التوبة .

وكان سهل بن عبد الله يقول : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

وروي عن بعض الصحابة : بليتنا بالضراء ففسرنا ، وبيتنا بالضراء فلم نصبر .

ومن الصبر : رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب ، والصبر عن محبة الناس ، والصبر على الخزل . والتواضع والذل : داخل في الزهد وإن لم يكن داخلًا في التوبة ، وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد ، وهو ثالث الأربعة التي ذكرناها .

وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس ، وطمأنيتها من تركيتها ، وتركيتها بالتوبة : فالنفس إذا تركت بالتوبة التصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية ، وقلة الصبر من وجوه الشراسة للنفس ولهايتها واستمسانها . والتربة التصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلى اللين : لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطق نيرانها للتأججة بتأية الهوى ، وتبلغ طمأنيتها محل الرضا ومقامه ، وقطعت في مجاري الأقدار .

قال أبو عبد الله النجاشي : لله عباد يستحيون من الصبر ويتلقفون مواضع أقداره بالرضا تلقفاً .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : أصبحت وما لي سرور إلا مواقع القضاء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ين عباس حين وصاه . اعمل لله باليقين في الرضا ، فإن لم يكن فإن في الصبر خيرًا كثيرًا . وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . من خير ما أعطى الرجل : الرضا بما قسم الله تعالى له .

فالأخبار والآثار والحكايات في فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تحصى ، والرضا ثمرة التوبة النصوح ، وما تختلف عبد عن الرضا إلا بتخلفه عن التوبة النصوح ، فإذا تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر ، وحال الرضا ومقام الرضا ، والخوف والرجاء مقامان شريهان من مقامات أهل اليقين ، وهما كالتان في صلب التوبة النصوح ؛ لأن خوفه حمله على التوبة ، ولولا خوفه ماتاب ، ولولا رجاءه ما خاف ؛ فالرجاء والخوف يتلازمان في قلب المؤمن ، ويستدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم في التوبة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في سياق الموت فقال : وكيف تجدك ؟ قال أجدني أعاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال وما اجتماعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه بما يخاف .

وجاء في تفسير قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول : قد هلكك لا ينفعني عمل ؛ فالتائب عاف فتاب ورجا المغفرة ، ولا يكون التائب تابيا إلا وهو راج عاف ؛ ثم إن التائب حيث قيد الجوارح عن المكاره واستأنم بنعم الله على طاعة الله . فقد شكر النعم ؛ لأن كل جوارحه من الجوارح لفعة ، وشكرها قيدها عن المعصية واستمالها في الطاعة ، وأى شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم ؛ فإذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها ، فقد جمع مقام التوبة : حال الزجر ، وحال الانتباه ، وحال التيقظ ، وعزالة النفس ، والتقوى ، والمجاهدة ، ورؤية عيوب الأفعال ، والإينابة ، والصبر ، والرضا ، والمحاسبة ، والمراقبة ، والرعاية ، والشكر ، والخوف ، والرجاء .

وإذا صحت التوبة النصوح وترك النفس انجلت مرآة القلب وبان قبح الدنيا فيها ، فيحصل الزهد ، والزاهد يشفق فيه التوكل لأنه لا يزهده في الموجود إلا لاعتقاد على الموعود ، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل ، وكلما بقي على العبد بقية في تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه : يزهده في الدنيا ، وهو ثالث الأربعة .

أخبرنا شيخنا قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري بإجازة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن ساعدة ، قال حدثنا الحسين بن الحسن الروزي ، قال حدثنا عبد الله بن المبارك ، قال حدثنا الهيثم بن جميل ، قال أخبرنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فبدأ بفاطمة رضي الله عنها فقرأ ما قد أحدثت في البيت سترًا وزوائد في يديها ، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل ، ثم جلس لجعل ينسك في الأرض ويقول : مالي والدنيا ، مالي والدنيا ، فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل السر ، فأخذت السر والزوائد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له : اذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقل له : قد تصدقت به ، فضمه حيث شئت ، فأتى بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قالت فاطمة قد تصدقت به فضمه حيث شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا بلال وأى قد فعلت ، يا بلال وأى قد فعلت ، اذهب فبمه .

وقيل في قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عبدا ﴾ قيل : الزهد في الدنيا . سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الزهد ؟ فقال : هو أن لا تبالى بمن أكل الدنيا مؤمن أو كافر . وسئل النبي عن الزهد فقال : ويلكم أى مقدار لجنح بموضة أن يزهده فيها ؟ . وقال أبو بصير الواسطي : إلى متى تصول بترك كنيف ، وإلى متى تصول بإعراضك عما لا تزن عند الله جنح بموضة ؟ .

فإذا صبح زهد العبد صبح توكله أيضا ؛ لأن صدق توكله مكته من زهده في الموجود ؛ فمن استقام في التوبة وزهد في الدنيا وحقق هذين المقامين استوفى سائر المقامات وتمسك فيها وتحقق بها .

وترتيب التوبة مع المراقبة وإبراطاب إحداها بالإخرى : أن يتوب العبد ، ثم يستقيم في التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشياطين ، ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن الماص إلى تطهير الجوارح عما لا يني فلا يسمح بكلمة فضول

ولا حركة فضول ، ثم ينتقل الرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن وتستلزم الرقابة على الباطن : وهو التحقق بسلم القيام بحر خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضول : فإذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح وتستقيم توبته . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاستقم كما أمرت ومن تاب منك) أمر الله تعالى بالاستقامة في التوبة أمراً له ولا تبعاً وأمته . وقيل : لا يكون المرید مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشئال شيئاً عشرين سنة ، ولا يلزم من هذا وجود المعصية ولكن الصادق الثابت في النادر إذا اجتنب بلبس ينمى أثر الذنب من باطنه في اللطف ساعة لوجود الندم في باطنه على ذلك ، والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشئال شيئاً ؛ فإذا تاب توبة نصوحاً ثم زهد في الدنيا حتى لا يهتم في غذائه لعشائه ولا في عيشائه لاندائه ولا يرى الادغار ، ولا يكون له تعلق هم يند ، فقد جمع في هذا الزهد ، والفقر ، والزهد أفضل من الفقر ، وهو فقر وزيادة ، لأن الفقير عادم للشه اضطراباً ، والزاهد تارك للشه اختياراً ، وزهده يحقق خوفه ، وتوكله يحقق رضاه ، ورضاه يحقق الصبر ، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقق خوفه ، وخوفه يحقق رجاءه ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات . والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع محبة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع تمامها وهو دوام العمل ، لأن الأحوال السلبية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة ، وتيسر بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل . وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين في التوبة تغفلوا عن كثير من سنى الأحوال لتخلفهم عن هذا الرابع ، ولا يراذ الزهد في الدنيا إلا لسلك الفزاع السمتان به على إداعة العمل لله تعالى . والعمل له : أن يكون العبد لا يزال ذا كراً أو تالياً أو مصلحاً أو مراقباً ، لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعى أو مهم لابد منه طبعي ، فإذا استولى العمل القلبي على القلب مع وجود الشغل الذي أداه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل ، فإذا كان مع الزهد والتقوى متمسكاً بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما آلى جهداً في العبودية .

قال أبو بكر الوراق : من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق .

وسئل سهل بن عبد الله التستري : أى منزلة إذا تمام العبد ما قام مقام العبودية ؟ قال : إذا ترك التدبير والاختيار . فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار ، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار ، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى لإدخاله في وفور عليه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه .

قال يحيى بن معاذ الرازى : مادام العبد يتصرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفاً يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر ؛ لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت ، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار ؛ فإليك بنافى الاختيار وفي ترك الاختيار . والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالي والحال العزيز - الذى هو النفاة والهاية - وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار - إلا بإحكامه هذه الأربعة التى ذكرناها ، لأن ترك التدبير فناء ، وتملك التدبير والاختيار من الله تعالى أمده ورده إلى الاختيار تصرف بالحق ، وهو مقام البقاء ، وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق ، وهذا العبد ماني عليه من الاعوجاج ذرة ، واستقام ظاهره وباطنه في العبودية ، وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه ، وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدي الله عز وجل متمسكاً بالاستكانة والافتقار ، متحقق بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم - لا تكن إلى نفسى طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع ، اكلاًنى كلامه الوليد ولا تغل عني .

الباب الستون : في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب

قولهم في التوبة

قال درويش : معنى التوبة أن يتوب من التوبة قيل . ثم ناه قول رابعة : استغفر الله العظيم من قلة صدق في قول استغفر الله

وسئل الحسن المغازلي عن التوبة ؟ فقال : تسألني عن توبة الإنابة أو عن توبة الاستجابة ؟ فقال السائل : ما توبة الإنابة ؟ فقال : أن تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك . قال : فما توبة الاستجابة ؟ قال : أن تستحي من الله لقربه منك ، وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب في صلاته من كل خاطئ لم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه ، وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب ، كما قيل :

« وجردك ذنب لا يقاس به ذنب »

قال ذو النون : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من روية مجرم عن بلوغ مآثله غيرهم .

سئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته ، فقال : الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع ، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى ، وينكره بقلبه ، ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه ، ويدعو الله أن ينسي ذلك ويغسله بغيره من ذكره وطاقته . قال : وإن غفل عن الإنكار طرفة عين أعاف عليه أن لا يسلّم وتعمل الحلاوة في قلبه ، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن ، فإنه لا يضره . وهذا الذي قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته والمعارف القوي الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه ويغسل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة المعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين ، فأى حلاوة تبقى في قلبه ، وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله .

وسئل السوسي عن التوبة ؟ فقال : التوبة من كل شيء ذمه العلم إلى مأمده العلم ، وهذا وصف يسم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم ، لأنه لا يقاء الجهل مع العلم ، كما لا يقاء الليل مع طلوع الشمس ، وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام ، وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها .

وقال أبو الحسن النوري : التوبة أن تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى .

قولهم في الورع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ملاك دينكم الورع ، أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف عن أبي عبد الرحمن السلمي إجازة ، قال أخبرنا أبو سعيد الخلال ، قال حدثني ابن قتيبة قال حدثنا عمر بن عثمان ، قال حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن حبيب بن عبيد عن أبي الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توسل على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال : يئله الله عز وجل قوما يفقههم .

قال عمر بن الخطاب : لا ينبغي لمن أخذ بالقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا . قال معروف الكرخي أحفظ لسانك من اللسان كما تحفظه من القدم .

نقل عن إلخارث بن أسد المحاسب أنه كان على طرف أصبه الوسطى عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق .

سئل الشيبلي عن الورع ؟ فقال : الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين .

وقال أبو سليمان الناباذي : الورع أول الزهد كما أن التضاعف طرف من الرضا .

وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

سئل الخواص عن الورع ؟ فقال : أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلي قال سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت محمد بن داود الدينوري يقول : سمعت ابن الجلاء يقول : أصراف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاء بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئاً . وقال الخواص : الورع دليل الخوف ، والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة .

قولهم في الزهد

قال الجنيد : الزهد خلوص الأيدي من الأملاك والقلوب من التبع . وسئل السلي عن الزهد ؟ فقال : لا زهد في الحقيقة ، لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك زهد ، أو يزهد فيما هو له فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده ، فليس إلا ظلف النفس وبذل مواساة ؛ يشير إلى الأقسام التي سبقت بها الانلام ، وهذا لو اطردهم قاعدة الاجتهاد والكسب ، ولكن مقصود السلي : أن يقلل الزهد في عين المعتد بالزهد ثلاثاً يترتب به .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الرجل قد أوى زهداً في الدنيا ومنطقاً ، فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة .

وقد سمي الله عز وجل الزاهد من علماء في قصة قارون فقال تعالى (وقال الذين آمنوا أوتوا العلم وبليكم ثواب الله خير) قيل هم الزاهدون .

وقال سهل بن عبد الله : للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول كل اسم منه ترك الدنيا . وقيل في قوله تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) قيل : عن الدنيا . وفي الخبر : العلماء أثناء الرسل مالم يدخلوا في الدنيا فلما دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم ، وجاء في الأثر : لا تزال دلاله إلا الله ، تدفع عن البعاد سطوة الله مالم يبالوا ما نقص من دينهم ؛ فلماذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل : من سمي باسم الزهد في الدنيا فقد سمي بألف اسم محمود ؛ ومن سمي باسم الرغبة في الدنيا فقد سمي بألف اسم مذموم .

وقال السري : الزهد ترك حظوظ النفس من جميع مافي الدنيا ، ويجمع هذا : الحظوظ المادية ، والمجانية ، وحسب الميزة عند الناس ، وحسب المحمدة والثناء .

وسئل السلي عن الزهد فقال : الزهد غفلة ، لأن الدنيا لا شيء ، والزهد في لا شيء غفلة . وقال بعضهم : لما رأوا حجارة الدنيا زهدوا في زهدهم في الدنيا لوانها عديم ، وعزى أن الزهد في الزهد غير هذا ، وإنما الزهد في الزهد بالخروج من الاختيار في الزهد ، لأن الواحد اختار الزهد وأراد به ، وإرادته تستند إلى عليه ، وعليه قاصر ، فلذا أقيم في مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده ، فترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه ، فيكون زهد بالله تعالى حيثئذ . أو يعلم أن مراد الله منه التليس بشيء من الدنيا ، لما يدخل بالله في شيء من الدنيا لا ينقص عليه زهد ، فيكون دخوله في الشيء من الدنيا بالله ويأذن منه زهداً في الزهد ، والزهد في الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها ، إن تركها تركها بالله ، وإن أخذها أخذها بالله ، وهذا هو الزهد في الزهد : وقد رأينا من العارفين من أقيم في هذا المقام . وفوق هذا مقام آخر في الزهد : وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسعة عليه وطهارة نفسه في مقام البقاء ، فيزهد زهداً ثالثاً ويترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها وأعيدت عليه موهبة ، ويكون تركه الدنيا في هذا المقام باختياره ، واختياره من اختيار الحق ؛ فقد يختار تركها حينئذ أسياً بالانقياد والصالحين ، ويرى أن أخذها في مقام الزهد حق أدخل عليه لموضع ضعفه عن ذلك شأراً والأقوام من الانقياد

والصديقين؛ فيترك الرفق من الحق بالحق الحق، وقد يتناوله باختباره وفقاً للنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم؛ وهذا مقام التصرف لأقرباء المعارفين؛ زهدوا ثالثاً بالله، كما زهدوا ثانياً بالله، كما زهدوا أولاً به.

قولهم في الصبر

قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله وهو أفضل الخدمة وأعلها.

وقال، بعضهم: الصبر أن تصبر في الصبر: أي لا تطالع فيه الفرج: قال الله تعالى (والصابرين في الباء والاضراء وحين اليأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون).

وقيل: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر؛ فالصبر: عرك النفس، والعرك علقين والصبر جاد في الصابر يجري الانفاس؛ لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منى ومكره ومذموم ظاهر وأباطنا، والعالم يدل والصبر يقبل، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر. ومن كان العلم سالك في الظاهر والباطن لا يتم ذلك إلا إذا كان الصبر مستقره وسكته. والعالم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر، ومصدرهما الفريضة العقلية، وهما متقاربان لا معاده صدرهما، وبالصبر يتجامل على النفس، وبالعلم يترقى الروح، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما في مستقره، وفي ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال، وبانفصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح، وبيان ذلك بدق. وباللهك بشرق الصبر قوله تعالى (إنما يؤمن الصابرون أجرهم بغير حساب) كل أجبر أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب، وقال الله تعالى لنبيه: (واصبر وما صبرك إلا بالله) أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل الثمرة به.

قيل: وقف رجل على الشئ فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله؟ فقال: لا. فقال: الصبر لله، فقال: لا. فقال: الصبر مع الله، فقال: لا. فغضب الشبل وقال: ويحك، أي شيء؟ فقال الرجل: الصبر عن الله. قال: فصرخ الشبل صرخة كاد أن تنفد روحه - وعندى في معنى الصبر عن الله وجه، ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه؛ وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص، فامامت المشاهدة يرجع العبد عن الله استجداء وإجلالا، وتعلق بصبره بخلاؤه بآنا، ويتغيب في مفاز استكاته وتغذيه لإحساسه بظلم أمر التجلي، وهذا من أشد الصبر لأنه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال، والروح تود أن تتكحل بصيرتها باستماع نور الجلال، وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر، فالروح في هذا الصبر منازعة، فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك.

وقال أبو الحسن بن سالم: هم ثلاثة: متصبر، وصابر، فالمتصبر: من صبر في الله؛ فزعة صبر، وصرعة يجرع. والصابر: من يصبر في الله وله ولا يجرع، ولكن تتوقع منه الشكوى، وقد يمكن منه الجزع. وأما الصابر: فذاك الذي صبره في الله وبالله، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجرع ولا يتنير من جهة الوجود والحقيقة، لأن جهة الرسم والحقيقة، وإشارته في هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة.

وكان الشبل يتمثل بهذين البيتين:

إن صوت المحب من ألم الشو. ق وخوف الفراق يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث به الصب. سر فصاح المحب الصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله: أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر وجعل الخطأ على الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعل صبره بالله لا بنفسه، فقال (وما صبرك إلا بالله).

وسئل السري عن الصبر، فتكلم فيه، فمد على رجله عقرب، فجعل يضربه بإرته، فقيل له: ألم لا تدفعه؟ قال: أستحي من الله تعالى أن أنكم في حال ثم أخالف ما أنكم فيه.

أخبرنا أبو زرعة إجازة، عن أبي بكر بن خلف إجازة، عن أبي عبد الرحمن قال: سمعت محمد بن خالد يقول: سمعت الفرغاني يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالإيمان، وأكرم الإيمان بالعقل

أسألم فيمنون فلا يفلحون .

وأشد لبعضهم :

قالوا غدا عيد ماذا أنت لابسہ فقلت خلعة ساق عبده الجرعا
فقر وصبرهما ثوبان تحتها قلب يرى وجه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاود في الثوب الذي خلعا
الدهر لي مآتم إن غبت يأملني والميد مادمت لي مرأى ومستعما

قولهم في الشكر

قال بعضهم : الشكر هو النية عن النعمة برؤية النعم .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : لست بشاكر مادمت تشكر وغاية الشكر التحير ، وذلك أن الشكر نعمة من الله بحب الشكر عليها .

وفي أخبار داود عليه السلام : إلهي كيف أشكرك وأنا لأستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمتك ؟ فأوحى الله إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني .

ومعنى الشكر في اللغة : هو الكشف والإظهار ، يقال : شكر وكشر ، إذا كشف عن ثمره وأظهره ، فكشر النعم وذكرها وتمداها بالأسان من الشكر . وباطن الشكر : أن تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية فهو شكر النعمة .

وصحمت شيخنا رحمه الله يشهد عن بعضهم :

أوليتي نعماً أبوح بشكرها وكفيتني كل الأمور بأسرها
فلا شكر لك ما حيت وإن أمت فلشكرتك أعظم في قبرها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ابتلى فصر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر ، قيل : فما به ؟ قال : أولئك هم الآمن وهم مهتدون .

قال الجنيد فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان .

وفي الحديث : أفضل الذكر لآله إلا الله . وأفضل الدعاء الحمد لله .

وقال بعضهم في قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة) قال الظاهرة العوائف والنفي . والباطنة البلاوي والفقر ، فإن هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء .

وحقيقة الشكر أن يرى جميع المقضى له به لما غير ما يظهري في دينه ، لأن الله تعالى لا يقضي للمبد المؤمن شيئا إلا وهو نعمة في حقه ، فلما عاجلة يفرها ويفهمها ، وإما آجلة بما يقضى له من المكارة ، فلما أن تمكن درجة له أو تمحيصا أو تكميرا ؛ فإذا علم أن مولاة أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم ، فقد شكر .

قولهم في الخوف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله ، وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : كان داود النبي عليه السلام يعودوه الناس يظنون أن به مرضا وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياة منه .

قال أبو عمر الدمشقي الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

وقال بعضهم ليس الخائف من يخاف ويسمح غيبه . ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه .

وفيل الخائف الذي لا يخاف غير الله . قيل أي لا يخاف لنفسه [بما يخاف جلاله] ، والخوف للنفس خوف العقوبة . وقال سهل الخوف ذكر والرجاء أني أي منهما تتولد حقائق الإيمان ، قال الله تعالى (وأشد وصينا الذين أتوا

الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) قيل . هذه الآية قطب القرآن ، لأن مدار الأمر كله على هذا .
وقيل : إن الله تعالى جمع للخائفين مافارقة على المؤمنين : وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، فقال تعالى :
(هدى ورحمة للذين هم لربهم ربهم) وقال (إنما يحشى الله من عباده العلماء) وقال (رضى الله عنهم ورضوا
عنه ذلك لمن خشى ربه) .
وقال سهل : كالإيمان بالعلم ، وكالعلم بالخوف . وقال أيضا : العلم كسب الإيمان ، والخوف كسب المعرفة .
وقال ذو النون : لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن يضح الخوف قلبه .
وقال فضيل بن عياض . إذا قبل لك : تحاف الله ؟ اسكت ، فإنك إن قلت لا ؛ كفرت ، وإن قلت نعم ؛ كذبت ،
فليس وصفك وصف من يخاف .

قولهم في الرجاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل
من إيمان ، ثم يقول : و عز وجل لا أجعل من آمن في ساعة من ليل أو نهار كن لا يؤمن بي .
وقيل : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من بلى حساب الخلق ؟ فقال : الله تبارك وتعالى .
قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، فنبههم الأعرابي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هم ضحكتم يا أعرابي ؟ فقال إن
الكرم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب ممح .
وقال شاه الكرماني : علامة الرجاء حسن الطاعة ، وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجلال ، وقيل : قرب القلب
من ملاطفة الرب .

قال أبو علي الروذباري : الخوف والرجاء يجتاحى الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه .
قال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو ، قال مطرف : لو وزن خوف المؤمن
ورجاؤه لاعتدلا .

والخوف والرجاء الإيمان كالجنحين ، ولا يكون عاينما إلا هو وراج ، ولا راجيا إلا هو وخائف ، لأن موجب
الخوف الإيمان ، وبالإيمان رجاء ، وموجب الرجاء الإيمان ، ومن الإيمان خوف ، ولهذا المعنى روى عن لقمان أنه
قال لابنه : خف الله تعالى خوفا لاتأمن فيه مكره ، وارجه أشد من خوفك ، قال : فكيف أستطيع ذلك إنما
قلب واحد ؟ أما علمت أن المؤمن ذو قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر ؟ وهذا لأنهما من حكم الإيمان .

قولهم في التوكل

قال السري : التوكل الاغلاخ من الحول والقوة . وقال الجنيد : التوكل أن تكون لله كالم تكن ، فيكون الله
لك كالم يزل .

وقال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا ، غير التوكل فإنه وجه بلاقفا .
قال بعضهم : يريدونك العناية لا توكل الكفاية ، والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال (وعلى الله فتوكوا
إن كنتم مؤمنين) وقال (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال لثيبه (وتوكل على الحى الذى لا يموت) .
وقال ذو النون : التوكل ترك تدبير النفس والاغلاخ من الحول والقوة .
وقال أبو بكر الرقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد .
وقال أبو بكر الواسطي : أصل التوكل صدق العاقبة والاقتنار وأن لا يفارق التوكل في أيامه ولا يلتفت بصره إلى
توكله لحظة في عمره .

وقال بعضهم : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبراً يدفنها فيه ويلبس الدنيا وأهلها ، لأن حقيقة التوكل
لا يقوم لها أحد من خلق على كاله .

وقال سهل : أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى كاليتيم بين يدي العاقل يقبله كيف أراد ولا يكون له حركة ولا تدبير . وقال حدود النصار : التوكل هو الاعتماد بالله وقال سهل أيضاً : العلم كله باب من التمتع ، والتمتع كله باب من الورع ، والورع كله باب من الرمد ، والزهد كله باب من التوكل . وقال : التقوى واليقين مثل كفتي الميزان ، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والتقصان .

ويقع أن التوكل على قدر العلم بالوكيل ، فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلاً ، ومن كل توكله غاب في روية الوكيل عن روية توكله ، ثم إن قوماً لم يعرفه تفيد صرف العلم بالدليل في القصة ، وأن الأقسام نصبت لإزاء المفسوم لهم عدلاً وموازنة ، فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس ، وكل ما أحس بشيء يندح في توكله ، يراه من منبج النفس ، فتقصان التوكل يظهر النفس ، وكأله يثبت بغيبة النفس ، وليس للأقوياء اعتداد بتصحیح توكلهم وإعما شغلهم في تسيب النفس بتقوية مراد القلب ، فإذا غابت النفس انحسرت مادتها لجهل فصيح التوكل والمبدي غير ناظر إليه ، وكلما تحركت النفس بغيبة برتلى خبير من سر قوله تعالى (إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) فينبغ وجود الحق الأعيان والأكران ، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ، ويصير التوكل حيلة اضطراباً ، ولا يندح في توكل مثل هذا المتوكل ما يندح في توكل الضعفاء في التوكل من وجود الأسباب والوسائط ، لانه يرى الأسباب موانعاً لأحيائه لما إلا بالتوكل ، وهذا توكل خواص أهل المعرفة .

قوله في الرضا

قال الحارث الرضا سكن القلب تحت جريان الحكم . وقال ذوالنون : الرضا سرور القلب بحر القضاء . وقال سفيان عند رابعة : اللهم ارض عنا ، فقالت له : أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض ، فساء لها بعض الحاضرين : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة . وقال سهل : إذا اتصل الرضا بالرضا انصلت الطمانينة (فطوبى لهم وحسن مآب) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وقال عليه السلام : إن الله تعالى يمتكبه جمل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجمل الهم والحزن في الشك والسخط .

وقال الجنيد : الرضا هو صفة العلم الواصل إلى القلوب ، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا ، وليس الرضا واجباً كالخوف والرجاء ، فإنهما حالان لا يفارقان العبد في الدنيا والآخرة لأنه في الجنة لا يستغنى عن الرضا والمحبة . وقال ابن عطاء الله : الرضا سكن القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، لانه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب : ليس ينال الرضا من الله من الدنيا في قلبه مقدار .

وقال السري : نحن من أخلاق المقرين : الرضا عن الله فيما يحب لنفسه وتكرهه ، والحب له بالتعجب إليه ، والحياء من الله ، والأنس به والرحمة مما سواه .

وقال الغضيل : الرضا لا يتم فوق منزلته شيئاً . وقال ابن شحنون : الرضا بالحظ والرضا له والرضا عنه ، فالرضا به مدبراً ومختاراً ، والرضا عنه قاسماً ومعطياً ، والرضا له إلهاً وروياً .

سئل أبو سعيد : هل يجوز أن يكون العبد راضياً ساعداً ؟ قال : نعم . يجوز أن يكون راضياً عن ربه ساعداً على نفسه وعلى كل طامع يقطعه عن الله . وقيل الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما . إن أبأذر يقول : الفقر أحب إلى من الغنى ، واليسم أحب من الصحة ، قال : رحم الله أبأذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يمتن أنه في غير الحالة التي اختار الله له .

وقال علي رضى الله عنه : من جلس على بساط الرضا لم يثله من الله مكروه أبداً ، ومن جلس على بساط الدوال لم يرض عن الله في كل حال .

وقال يحيى : يرجع الأمر كله إلى حظي الأصلين : فعل منه لك ، وفعل منك له ، فترضى بما عمل وتخلص فيما عمل .

وقال بعضهم : الراضى من لم يندم على فاك من الدنيا ولم يتأسف عليها .
وقيل ليحي بن مازك : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا ؟ قال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعمل به ، يقول :
إن أصليتي قبلت ، وإن منتقيت رضىت ، وإن تركتني عدت ، وإن دعوتني أجبت .
وقال الشئلى رحمه الله بين يدي الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله . قال الجنيد : فوالله ذاقني صدر ، فقال : صدقت
قال : فضيق الصدر ترك الرضا بالتضاء ، وهنا إنما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على أصل الرضا ، وذلك أن الرضا
يحصل لا لشراح القلب وانفساحه ، وانفراج القلب من نور اليقين . قال الله تعالى (أفنشرح الله صدره للإسلام فهو
على نور من ربه) فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة وعان حسن تدبير الله تعالى
فيتنوع السخط والضجر ، لأن اتساع الصدر يتضمن حلالة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عن الحب الصادق ؛ لأن
الحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره ، فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه ، كما قيل :
• وكل ما يفضل المحبوب محبوب •

الباب الحادى والستون : فى ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله ، قال أخبرنا أبو طالب الزينى ، قال أخبرتنا تمار كريمة
الروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشمينى ، قال أخبرنا أبو عبد الله الفيرى ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخارى ، قال
حدثنا سليمان بن حرب ، قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبدا لأبيه لإله ،
ومن يكره أن يهود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال
أخبرنا أبو عمر بن حيوة ، قال حدثني أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه ، قال حدثني بشر بن محمد ، قال حدثنا عبد الملك بن
وعب عن إبراهيم بن أبى جيلة عن الرباض بن سارية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم اللهم اجعل
حبيك أحب إلى من نفسى وسمى وبصرى وأهل ومالى ومن الماء البارد ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب
خالص الحب ، وخالص الحب : هو أن يحب الله تعالى بكلية ، وذلك أن العبد قد يكون فى حال قائما بشروط حاله بحكم
العلم ، والجيلة تنقضاء بعد العلم ، مثل أن يكون راضيا والجيلة قد تسكره ، ويكون النظر إلى الانقياد بالملم لا إلى
الاستمضاء بالجيلة ؛ فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان ، ويجب الأهل والولد بحكم الطبع .

وللمحبة وجوه . وبراعت المحبة فى الإنسان متنوعة : فهنا محبة الروح ، ومحبة القلب ، ومحبة النفس ، ومحبة
المقل ؛ فنقول رسولا الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد : معناه استكمال عروق المحبة بمحبة
الله تعالى حتى يكرن حب الله تعالى طالبا ، فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكلية ، حتى يكون حب الله تعالى أغلب فى
الطبع أيضا والجيلة من حب الماء البارد ، وهذا يكون حبا صافيا لخواص تغمره وبثوره نار الطبع والجيلة ،
وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بكموى الروح وخطوه إلى مواطن القرب .

قال الواسطى فى قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ، فالهاه راجعة إلى الذات
دون الثبوت والصفات .

وقال بعضهم : المحب شرطه أن تلحق مسكرات المحبة ، فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة ، فإذا الحب جان :
حب عام ، وحب خاص ، فالحب العام مفسر باقتال الأسماء ، وربما كان حبا من معدن العلم بالآلام والمعاد ، وهذا الحب
مغزى من الصفات ، وقد ذكر جمع من المشايخ الحب فى المقامات ، فيكون التنظر إلى هذا الحب العلم الذى يكون
لكسب العبد فيه مدخل .

وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح، وهو الحب الذي فيه السكرات، وهو الاصطناع من الله الكريم لديه واصطفائه إياه، وهذا الحب يكون من الأحوال؛ لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل، وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أحب إلى من الماء البارد» لأنه كلام عن وجدان روح تلتذت بحسب الذات، وهذا الحب روح، والحب الذي يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإنسان قالب هذا الروح، ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله (أذلة على المؤمنين) لأن الحب يذل المحبوب والمحبوب محبوه، ويلتذ؛

لين نفسى ألف عين ومتقى . ويكرم ألف حبيب المكرم

وهذا الحب الخاص هو أصل الأحوال السلية وموجبها، وهو في الأحوال كالنوبة في المقامات؛ فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل على ما شرعناه أولاً؛ ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك؛ والتوبة لهذا الحب أيضاً بمثابة الجسيان؛ لأنها مشتملة على الحب العام الذي هو لهذا الحب كالجد، ومن أخذ في طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يتكلم فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذي تشتمل عليه التوبة التصريح، وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات، لأن القلب في أطوار المقامات والترك من شيء منها إلى شيء طريق المحبين، ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى (والذين جاءوا من قبلي الهدى سبيلًا) ومن قوله تعالى (ويهدي إليه من ينيب) أثبت كون الإجابة سبيل الهداية في حق المحب، وفي حق المحبوب صرح بالاجتهاد غير معمل بالكسب فقال الله تعالى (الله يهدي إليه من يشاء) فمن أخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه صفوها وغايتها بآتم صفها، والمقامات لا تنفذه ولا تحبسها وهو يقيد ما يحبسها تزييه منها وانزاع صفوها وغايتها، لأنه حيث أشرفت عليه أنوار الحب الخاص عام ملابس صفات النفس ولتورتها، والمقامات كلها مصفية للنمو والصفات النفسانية، فالزهد يصفيه عن الرغبة، والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد من جهل النفس، والرضا يصفيه عن طربان عرق المنازعة، والمنازعة لبقاء جود في النفس ما أشرق عليها شمس المحبة الخاصة في قلبها وجودها، فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جودها، فلماذا يترج الزهد منه من الرغبة ورغبة الحب أحره عن رغبته! وماذا يصفيه منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته! وماذا يسكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعة من لم تسلم كليته؟

قال الروذباري ما لم تخرج من كليتك لا تدخل في حد المحبة. وقال أبو يزيد: من قتلته محبته فديته رزقته، ومن قتلته عشقه فديته منادته.

أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال: سمعت أحد بن علي بن جعفر يقول: سمعت الحسين ابن علي يقول: قال أبو يزيد ذلك، فإذا التقلب في أطوار المقامات لنوام المحبين، وطى بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون؛ تخلصت عن مهمهم المقامات، وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات؛ وهو مواطن من يتشرف في أذيال بقاياها.

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص: إلى ماذا أدى بك التصوف؟ فقال: إلى التوكل، فقال: تسمى في عمران باطنك! أين أنت من الفناء في التوكل برؤية الوكيل؟

فالنفس إذا تحركت بصفتها متغلثة من دائرة الزهد يردّها الزاهد إلى البشارة بدهه، والمتوكل إذا تحركت بنفسه يردّها بتوكله، والراضي يردّها برضاه، وهذا الحركات من النفس بقايا وجودية تفتقر إلى سياسة العلم، وفي ذلك تلمس روح القرب من بعيد؛ وهو أداء حق المبدئية مبلغ العلم ويحسبه الاجتهاد والكسب. ومن أخذ في طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالآسرة بأنوار فضل الحق. ومن اكتفى ملابس نور أهل القرب بروح دائمة السكوف محبة عن الطوارق والصروف لا يرجع طلب ولا يحسبه سلب، فالزهد والتوكل والرضا كالن فيه، وهو غير كائن فيها، على معنى أنه كيف تقلب كان زاهدا وإن رغب، لأنه بالحق لا بنفسه، وإن روى منه الالتفات إلى الأسباب

فهو متوكل ، وإن وجد منه الذكراة فهو راض ، لأن كراهته لنفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدو ، بها وصفاتها مطهرة موهوبة بحولة ملطوف بها ، صار عين الداء دواءه ، وصار الإعلال شفاؤه ، وناب طلب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضا ، أو صار مطلوبه من الله ينوب عنه كل مطلوب من زهد وتوكل ورضا .

قالت رابعة : محب الله لا يسكن أنيته وحنيته حتى يسكن مع محبوبه .

وقال أبو عبدالله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب لمن أحبت كللك ولا يبق لك منك شيء .

وقال أبو الحسين الوراق : السرور بالله من شدة المحبة له ، والمحبة في القلب نار تحرق كل دنس .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، وانجبا كيف يصبر الإنسان عن حبيبه !

وقال بعضهم : من ادعى محبة الله من غير تزوع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذبات ، ومن ادعى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير حب الفقراء فهو كذاب . وكانت رابعة تلتشد :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعل بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا كان الحب للأحوال كالترية لل مقامات فن ادعى حالا يعتبر حبه ، ومن ادعى محبة تعتبر توبته ، فإن التوبة قالب روح الحب ، وهذا الروح قيامه بهذا القالب ، والأحوال أعراض قومها يجود روح .

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الرمع من أحب ، فهم مع الله تعالى .

وقال أبو يعقوب السوسي : لاتصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في النيب ولم يكن هذا بالمحبة ، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة .

سئل الجنيد عن المحبة ؟ قال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب . قيل : هذا على معنى قوله تعالى : فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، وذلك أن المحبة إذا ضفت وكلت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبها ، فإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة ، وكال وصف المحبة أزال الموانع من المحب ، وبكال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب لمطلقا على المحب المخلص من موانع قاذرة في صدق الحب ، ونظرا إلى قصوره بد استنفاد جهده ، فيعود المحب بفوائده اكتساب الصفات من المحبوب ، فيقول عند ذلك .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرني أبصره وإذا أبصره أبصرنا

وهذا الذي عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخلقوا بأخلاق الله ، لأنه بزاهة النفس وكال التزكية يستند للجهة والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية ، ولكن سنة الله جارية أي ذكر نفوس أحواله بحسن توفيقه وتأيدته ، وإذا منح بزاهة النفس وطهارتها تم جذب روحه بمجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق ، ويكون ذلك عنده رتبة في الوصول ، فثارة يذمب الشوق من باطنه إلى ما وراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية ، وثارة ينسل بها منح فيكون ذلك وصوله الذي يسكن نيران شوقه ، ويباعث الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحقة رتبة الوصول عند المحب ، ولولا باعث الشوق وجع القهقري وظهرت صفات نفسه الخالقة بين المروءة ، ومن ظن من الوصول غير ما ذكرناه أو تخايل له غير هذا القدر ، فهو متعرض للذهب الناصري في الهوى والناسوت .

وإشارات الشيوخ في الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب ، وتحقيق حق اليقين زوال اعوجاج البقايا ، وأمنت اللوث الوجودية من بقاء صفات النفس . وإذا صحت المحبة ترتبت عليها الأحوال وتبعتها .

سئل السبلي عن المحبة ؟ فقال : كأس لما وهمج إذا استقر في الحواس وسكن في النفوس تلاشت .
وقيل : للجنة ظاهر وباطن ، ظاهرها امتناع رضا المحبوب ، وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء ولا يبق
فيه بقية للغير ولا لنفسه ؛ فمن الأحوال السنية في المحبة الشوق ، ولا يكون الحب للاشتاق أبدا ؛ لأن أمر الحق تعالى
لا نهاية له ؛ فما من حال يملأها الحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم .

حزني كحسبك لا لذا أمد • ينهي إليه ولا لذا أمد

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس من كسبه ، وإنما هو موهبة خص الله بها المحبين .

قال أحد بن أبي الحواري : دخلت على أبي سليمان الداراني فرأيت يبي ، فقلت : ما يبيك رحلك الله ! قال :
ويحك يا أحد ، إذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جل
جلاله عليهم يقول : بعضي من تلذذ بكلاى واستراح إلى مناجي ، وإلى مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنيهم وأرى
بكامهم ، يا جبريل ناد فيهم ما هذا البكاء الذي أراه فيكم ؟ هل خرجكم غير أن حبينا يذهب أحبابه بالنار ؟ كيف يحملون
أن أعذب قوما إذا جن عليهم الليل تنفقوا إلى ؟ في حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسفر لهم عن وجهي وأبيهم
رياض قدس .

وهذه أحوال قوم من المحبين أقیموا مقام الشوق ، والشوق من المحبة كالزهد من التوبة : إذا استقرت التوبة
ظهر الزهد ، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق .

قال الواصل في قوله تعالى (وعلمت إليك رب لترضى) قال شوقا واستهانة بمن وراة (قال هم أولاء على أخرى)
من شوقه إلى مكلة الله ، ورمى بالألواح لما فاته من وقته .

قال أبو عثمان : الشوق ثمره المحبة ، فمن أحب الله اشتاق إلى لقاءه . وقال أيضا في قوله تعالى (فإن أجل الله لآت)
تقرية للعثاقين ، معناه : إنى أعلم أن شوقكم إلى غالب ، وأنا أجلت لقاءكم أجلا ، وعن قريب يكون وصولكم إلى
من تشاقون إليه .

وقال ذو النون : الشوق أصل الدرجات وأعلى المقامات ، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء
لقائه والنظر إليه .

وعندى : أن الشوق الكائن في المحبين إلى رتب يتوقفونها في الدنيا ، غير الشوق الذي يتوقفون به ما بعد الموت ،
وافه تعالى يكشف أهل وده بمطايا يمدونها علما ويطلبونها ذوقا ؛ فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا ، وليس
من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت ، ورعا لأصحابه من المحبين بتلذذون بالحياة لله تعالى ، كما قال الجليل لرسوله
عليه الصلاة والسلام (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) فمن كانت حياته لله ، ومنحه الكريم لذة
المنجاة والمحبة ، فتمتلى عينه من الشوق ، ثم يكشفه من المنح والمطايا في الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق
إلى ما بعد الموت ،

وأذكر بعضهم مقام الشوق وقال : إنما يكون الشوق لغائب ، متى غيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ؟ ولهذا
سئل الألطاع عن الشوق ؟ فقال : إنما يشتاق إلى الغائب وما غيب عنه منذ وجده ، وإنكار الشوق على الإطلاق
لا يرى له وجهها ؛ لأن رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب ؟
فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد ، ولكن يكون مشتاقا إلى ما لم يجد من أنصبة القرب ، فكيف يمنع
حال الشوق والامر هكذا ؟ وجه آخر : أن الإنسان لا بد له من أمور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم
وقفه على حد العلم الذي يتغنيه حكم الحال ، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق ، ولا نفي بالشوق إلا
مطالبة بنسب من الباطن إلى الأول والأعلى من أنصبة القرب ، وهذه المطالبة كاتبة في المحبين ، فالشوق إذا كاتم
لا وجه لإنكاره .

وقد قال قوم : شوق للمشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والنيوابة ، فيكون في حال النيوابة مشتاقا إلى اللقاء ، ويكون في حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا إلى زوائد ومبار من الحبيب وإفضاله ، وهذا هو الذي أراه وأختاره .
وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله ، فإذا تحركت اشتياقا أعضاء النور مابين للشرق والغرب ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أني إليهم أشوق .

وقال أبو يزيد : لو أن الله حبب أهل الجنة عن رؤيته لاستغنوا من الجنة كما يستغنى أهل النار من النار .
سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال : هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب .
سئل بعضهم : هل الشوق أعلى أم المحبة : فقال : المحبة ؛ لأن الشوق يتولد منها ، فلا مشتاق إلا من غلبه الحب ، فالحب أصل والشوق فرع .

وقال النصارى بآدى : لخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ، ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار .

ومنها الأنس : وقد سئل الجنيد عن الأنس ؟ فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود المحبة .
وسئل ذو النون عن الأنس ؟ فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب . قيل : معناه قول الخليل (أرني كيف تحبى الموتى) وقول موسى (أرني أنظر إليك) . وأشد لرؤيته :

شغلت قلبي بما لديك فلا . ينفك طول الحياة عن فكري
آنسني منك بالوداد فقد . أوحشني من جميع ذا البشر
ذكرتك لي مؤسس يملحني . يرددني عنك منك بالنظر
وحينما كنت يامدى ممي . فأنت متى بموضع النظر

وروى أن مطرف بن الشيخ كتب إلى عمر بن عبد العزيز : ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فإن لله عبادا استأنسوا بالله وكأثر في وجدتهم أشد استئناسا من الناس في كثيرتهم ، وأوحش مايكون الناس أنس مايكونون ، وأنس مايكون الناس أوحش مايكونون .

قال الواسطي : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكرا ن كلها .
وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التنظيم ، لأن كل من استأنس به سقط عن قلبه تنظيمه إلا الله تعالى ، فإنه لا تنزاد به أنسا إلا ازدادت منه هبة وتنظيما .

قال رابعة : كل مطيع مستأنس . وأشدت :

ولقد جعلتلك في الفؤاد محذئ . وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس . وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحاجة الله عن عادلة المخلوقين فقد قل عليه وعى قلبه وضيع عمره .

قيل لبعضهم : من مملك في الدار ؟ قال : الله تعالى ممي ولا يستوحش من أنس بره .

وقال الحراري : الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب .

وصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال : جدد لهم الرد في كل طرفة بدوام الاتصال ، وآوام في كنفه بمحقق السكون إليه حتى أنت قلوبهم وحت آرواحهم شوقا . وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله ، فذهبت عنهم واقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم ، ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم مأسأوه بعض ما أعد لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق عله ، وكان تصبيهم معرفتهم به وفراغ مهمهم عليه واجتماع أرواحهم فيه ، فصار يحسدهم من عبيده الموم : أنرفع عن قلوبهم جميع الموم وأنشد في معناه :

كانت لظاني أمواء مفرقة فاستجمعت إذ رآته النفس أهوائ
فصار يحسني من كنت أحسنه وصرت مول الوري مذ صرت مولاني
تركك الناس خفيام ودينهم شغلا بذكرك ياديني وديناني

وقد يكون من الأنس : الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أرباب القربات ، وهذا القدر من الأنس
لنعمه من الله تعالى ومنحة منه ، ولكن ليس هو حال الأنس الذي يكون للمحبين ، والأنس حال شريف يكون عند
طهارة الباطن وكذنه بصدق الوعد وكال التقوى وقطع الأسباب والعلائق ومحو الخواطر والخواجس ، وحقيقته
عندى : كنس الوجود بثقل لائح العظمة وانتشار الروح في مبادي الفتح ، وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب
فيجمعه به عن الهية ، وفي الهية اجتماع الروح ورسوبه إلى عمل النفس ، وهذا الذي وصفناه من أنس الذات وهية
الذات يكون في مقام البقاء بعد العبور على بحر الفناء ، وهما غير الأنس والهية اللذين يذهبان بوجود الفناء ؛ لأن
الهية والأنس قبل الفناء ظهرا معاملة الصفات من الجلال والجمال وذلك مقام التلويح ، وما ذكرناه بعد الفناء في
مقام التلويح والبقاء من مطالعة لذات .

ومن الأنس ؟ خضوع النفس للعظمة ، ومن الهية : خضوعها ، والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق
لطيف يدرك طعمه الروح .

ومنها : القرب ، قال الله تعالى لتب عليه الصلاة والسلام (واقرب) وقه ورد : أقرب ما يكون العبد
من ربه في سجده ، فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما
يكون ، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب قال بعضهم : إنى لأجد الحضور فأقول : يالله ، أويارب : فأجد
ذلك على أقل من الجبال . قيل : ولم ؟ قال : لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا يتأذى جلوسه ،
وإنما هي إشارات وملاحظات ومنافاة وملاطفات ، وهذا الذي وصفه مقام عزير متحقق فيه القرب ، ولكنه مشعر
بمحو ، ومؤذن بسكر ، يكون ذلك لمن غابت نفسه في نور وحوه لعلبه سكره وقوة محو : فإذا محو أفاق وتخلص
الروح من النفس والنفس من الروح ، ويمود كل من العبد إلى محله ومقامه ، فيقول : يالله ويارب ، بلسان النفس
للطمنة العائدة إلى مقام حاجتها لعبوديتها ، والروح تستقل بفتوحه ويكالم الحال عن الأقوال ، وهذا أهم وأقرب
من الأول ، لأنه وفي حق القرب باستقلال الروح بالفتح ، وأهم رسم المبودية بعدو حكم النفس إلى محل الانقطار ،
وحظ القرب لا يزال يتوفر لنعيب الروح إقامة رسم المبودية من النفس .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر ماذا
يقرب من قلبك .

وقال أبي يعقوب السوسى : مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب فإذا
ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب . وقد قال قائلهم :

قد تحفقت في السر فساخاك لسان
فاجتمعتا لسان واقترنا لسان
إن يكن غيبك الله ظم عن لفظ عيان
فقد صيرك الوجد مد من الأحشاء ذاتي

قال ذو النون : ما ازداد أحد من الله قربة إلا ازداد هية . وقال سهل : أدنى مقام من مقامات القرب الحياء .
وقال النصراباذي : باتباع السنة تمال المعرفة . وبإداء الفرائض تمال القربة ، وبالمراطبة على التواضع تمال الهية .

ومنها : الحياء ، والحياء على الوصف العام والوصف الخاص : فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله
عليه وسلم في قوله استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا : إنا نستحي يا رسول الله . قال : ليس ذلك ، ولكن من

استحياء من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلد ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء ، وهذا الحياء من المقامات ، وأما الحياء الخاص فمن الأحوال : وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : إنى لأغتسل في البيت المظلم فأطوى حياء من الله .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادي يقول : سمعت أحمد السقطي ابن صالح يقول : سمعت محمد بن عبدون يقول سمعت أبا العباس المؤدب يقول : قال لي سري : احفظ عني ما أقول لك إن الحياء والانس يطوفان بالقلب ، فإذا وجداه في الزهد والورع حطاً ، وإلّا رحلا ، والحياء إطرار الروح لإجلاله لعظيم الجلال . والانس التناذد الروح بكامل الجمال ؛ فإذا اجتماعها في النهاية والنهاية في العطاء . وأنشد شيخ الإسلام أشتاقه فإذا بدا أطرق من إجلاله لاخيفة بل هيينة وصيانة بجماله الموت في إدباره والمعيش في إقباله وأصد عنه إذا بدا وأروم طيف خياله قال بعض الحكماء : من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج .

وقال ذو النون الحياء وجود الهية في القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك . وقال ابن عطاء الله : العلم الأكبر الهية والحياء ؛ فإذا ذهب عنه الهية والحياء فلا خير فيه . وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربع درجات : على الخوف ، والرعاة ، والتنظيم ، والحياء . وأشرهم منزلة : من عمل على الحياء ، لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحياء من حسنة أكثر مما استحياء الماؤون من سيئاتهم .

وقال بعضهم : الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائماً عند نظر الله إليهم . ومنها الاتصال قال النوري الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار . وقال بعضهم الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول . وقال بعضهم الاتصال أن لا يشهد العبد غير خائفة ولا يتصل بغيره خاطر لغير صانعه . وقال سهل بن عبد الله حركوا بلبلاء فتحركوا ، ولو سكنوا اتصلوا . وقال يحيى بن معاذ الرازي المال أربعة تأمل ، وزاهد ، ومشتاق ، وواصل ؛ فالتأمل محبوب بتوبته ، والزاهد محبوب بزهده ، والمشتاق محبوب بحاله ، والواصل لا يصحبه عن الحق شيء .

وقال أبو سعيد القرشي الواصل الذي يصله الله فلا يغشى عليه القطلع أبداً ، والمتصل الذي يجهده يتصل ، وكلنا دنا انقطع ، وكان هذا الذي ذكره حال المرید والمراد ، لكون أحدهما مباداً بالكشف وكون الآخر مردوداً إلى الاجتهاد .

وقال أبو يزيد الواصلون في ثلاثة أحرف مهمهم الله ، وشغلهم في الله ، ورجوعهم إلى الله . وقال السيارى الوصول مقام جليل ، وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعيد .

وقال الجنيدي الواصل هو الحاصل عند ربه . وقال روم أهل الوصول أوصل الله إليهم فإلهم ، فهم محفوظو القوى ، ممنوعون من الخلق أبداً .

وقال ذو النون مارجع من رجع إلا من الطريق ، وما وصل إليه أحد فرجع عنه . واعلم أن الاتصال والمراعاة أشار إليه الشيوخ ، وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق التوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ، ثم يتفاوتون ، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو يتقرب بالتجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار ، وهذه رتبة الوصول . ومنهم من يوقف في مقام الهية والانس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال ، وهذا تجلى طريق الصفات وهو رتبة في الوصول . ومنهم

من ترق للمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة منبيا في شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تمثيل الفات لخواص للمقربين ، وهذا المقام رتبة في الوصول ، وفوق هذا حق اليقين ، ويكون من ذلك في الدنيا لخواص لمح ؛ وهو سر يان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قاله ، وهذا من أعلى رب الوصول ؛ فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأذن الوصول؟ هيئات منازل طريق الوصول لا تقطع أبدأ الآيات في عمر الآخرة الأبدى ، فكيف في العمر القصير الدنيوى ؟

ومنها القبض والبسط : وما حالان شريفان ، قال الله تعالى (والله يقبض ويبسط) وقد تكلم الشيوخ وأشاروا بإشارات هي علامات القبض والبسط ، ولم أجد كشف عن حقيقتها لأنهم اكتفوا بالإشارة ، والإشارة تنفع الأهل ، وأحببت أن أشيع الكلام فيما لعله يقتضيه إلى ذلك طالب ويحب بسط القول فيه والله أعلم .

واعلم أن القبض والبسط لها موسم معلوم ووقت محتم لا يكونان قبله ولا يكونان بعده ، ووقتهما وموسمهما في أوائل حال المحبة الخاصة لافى نهايتها ، ولأقبل حال المحبة الخاصة ؛ فنرى في مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط ، وإنما يكون له خوف ورجاء ، وقد يحدسه حال القبض وشبه حال البسط ، ويظن ذلك قبضا وبسطا ، وليس هو ذلك ، وإنما هو يمر به فيظنه قبضا ، واعتزاز نفساني ونشاط طبيعي يظنه بسطا ، والمهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها ، وما دامت صفة الأمانة فيها بقية على النفس يكون منها الاعتزاز والنشاط والمهم ؛ ومع ساجور النفس ، والنشاط ؛ ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع ؛ فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذاك حال قلب وذات نفس لروامة ، ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك ؛ لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبة الخاصة ، فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطي : يقبضك عمالك ويبسطك فيأله ؛ وقال الثوري : يقبضك ليألك ، ويبسطك ليأله .

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها ، وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته ، والنفس مادامت لروامة فتارة مغلبة ، وتارة غالبة ، والقبض والبسط باعتبار ذلك منها ، وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه ، كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظاهري لوجود نفسه ، فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجاب لا يقبده الحال ولا يتصرف فيه ، فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ ، فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصا من الوجود الثوري الذي هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب ؛ فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء ، يعود إلى الوجود الثوري الذي هو القلب ، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ، ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط .

قال فارس : أولا القبض ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط ، لأن القبض والبسط يقع في الوجود ، فأما مع الفناء والبقاء فلا ، ثم إن القبض قد يكون عقوبة لإفراط في البسط ، وذلك أن الرائد من الله تعالى يرد على القلب فيميت القلب منه روحا وفرحا واستبشارا ، فتستريح النفس السمع عند ذلك وتأخذ لصفيتها ، فإذا وصل أثر الوجود إلى النفس طغت بطنها وأفرطت في البسط حتى تشاكل البسط لنشاطها ، فتقابل بالقبض عقوبة ، وكل القبض إذا فاقش لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها ، ولو تأدت النفس وعدلت ولم تخرج بالظن تارة بالعباد أخرى ما وجد صاحب القلب القبض ، ومادام روحه وأنه . ورعاية الاعتدال الذي يستدباب القبض متعلق من قوله تعالى (لكيلا أسألك ما فاقك ولا تنفرحوا بما آتاكم) فوارد الفرح مادام موقفا على الروح والقلب لا يكتف ولا يستوجب صاحب القبض سببا إذا لطف بالفرح بالوارد بالإبراء إلى الله ، وإذا لم ياتجى بالإبراء إلى الله تعالى فطاعت النفس وأخذت مظهرها من الفرح ، وهو الفرح بما أوتي المنع منه ، فن ذلك القبض في بعض الأحيان ، وهذا من اللطف الذوب الموجبة للقبض . وفي النفس من حرمانها وصفاتها بآيات متعددة موجهة للقبض ، ثم الخوف والرجاء لا يبد منها صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنا والهيبة ، لأنهما من ضرورة الإيمان فلا يندمان . وأما القبض والبسط فيمنع من عند صاحب الإيمان نقصان الحظ من القلب ، وعند صاحب الفناء والبقاء بالقرب لتخلصه من القلب ، وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف

سببها ، ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذى لم يحكم علم الحال ولا علم المقام ، ومن أحكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط ، وربما يشبهه عليه سبب القبض والبسط كما يشبهه عليه العلم القبض والنشاط بالبسط ، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه ، ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما نفسه مطمئة لا تتفتح من جوهرها نار توجب القبض ، ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط ، وربما صار مثل هذا القبض والبسط في نفسه لا من نفسه ، فتكون نفسه المطمئة بطبع القلب فيجرى القبض والبسط في نفسه المطمئة ، وما للقبض قبض ولا لبسط ، لأن القلب متحصن بشعاع نور الروح مستقر في دعة القرب بغلق قبض ولا بسط . ومنها : الفناء والبقاء . وقد قيل : الفناء أن يفنى عن الحفظ فلا يكون له في شيء حظ ، بل يفنى عن الأشياء كلها غفلا بمن فيه . وقد قال حارث بن عباد : لأبالي امرأة رأيت أم حاططا ، ويكون غفلا فإني عليه مصروفا عن جميع الخالقات . والبقاء يعقبه ، وهو أن يفنى عما له ويبقى بما لله تعالى .

وقيل الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا ، فيكون كل حركاته في موافقة الحق دون مخالفته ، فكان ثانيا عن المخالقات باقيا في الموافقات .

وعندى أن هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح ، وليس من الفناء والبقاء في شيء . ومن الإشارة إلى الفناء ما روى عن عباد الله بن عمر أنه سلم عليه إنسان وهو فى الطواف فلم يرد عليه . فشكاه إلى بعض أصحابه ، فقال له كنا نراى الله فى ذلك المكان .

وقيل الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلى وبه الجبل .

وقال الخراز الفناء هو التلاشى بالحق . والبقاء هو المحضور مع الحق .

وقال الجنيدي الفناء استمجام الكل عن أوصافه واشتغال الكل منك بكنيته .

وقال إبراهيم بن شيخان : علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوجدانية وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من الخاليات والزندقة .

وسئل الخراز ما علامة الفناء ؟ قال : علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا ما نفعه تعالى .

وقال أبو سعيد الخراز : أهل الفناء فى الفناء صحتهم أن يصحبهم علم البقاء ، وأهل البقاء فى البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء .

واعلم أن أقوال الشيوخ فى الفناء والبقاء كثيرة ، فبعض الإشارة إلى فناء المخالقات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة

النصوح ، فهو ثابت برصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل ، وهذا يقتضيه الزهد . وبعضها إشارة

إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة ، وهذا يقتضيه تركبة النفس . وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق ،

وكل هذا الإشارات فيها معنى الفناء من وجه . ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد ،

فينقلب كرون الحق سبحانه وتعالى على كرون العبد ، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن ، فأما الفناء الظاهر : فهو أن

يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الاتصال ويسلب عن العبد اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لذاته فعلا إلا بالحق ،

ثم يأخذ فى المعاملة مع الله تعالى بحسبه ، حتى سمعت أن بعض من أقيم فى هذا المقام من الفناء كان يبنى أياما لا يتناول

الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقضى الله تعالى له من بطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب ، وهذا

لمصرى فناء ، لأنه فنى عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله . والفناء الباطن : أن يكشف تارة

بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات ، فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس . وليس

من ضرورة الفناء أن ينيب إحساسه ، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص ، وليس ذلك من ضرورة الفناء

على الإطلاق .

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري وقلت له : هل يكون بقاء المتخيلات فى السر ووجود الرواس

من الشرك الحقي؟ - وكان عندي أن ذلك من الشرك الحقي - فقال لي : هذا يكون في مقام الفناء . ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الحقي أم لا ؟ ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فقامت أسطوانة في الجامع فأنزعج لها أهل السوق ، فدخلوا المسجد فأروه في الصلاة ولم يحسن بالأسطوانة وقوعها ، فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا ، ثم قد يتسع وعاءه حتى له له يكون متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ، ولا ينبغي عن كل ما يجري عليه من قول وفعل ، ويكون من أقسام الفناء : أن يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينظر الإذن في كلييات أموره ليكون في الأشياء باقة لا ينفسه ، فتارك لا اختيارا متظر لفعل الحق فان ، وصاحب الانتظار لا إذن الحق في كلييات أموره راجع إلى الله يباطنه في جزئياتها فان ، ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف . يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للإذن هو باقي ، والباقي في مقام لا يجيب الحق عن الحق ، ولا الحق عن الحق ، والباقي محبوب بالحق عن الحق ، وفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال ، والفناء الباطن لمن أطلق عن وثائق الأحوال ، وصار باقة بالأحوال ، وخرج من القلب نصار مع مقبله لأمع قلبه .

الباب الثاني والستون

في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن سليمان إجازة ، قال أخبرنا أبو الفضل حمد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني ، قال حدثنا محمد بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو مسلم الكشي ، قال حدثنا مسور بن عيسى ، قال حدثنا القاسم بن يحيى ، قال حدثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن من معادن التقوى تملكك إلى ما قد علمت علم ما لم تعلم ، والنقص فيها علت فلة الزيادة فيه ، ولما يرمد الرجل في علم ما لم يعلم فلة الانتفاع بما قد علم ، فمناجى الصوفية أحكوا أساس التقوى ، وتعلموا العلم لله تعالى ، وعملوا بما علموا الموضع تقوا ، فلهذا الله تعالى ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات ، واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم ومجائب الأسرار وترسخ قديمهم في العلم . قال أبو سعيد الخراز أول الفهم لكلام الله تعالى به ، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط . وأول الفهم لقاء السمع والمساعدة لقوله تعالى ﴿إذ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ وقال أبو بكر الواسطي : الراسخون في العلم هم الذين رحلوا بأرواحهم في غيب الغيب ، وفي سر السر ، فعرفهم ما عرفهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم ، وعاشوا بجزء العلم بالفهم لطلب الزبادات فأنكشف لهم من مدخور الخزان والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم ومجانب النص ، فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة .

وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيارواه سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة أنه قال : إن من العلم كهيئة المكنون لا يملكه إلا العلماء باقة ، فإذا نطقوا به لا ينسكه إلا أهل الغرة باقة .

أخبرنا أبو زرعة ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال حدثنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت التصريا بآذ يقول : سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشي يقول هي أسرار الله تعالى يديها إلى أمناه أولياته وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة ، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص .

وقال أبو سعيد الخراز للمعارفين خزان أودعها علوما غريبة وأنباء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بمباراة الأزلية ، وهي من العلم المجهول ، فقله بلسان الأبدية وعبارة الأزلية ، إشارة إلى أنهم باقة ينطقون . وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «في ينطق ، وهو العلم اللدني الذي قال الله تعالى فيه في حق المختصر ﴿آيتناه رحمة من عندنا وعلنا من لنا علما﴾ فأنبا ولته استنهم من الكلمات فنهوا من بعضهم البعض ، وإشارة منهم إلى أحوال يجدونها ومعاملات فيليد يرفونها . قولهم الجمع والتفرقة ، قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ فهذا جمع ثم فرق فقال ﴿والملائكة وأولوا العلم﴾ وقوله تعالى ﴿أما بالله﴾ جمع ثم فرق بقوله

(وما أنزل إلينا) والجمع أصل والتفرقة فرع؛ فكل جمع بلا تفرقة زائدة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

وقال الجنيد: القرب بالوجود جمع، وغيبته في البشرية تفرقة. وقيل: جمعهم في المعرفة وفرقهم في الأحوال والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق، فلي شاهد غيره فاجمع، والتفرقة شيء، دللنا شاء بالمباينة، وعباراتهم في ذلك كثيرة والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد، وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب، فعلى هذا لاجمع إلا يتفرقة، ويقولون فلان في عين الجمع، يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه؛ فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة؛ فصحة الجمع بالتفرقة. وصحة التفرقة بالجمع؛ فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله، والتفرقة من العلم بأمرائه، ولا بد منهما جميعا.

قال المزني: الجمع عين الفناء بالله، والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبدن. وقد غلط قوم وأدعوا أنهم في عين الجمع وأشاروا إلى صرف التوحيد وطلوا الاكتساب فزندقوا. وإنما الجمع حكم الروح؛ والتفرقة حكم القالب، وما دام هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة.

وقال الواسطي: إذا نظرت إلى نفسك تفرقة، وإذا نظرت إلى ربك جمعت، وإذا كتبت قائما بغيرك فأنت فاعل ولا تفرقة. وقيل: جمعهم بذاته، وفرقهم في صفاته، وقد يريدون بالجمع والتفرقة: أنه إذا أثبت لنفسه كسبا ونظرا إلى أعماله فهو في التفرقة، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع، وبمخرج الإشارات باني أن الكون يفرق والمكون بجمع؛ فمن أفرد المكون جمع، ومن نظر إلى الكون فرق؛ فالتفرقة عبودية، والجمع توحيد؛ فإذا أثبت طاعته فطرا إلى كسبه فرق، وإذا أثبتها بالله جمع، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع، ويمكن أن يقال: رؤية الأفعال تفرقة، ورؤية الصفات جمع، ورؤية الذات جمع الجمع.

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال: أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى، ثم كلم فكان الحكم والمحكم هو، وكيف كان يطبق موسى حمل الخطاب وردا للجواب لولا أنه سمع وهو معنى هذا: أن الله تعالى منحه قوة تلك القوة سمع، ولولا تلك القوة ما قدر على السمع، ثم أئند القائل متمتلا:

وبدا له من بعد ما أقدمل الهوى • برق تألق موهبا لمصانه

يبدو ككاشية الرءاء ودونه • صعب الذي تمتنع أركانه

فيذا لينظر كيف لاح فلم يطق • نظرا إليه وردده أشجانه

فأثار ما اشتملت عليه ضلوعه • والماء ما سمحت به أجفاه

ومنها قولهم: التجلي والاستتار. قال الجنيد: إما هو تأديب وتهذيب وتذويب، فالتأديب: حمل الاستتار وهو اللوام، والتهذيب للنواص وهو التجلي، والتذويب الأولياء وهو المشاهدة.

وحاصل الإشارات في الاستتار والتجلي راجع إلى ظهور صفات النفس.

ومنها الاستتار: وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب. ومنها التجلي، ثم التجلي قد يكون بطريق الأفعال، وقد يكون بطريق الصفات، وقد يكون بطريق الذات، والحق تعالى أبقي على الخواص موضع الاستتار وحملة منه لم ولنغيرم؛ فأما لم فلاهم به يرجعون إلى مصالح النفس، وأما لنغيرم فلاه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستفراقهم في جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار.

قال بعضهم: علامة تجلي الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التمييز ويحويه الفهم، فمن عبر وأفهم فهو صاحب استدلال لا ناظر إجلال.

وقال بعضهم: التجلي: رفع حجب البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل. والاستتار: أن تكون البشرية سالمة بينك وبين شهود الشيب.

ومنها: التجريد والتفريد، الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيها بفعله، لا بآق

بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة ، بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا والتفريدا : أن لا يرى نفسه فيها يأتي به إلا يرى منه الله عليه ، فالتفريد ينفي الأغيار ، والتفريد ينفي نفسه واستغرائه عن رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه ، ومنها : الوجد والتواجد والوجود ؛ فالوجد : ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حنا ، ويفتقره عن هيئته ويتطلع إلى الله تعالى ، وهو فرجة يجمدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى . والتواجد : استجلاب الوجد بالذكر والتفكير ، والوجود : اتساع فرجه الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان ، فلا وجد مع الوجدان ، ولا خبر مع العياض ؛ فالوجد بمرضية الزوال والوجود ثابت بثبوت الجبال ، وقد قيل :

قد كان بطريركي وجسدي فأقصدتني • عن رؤية الوجد من في الوجد موجود
والوجد بطرب من في الوجد راحته • والوجد عند حشور الحق مفقود

ومنها : الذليقة والغلة وجد متلاحق ، فالوجد كالبرق يبدو ، والغلة كتلاحق البرق وتواتره ينبغ عن التميز ؛ فالوجد ينطق " سريما ، والغلة تبقى للأسرار حرزا متبعا .

ومنها : المسامرة : وهي تفرد الأرواح بجنى مناجياتها ولطيف مناجياتها في سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها فتلتذ بها دون القلب .

ومنها السكر والصحو : فالسكر : استيلاء سلطان الحال ، والصحو : العود إلى ترتيب الأفعال وتمذيب الأقوال ، قال محمد بن خفيف : السكر غلبان القلب عند معارضات ذكر المحبوب ، وقال الواسطي : مقامات الوجد أربعة : الدهول ، ثم الهيرة ، ثم السكر ، ثم الصحو ؛ كمن سمع بالبحر ، ثم دنا منه . ثم دخل فيه ، ثم أخذته الأمواج ؛ فقول هذا : من بقي عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ، ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاح ؛ فالسكر لأرباب القلوب ، والصحو للكاشفين بمقائق القيوب .

ومنها : الخو والإيثار ، الخو : إيالة أوصاف النفوس ، والإيثار : بما أدر عليهم من آثار الحب كخوس . أو الخو : نحو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه ومأمته ، والإيثار : إلبانها بما أنشأ الحق له من الوجودية ؛ فهو بالحق لا بنفسه بإيثار الحق إياه مستأنفا بعد أن عماء عن أوصافه .
قال ابن عطاء الله : يحو أوصافهم ويثبت أسرارهم .

ومنها : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، فلم اليقين : ما كان من طريق النظر والاستدلال . وعين اليقين ما كان من طريق الكشف والنوال . وحق اليقين : ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال ورود واند الوصال قال فارسي : علم اليقين لا يضطرب فيه ، وعين اليقين : هو العلم الذي أودعه الله الأسرار والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين كان علما بشبهة ، فإذا انضم إليه اليقين كان علما بلا شبهة . وحق اليقين : هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقين وعين اليقين .

وقال الجنيد : حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك ، وهو أن يشاهد النيوب كما يشاهد المراتب مشاهدة عيان ، ويحكم على النيب فيخبر عنه بالصدق ، كما أخبر الصديق حين قال سلا قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماذا أقيمت أعيالك ؟ قال : الله ورسوله . وقال بعضهم : علم اليقين حال التفرفة . وعين اليقين حال الجمع . وحق اليقين : جمع الجمع بلسان التوحيد .

وقيل : لليقين : اسم ، ودرم ، وعلم ، وحق ؛ فالاسم والرسم اللوام ، وعلم اليقين للأولياء ، ودرم اليقين لخواص الأولياء ، وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحقيقة حق اليقين اختص به أنبياءنا محمد صلى الله عليه وسلم . ومنها : الوقت ، والمراد بالوقت : ما هو غالب على العبد ، وأغلب ما على العبد وقته ، فإنه كالسيف يهوى الوقت بحسبه ويقطع . وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا يكسبه ، فيتصرف فيه فيكون بحسبه . يقال : فلان يحكم الوقت ، يعني مأخوذا عما منه بما للحق .

ومنها : الغيبة والشهود ؛ فالشهود : هو الحضور وقتاً بنيت المراقبة ، وقتاً صرف المشاهدة ؛ فإدام العبد موصوفاً بالشهود والرعاية فهو حاضر ؛ فإذا قد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب ، وقد يمتحن بالغيبة الغيبة عن الأشياء بالحق ؛ فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعاً إلى مقام الفتاة .

ومنها : الذوق والشرب والرى ، فالذوق : إيمان ، والشرب : علم ، والرى : حال ؛ فالذوق لأرباب البوادة ، والشرب لأرباب الطوالع والوائع ، والرى لأرباب الأحوال ؛ وذلك أن الأحوال هي التي تستقر ؛ فالعلم يستقر فليس يحال وإنما هي لوائع وطوالع . وقيل : الحال لا تستقر لأنها تحول ، فإذا استقرت تكون مقاماً .

ومنها : المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة ؛ فالمحاضرة لأرباب التلون ، والمشاهدة لأرباب التفكير ، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر ؛ فالمشاهدة والمحاضرة لأهل العلم ، والمكاشفة لأهل العيون ، والمشاهدة لأهل الحق ؛ أي حق اليقين . ومنها : الطوارق ، والبوادي ، والباده ، والواقع ، والقاضح ، والطوالع ، والوائع ؛ وهذه كلها الفاظ متقاربة المعنى ، ويمكن بسط القول فيها ؛ ويكون حاصل ذلك راجعاً إلى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه ، والمقصود أن هذه الأسماء كلها مبادئ الحال ومقدماته ، وإذا صح الحال استوعب هذه الأسماء كلها ومعانيها .

ومنها : التلون والتفكير ؛ فالتلون لأرباب القلوب لأنهم تحت حجب القلوب ، والقلوب تخلص إلى الصفات ، والصفات تعدد بتعدد جهاتها ؛ فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلونات ، ولا تجاوز لقلوب وأربابها عن عالم الصفات . وأما أرباب التفكير فخرجوا عن مشائيم الأحوال ، وغرقوا حجب القلوب ، وبشرت أرواحهم سطوع نور الذات ؛ فارتفع التلون لعدم التغير في الذات ، إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات ؛ فلما خلاصوا إلى مواضع القرب من أنفسه تجلى الذات ارتفع عنهم التلون ، فالتلون حينئذ يكون في نفوسهم لاجاً في عمل القلوب لموضع طهارتها وقدها ، والتلون الواقع في الشر - لا يخرج ساحبه عن حالة التفكير ، لأن جريان التلون في النفس لبقائه وسم الإنسانية ، وثبوت القدم في التفكير كشف حق الحقيقة ، وليس المعنى بالتفكير ؛ أن لا يكون العبد تغير فإنه بشر ، وإنما المعنى به : أن ما كشف به من الحقيقة لا يتراعى عنه أبداً ولا يتناقص بل يزيد ؛ وصاحب التلون قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه ، وتغييب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ، ويكون بؤسه على مستقر الإيمان وتلويته في زوائد الأحوال .

ومنها النفس ؛ ويقال النفس للنتهى ، والوقت للابتدى ، والحال للتوسط ، فكانت إشارة منهم إلى أن المبتدئ يطرده من الله تعالى طارق لا يستقر ، والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه ، والمنتهى صاحب نفس متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور ، بل تكون المواجهه مقرونة بأنفاسه مقيمة لا تتناوب عليه . وهذه كلها أحوال لأربابها ، ولهم منها ذوق وشرب ، والله ينفع ببركتهم آمين

الباب الثالث والسون : في ذكر شيء من البدايات والنهيات وصحتها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو التيجيب السهروردي ، قال أخبرنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزيني ، قال أخبرنا كريمة المروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي الكشميني ، قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف القريري ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ، قال حدثنا الحليدي ، قال حدثنا سفيان بن عيينة ، قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري ، قال أخبرني محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع عقبة بن وقاص ، قال : سمعت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ، النية أول العمل ، وبحسبها يكون العمل ، وأم ما للربيد في ابتداء أمره في طريق النجوم : أن يدخل طريق الصوفية ويتزاً برحيم ويجالس طائفتهم لله تعالى ، فإن دخوله في طريقهم هجرة حاله

ووه ، وقد ورد المهاجر من هجر مائه الله عنه ، وقد قال الله تعالى ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله
ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ فالمريد ينبغي أن يخرج إلى طريق القوم لله تعالى ، فإنه وإن وصل إلى نهايات
القوم فقد لحق بالقوم بالمثل ، وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله ، وكل من كانت بدايته
أحكم كانت نهايته أتم .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن ابن أبي العباس البندادي عن جعفر الخلدی قال : سمعت
الجنيد يقول : أكثر العوائق والحوائج وللوائع من فساد الابتداء ، فالمريد في أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى
إحكام النية ، وإحكام النية : تنزيها من دواعي الهوى ، وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل ، حتى يكون خروجه
خالصا لله تعالى .

وكتب سالم بن عبادة إلى عمر بن عبد العزيز : أعلم يا عمر أن عون الله للمريد بقدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله
له ، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك .

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه : أخلص النية في أعمالك يكفك قليل من العمل ، ومن لم يبتدئ إلى النية بنفسه
يصعب من يملئه حسن النية .

قال سهل بن عبادة القسري : أول ما يؤمر به المريد المبتدئ : التبري من الحركات المذمومة ، ثم النقل إلى الحركات
المحمودة ، ثم التفرد لآمر الله تعالى ، ثم التوقف في الرشاد ، ثم الثبات ، ثم اليقين ، ثم القرب ، ثم المنجاء ، ثم المصافة
ثم الموالاة ؛ ويكون الرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكل حاله ، ثم بمن الله تعالى بهذه المعرفة ، فيكون مقامه
عند الله مقام المتبرين من الحول والقوة ؛ وهذا مقام حلة العرش وليس بعده مقام . هذا من كلام سهل جمع فيه
ماني البداية والنهاية .

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ، ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر الشرع
وقطع النظر عن الخائف ؛ فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرم إلى الخلق . وبلغنا عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر
صاغرا ، إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقييد بهاداتهم .

قال أحمد بن خضرويه : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليزم الصدق ، فإن الله تعالى مع الصادقين ،
وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة . ولا بد للمريد من الخروج من المال
والجاه والخروج عن الخلق يقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس ، وأنفع شيء
للمريد معرفة النفس ؛ ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات ، أو
عليه من الهوى بقية .

قال زيد بن أسلم : خصلتان هما كالأمرك تصبح لآلهم لله بمعصية وتسمى ولائهم لله بمعصية ؛ فإذا أحكم الزهد والتقوى
انكشف له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها وخصي شهواتها وسماسها وتليساتها . ومن تمسك بالصدق
فقد تمسك بالعروة الوثقى . قال ذو النون : لله تعالى في أرضه سيف ما وضع على شيء إلا قطع وهو الصدق .

ونقل في معنى الصدق : أن عابدا من بني إسرائيل راوده ملكه عن نفسه فقال : اجعلوا لي ماء في الخلاه أتتظف
به ، ثم صعد على موضع في القصر فرى بنفسه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ملك الهوام أن الزم عيدي ، فلزمه ووضعه على
الأرض وضعا رفيقا ، فقبل لإبليس ألا أغريته . فقال ليس لي سلطان على من عالف هواه وبذل نفسه لله تعالى .

وينبغي للمريد أن يتكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه ، فلا يلبس إلا لله ولا يأكل
إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله ، لأن هذه كلها أرقاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لاستمعية النفس وتجييب
إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص ، وإذا دخل في شيء من رفق النفس لآفة بغير نية صالحة صار ذلك وبالاً

عليه . وقد ورد في الخبر : من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من الريح للسلطان الأذخر ، ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أتقن من الجيفة .

وقيل : كان أنس يقول : طيبوا كفي بملك ، فإن ثابتا يصلح ويقتل يدى . وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة . متفرق بين ذلك إلى الله بنيتهم : فالمرء يبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله ولا يساع نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا الله تعالى ، وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوي عند كل لقمة ويقول بلسانه أيضا : آكل هذه اللقمة لله تعالى ، ولا ينفع القول إذا لم تكن النية في القلب ؛ لأن النية عمل القلب ، وإنما اللسان ترجمان ؛ فما لم تقم عليه عزيمة القلب لله لا تكون نية .

ونادى رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال : هاتي الدرى ، أراد الليل ليفرق شعره ، فقالت لها امرأته : أجبى بالمدرى والمرأة ، فسكت ثم قال : نعم ، فقال له من سمع : سكت وتوقفت عن المرأة ثم قلت نعم ؛ فقال : إنى قلت لها هاتي الدرى بنية ، فلما قالت : المرأة لم يكن لي في المرأة نية ، فتوقفت حتى هيا الله تعالى لي نية ، فقلت نعم ، وكل مبتدئ لا يحكم أساس بدايته بهجرة الألف والأصداف والمعارف ويتمسك بالوحدة لاستقرار بدايته . وقد قيل : من قلة الصدق كثرة الخطأ ، وأضع ماله لزوم الصمت وأن لا يطرق سمع كلام الناس ؛ فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة ، وكل من لا يدلم كال زهد في الدنيا وتمسك بمخالفات التقوى لا يعرف أبدا ، فإن عدم معرفته يفتح عليه خيرا ، وواطن أهل الابتداء كالشمع يهزل كل نقش ، وربما استنصر المبتدئ بمجرد النظر إلى الناس ، ويستنصر بفضول النظر أيضا وفضول المشي ، فيقف من الأشياء كلها على الضرورة ، فينظر ضرورة ؛ حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت بيمينه ويساره ، ثم يتق موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالآفة والاحتراس ؛ فإن علم الناس منه بذلك أضر عليه من فعله ، ولا يستنصر بفضول المشي ، فإن كل شيء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول ، ثم يمر إلى تعذيب الأصول .

قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتعذيب الأصول ، فكل من لا يتمسك بالضرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ، ومتى تعدى الضرورة تداعى عزائم قلبه وانحلت شيئا بعد شيء . قال سهل بن عبد الله : من لم يبدأه اختيارا يبدأه خلق اضطرابا ، وينفتح على العبد أبواب الرخص والاسراع ويهلك مع المالكين .

ولا ينبغي للمبتدئ أن يعرف أحدا من أبواب الدنيا ، فإن معرفته لهم سم قاتل . وقد ورد : الدنيا مبرحة الله فمن تمسك بجمل منها قادته إلى النار ، وما جبل من حبالها إلا كآبائها ، والطالبين لها والمحيين ، فمن عرفهم انحذب إليها شاء أو أبى .

ويجتزئ المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار ، فانه يدخل عليه منهم أشر ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا ، وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل المتعبدين ، وأن أرباب الأحوال اتقوا عن ذلك ، وينبغي للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان لحسب ؛ ولا ينبغي أن يدخل هذا الكلام سمه رأسا ، فلما اخترنا وما ربنا الأمور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين ، ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والتوافل تحت القصور مع كونهم أصحاب أحوالهم . فمل العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة ، وبذلك يثبت قدمه في بدايته ، ويراعى يوم الجمعة خاصة ويجمعه لله تعالى خالصا لا يمزجه بشيء من أحوال نفسه وما رجا ، ويكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بمدة الغسل الجمعة ، وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك لحسن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أيها المرء اغتسل الجمعة ولو اشترى الماء بمشائك ، وما من نبي إلا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة ، فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين ، ويشتمل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصل الجمعة ، ويجلس متمكنا في الجامع إن أن يصل فرض العصر وبقية النهار

يشمله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه يرى بركة ذلك في جميع الأسبوع حتى يرى جمرة ذلك يوم الجمعة .

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع لأنه يوم المزيد لكل صادق ، ويكون ما يجد يوم الجمعة معيارا يبتدر به سائر الأسبوع الذي مضى ؛ فإنه إذا كان الأسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الأثوار والبركات ، وما يجد في يوم الجمعة من الطلعة وساعة النفس وقلة الانشراح ، فلما ضيع في الأسبوع يعرف ذلك ويبتدر .

ويتيق جدا أن يلبس للناس ؛ أما المرتفع من الثياب أو ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد ؛ ففي ليس المرتفع للناس هوى ، وفي ليس الخشن رياء ، فلا يلبس إلا لله .

بلنا أن شفيان ليس التقيص مغلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبه على ذلك بعض الناس ، فهم أن يخلع ويفتر ثم امسك وقال ؛ لبست بنية لله فلا غيره فالبسة بنية للناس ؛ فليعلم البعد ذلك وليبتدره .

ولا بد للبدي أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه ، فيحفظ من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ، ولا يصح إلى قول من يقول ؛ ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن ؛ فإنه يحد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يمتنى بتوفيق الله تعالى . وإنما اختار بعض المشايخ بدم المزيد ذكرا واحدا ليجمع المم فيه ، ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة تفيد التلاوة والصلاة أوفى ما يفيد الذكرا الواحد ؛ فذا قسم في بعض الأسابيع يصانع النفس على الذكر مصانعة ، وينزل من التلاوة إلى الذكر فإنه أخف على النفس .

ويبنى أن يعلم أن الاعتبار بالقلب ، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتماد ؛ فإنه عمل ناقص .

ولا يصح الوسواس وحديث النفس فإنه معزود عصال ؛ فيطالب نفسه أن تصير في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه ، فسكا أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يبرحها بكلام آخر ، هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يبرح حديث النفس ، وإن كان أعجميا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه ، فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس ؛ فإن بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة .

قال مالك ؛ قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة ، فليتمسك المرید بهذه الأصول ، وليستعن بدوام الافتقار إلى الله ؛ فذلك ثابت قدمه .

قار سهل ؛ على قدر لوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء ، وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله ، فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم ، وهذا الافتقار مع كل الأناس لا يقتبط بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها ، وكل كلمة وحركة خطت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تقب خيرا قطما ، علنا ذلك وتحققاه .

وقال سهل ؛ من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله ، وأدى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يمتنيه وترك ما يمتنيه .

وبلنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم ؛ لمن هذه الدار ؟ ثم رجع إلى نفسه وقال ؛ مالي وهذا السؤال ؟ وهل هذه إلا كلة لا تفتني ؟ وهل هذا إلا لاسقلاء نفسي وقلة أدبا ؛ وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه السكلة ، فبالصدق نالوا ما نالوا ، وبقوة المزامم - عوامم الرجال - بلنوا ما بلنوا .

أخبرنا أبو زرعة بإجازة ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت منصورا يقول ؛ سمعت أبا عمرو الأنطالي يقول ؛ سمعت الجنيد يقول ؛ لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان

ما قامه من الله أكثر مما ناله ، وهذه الجملة يحتاج المبتدئ أن يحكمها ، وللتنتهى عالم بها عالم بمقامتها ؛ فالمبتدئ صادق وللتنتهى صديق .

قال أبو سعيد التريشي : الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس ، وعلامته أن يحد الخلوة في بعض الطاعة ولا يجدها في بعض ، وإذا اشتغل بالذكر نورالروح ، وإذا اشتغل بحفظ النفس بحجب عن الأذكار . والصديق : الذى استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلون الأحوال ، لا يحجب عن نفسه عن الأذكار أكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام ، والصديق يريد نفسه لله . وأقرب الأحوال إلى التوبة الصديقية .

وقال أبو يزيد : آخر نهايات الصديقين أول درجة الأنبياء .

واعلم أن أرباب الهيايات استقامت برعاتهم وظواهرهم لله ، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفس ووطئت بساط القرب ، ونفوسهم مفاداة مطوعة صالحة مع القلوب مجية إلى كل ما تجيب إليه القلوب ، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى ، انطغلت فيهم نيران الهوى ، وتخرج في بواطنهم صريح العلم وانكشف لهم الآخرة ، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أبي بكر رضى الله عنه ، من أراد أن ينظر إلى ميت عيش على وجه الأرض فينظر إلى أبي بكر ، إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كوشف به من صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) فأرباب النهايات ماتت أموتهم وخلصت أرواحهم .

قال يحيى بن معاذ - وقد سئل عن وصف المعارف - فقال : رجل معهم بائن منهم . وقال مرة : عبد كان فبان . فأرباب الهيايات هم عند الله بموقفين بتوقيت الأجل ، جعلهم الله تعالى من جنودى خلقه ، هم يهتدى بهم يرشد بهم فيجذب أهل الإرادة ، كلامهم دواء ونظرم دواء ، ظاهرهم محفوظ بالحكم ، وباطنهم معمور بالعلم .

قال ذو الثون : علامة المعارف ثلاثة : لا يطق نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ، ولا يحمله كرامة نعم الله وكرامته على هلك استار محارم الله ، فأرباب النهايات كلما زادوا نعمة زادوا عبودية ، وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قربا ، وكلما زادوا رجاها وورعها زادوا تواضعا وطلاقة (أدلة على المؤمنين أعراس الكافرين) وكلما اتزادوا شهوات النفوس استخرجت منهم شكر أصافيا ، يتناولون الشهوات تارة رقا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشيء ويهدى له شيء ؛ لأنه متهور تحت السياسة مرحوم ملطوف به . وتارة يمتعون نفوسهم الشهوات تأسيسا بالأنبياء واختيارهم التقليل من الشهوات الفنيوية .

قال يحيى بن معاذ : الدنيا عروس تطلعيها ماشئتها ، والزاهد فيها يستحم وجهها وينتف شعرها ويفرق ثوبها ، والمعارف بالله مشتغل بسيدته ولا يلتفت إليها .

واعلم أن المنتهى مع كمال حاله لا يستغنى أيضا عن سياسة النفس ومنهها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر ، وقد غاط في هذا خلق ، وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادة والتوافل ولا لعل قلبه من الاسترسال في تناول الملاذ والشهوات ، وهذا خطأ لا من حيث إنه يجب المعارف عن معرفته ، ولكن يوقف عن مقام المريد . وقوم لما رأوا أن هذه الأشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجة ركنوا إليها واسترسلوا فيها وقنعوا بأداء الفرائض واتسموا في المأكل والمشرب ، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال ، وتغيد بنور الحال ، وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق ، ومن تخلص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر ويوقف نفسه مقام المريد ، كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى يلماحة الأذى عن الطريق ، ولا يستكثر ولا يستكف أن يعود في صور عوام المؤمنين من إظهار الإرادة بكل بر وصلة ، فيتناول الشهوات وقتا رقا بالنفس المظهر المزكاة المفاداة المطروعة لأنها أسيرهم ، ويمتنع الشهوات وقتا لأن ذلك صلاحها ، واعتبر هذا سواء بحال النفس فإنه إن جاوز حد الاعتدال من إعطاء المراد وقتا ومنعه وقتا ففسد طبعه ، لأن الجلبة لا بد من تمهاتها سياسة العلم وبمادامت الجلبة باقية لا بد من سياسة العلم ، وهذا باب غامض دخل في النهايات على المنتهى من ذلك دواخل ووقع الركون والسد

به باب المزيد ؛ فالتفتي ملك ناصية الاختيار في الأخذ والترك ، ولا بد له من أخذ وترك في الأعمال والحفظ ؛ ففى الأعمال لابد له من أخذ وترك ، فمادة يأبى بالأعمال كأعمال الصادقين ، ومادة يترك زيادة الأعمال عفا بالنفس ، ومادة يأخذ الحفظ والشهوات رفقا بالنفس ، ومادة يتركها افتقاراً للنفس بحسن السياسة ، فيكون فى ذلك كله اعتباراً فى ساكن ترك الحفظ بالكلية ؛ فهو زاهد تارك بالكلية . ومن استرسل فى أخذه فهو راغب بالكلية . والنتهى شمل الطرفين ، فإنه على غاية الاعتدال ، واقب على الصراطيين الإفراط والتفريط ، فن ردت إليه الأقسام فى النهاية فأخذها زاهداً فى الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار ، وتارك الاختيار الواقع مع فعل الله تعالى مقيد بالحال . وكأن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار ، فكذلك الزاهد فى الزهد الأخذ من الدنيا ماسيق إليه لرويته فعل الله مقيداً بالأخذ ، وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتاً واختياره من اختيار الله ، ويأخذ وقتاً واختياره من اختيار الله ، وهكذا صومه الثابتة وصلاته المألوفة بآبى بها وقتاً ويسمح للنفس وقتاً ، لأنه يختار صحيح فى الاختيار فى الحالين ، وهذا هو الصحيح ونهاية النهاية ، وكل حال يستقر ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام يقرم من الليل ولا يقوم الليل كله ، ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان ويتناول الشهوات . ولما قال الرجل لى عزت أن لا أكل اللحم ، قال : فإنى أكل اللحم وأجبه ، ولو سألت ربي أن يطعمنى كل يوم لأطعمنى . وذلك يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختاراً فى ذلك ، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل ، وكان يترك الأكل اختياراً ، وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعاً ، وهذا إذا قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض ؛ فإن الخاصة القوف على حديثه ، والدرجة التأسي بفعله . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم ، ثم إن التفتي بما كى حاله حال رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام فى دعاء الحقن إلى الحق ، فكل ما كان يعتمد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمد ، فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصياؤه الأوائل بخير ؛ إما أنه كان ليعتد به ، وإما أنه كان لمزيد كان يحده بذلك ، فإن كان يقتدى به فالتفتي أيضاً مقتدى به ينبغي أن يأبى بمثل ذلك ، والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك لغير الاقتداء ، بل كان يحده بذلك زيادة ، وهو ما ذكرناه من تهذيب الجلبة . قال الله تعالى خطاباً له (واعبد ربك حتى أتيتك الدين) ، لأنه بذلك ازداد استعداداً من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم ، والتي عليه الصلاة والسلام مغتنق إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن عن ذلك ، ثم فى ذلك سر غريب ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رابطة جنسية النفس كان يدعو الحقن إلى الحق ، ولو لارابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به ، وبين نفسه الطاهرة ونفوس الاتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ، وروابطه التأليف : أن النفوس ألفت أنفاً ، كان أرب الأرواح ألفت أولاً . ولكل روح مع نفسه تأليف خاص ، والكرون والتأليف والامتزاج واقع بين الأرواح والنفوس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم العمل لتصفية نفسه ونفوس الاتباع ، فما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله ، وما فضل من ذلك وصل إلى نفوس الأمة ، وهكذا انتهى مع الأصحاب والاتباع على هذا المنع ، فلا يتخلف عن الزيادة والنوافل ، ولا يسترسل فى الشهوات والذوات إلا بدلالة نفس النفس ، ولا يطغى الاعتدال عنه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة ، وكل من يحتاج إلى صحة الجلوة للغير لابد له من خلوة صحيحة بالحق ، حتى تكون جلوة فى حماية خلوته . ومن يترامى له أن أوقاته كلها خلوة وأنه لا يحجب شيئاً وأن أوقاته بالله وقته ولا يرى نقصاناً لأن الله ما فطنه لحقيقة المزيد ، فهو صحيح فى حاله ، غير أنه تحت قصور ، لأنه مانبه لسياسة الجلبة وهو ما عرف سر ملك الاختيار ، ما وقف من البيان على البيضاء النقية . وقد تفلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه ، فقد يسميها الإنسان وبين عليها ، والاولى أن يغتنق إلى الله تعالى فى كل كلمة يسميها حتى يسميها الله من ذلك الصواب .

نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعتم المتفرقات ، واستوت الأحوال والإمكان ، وسقطت

روية القيد . ومثل هذا القول يوم أن لا يقي تمييز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ، ولم يفهم منه أن الغافل أراد بذلك معنى خاصا ، يعنى أن حفظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال ، وهذا صحيح ، لأن - حفظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التغير وتستوى الأحوال فيه ، ولكن حفظ المرید يتغير ويحتاج إلى التغير ، وليس في هذا السلام وأمثاله ما ينافي ما ذكرناه .

قيل لمحمد بن الفضل : حاجة العارفين إلى ماذا ؟ قال : حاجتهم إلى الخصلة التي تكلت بها المحاسن كلها أو أوصى الاستقامة ، وكل من كان أنتم معرفة كان أنتم استقامة ؛ فاستقامة أرباب الهبة على التمام ، والهدى في الابتداء مأخوذ في الأعمال محجوب بها عن الأحوال . وفي التوسط محفوظ بالأحوال فقد يحجب عن الأعمال . وفي النهاية لا تحجب الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال ، وذلك هو الفضل العظيم .

سئل الجنيد عن النهاية فقال : هي الرجوع إلى البداية ، وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال : معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل ، ثم وصل إلى المعرفة ، ثم رد إلى التحيير والجهل ، فهو كالطفولية ؛ يكون جهل ثم علم ثم جهل . قال الله تعالى (لكيلا يعلم بعد علم شيئا) .

وقال بعضهم : أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه . ويحوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه يبادئ الأعمال ، ثم يرقى إلى الأحوال ، ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال ، وهذا يكون للدينى المراد للمأخوذ في طريق المحبوبين تتجذب روحه إلى الحضرة الإلهية وتستمتع القلب ، والقلب يستمتع النفس ، والنفس تستمتع القلب ، فيكون بكنية قائما بالله ساجدا بين يدي الله تعالى ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سجد لك سوادى وخيالى ، وقال الله تعالى (والله يسجد من السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) والظلال القلوب تسجد بسجود الأرواح وعند ذلك تسرى روح المحبة في جميع أجزائهم وأبوابهم . فيتلذذون ويقدمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه بحبة وودا ، فيحسهم الله تعالى ويمحبهم إلى خلقه نعمة منه عليهم وفضلا ، على ما أخبرنا شيخنا ضياء الله بن أبي النجيب السهروردى رحمه الله قال أخبرنا أبو طالب الزينى ، قال أخبرتنا كريمة المروزية ، قال أخبرنا أبو الميثم الكشمينى ، قال أخبرنا أبو عبد الله القربرى ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخارى ، قال حدثنى إسحق ، قال حدثنا عبد الصمد ، قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل في السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض ، وبالله العون والعصمة والتوفيق .

ثم بمحمد الله المعيد المبدي

كتاب عوارف المعارف للإمام السهروردى

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس

ملحق كتاب علوم الدين

صفحة	محتوى	صفحة	محتوى
٢٦	فصل في بيان أصناف أهل الاعتقاد	١٣	كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء
٢٧	فصل لما كان الاعتقاد المجرد عن العلم	١٤	خطبة الكتاب
	بصحته ضعيفا وتقرده عن المعرفة	١٥	للقدمة في عنوان الكتاب
	قريبا إلخ	١٦	المقصد في فضل الكتاب وبعض
	بيان أرباب للرؤية الثالثة وهو توحيد	١٧	للدلائل والفناء من الأكابر عليه والجواب
	المقربين	١٨	عما استشكل منه وطلعن بسببه فيه
٣٠	بيان للرؤية الرابعة وهو توحيد العديدين	١٩	فصل فيمن أنى على الأحياء من
٣١	فصل في معنى إقضاء الرؤية كسر	٢٠	العلماء الأعلام
	وغير ذلك	٢١	فصل بيان للواضع التي استشكل
٣٢	فصل في معنى قاطع الطريق	٢٢	فيها على الأحياء والجواب عنها
	فصل في معنى فاسمع لما يوحى	٢٣	خاتمة في الإشارة إلى ترجمة الإمام
٣٥	فصل في معنى ولا يتخطى رقاب	٢٤	الغزالي وسبب رجوعه إلى طريقة
	الصديقين	٢٥	الصوفية رضي الله عنهم
	فصل في معنى انصراف السالك الناظر	٢٦	كتاب الإيملاء في إشكالات الإحياء
	بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى	٢٧	خطبة الكتاب
	فصل في معنى ليس في الإمكان أبدع	٢٨	ذكر مرادم الأسئلة في المثل
	من صورة هذا العالم إلخ	٢٩	مقدمة في الألفاظ المستعملة
٣٦	فصل في بيان أن خطاب العقلاء	٣٠	وصية لطالب العلوم والناظر في
	للجادات غير مستنكر	٣١	التصانيف وللمستشرق على كلام
٣٨	فصل في الفرق بين العلم المحسوس في عالم	٣٢	الناس وكتب الحكمة
	الملك وبين العلم الإلهي في عالم المسكوت	٣٣	ابتداء الأجوبة عن مرادم الأسئلة
	فصل في حد عالم الملك	٣٤	بيان مقام أهل النطق المجرد وتبميز
	فصل في معنى إن الله خلق آدم على صورته	٣٥	فرقهم
٣٩	سؤال في بيان معنى قول سهل رحمه الله	٣٦	فصل في بيان اللفظ للنبي عن التوحيد
	للألمية مرثوانا كشف لبطلات النبوات	٣٧	فصل في ما قلت لما الذي صد هؤلاء
	وللنبوات مرثوانا كشف لبطل العلم	٣٨	الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن
	والعلم مرثوانا كشف بطلت الأحكام	٣٩	النظر، والبحث حتى تعلموا، أو عن
٤٠	فصل في حكم هذه العلوم المكتوبة في	٤٠	الاعتقاد حتى تعلموا من عذاب الله إلخ
	الطلب، وسلوك هذه المقامات، ورفق	٤١	بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد
	هذه الدرجات، واستفهام هذه الخطابات		

صفحة	محتوى
٩٤	الباب الثامن عشر في القدوم من السفر ودخول الربط والأدب فيه
٩٧	الباب التاسع عشر في حال الصوفي المنسحب
١٠٠	الباب العشرون في ذكر من يأكل من الفتوح
١٠٤	الباب الحادي والعشرون في شرح حال المتجردو للتأهل من الصوفية ومهمة مقاصدهم
١٠٨	الباب الثاني والعشرون في القول في السماع
١١٤	الباب الثالث والعشرون في القول في السماع ردا وإنكارا
١١٥	الباب الرابع والعشرون في القول في السماع ترفعا واستغناء
١١٨	الباب الخامس والعشرون في القول في السماع تأديبا واعتناء
١٢١	الباب السادس والعشرون في خاصية الأربيلية التي يجمعها الصوفية
١٢٣	الباب السابع والعشرون في ذكر فتوح الأربيلية
١٢٧	الباب الثامن والعشرون كيفية الدخول في الأربيلية
١٣٠	الباب التاسع والعشرون أخلاق الصوفية
١٣٤	الباب الثلاثون في تفاصيل أخلاق الصوفية
١٤٩	الباب الحادي والثلاثون في ذكر الأدب ومكانه من التصوف
١٥١	الباب الثاني والثلاثون في آداب الحضرة الإلهية لأهل القرب
١٥٤	الباب الثالث والثلاثون في آداب الطهارة ومقدماتها
١٥٥	الباب الرابع والثلاثون في آداب الوضوء وأمراره
١٥٧	سنن الوضوء ثلاثة عشر
	الباب الخامس والثلاثون في آداب أهل
٤٠	فصل في شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز دون التصريحات ، وبالمشابه من الألفاظ دون المحسكات
	كتاب يعرف المعارف
٤٢	خطبة الكتاب
٤٤	الباب الأول في ذكر ملشأ علوم الصوفية
٤٧	الباب الثاني في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع
٥٢	الباب الثالث في بيان فضيلة علوم الصوفية والإشارات إلى أنموذج منها
٥٩	الباب الرابع في شرح حال الصوفية واختلاف طريقتهم
٦٢	الباب الخامس في ماهية التصوف
٦٤	الباب السادس في ذكر تسميتهم بهذا الاسم
٦٧	الباب السابع في ذكر للتصوف والمقابلة به
٦٩	الباب الثامن في ذكر الملامق وشرح حاله
٧١	الباب التاسع في ذكر من انضم إلى الصوفية وليس منهم
٧٣	الباب العاشر في شرح رتبة المشيخة
٧٦	الباب الحادي عشر في شرح حال الخادم ومن يشبهه به
٧٨	الباب الثاني عشر في شرح خرقه الصوفية
٨١	الباب الثالث عشر في فضيلة سكان الربط
٨٢	الباب الرابع عشر في مشابة أهل الربط بأهل الصفة
٨٤	الباب الخامس عشر في خصائص أهل الربط والصوفية فيما يختصون به
٨٧	الباب السادس عشر في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم في السفر والمقام
٩١	الباب السابع عشر في إجماع إليه الصوفي في سفره من الترائف والتضائل

مصحفة

مصحفة

المقصود من المصوفية في الرضوة

١٥٩ الباب السادس والثلاثون في فضيلة

الصلاة وكبر شأنها

١٦١ الباب السابع والثلاثون في وصف

صلاة أهل القرب

١٦٦ الباب الثامن والثلاثون في ذكر

آداب الصلاة وأسرارها

١٦٩ الباب التاسع والثلاثون في فضل

الصوم وحسن أثره

١٧٠ الباب الأربعون في اختلاف أحوال

المصوفية بالصوم والانقطاع

١٧٢ الباب الحادى والأربعون في آداب

الصوم ومهامه

١٧٤ الباب الثانى والأربعون في ذكر الطعام

وما فيه من المصلحة والمفسدة

١٧٦ الباب الثالث والأربعون في آداب الأكل

١٧٨ الباب الرابع والأربعون ذكر أدبهم

في اللباس وتبائهم ومقاصد فيه

١٨٢ الباب الخامس والأربعون في ذكر

فضل قيام الليل

١٨٣ الباب السادس والأربعون في ذكر

الاسباب للمعينة على قيام الليل وأدب النوم

١٨٥ الباب السابع والأربعون في أدب

الانتباه من النوم والعمل بالليل

١٨٧ الباب الثامن والأربعون في تقسيم

قيام الليل

١٨٩ الباب التاسع والأربعون في استقبال

النهار والادب فيه والعمل

١٩٣ الباب العشرون في ذكر العمل في جميع

النهار وتوزيع الاوقات

١٩٨ الباب الحادى والعشرون في آداب المرید

مع الشيخ

٢٠٣ الباب الثانى والعشرون في آداب الشيخ

وما يحمده مع الاصحاب والتلامذة

٢٠٦ الباب الثالث والعشرون في حقيقة

المصبة وما فيها من الخير والشر

٢٠٩ الباب الرابع والعشرون في أداه حقوق

المصبة والاخوة في الله تعالى

٢١٢ الباب الخامس والعشرون في آداب

المصبة والاخوة

٢١٤ الباب السادس والعشرون في معرفة

الإنسان نفسه ومكاشفات المصوفية

من ذلك

٢٢١ الباب السابع والعشرون في معرفة

الخواطر وتقصيلها وتمييزها

٢٢٥ الباب الثامن والعشرون في شرح الحال

والمقام والفرق بينهما

٢٢٧ الباب التاسع والعشرون في الاشارات

إلى المقامات على الاختصار والابجاز

٢٣١ الباب العشرون في ذكر إشارات المشايخ

في المقامات على الترتيب

٢٣٦ الباب الحادى والعشرون في ذكر

الاحوال وشرحها

٢٤٨ الباب الثانى والعشرون في شرح كلمات

مشيرة إلى بعض الاحوال في

اصطلاح المصوفية

٢٥١ الباب الثالث والعشرون في ذكر شي

من البدايات والنهايات ومصتها

